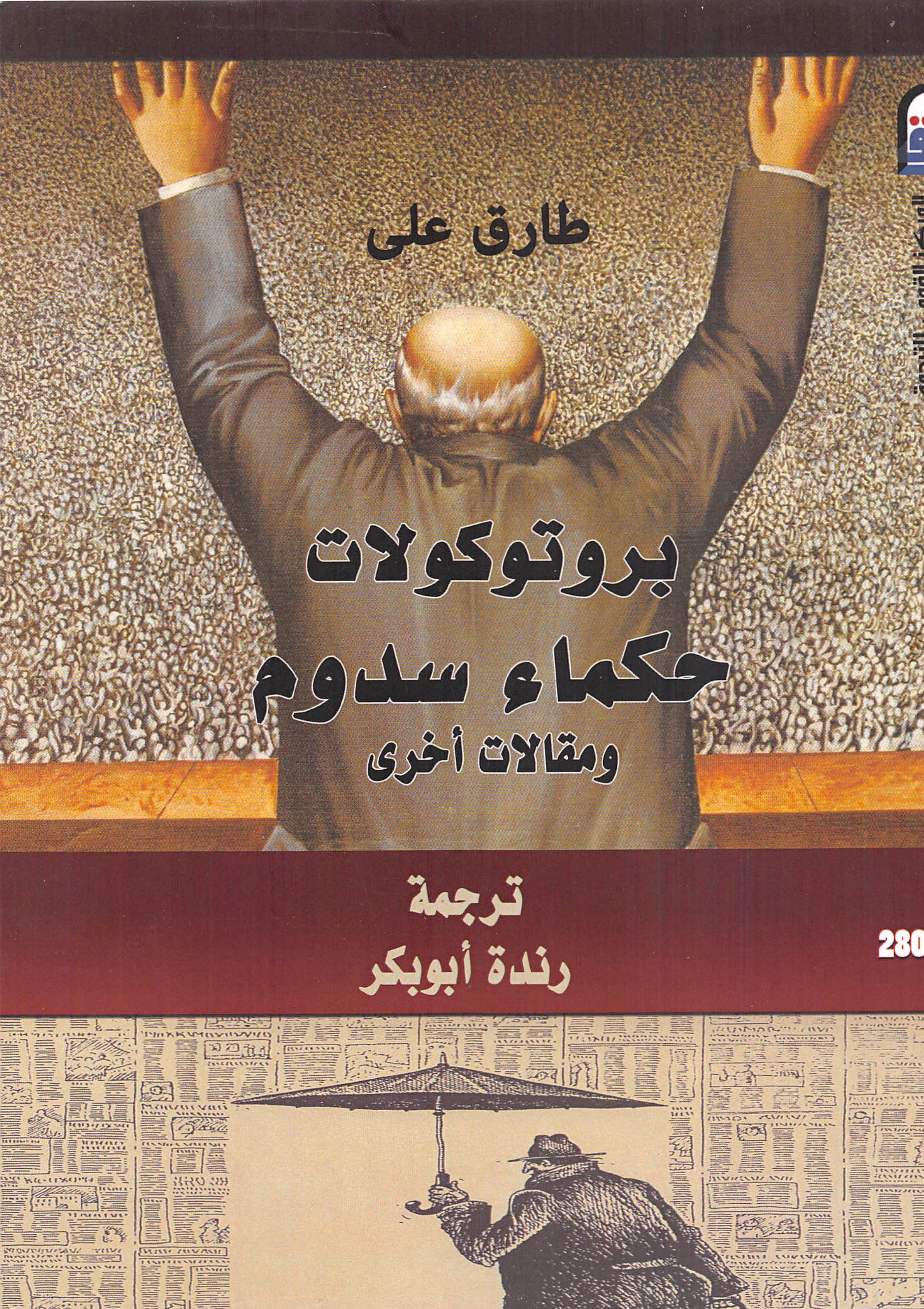
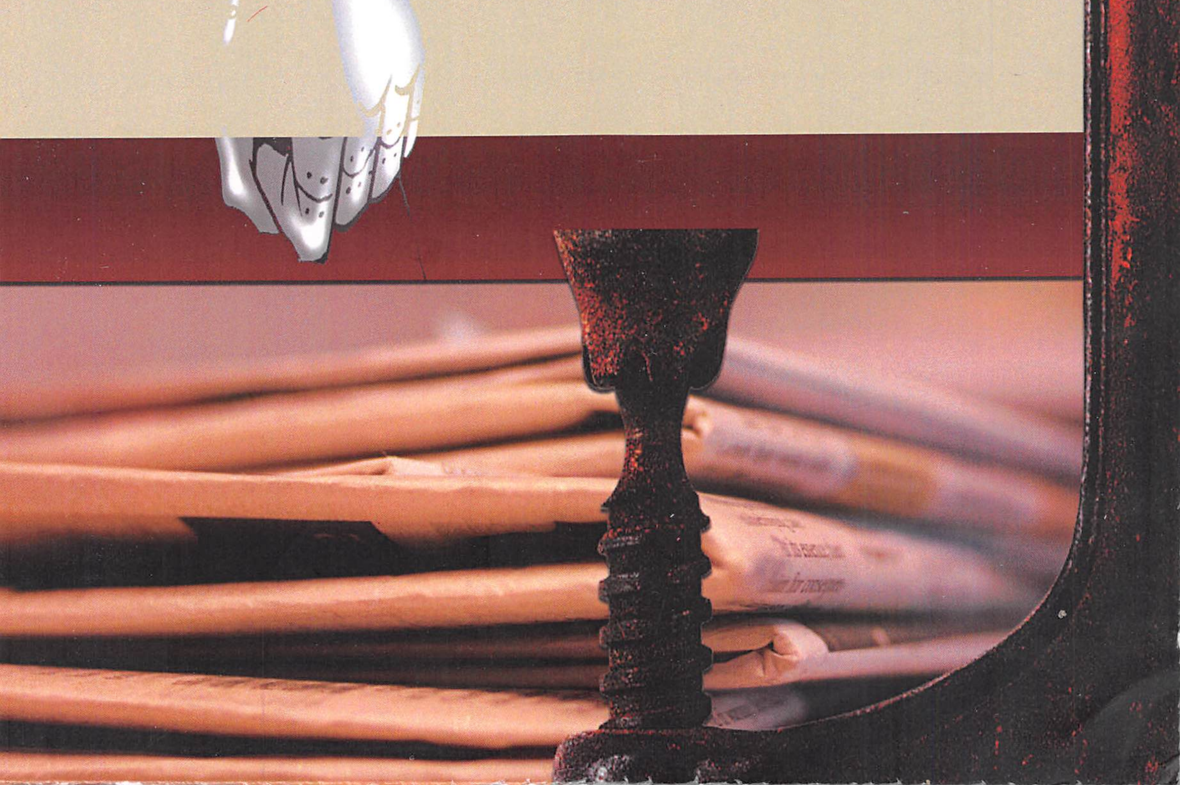

طارق على
بروتوكولات
حكماء سدوم
ومقالات أخرى
ترجمة
رندة أبوبكر
280

يضم هذا الكتاب مجموعة مقالات كتبها طارق علي خلال العقود الثلاثة الماضية. وفيها يتنوع أسلوبه على حسب الموضوعات التي يتناولها، ففي الجزء الأول منها- وهو بعنوان "السياسة والأدب"- يستخدم أسلوبًا مركبًا ولغة تجنح نحو العمق والتحليل، مما يتناسب مع الطبيعة الجدالية لتلك المجموعة من المقالات. أما في الجزء الثاني- وهو بعنوان "يوميات"- وفي الجزء الثالث أيضًا- وهو بعنوان "في رثاء الراحلين"- فنجد اللغة والأسلوب يجنحان أكثر نحو التأمل الشخصي والنزعة الغنائية. بصفة عامة تتميز لغة طارق علي بالتركيب والاعتماد على التورية وتعدد الإيحاءات، وهي في هذا لا تخلو من روح المرح والدعابة.



بروتوكولات حكماء سدوم
ومقالات أخرى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2807
- بروتوكولات حكماء سدوم ومقالات أخرى
- طارق على
- رندة أبو بكر
- الطبعة الأولى 2017

هذه ترجمة كتاب:
Protocols of the Elders of Sodom and other Essays
By : Tariq Ali

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

بروتوكولات حكماء سدوم ومقالات أخرى

تأليف : طارق علي
ترجمة : رندة أبو بكر



2017

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

على، طارق

بروتوكولات حكماء سدوم ومقالات أخرى/تأليف: طارق على؛

ترجمة: رندة أبو بكر - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٧

٣٤٤ص؛ ٢٤سم

١ - السياسة - مقالات ومحاضرات .

(أ) أبو بكر، رندة (مترجمة)

(ب) العنوان ٣٢٠,٤

رقم الإيداع / ٢٠١٥/١٤٣٢٦

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-62-0349-2

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

إلى بيتر جوان وفيليبا كولينز

سانشو بانزا ودون كيخوته،

آه، مع ثلة من سدوم،

يتذوقون العصير القاتل.

تخرج أفروديات من وسط الزَّبَد،

وتومض هيلينات فى المرايا،

ويدنو زمن الجنون.

أنّا أخمتوفا

تصدير

تشترك هذه المقالات فى رفضها للتقليل من أهمية الدور الذى تؤديه السياسة والتاريخ مقابل "الخطاب الأكاديمى"، الذى أصبح يسلك بصفة عامة خلال العقود الثلاثة الماضية اتجاهًا يجنح نحو تخدير العقول. وقد وجّه إعجاز أحمد على وجه التحديد فى كتاباته انتقادات لاذعة لمدى تأثير ما بعد الحداثة على المناقشات الدائرة حول الأدب والثقافة بصفة عامة. وفى الوقت ذاته قد تولدت خلال العقود الثلاثة ذاتها سردية وحيدة ومسيطرة تتمثل فى الرأسمالية العالمية، التى تحميها الأدوات الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية التابعة لمنظومة "إجماع واشنطن". وقد تعرّضت تلك التوليفة من العلاقات، والتى يؤدى فيها اتجاه ما بعد الحداثة فى المجال الأكاديمى دورًا بارزًا بتشجيعه العمى الأكاديمى، لهزة عنيفة نتيجة للأزمة الاقتصادية فى عام ٢٠٠٨؛ أما أحداث ١١ من سبتمبر وما تبعها من احتلال أفغانستان والعراق فقد كانت قد أوضحت لنا بالفعل صعوبة تجاهل التاريخ. كما أثبتت موجات التمرد التى شهدتها أمريكا الجنوبية وما نتج عنها من نجاحات انتخابية لليسار فى تلك المنطقة، وآخرها ما حدث فى باراجواى والسلفادور، أن السياسة تمر بعملية إعادة تشكيل. والآن فقد عاد الاقتصاد السياسى هو الآخر لينتقم، مما أدى إلى إحياء أفكار كانت تعتبر قديمة بل وحتى بالية لوقت طويل. وهنا رأيت الوقت مناسبًا لنشر هذه المقالات فى صورة كتاب قمت بكتابة المقالات الثلاث الأولى خصوصًا لهذا الكتاب، أما المقالات الأخرى فقد نُشر بعض منها فى مطبوعات مختلفة، منها بالأساس نيو ليفت ريفيو (The New Left Review) ولندن ريفيو أوف بوكس (Review of Books). كما نُشر بعض هذه المقالات فى صحف الجارديان والملحق الأدبى للتايمز ونيشن. كما دار ثلاث من المقابلات

المنشورة – مع سلمان رشدى، وفارجاس يوسا، وخوان جويتيسولو – فى معهد الفنون الحديثة بلندن، وخضعت لعمليات حذف وإعادة ترتيب مكثفة. ويستطيع المهتمون بمطالعة النسخ الكاملة العثور عليها ضمن وثائق متحف تايت بلندن. وأخيراً أود أن أتقدم بالشكر لكل العاملين فى دار نشر فيرزو بلندن ونيويورك، وأخص بالشكر لورنا سكوت فوكس التى حرصت على أن يخرج الكتاب فى الوقت المحدد.

طارق على

أبريل/ نيسان ٢٠٠٩

الجزء الأول

السياسة والأدب

١

بروتوكولات حكماء سَدوم

هناك جريمتان تستحقان العقاب بالموت – القتل واللواط. كم أود لو أننى أستطيع التحفظ على مرتكب أىٍ من هاتين الجريمتين حتى تسنح الفرصة لتسليمه سجينًا للسكان الأصليين فى نيوزيلاندا، وأدعهم يأكلونه. فسوف يكون الأثر المروع لهذا الفعل أكثر تأثيرًا من الخوف من الموت.

آرثر فيليب، أول حاكم لمستعمرة المجرمين على خليج سيدنى كوف، ١٧٨٨-١٧٩٢ .

كتب ستندال عبارته الشهيرة إن "السياسة فى العمل الأدبى مثل البندقية التى تطلق وسط حفل موسيقى– صوتٌ عال وسوقى، ولكن لا يسعك ألا تنتبه إليه."ينبغى ألا نأخذ هذه الجملة مأخذًا حرفيًا، فقد كانت أعمال ستندال ذاته معبأة برائحة البارود. كان هذا الكاتب الذى يعد أحد كبار الروائيين الفرنسيين ومن أكثرهم انشغالاً بالسياسة فى مرحلة ما بعد الثورة يقدم تسويغًا لكتاباته ويقلد ساخرًا النقاد والمثاليين الذين شيدوا حائطًا مصطنعًا يعزل السياسة عن الأدب[١]؛ فأحيانًا يجد حتى أكثر

(١) كان من الصعب حتى وقت قريب أن يستطيع الكتاب فعل ذلك. فعلى الرغم من أن معظم وسائل الإعلام ومشاهير "المفكرين" هناك كانوا يفضلون البقاء تحت عباءة الفكر الأنجلو – ساكسونى، تبقى فرنسا أكثر الدول الأوروبية التى يصعب التنبؤ بالتحولات السياسية فيها– وهو أمر اعترف به رئيس فرنسا ذاته حينما وجد نفسه فى مواجهة كارثة اقتصادية كادت تعصف بمنظومة "إجماع واشنطن".

الروائيين التزامًا بجماليات الكتابة أنه من الصعب أن يمنعوا أنفسهم من إطلاق بعض الأعيرة. أما كاتب مثل بروست فقد كان يستخدم كاتمًا للصوت.

عندما يعيد المرء قراءة الكتب التى يحبها بعد مرور عشرات السنين يجدها دائمًا تحمل له الكثير من المفاجآت. تتحدد القراءة الأولى بظروف حياة المرء وقت القراءة. والأمر صحيح كذلك بخصوص القراءات التالية. ولهذا نجد أن بعض ملامح رواية مثل البحث عن الزمن المفقود (Àla Recherche du Temps Perdu) تتخذ موقع الصدارة فى القرن الواحد والعشرين بعد أن نكون قد نسيناها فى عتمة الزمن. قد يأتينا الأدب أحيانًا مغلفًا بحجاب، ولكنه أبدًا لا يعيش منفصلاً عن العالم الذى يعيش فيه الكاتب ويحلم ويفكر ويكتب. أما ذلك الانفصال الذى يصر عليه بعضهم فلا يتعدى عادة مستوى الشكل. وحتى أكثر الكتاب عدمية وبعدًا عن السياسة يتبنون موقفًا سياسيًا، سواء كانوا واعين بذلك أم لا. هذا هو أحد العوامل التى تمنح الشكل القصصى معناه وأهميته الاجتماعية.

واليوم أقرأ الترجمة الجديدة التى أعدها جون ستاروك لرواية المدن الواقعة فى السهول (Cities of the Plain) للكاتب سكوت مونكريف، فتصيبنى بضع فقرات لم ألتفت إليها حين قرأتها أول مرة بالدهشة والحيرة. تعيدنا الترجمة إلى عنوان الرواية الأول (سدوم وعمورة – Sodom and Gomorrah) كما تعيد إبراز جمل ومعان لم تتضمنها الطبعات الأولى التى ظهرت بالإنجليزية، ربما لأسباب تتعلق بمراعاة الذوق العام وقتها. كان الذى لم ألتفت إليه فى قراءاتى الأولى هو ذلك الربط بين الصهيونية وفكرة اللواط. ولكن الأهم من الترجمة هو ذلك الإدراك الذى يأتى مع القراءة الثانية: إن الرواية ليست مجرد سرد عميق لعالم شديد التفاهة، بل إن الأمر أعمق بكثير. إنها رواية تحكى عن أزمات اجتماعية وسياسية وجنسية، عن حركات فنية، كما تحكى بطريقتها الخاصة عن جنود وحروب. وقد جاء الجنوح نحو تصوير التفاصيل تصويرًا تضخيميًا ضروريًا حتى يمكن كشف الستار عن عالم بأكمله.

قد كانت مثلية بروست الجنسية المتخفية السبب الرئيس وراء إحساسه بالقلق وغياب الأمان، على الأقل عندما كانت والدته على قيد الحياة. ثم تطورت تلك الرغبة الممزوجة بالشعور بالذنب لتصبح هاجسًا متسلطًا نتج عنه كره للذات، على المستوى الأدبى على الأقل. وهكذا تقدم الرواية وصفًا تفصيليًا لهؤلاء "اللواطيون" المشاهير

وتسجل عاداتهم وسلوكهم بدقة. ولكن وكما تخبرنا سيرة حياة بروست التى كتبها الكاتب المبدع جورج بانيتر، فقد جاءت الكثير من المواقف الجنسية التى وقع فيها البارون تشارلوس المسكين مستمدة من خبرات الكاتب الحياتية الخاصة. وعلى الرغم من كل هذا، فإنه لم يستطع حتى هذا الروائى على الرغم من حرصه الشديد على الجوانب الأدبية فى أعماله أن يتجاهل الانفجار الذى هز أرجاء فرنسا متمثلاً فى "قضية دريفوس"، التى قسمت المجتمع الفرنسى، وأطلقت موجة عارمة من المعاداة لسامية كان لها تأثير كبير على الحياة فى حى فوبورج سان جيرمان. ويمكن لأى قارئ أن يستشف هذا من قراءة أولية سريعة للرواية.

كانت التعبيرات العابرة عن مشاعر العداء للسامية أمرًا مألوفًا فى ذلك الوقت، وكانت منتشرة فى كل الطبقات. وعلى الرغم من أن أم بروست كانت يهودية، فإنه يصعب القول: إن بروست لم يتأثر بتلك النزعة المعادية للسامية، ذلك أنه كان يحرص كل الحرص على أن ينأى بنفسه عن الصورة النمطية لليهودى، كما كان الحال مع مثليته الجنسية، حتى يضمن ألا يتهدد اندماجه الكامل داخل المجتمع الفرنسى – وهو الأمر الذى كان يتوق إليه بشدة. وعادة ما تتطلب كافة أنواع الاندماج هروبًا من هوية عرقية أو دينية أو سياسية سابقة.

يمكن أن تفسر تلك الرغبة فى الاندماج وإرضاء أصدقائه من الطبقة العليا بعضَ الفقرات غير المقبولة فى الكتاب، مثل ذلك الوصف السخيف الذى يصف به سوان – تلك الشخصية التى تتشابه مع شخص كان بروست يكن له الكثير من الإعجاب وتعلم منه الكثير من قواعد اللياقة اللازمة لكى يستطيع الدخول إلى صالونات فوبورج المنشودة.

يقول بروست: إن أنف "سوان بونشينيللو، والذى استقر لأعوام طويلة على وجهه اللطيف، يبدو الآن ضخما، متورمًا، قرمزيًا أقرب إلى أنف يهودى مسن، منه إلى أنف أرستقراطى مدّعٍ "ثم. يمضى بروست قائلاً: إنه "ربما صار النمط الشكلى المميز للعرق

الذى ينتمى إليه سوان أكثر وضوحًا مؤخرًا، مثلما أصبح شعوره بالتكاتف المعنوى مع باقى اليهود الذى يبدو أن سوان كان قد نسيه طوال حياته، ثم لتعيده للحياة حوادث متتالية مثل مرضه الذى لا شفاء منه، وقضية دريفوس والدعاية المعادية للسامية التى انتشرت مؤخرًا ...".

وهنا أيضًا يكتب بروست إلى حد ما عن نفسه، مثلما يفعل فى أجزاء الرواية التى تتناول المثلية الجنسية. لقد جعلته موجة العداء للسامية التى انتشرت فى فوبورج يشعر بالتهديد؛ حيث استقطبت قضية درايفوس فرنسا إلى فصيلين واضحين: يمين فى أغلبه معادٍ للسامية وداعم للملكية، ويسار كوزموبوليتانى جمهورى[٢] وقد شعر بروست بالصدمة والاشمئزاز جراء سماعه دون قصد لحديث فى أحد الصالونات الفخمة جعله يفهم - ربما لأول مرة - مدى تأصل ذلك العداء المستشرى فى الطبقات العليا من المجتمع الفرنسى (على الرغم من تصوير بروست لشخصيات مثل الأمير ودوق جورمانت كمساندين لدرايفوس، فقد جاءت هذه الشخصيات بمثابة الأقلية الرمزية).

لم يقتصر العداء لليهود على أصدقاء بروست، إذ تركت موجة العداء للسامية الضخمة فى فرنسا تأثيرًا كبيرًا على تيودور هيرتسل الذى أصبح بعد ذلك الأب المؤسس للحركة الصهيونية. فقد أصيب هيرتسل بصدمة بالغة جراء الموجة العنصرية التى شهدها فى باريس أثناء عمله مراسلاً لجريدة نويا فرايا بريسا الليبرالية فى ذلك الوقت، التى كانت تصدر فى فيينا، كما تأثر كثيرًا بالعنف المصاحب لهذه الموجة والذى كان دائمًا كامنًا بالقرب من السطح. كان هيرتسل حتى ذلك الوقت متشككًا تجاه فكرة الصهيونية. فقد كتب قبل حدوث قضية درايفوس بعامين فى تعليق على أحد الكتب قبل حدوث قضية درايفوس بعامين قائلاً:

> **يرغب دانيال اليهودى الطيب فى استعادة وطنه الضائع ولمّ شمل إخوته المتشتتين من جديد... ولكن فى الحقيقة على هذا اليهودى أن يعى أنه لا يقدم لأهله وعشيرته معروفًا بإعادتهم**

(٢) فى عام ١٨٩٥ واجه الضابط اليهودى ألفريد دريفوس اتهامًا باطلاً بالتجسس وتم تجريده من رتبته علنًا فى مراسم مهينة، بينما كان الغوغاء المنتمون للفكر اليمينى يهتفون: "الموت لليهود".

لموطنهم القديم... فحتى لو عاد اليهود بالفعل، فسوف يكتشفون في اليوم التالي مباشرة أن الذي يجمعهم ليس كثيرًا. لقد ضربت جذورهم لقرون عدة في بلاد جديدة، حيث فقدوا إحساسهم ببلادهم الأولى، وتخالفوا حتى أصبح التشابه البسيط الذي يميزهم لا يرجع سوى للقهر الذي تعرضوا له في كل مكان[٣].

ولكن المعاناة التي وقع فيها الكابتن درايفوس المسكين أجبرت هيرتسل على إعادة تقييم موقفه، أو هكذا قال في كتاباته. وعلى الرغم من أن بروست لم يكن منخرطًا في حملة الدفاع عن درايفوس مثلما كان زميله الكاتب إميل زولا، فإنه قد كان مؤيدًا وفيًا لدرايفوس؛ حيث كانت الغيوم قد انقشعت ووجد نفسه وسط حملة سياسية هادرة ومثيرة للجدل، مما اضطره إلى إعادة التفكير في الأمور بصورة جديدة عليه.

وعلى الرغم من أن بروست لم يكن من المتعاطفين مع الصهيونية، فإنه سرعان ما استشف تشابهًا ما. تنقلت أفكار بروست من قصة إسرائيل إلى قصة سدوم وعمورة في الكتاب المقدس المدينتين اللتين جاءتا لتمثلا أوكار الرذيلة. كان بروست يرى أن الرب كان ينبغي أن يسند مهمة تحديد من يسمح له بترك المدينة قبل تدميرها لشخص مثليّ - لأن المثليّ هو الوحيد الذي كان سيدرك من هم الذين يدّعون غير المثلية، ومن ثم ستكون له القدرة على الإشراف على الحل النهائي المفترض "للواط":

لم يكن لهذا الشخص أن ينساق لنزعة خيرة تجعله يخفف العقاب، أو يترك الأعذار تلين قلبه: "أنا أب لستة أبناء وعندي عشيقتان، إلخ. "كان سيجيب وقتها قائلاً: "نعم، وتعاني زوجتك من عذابات الغيرة. ولكن حتى لو لم تختر أنت هاتين المرأتين في عمورة [يرى بروست والشاعر ألفريد دي فيني أن عمورة كانت بمنزلة الملاذ للمثليات]، فقد كنت تقضي لياليك مع حارس

(٣) يجابه جابريل بيتربيرج في كتابه المثير والمهم بعنوان: عودة الصهيونية The Return of Zionism (لندن ونيويورك: فيرسو، ٢٠٠٨) رواية هيرتسل ويرى مقولة: إن قضية دريفوس هي التي دفعت هيرتسيل إلى تبني المنحى الآخر، في حد ذاتها أسطورة مصاغة بمهارة.

للقطعان آت من الخليل". وكان سيجعله يرجع أدراجه في الحال ويذهب إلى البلدة التي على وشك أن تدمرها النار والكبريت المصهور.

ويحذر الكاتب في الفقرة نفسها أن الأرض الآن يملؤها نسل هؤلاء الذين كذبوا لكي يهربوا من سدوم، وأنهم الآن يُؤسسون في كل دولة مستعمرة شرقية، مثقفة، محبة للموسيقى، افترائية، تتميز بفضائل جذابة ونقائص لا تحتمل". ويعبر بروست عن قلقه من أن هؤلاء اللواطيين قد يعيدوا تنظيم أنفسهم، ولهذا فقد "أراد أن يحول دون وقوع الخطأ القاتل الذي سوف يؤدي إلى خلق حركة سدوم؛ ومن ثم إعادة بناء سدوم، تماماً كما شجعت ظروف مشابهة قيام الحركة الصهيونية"(٤).

أجدني لا أتفق مع بروست هنا.

جاءت الذكرى الستون لتأسيس دولة إسرائيل في عام ٢٠٠٨، ذلك الكيان الذي يبرر وجوده وتوسعه الإرهابي بتبجح مستخدماً الجغرافيا السياسية المستقاة من أول نص مكتوب على طريقة الواقعية السحرية، والمعروف أيضاً باسم العهد القديم- تلك الرؤية التي تقبلتها النخب في الغرب دون نقد وتدقيق، وهي النخب ذاتها التي كان أسلافهم المسيحيون يعتبرون اليهود في المقام الأول قتلة المسيح. ألم يحن الوقت إذاً لقبائل أخرى جاءت قصص معاناتها مسجلة في الكتب الخمسة ذاتها أن تطالب بحقوقها المشروعة؟ لماذا نحرم أهل سدوم مما نمنحه للصهاينة؟ يعتبر بعضهم العهد القديم بمثابة السجل الذي يسرد تاريخ القبائل اليهودية (شكك باروخ سبينوتسا في هذا الرأي في القرن السابع عشر قائلاً: إن تلك الحكايات ما هي إلا أقاصيص خرافية، وهو ما حدا بالمؤسسة الدينية اليهودية إلى عزله من عضويتها). ولكننا مواطني سدوم وعمورة نرى أن العهد القديم يعكف على التشهير؛ أي إنه يمكن تسميته بروتوكولات حكماء سدوم: قصة زائفة عن تدمير جماعات قبلية بسبب مقاومتها لتسلط الديانات الإبراهيمية.

(4) Marcel Proust, Sodom and Gomorrah, trans. John Sturrock, London: Penguin Classics, 2002, 34-36.

وقد جاء عام ٢٠٠٨ كذكرى مؤلمة أخرى لإحدى قصص الكتاب المقدس. فمنذ ثلاثة وخمسمائة عام، أو ربما أربعة آلاف وخمسمائة عام (ليس مهمّا)، دمرت النار والكبريت المنصهر المدينتين الواقعتين فى السهول، سدوم وعمورة. تأتى القصة مباشرة وواضحة فى العهد القديم؛ حيث أُرسل ملكان حسنا المظهر إلى سدوم للإشراف على إخلاء غير المثليين- ومن أبرزهم لوط ابن أخى إبراهيم حارس بوابة المعبد الذى كان يعيش وأسرته بعيدًا- قبل أن يتنزل غضب السماء على المدينة الشريرة وتوأمتها مدينة عمورة. ويصف سفر "التكوين" الأحداث التى سبقت تدمير سدوم كما يلى:

فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ.

وَقَالَ: "يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا". فَقَالاَ: "لاَ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ".

فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ.

وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا.

فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: "أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا".

فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ

وَقَالَ: "لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي.

هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا

كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي".

فَقَالُوا: "ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ"(٥).

ليس لدينا ثمة دليل من التاريخ يفضى بأن مواطنى سدوم قد ساهموا فى الإسراع بوتيرة التدمير بعدما علموا بخبر قدوم جاسوسين شابين حسنى المظهر إلى المدينة، بأن حاصروا بيت لوط مهددين باغتصاب الملكين اغتصاباً جماعيّاً. ولكن دعونا نقبل هذا الطرح كما هو. حقيقة الأمر أنه إما الملكان كانا يسلكان بلؤم سلوكًا مثيرًا للإغراء، موحيان أنهما سوف ينامان ليلتهما فى ساحة المدينة وليس فى بيت ما، أو أنهما كانا على علم بأن الدعاية الذائعة عن أهل سدوم لم تكن حقيقية مما جعلهما يشعران بالأمان. وقد رفض أهل سدوم الغاضبون العرض السخى الذى قدمه لهم لوط بعرض ابنتيه العذراوين عليهم بدلاً من الملكين. ولكن، ما الذى جعل لوط يقدم ابنتيه لو كان على علم بأنهم جميعًا مثليين؟

من الأكثر ترجيحًا أنه فى تلك الفترة التى شاعت فيها الحروب بين القبائل كان أهل سدوم متشككين فى لوط (ولهم الحق فى ذلك)؛ لأنهم كانوا يعرفون اتصاله بأعدائهم، وهو الأمر الذى حدا بهم للذهاب لمقابلة هذين الغريبين النازلين بمنزل لوط واستجوابهما بأنفسهم، وهو مطلب منطقى للغاية. أما الملكان فقد رفضا منح أى مخلوق حق التفتيش، ذلك أنهما كانا يعملان وفقًا لتعليمات مسبقة؛ بل وأسرعا بالحل النهائى "لقضية سدوم" بأن استنزلوا النار والكبريت المنصهر. حتى إبراهيم الشيخ الكبير فقد تمتم بأن العقاب كان مبالغًا فيه، ولكن ياهوه أسكته.

تقول بعض التفسيرات: إن أهل سدوم كانوا من طائفة الأسينيين؛ التى تعد أنقى الطوائف اليهودية عرقًا قاطبة؛ نظرًا إلى اتباعها التبتل والقدرة على كبح جماح النفس، كما يرى المؤرخ اليهودى القديم يوسيفوس. ولد فلافيوس يوسيفوس بفلسطين فى العام ٣٧ قبل الميلاد باسم يوسف بن ماتياس وهو العام نفسه الذى اعتلى فيه كاليجولا

---

(5) The Five Books of Moses, trans. Robert Alter, New York: W. W. Norton and Co., 2004, 91-97.

العرش. وقد خدم يوسيفوس فى جيش الاحتلال الرومانى، ثم أصبح حاكمًا لبلدة الخليل، ثم تزوج بعدها زواجًا ثانيًا من امرأة لديها إرث كبير. ثم تفرغ بعدها لكتابة التاريخ. وقد كتب يوسيفوس تاريخ تلك الحروب تقريبًا فى الوقت ذاته الذى كُتب فيه إنجيلا متى ومرقص. وتقدم لنا الفقرة التى يبدأ بها يوسيفوس الفصل المعنون: "الطوائف اليهودية" رؤية مشوقة لطبيعة الحياة القبلية، إلى جانب بعض الإشارات إلى المعتقدات الشيوعية البدائية التى كان يعتنقها أهل سدوم أو الأسينيين:

> **هناك مدارس فكرية ثلاث عند اليهود، يسمى أتباعها بالترتيب الفريسيون، والصدوقيون، والأسينيون. يتبع المذهب الأسينى نظامًا صارمًا: فأتباعه يهود بحكم المولد يرتبطون ببعضهم البعض بصورة مميزة. وهم يرفضون اقتفاء المتعة معتبرين ذلك رذيلة، كما أنهم يعدون الاعتدال والتحكم فى الغرائز من الفضائل. ولأنهم ينبذون فكرة الزواج، فتجدهم يختارون أبناء رجال آخرين وهم ما زالوا فى سن تسمح بتعليمهم وتطويعهم، ويشكلونهم على شاكلتهم - وهذا لا يعنى أنهم يريدون الاستغناء عن الزواج كوسيلة لضمان استمرار النوع، ولكنهم يخشون انفلات النساء ويعتقدون أن ما من امرأة تبقى مخلصة لرجل واحد. ولأنهم ينبذون المال... نجدهم يضعون القواعد التى تلزم أى مستجد يدخل الطائفة بالتخلى عن ممتلكاته لصالح الجماعة، حتى لا يصبح للفقر المهين ولا الثراء الفاحش وجود بينهم. تذهب ممتلكات الجميع إلى الصندوق العام وتصبح ممتلكات عامة لهم جميعًا كما هو الحال مع الإخوة فى الأسرة الواحدة... ويتم انتخاب الرجال الذين يضطلعون بشئون المجتمع المحلى بعدد الأصوات[٦].**

(6) Josephus, The Jewish War, trans. G. A. Williamson, London: Penguin, 1959, 125.

ولا يستبعد يوسيفوس بطبيعة الحال أن الأسينيين كانوا يتقبلون المثلية الجنسية، بل يشجعون عليها وربما كان يرى فى ذلك ضربًا من ضروب الحياة الحديثة المتحضرة بعدما قضى فى روما بعض الوقت.

على أية حال، لا يُبْقِى كتابُ العهد القديم سوى على الرواية التى تبناها إبراهيم ومن أتوا بعده، والتى تقول: إن الملكين الذين كانا يتحركان نيابة عن الله وشعبه المختار قد أنقذا لوطًا وأسرته وعددًا صغيرًا من غير المثليين مذكريهم بضرورة ترك الشر وراءهم إلى الأبد وألا ينظروا خلفهم نحو النار والكبريت المنصهر وهما يلتهمان المدينة. دائمًا ما يشكل الشهود خطرًا ما. فقد عصت زوجة لوط (مثلما فعل أورفيوس فى الأساطير الإغريقية) الأمر الإلهى فتحولت إلى عمود من الملح، الذى لا بد أن تهاوى لاحقًا متسببًا فى تلوث أكبر للبيئة فى البحر الميت.

وتورد الرواية كذلك أن لوطًا - الذى لم يكن راضيًا كلية عن تحول زوجته المادى إلى ملح - آوى إلى كهف فى التلال هو وابنتاه العذراوان اللتان تجاهلتا الحظر على زنا المحارم وأفرطا فى تقديم الشراب لأبيهما ثم شرعا فى ممارسة الجنس معه. يقول سفر التكوين (١٩: ٣١-٣٦):

> **وَصَعِدَ لُوطٌ مِنْ صُوغَرَ وَسَكَنَ فِي الْجَبَلِ، وَابْنَتَاهُ مَعَهُ، لأَنَّهُ خَافَ أَنْ يَسْكُنَ فِي صُوغَرَ. فَسَكَنَ فِي الْمَغَارَةِ هُوَ وَابْنَتَاهُ.**
>
> **وَقَالَتِ الْبِكْرُ لِلصَّغِيرَةِ: "أَبُونَا قَدْ شَاخَ، وَلَيْسَ فِي الأَرْضِ رَجُلٌ لِيَدْخُلَ عَلَيْنَا كَعَادَةِ كُلِّ الأَرْضِ.**
>
> **هَلُمَّ نَسْقِي أَبَانَا خَمْرًا وَنَضْطَجِعُ مَعَهُ، فَنُحْيِي مِنْ أَبِينَا نَسْلاً".**
>
> **فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَدَخَلَتِ الْبِكْرُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَ أَبِيهَا، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا.**

وَحَدَثَ فِي الْغَدِ أَنَّ الْبِكْرَ قَالَتْ لِلصَّغِيرَةِ: "إِنِّي قَدِ اضْطَجَعْتُ الْبَارِحَةَ مَعَ أَبِي. نَسْقِيهِ خَمْرًا اللَّيْلَةَ أَيْضًا فَادْخُلِي اضْطَجِعِي مَعَهُ، فَنُحْيِيَ مِنْ أَبِينَا نَسْلاً".

فَسَقَتَا أَبَاهُمَا خَمْرًا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ أَيْضًا، وَقَامَتِ الصَّغِيرَةُ وَاضْطَجَعَتْ مَعَهُ، وَلَمْ يَعْلَمْ بِاضْطِجَاعِهَا وَلاَ بِقِيَامِهَا،

فَحَبِلَتِ ابْنَتَا لُوطٍ مِنْ أَبِيهِمَا.

فَوَلَدَتِ الْبِكْرُ ابْنًا وَدَعَتِ اسْمَهُ "مُوآبَ"، وَهُوَ أَبُو الْمُوآبِيِّينَ إِلَى الْيَوْمِ.

أسكرت الخمر لوطًا حتى أفقدته وعيه، القصة بالتأكيد لا توحى بالاغتصاب، ولكن بأن الفتاتين كانتا البادئتين. لماذا فعلت الفتاتان فعلتيهما تلك؟ لا يمكن أن تكون الفتاتان قد شعرتا بالرضا كون الأب كان على استعداد لتقديمهما كقرابين لأهل سدوم حتى ولو كانتا على يقين أنهما فى مأمن من ذلك النوع من الرجال. هل اعتبر لوط ما فعلتاه به ضربًا من العقاب؟ يشوقنا سفر التكوين بألا يوضح مثل هذه الأمور، مما يجعل أية استنتاجات أخرى غير مجدية. ولكن من السهل أن تجعلنا هذه الرواية نستنتج أن الفسوق الجنسى كان شائعًا، إذ إن كلتا الفتاتين أنجبت أولادًا وحفدة أصحاء معافين: أمّون ومواب، اللذين أسسا قبائل رفضت فيما بعد العقائد الكنعانية (اليهودية الأرثوذوكسية). لماذا يلوث كتّاب العهد القديم سمعة لوط بهذه الصورة الانتقامية؟ ما من سبب سوى أن الأمر ناتج عن نزاعات فصائلية كانت تدور بين يعقوب ولوط حول الأرض والأغنام، خرج منها لوط خاسراً، والتاريخ كما نعرف جيداً يكتبه المنتصرون.

هل ندم لوط على حماقته التى جعلته يتحدى عمه إبراهيم؟ ألم يكن من الأفضل له الانحياز لمواطنى سدوم وعمورة وتحذيرهم من العقاب الوشيك، منقذاً بذلك سكان المدينة بأسرها من النار والكبريت المنصهر؟ ربما كان ذلك سيسبب الحزن لبروست

بعد عدة قرون، ولكنه كان سيضمن للوط مكانًا دائمًا فى التاريخ مانحًا إياه لقب خوسيه مارتى سدوم. والآن من ذا الذى يتذكره سوى دارسى الكتاب المقدس؟

أما الأناجيل فتأتى أقل حدة فيما يتعلق بهذه القصة. ولو اتبعنا ما قاله مورتون سميث أستاذ التاريخ القديم الراحل بجامعة كولمبيا، فقد نجد سببًا لهذه النبرة اللطيفة. يذهب سميث، ويوافقه باحثون كثيرون، إلى وجود نسخة سرية من إنجيل القديس مرقص استمر وجودها إلى عدة سنوات بعد موت المسيح؛ حيث اكتشف سميث إشارة إليها فى وثيقة يعود تاريخها إلى عام ٢٠٠ بعد ميلاد المسيح. وكان كاتب هذه الوثيقة مفكرًا كنسيًا كان فى زمنه يحظى بالاحترام يدعى كليمينت الإسكندرى. وقد ظلت الوثيقة التى عثر عليها سميث مختبئة فى دير قديم فى القدس. وتذكر الوثيقة أن طائفة غنوسية تسمى الطائفة القربوقراطية يعود تاريخها إلى القرن الثانى بعد الميلاد كانت تتبادل ذلك الإنجيل السرى وتستخدمه لأغراض صالحة. وقد كانت تلك الطائفة تؤمن بيسوع نبيًا له تقديره السماوى، ولكنهم كذلك كانوا يتدارسون فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو. وقد استخدموا مواد من ذلك الإنجيل السرى ليصوغوا طروحاتهم القائلة: إن يسوع قد أعلن نهاية كل القوانين والنواهى وإنه أخبر أتباعه أنهم أحرار، بل إن بإمكانهم الحصول على العتق بأن يأتوا أفعالاً كان من الصعب فى الماضى مجرد التحدث عنها جراء المحاذير التى يضعها العهد القديم.

كان كليمينت، كما هو متوقع، ناقدًا لاذعًا للقربوقراطيين وطائفته و"تعاليمهم الشنعاء". وقد ساق فقرة من الإنجيل السرى تقول: إن يسوع بعد أن أعاد مراهقًا ثريًا من أهل العيزرية إلى الحياة من بين الأموات، نشأت صداقة بينهما. يقول كليمينت مقتبسًا فقرات من ذلك الإنجيل: "دله يسوع بعد مرور ستة أيام على ما ينبغى أن يفعل، فجاء الشاب فى المساء إليه مرتديًا غلالة قطنية فوق جسده العارى. ومكث معه تلك الليلة؛ حيث أخبره يسوع عن أسرار مملكة الله. وبعدها نهض الفتى وعاد إلى الضفة الأخرى لنهر الأردن". من المرجح أن هذا الفتى كان يعيش فى قرية قريبة من

معقل الأسينيين بالقرب من أطلال مدينة سدوم القديمة. وفى فقرة أخرى يذكر أهل قربوقراط أنه حين قدم الجنود الرومان للقبض على المسيح فى بستان جشيمانى كان عــاريًا فى صــحبــة رجل آخــر. من الصــعب هنا الخــروج باســتنتــاجــات، ولم ير القربوقراطيون ما يسىء فى ذلك، بل ربما يكونون أول جماعة مسيحية تنادى بحقوق المثليين فى التاريخ. وفى الوقت ذاته فقد لفظتهم العقيدة الأورثوذوكسية (يأتى تناول إريناو لهم شديد الحدة)، ولكن ذلك متوقع.

يضج عالمنا بالصيحات المناهضة للمثليين، كما يشهد فى فترات متكررة تأجج الكثير من الانحيازات الكامنة. كتب جور فيدال فى عام ١٩٨١ مقالاً بعنوان: "المثلث القرنفلى والنجمة الصفراء" يعارض فيه ما ذكرته ميدج ديكتور إحدى الكتابات المنتميات إلى تيار المحافظين الجدد من مقالة ساخرة تنم عن كرهها للمثليين. وكانت ديكتور قد استخدمت لغة ليست بعيدة عن تلك المستخدمة فى الهجوم على اليهود، وتستخدم حاليًا فى الهجوم على المسلمين، فى مقالة نشرت فى مجلة كومينتارى بعنوان :"صبية على الشاطئ". كتب فيدال قائلاً:

> **تتفوق مقالة "صبية على الشاطئ" فى حيويتها على كتاب بروتوكولات حكماء صهيون (Protocols of the Elders of Zion) الذى يمكن اعتباره المثال الذى تقلده ... فبما أن المثليين يقررون أن يكونوا على تلك الشاكلة بسبب نزعاتهم الحاقدة، يأتى السماح لهم بالخروج والإعلان عن أنفسهم بهذا الشكل خطأً كبيرًا. ولكن بما أنهم أعلنوا عن أنفسهم بالفعل (على الرغم من أن معظمهم لم يفعلوا ذلك حتى الآن)، فما من خيار لديهم سوى مواجهة طبيعتهم الشاذة الكريهة، لقتل أنفسهم بالفسق والمخدرات والنزعات السادية المازوخية والانتحار... حتى مؤلفى بروتوكولات حكماء صهيون لم يقولوا: إن اليهود، الذين كانوا**

يعدونهم أناسًا كريهين، كانوا كريهين أمام أنفسه. وعليه فقد نجحت ميدج ديكتور فى التفوق عليهم... إنها بحق مايسترو للكراهية، ومن هنا تبدأ المذبحة...

وبعد سبعة وعشرين عامًا من كتابة هذا المقال أعلن رئيس إيران خلال زيارته للولايات المتحدة أنه بما أنه لا وجود للمثليين فى دولته، فإن اضطهادهم غير ممكن، وهو ما يعد تزييفًا واضحًا للحقائق، إذ عليه هو شخصيًا أن يعلم أن نظامه لم ينجح فى القضاء عليهم، على الرغم من عمليات الإعدام التى تلت النجاح الذى حققه رجال الدين قبل ثلاثين عامًا. وفى ديسمبر من عام ٢٠٠٨، أعلن البابا بنديكت القادم من بافاريا أن الحفاظ على البشرية من مغبة سلوك المثليين أو سلوك متحولى الهوية الجنسية يأتى مساويًا فى أهميته للحفاظ على البيئة. بمعنى آخر فإن التغير المناخى والتغير الجنسى لهما العواقب الكارثية نفسها. وقد صرح أتباع البابا فى الفاتيكان فى الوقت نفسه بأن قرار الأمم المتحدة بعدم تجريم المثلية قد تعدى الحدود المقبولة. هذان مثالان فقط، ولكن من السهل إيجاد المئات على شاكلتهما.

لقد جاء التاريخ فى القرون الثلاثة الماضية، وحتى لا نعود أبعد من ذلك، موضحًا الاضطهاد الدؤوب والممنهج الذى تعرض له المثليين فى العالم المسيحى. وقد أعاد الإسلام استخدام التفسيرات والتوصيات التى جاء بهم العهد القديم دون تعديلات تذكر، وهو أمر متوقع لو أننا أخذنا فى الحسبان أن الكتابين صادران عن المؤلف نفسه(٧).

ولم يجئ اضطهاد الرايخ الثالث للمثليين مساويًا فى مداه للتطهير العرقى الذى طال اليهود. وعلى الرغم من ذلك فإنه قد أرسل ٥٠ ألفًا من المثليين إلى السجون ومعسكرات الاعتقال خلال فترة الحكم النازى. ومن الحمق أن نتجاهل حقيقة وجود السجناء الذين أرغموا على ارتداء المثلث الوردى أو أن نقلل من شأن القمع الذى تعرضوا له لمجرد أن بعض قيادات وحراس السجن كان لهم التوجه نفسه. وقد تعرض

---

(٧) على الرغم من هذا، فإنه لم يشهد العالم الإسلامى الكثير من العقوبات فى هذا الشأن على مدار تاريخه، فقد أعدم خومينى وجلادوه عدة مئات من المثليين خلال العام الأول من حكم الملالى. ولم يكتب فوكو، أحد أنصار آية الله أى شىء عن هذا الجانب من سياسات الأخير الاجتماعية.

وفد يضم فى معظمه نشطاء أمريكيين مثليين للتحرش من قبل بعض اليهود الناجين من الهولوكوست أثناء زيارة الوفد لمتحف الهولوكوست التذكارى بمدينة القدس فى عام ١٩٩٤ لتكريم ضحايا الهولوكوست؛ حيث اضطرت السلطات إلى تكبيل بعض منهم حتى يمتنعوا من مهاجمة أعضاء الوفد(٨).

فى الحقيقة، لن تنمحى قضية سدوم. فقد صار ضرورياً إقامة دولة سدومية أو ما يمكن أن يسمى سدومستان فى المنطقة القريبة من البحر الميت التى عاشت فيها المدينتان فى الماضى. وهكذا، فعلى الذين يتفقون مع هذا الاقتراح أن يسارعوا بالدعوة إلى مؤتمر دولى يجمع 'محبى سدوم'(٩) وسوف نجد الشعار التأسيسى لهذه الحركة منقوشاً بالفعل فى جغرافية سدومستان: "بحر دون أمواج، لشعب أتعبه الإبحار". وينتظر المجد هؤلاء الذين يحاربون بتجرد من أجل هذه الغاية. لسنا بحاجة إلى بخار كثيف لكى يرتفع غطاء إبريق عتيق، وكلى أمل أن تلاقى هذه الدعوة من قبل غير المثليين الفاضلين قبولاً جدياً وألا يرفضها المتعجرفون المكفهرون.

يمكن التنبؤ بالحجج التى سوف تستخدم فى رفض إقامة مثل تلك الدولة. فمثلاً سوف يسمع مؤيدو قيام دولة سدومستان محاضرات أخلاقية تذهب إلى أنه لا ينبغى للمثليين أن يخلقوا تمييزات وانقسامات جديدة، ولكن أن يسعوا إلى محو التمييزات والانقسامات القديمة. ولكن الأمر ليس بيدهم؛ فقد انتظروا زمناً طويلاً. وعلى الرغم من المكاسب التى حققها المثليون خلال ستينيات القرن الماضى، ومع بدايات مسيرات الفخر بالمثلية فى كافة أنحاء العالم التى أعقبتها، فإنه لا يزال المثليون يواجهون الهجوم وتتعرض حاناتهم للتفجير، وتلفظ منبر الكنائس أسلوب حياتهم، بينما يطالب المتشددون فى الدين من كل مشرب بخصيهم واعتقالهم وإعدامهم. ولو أن تلك كانت مظاهر الأخوة العالمية، إذاً سيصبح الحل الوحيد هو تأسيس دولة سدوم.

---

(٨) صاح أحدهم : "لقد قُتل جدى لأنه رفض إقامة علاقة جنسية مع قائد المعسكر. إنكم تدنسون هذا المكان... (جيروساليم بوست، العدد ٣٠ من مايو ١٩٩٤). ماذا لو كان الأمر يتعلق بجدته؟ هل كان سيطالب بمنع كل غير المثليين من دخول المكان؟

(٩) كلى ثقة أن صديقى العزيز ديريك جارمان لو كان معنا لكان انتهز الفرصة.

وحتى أتجنب الاتهام بأن هذه الفكرة لا تتعدى حلم طوبوى، ولكى أستبق أية اتهامات بالاستخفاف بالقضية قد يوجهها لى المتعجرفون المكفهرون، فسوف أحجم عن تحديد الشكل السياسى لجمهورية سدوم المستقبلية أو أضع مسودة لدستورها – والتى يمكن كذلك أن يطلق عليها كونفدرالية سدوم وعمورة، أو ربما سدومستان. فتلك قرارات يتخذها "محبى سدوم" والجماعات المشابهة.

ولكنى أقدم هنا اقتراحات لما يمكن أن يمثل بضعة تروس لازمة لتحريك الماكينة التى نحن فى أمس الحاجة إليها:

(أ) سوف لا يسمح التركيب الاجتماعى للدولة التى تصورتها أعلاه بسيطرة جماعة عرقية واحدة عليها، ولكن يجب أن يمنع الدستور بوضوح – وذلك تجنبًا لأية احتمالات لحدوث ذلك (مثل قدوم مجرمين من روسيا متخفين فى صورة مثليين)– سيطرة جماعة عرقية واحدة على الدولة. كما يجب منع التصنيف السياسى على أساس العرق. ينتمى مؤسسو الدولة لكل الأمم والثقافات والشعوب والقبائل.

(ب) لن تكون هناك حاجة لتأسيس جيش الدفاع عن سدوم، بعكس الحال مع كل الكيانات المبنية على تاريخ الكتاب المقدس. يكفى تأسيس ميليشيا شعبية للاحتياجات المحلية.

(ج) ولكن، نظرًا إلى الوضع العالمى، فلسنا بحاجة إلى تبرير أهمية تأسيس "لجنة الشئون العامة الأمريكية السدومية". نحتاج مثل تلك اللجنة لكى ندرأ أى هجوم علينا يمكن أن تشنه الدول والممالك الأبوية الرجعية. كما سوف نحتاج دعمًا ماليًا مستمرًا. مبدئيًا، يتعين على لجنة الشئون العامة الأمريكية السدومية أن تشترى ولاء مائة من أعضاء الكونجرس بالإضافة إلى عشرة من مجلس الشيوخ، وأن تحصل على دعم أساتذة القانون العاملين فى جامعات مرموقة (نحتاجهم لتخويف الخصوم وتهديدهم). وبعد تأسيس الدولة

الجديدة سوف يتعين على اللجنة أن تسعى للحصول على أغلبية الكونجرس؛ بل تفوز بالبيت الأبيض، الذى لم يشغله مثلىّ منذ أن سكنه إبراهام لنكولن.

(د) سوف يعارض الكثيرون من المثليين الذين لم يتعرضوا للاضطهاد أو التشهير ويعيشون فى ظروف مريحة تلك الفكرة. ذلك حقهم، ولا ينبغى أن نمارس عليهم أية ضغوط. لا ينبغى أن تنخرط أية جماعات مساندة لسدوم فى خلق جو من الخوف فى العالم الذى يسكنه غير المثليين. يجب أن يبقى كل شىء تطوعيًا. هذا وحده هو ما سوف يمنح للحركة مسحًا من التميز الأخلاقى. لن تجبر دولة سدوم الناس على ترك بلادهم والهجرة الجماعية إليها. يكفى عدد مائة ألف لتأسيس بنية تحتية أولية، وهو العدد الذى يمكن أن تمدنا به الولايات المتحدة والهند والصين فقط- على الرغم من أهمية وجود جماعة أكثر شمولاً وتمثيلاً حتى نتفادى سيطرة عرق واحد على الأمور، بالإضافة إلى وجود الكثير من غير المثليين الصالحين الذين قد يفضلون العيش فى سدوم وعمورة. يتعين علينا الترحيب بهؤلاء.

(هـ) وبالنسبة إلى طبيعة الدولة الاقتصادية فيجب أن يتخذ المواطنون جميعهم ذلك القرار بشكل ديمقراطى، ولكن يمكن الاستعانة بصيغة تلائم الجمهورية الجديدة على المستويين الشخصى والسياسى-الاقتصادى: "كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته".

فبراير/ شباط ٢٠٠٩

٢

ثيربانتيس فى زمانه وفى زماننا

رد سانشو قائلاً: "أنا أيضًا أعتقد ذلك"، "وأود لو أخبرتنى سيادتك لماذا يتوسل الإسبان وهم على وشك الدخول فى معركة ما بالقديس جيمز قاتل المغاربة المسلمين ويقولون: "أيها القديس جيمز، فلنغلق إسبانيا!" وبالمناسبة، هل إسبانيا مفتوحة لكى يصبح من الضرورى غلقها؟ وإلا فما بالضبط هذه الطقوس؟".

تحترق المخطوطات أحيانًا، بعكس ما يعتقد ميخائيل بلجاكوف. ولكن الأهم هو أن الروائع التى تحتويها تلك المخطوطات المحترقة تحمل تواريخ محددة. وبعكس ما تذهب إليه النزعة الأكاديمية نادرًا ما يظهر عمل أدبى عظيم بمعزل عما حوله، إن لم يكن مستحيلاً، كما لا يمكننا أن نفهم تلك الأعمال فهمًا كاملاً بمعزل عن السياق الذى كتبت فيه. فهى انعكاس للحياة داخل بيئة اجتماعية وسياسية وتاريخية معينة. وينطبق ذلك على ثيربانتيس وشكسبير كما ينطبق على جويس وبروست وتولستوى وفاسيلى جروسمان. كما ينطبق أيضًا على الروايات التاريخية. نفهم الماضى بحسب احتياجاتنا فى الحاضر.

تُعَدُّ رواية دون كيخوته للكاتب ميجيل دى ثيربانتيس عملاً أدبيًا عالميًا بحق؛ بل وتُعَدُّ كذلك أول رواية حديثة ظهرت فى أوروبا. ولكن لم تكن الرواية لتكتب فى إسبانيا إبان حكم فيليب الثانى، وبعد مرور قرن من الزمان على استعادة الإسبان الأندلس من العرب. ففى الوقت الذى كانت الأزمات من كل نوع تحيط بالبلاد. فى ذلك الوقت كانت

نشوة النجاح فى استعادة الأندلس فى العام ١٤٩٢ قد خبت منذ زمن. إذاً فالتاريخ الذى شكل خلفية ذلك العمل الأدبى العملاق كان تاريخاً دراميًا، ولكننا سنعود إليه بعد أن نعرج على العصر الحديث.

قامت الحكومة فى فنزويلا فى عام ٢٠٠٥ بطبع مليون نسخة من رواية دون كيخوته فى إطار الاحتفال بالذكرى الخمسمائة لنشر الرواية، بقصد توزيع النسخ بالمجان على مليون أسرة. كما مولت فنزويلا طباعة سبعين ألف نسخة باللغة الإنجليزية للتوزيع على جيرانها فى الدول الكاريبية، وخمسة آلاف نسخة بالفرنسية للتوزيع فى هاييتى. هل نعد ذلك عملاً يعكس طبيعة دون كيخوته نفسه؟ لا أعتقد. ولكن يمكن اعتباره دلالة على وجود قلة من الزعماء السياسيين يتعاملون بجدية مع الثقافة ويستمتعون بصدق بالتحدى الذى تطرحه، كما ينظرون إليها بمعزل عن الاعتبارات التجارية. وعندما سئل الرئيس هوجو شافيز لو كان يعتقد أن الناس سوف تقرأ المليون نسخة، أجاب بأن ما يهمه هو وجود الكتاب فى مليون بيت، لكى يصبح ضمن ممتلكات الأجيال القادمة.

أتصور أن قراءة دون كيخوته بالإسبانية سوف تكون قمة فى المتعة. ومن منا لا يجيد اللغة، فعليه القبول بالأمر الواقع واللجوء إلى الترجمة. كنت فى أواخر فترة المراهقة عندما قرأت الكتاب، وكنت للأسف أصغر من أن أفهم ما وراء الكلمات. أمتعتنى النكات اللاذعة، ووقفت إلى جانب من لا يستحقون، وضحكت فى مواضع لا تستدعى الضحك متجاهلاً السياق تجاهلاً تاماً، ومارًا مرور الكرام على أجزاء كثيرة من الكتاب. كذلك فقد شعرت باحتقار شديد تجاه ناظرىّ المدرسة ربما لأنهما كانا محتشمين بدرجة مبالغ فيها، لا، بل كنت بالتأكيد أحتقرهما لهذا السبب(١٠).

لا أذكر اسم المترجم. وفى بداية عام ٢٠٠٩ بحثت عن الكتاب فى مكتبة أبى الراحل فى لاهور فلم أجده. هل كنت سأفهمه بصورة أفضل لو أن المقدمة (هل كانت هناك مقدمة؟) حاولت وضع الرواية فى سياقها؟ أشك فى ذلك. أرى أن هذه رواية يجب

(١٠) لم يكن لدي مشكلة مع رواية ديكاميرون (Decameron) لبوكاشيو التى التهمت صفحاتها بشغف فى الوقت نفسه تقريبًا، التى كانت أقرب لذوقى، وهو ما أكد لى الفكرة التعسة بأن غياب الجنس عن رواية ثيربانتيس كان السبب فى عزوفى عنها.

أن يقرأها الناس فى سن متقدمة، ربما بعد أن يصلوا إلى الثلاثين من عمرهم، ومن الأفضل بعد ذلك.

وجدت ضالتى فى الطبعة الإنجليزية المكونة من ٩٨٠ صفحة التى صدرت وقت الاحتفال بذكرى صدور الرواية لأول مرة. جاءت الترجمة التى أعدتها إديث جروسمان ممتازة، ووجدتها أكثر قربًا مع الأصل - وهو أمر يدرك بالحدس فقط - من محاولات المترجمين السابقين الملة لتحسين النص؛ التى جعلتهم يخرجون بنصوص عتيقة لا تقرأ. هناك مترجمون يقعون تحت تأثير الترجمات السابقة، ولكن إديث جروسمان ليست واحدة منهم. فهى لا تكثر من الإحالات فى الحواشى؛ ولكن تجعلها مفيدة للغاية لأى قارئ جاد. الأمر الوحيد الذى أفسد الكتاب كان هارولد بلوم الذى كتب مقدمة قصيرة كسولة لا تحتوى على جملة واحدة يمكن أن تساعد القارئ على تبين السياق الذى كتب فيه ثيربانتيس روايته والذى خاض فيه صراعات مع خصوم من كل نوع. كان يمكن أن يبذل بلوم مجهودًا أكبر، وهو ما يتضح لنا فى محاولته الإيحاء بعمق مزيف فى أول جملتين من المقدمة: "ما غاية بحث دون كيخوته الحقيقية؟ لا أجد إجابة عن هذا السؤال" لماذا؟ هل حاول بلوم أن يجد إجابة عن سؤاله؟ كان ذلك سوف يحتم عليه الانغماس فى تاريخ إسبانيا لعدة أسابيع. من الواضح أنه لم يقرأ قط كتابات أميريكو كاسترو أو خوان جويتيسولو أو ميجيل أسين، ولكن هل بلغ به الكسل ألا يطالع حتى قصة حياة ثيربانتيس التى نشرها مواطنه وليان بايرون فى عام ١٩٧٨؟ يبدو الأمر كذلك، وهو أمر مؤسف لأن ذلك كان سيساعده كثيرًا. نجد بلوم بدلاً من ذلك يحدثنا عن تأثير الرواية على ملفيل وغيره من الكتاب، ويذكرنا أن نابوكوف تأذى من المشاهد القاسية فى الرواية، إلى جانب تفاصيل تافهة أخرى من النوع نفسه التى قد تفيد متوسطى الثقافة المغرمين بحل الكلمات المتقاطعة، ولكنها غير ذات أهمية للقارئ الذى يريد أن يعرف المزيد عن الروائى وعن الثقافة التى أنجبته.

تكمن مشكلة بلوم فى افتقاده التواضع؛ حيث إنه غير قادر على الاعتراف بأن الدراما التى تضمها الرواية أكبر بكثير من قدرته على الفهم. نجد أنفسنا دون مثل هذه المعرفة غير قادرين على الإحاطة بالأجزاء التى سوف تدلنا على مفاتيح توصلنا إلى ماهية غاية البحث الذى كان ثيربانتيس يقوم به. يرى بلوم أن المعنى مقصور فى العمل الأدبى على أدب ذاته – وفى المعيار الأدبى الغربى بصفة خاصة – ولكن هذا غير كاف على الإطلاق لفهم الرواية. إن ثيربانتيس، مثله فى ذلك مثل باقى سكان المنطقة، هو نتاج للدراما المأساوية المنبنية فى تاريخ شبه جزيرة إيبيريا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

كان مجرد أن تحيا فى ذلك الوقت يعد إنجازًا ضخمًا للفقراء؛ حيث لم تفلح التى الفضة التى كانت إسبانيا تحصدها من أمريكا الجنوبية فى ذلك الوقت سوى فى تأجيج الأزمة الاقتصادية، فازداد التضخم وشاعت المجاعات فى الأندلس وانتشر الطاعون الدبلى فى قشتالة، وعم القمع العنيف تجاه المتشردين فى كل مكان (مما يذكرنا بمعاملة إيطاليا الكاثوليكية التى تعانى الأزمة الاقتصادية اليوم للغجر والأقليات الأخرى). وعم الفساد كذلك فى الكنيسة وفى الإمبراطورية، وكل ذلك على خلفية شهدت انخفاضًا فى عدد السكان وأزمة زراعية حادة. وقد صار تآكل المجتمع الإسبانى وقتها باديًا بوضوح لمعظم السكان هناك. وقد أصاب المؤرخ الفرنسى بيير فيلار فى عام ١٩٥٦ حين أبرز ذلك السياق فى وجه هؤلاء الذين شرعوا وقتها فى تحويل التاريخ إلى مجرد "سلسلة متقطعة من الحكايات والأحداث المنفردة":

غالبًا ما يقال: إنه من العبث البحث فى أعمال ثيربانتيس عن تفسير لحالة "التدهور" فى بلاده؛ "لأنه لا يمكن أن يكون قد تنبأ بذلك". وينم هذا الرأى عن تجاهل واضح لمسيرة التاريخ. فلو كانت كلمة أزمة تصف حقًا الانتقال من مرحلة تفاقم الأزمة إلى مرحلة الانهيار، فسوف نجد بالتأكيد أن الأزمة الفارقة التى

واجهت النفوذ الإسبانى تقع فى الفترة ما بين ١٥٩٨ و١٦٢٠، أى الفترة بين مرحلة "العظمة" ومرحلة "التدهور"، وهى كذلك الفترة التى شهدت أولى أزمات الثقة لدى الأسبان. حسنًا، فلنعلم إذًا أن تاريخ كتابة جزئى دون كيخوته كان ١٦٠٥ و١٦١٥[11].

وكان هناك كذلك محاكم التفتيش الكاثوليكية، إذ كانت تلك الأيام تشهد تعذيبًا لا يحتمل لأى فرد ينتمى إلى حضارة مهزومة. كيف للمرء أن يظل صامتًا بينما الشر يغطى كل ما حوله مثل مطر ملوث. يستشرى الظلم كما لم يستشر من قبل. وتنبئ حركات التمرد بين المسلمين فى جبال البشرات بنشوب حروب المقاومة والعصابات المتمردة فى القرون التالية. ينمحى التفكير النقدى، بينما يتجسس البوليس السرى على المواطنين المشتبه فيهم، بينما تفرض الدولة والكنيسة رقابة بغيضة... وقد ذهب خوان جويتيسولو إلى أن كل مظاهر الحكم الشمولى فى العصر الحديث قد ظهرت بالفعل فى إسبانيا ما بعد ١٤٩٢ . أجدنى لا أستطيع الاختلاف معه.

فى ذلك الوقت كان فيليب الثانى قد ألغى الاتفاقات التى كان أسلافه قد أبرموها مع الموريسكيين (أى الأسبان المسلمين كما كانوا يُعرفون فى ذلك الوقت)، كما جردهم من الحقوق القليلة التى كانوا يتمتعون بها، وأقر ميثاق للتعامل يهدف إلى إذلالهم: أصبحت القراءة والكتابة باللغة العربية محرمة، كما منعت زيارة الحمامات العامة، التى سوف تتعرض للهدم فيما بعد فى كل أنحاء إسبانيا (إذ إن الكنيسة كانت تعد النظافة عادة مغربية إسلامية فاسقة). كما أضحى استخدام أسماء العائلات الموريسكية أو ارتداء الثياب الموريسكية فى عداد الجرائم. وهكذا تم تجريم وجود شعب بأكمله، وأضحى العدو فى الداخل الذى سوف يتم فى القريب العاجل تحويله إلى المسيحية أو طرده من البلاد أو قتله.

كانت تلك إسبانيا التى ولد فيها ثيربانتيس فى سبتمبر أو أكتوبر من عام ١٥٤٧ (فى بلدة ألكالا دى هيناريس، التى كانت أسرته قد نزحت إليها من قرطبة). هذا هو

---

(11) Pierre Vilar, 'The Age of Don Quixote', New Left Review 1: 68, July-August 1971.

ما يفسر كتابة تلك الرواية الغنية بالخيال الجامح والشعر والتصوف والسخرية والبهجة والأسى، إلى جانب قدر مذهل من الرؤية السياسية والنفسية. وقد كانت إسبانيا خلال القرن السادس عشر وأوائل القرن العشرين، كما بينت من قبل، مجتمعًا متشتتًا، يموج باضطرابات من نوع فريد. فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية قد تبنت حملة طويلة الأجل لاستعادة الأندلس بغرض تطهير شبه جزيرة أيبيريا عرقيًا من النفوذ الأجنبى. وفى عام ١٤٩٢، بعد أن مرت عدة مئات من السنوات على الحرب التى شنتها قوة عربية صغيرة ضد القوط الغربيين وانتصرت عليهم، مؤسِّسة بذلك سلطتها السياسية والثقافية فى شبه الجزيرة، وقعت مملكة غرناطة - آخر مملكة إسلامية - فى يد الملكين الكاثوليكيين فردناند وإيزابيلا. وبالتزامن مع هذا الحدث تقريبًا اكتشف كولمبوس العالم الجديد، فأصبح الحدثان ممتزجين فى عقول الكثير من المسيحيين للتعبير عن دعم السماء للكنيسة الكاثوليكية والانتقام من المسلمين واليهود، الذين ينبغى طردهم وإلقاؤهم فى البحر.

كانت تلك إسبانيا عقبَ سقوط غرناطة الذى كان يمثل الانتصار الحاسم لحملة استعادتها، الذى أوضحت الأحداث التى تلته أنه لم يكن حاسمًا بالصورة التى نتصورها. فبينما قرعت أجراس الكنائس فى كل الأنحاء محتفية بالانتصارات، وقع الملوك فرمانًا يقضى بطرد جميع اليهود من إسبانيا لو أنهم لم يوافقوا على التحول إلى المسيحية، وتم تعليق نسخ من الفرمان على بوابات معظم المدن. وقد واجه المسلمون المصير نفسه بعد مرور قرن من الزمان: كانوا أكثر عددًا فكان من الصعب طردهم فى عام ١٤٩٢، وكان النظام يخشى نشوب نزاع مسلح طويل الأمد.

وقد تميزت الثمانمائة عام التى حكم فيها المسلمون، وهى تميزت الفترة الممتدة بين القرنين العاشر والخامس عشر، بتعايش ثلاث حضارات جنبًا إلى جنب: الإسلامية، والمسيحية، واليهودية. فقد أقام القوط الغربيون ديكتاتورية بدائية فى إسبانيا قبيل قدوم المسلمين إليها، وكان حكمهم يتصف بالعداء الشديد والقوانين

المناهضة لليهود: "يمنع احتفالهم بعيد الفصح، وأن يتزوجوا وفقًا لقوانينهم، وأن يتم ختانهم". وكان يتعين تعميد جميع الأطفال اليهود حديثى الولادة، وكان يحكم على الأب اليهودى الذى لا يقوم بتعميد ابنه "بمائة جلدة، وبحلق شعر رأسه، ونفيه من البلدة، ومصادرة بضائعه". وربما كانت الجملة الأخيرة وهى الجملة المحورية بالنسبة إلى الملوك القوط الغربيين، فقد كان الاستيلاء على أموال الغير من طبائعهم.

لا عجب إذًا أن نجد اليهود يساندون عملية بناء الأندلس ويوالون الخلفاء فى قرطبة ومن تبعهم من حكام مسلمين فى شبه الجزيرة الأيبيرية. كما نرى أن اليهود قد شغلوا مناصب كبيرة تحت حكم المسلمين هناك. منحت تلك السنون الخمسمائة المجتمع الإسبانى شخصيته المتميزة، التى لم يتمكن من التخلص منها كلية، حتى بعد استعادة الحكام المسيحيين للحكم. كتب المؤرخ الإسبانى أمريكو كاسترو عن تلك الفترة قائلاً:

> **ليس بوسعنا تفتيت هذا التاريخ إلى أجزاء منفصلة راكدة، أو تقسيمه إلى تيارات متوازية ومتزامنة، لأن كل واحدة من الجماعات الثلاث كانت جزءًا لا يتجزأ من الظروف التى خلقتها الجماعتان الأخريان. كذلك ليس باستطاعتنا فهم ذلك الواقع من مجرد تجميع البيانات والأحداث، أو بأن نختصره فى فكرة كونه "ظاهرة ثقافية". علينا محاولة تلمس التداخل بين حيوات تلك الجماعات المختلفة، إذ إن تاريخ تلك الجماعات يتمثل فى ذلك وليس فى شىء آخر. فلا يمكن فصل الحقائق والأفكار وما شابه ذلك عن حياة الناس التى تغلفها... وفى نهاية القرن الخامس عشر كان مبدأ دينى واحد يحكم إسبانيا... وهذا ما أراه يمثل ظهور فكرة التسامح هنا التى جاءت بمعزل عن السياق الأوروبى فى القرون الوسطى. فبين القوانين الجائرة المعادية لليهود التى وضعها القوط الغربيون (فى القرن السابع) والقوانين المستمدة**

منها ولكن الأقل وطأة التى وضعها الملك ألفونس العاشر هناك خمسمائة عام من الإسلام[١٢].

كان ذلك فى الماضى. كان أحد الأمور التى تخشاها الكنيسة أن تكون الكاثوليكية هى الخاسر لو أن التوليفة الفريدة السائدة فى الأندلس ترعرعت واستمرت لمائة عام أخرى، ولهذا فقد شرعت فى عام ١٤٩٢ فى تقويض البنيان بأكمله. لم يكن أمام المسلمين واليهود الذين لا يرغبون فى ترك وطنهم سوى التحول إلى المسيحية، ولكن هؤلاء سرعان ما عوقبوا بالحرق فوق الخوازيق عندما بدأت موجة محاكم التفتيش الكاثوليكية التى اعتبرت التحول إلى المسيحية محض كفر. وعندما كنت أجرى بعض البحث استعداداً لكتابة روايتى ظلال شجرة الرمان (Shadows of the Pomegranate Tree) وهى الرواية الأولى فى خماسيتى عن الإسلام عثرت على تقارير تحكى حكايات موجعة عن مسلمين اعتنقوا المسيحية، منها شهادة المغنى الجوال محمد جعفرى الذى كان يطلق عليه اسم خوان الغرناطى. لم يكن بوسع محمد التخلى كلية عن هويته الإسلامية، وهو ما أودى به إلى المحاكمة والحكم بالإعدام.

وقعت شبه الجزيرة بالكامل فى قبضة الملوك الكاثوليك إبان فترة حكم فيليب الثانى الذين كان يساندهم المطارنة المتحمسون المهووسون بفكرة الحول بين المتحولين إلى المسيحية والانخراط فى الإمبراطورية الجديدة التى كانت آخذة فى التأسس فى العالم الجديد. كانت الهوية الكاثوليكية الأحادية فى إسبانيا عازمة على نشر الهوية المسيحية التى تشكلت تحت وقع التعذيب وسفك الدماء وحرق الكتب والبشر إلى كافة أنحاء أوروبا. كانوا عازمين على تطهير إسبانيا عرقياً من ماضيها القريب.

شهد القرن السادس عشر صعود إسبانيا السريع لمصاف القوى الاستعمارية. فبعد أن نجحت فى طرد الحضارتين اللتين كانتا تمثلان خصمين لها بالقوة شرعت إسبانيا الجديدة فى استعادة الهيمنة الكاثوليكية فى العالم المسيحى. ولهذا فقد كان ينبغى سحق بريطانيا البروتستانتية، ومنع أفكار مارتن لوثر المتمردة الآتية من ألمانيا من دخول البلاد. كما كان يتعين الدفع بفرنسا للصراع مع مضايقات الهوجونوتيون

(12) Américo Castro, The Structure of Spanish History, Princeton: Princeton University Press, 1954.

البروتستانت. ولم يجد فيليب الثانى أية غضاضة فى استخدام كل سلطاته، كما لم تجد الكنيسة أية موانع فى تبرير كافة الانتهاكات التى كانت تحدث متعللة بأن الغاية المتفق عليها - أى إقامة مملكة الله الفردوسية على الأرض - تبرر كل الوسائل. وهكذا يضحى أى إجراء يتخذ لضمان تحقيق هذه الغاية إجراءً عادلاً. وهنا نجد أن الأصولية الدينية والأصولية السياسية تشتركان فى تبنى هذا المبدأ. وعلى الضحايا أن يجابهوا ويلات صمت العدالة المطبق.

ولا ينبغى أن نعتقد أن الإسبان المسلمين قد تقبلوا ذلك الوضع الجديد، فقد قاوموا دفاعًا عن حقوقهم التاريخية فى أراضيهم وفى قراهم. وقد وقعت ثلاث وقعات تمرد مهمة فى غرناطة إلى جانب وقائع أخرى لا تعد ولا تحصى رفض فيها هؤلاء التعاون مع النظام الجديد أو عبروا فيها عن غضبهم (بأن قذفوا القربان المقدس بالفضلات)، بل حتى اقترفوا أعمال عنف متفرقة. وبعد أن لحقت الهزيمة بهؤلاء فى حرب غرناطة الثانية ما بين أعوام ١٥٦٨-١٥٧٠، ارتأت الكنيسة أنه بما أن تعداد العالم الجديد من السكان كان وقتها آخذًا فى الانخفاض بشكل مطرد (حيث كان سكان أمريكا الأصليون يلقون حتفهم مثل الذباب بسبب الأمراض التى استحضرت إليهم من أوروبا)، فإنه من الممكن تعويض هذا الانخفاض فى عدد السكان بالموريسكيين. ولكن القصر اعترض على هذا الاقتراح، إذ راود الملك رعب شديد من الفكرة وتعجب قائلاً: "ولكنهم إسبان مثلنا على الرغم من كل شىء". ترى ما الذى كان سيحدث لو أنه قد تم بالفعل إرسال نصف مليون مسلم إسبانى لتوسيع أرجاء الإمبراطورية الإسبانية؟ لا يسعنا هنا سوى التخمين.

كان فيليب الثانى ملكًا كفئًا، ولكنه كان مصابًا بالبارانويا، حيث تخيل التمرد فى كل مكان، وكاد يتسبب فى اندلاع تمرد فى كاتالونيا عندما تصور أن المنشقين البروتستانت يدشنون تمردًا ضده. وقد كان عازفا عن الوصول لتسويات مع المسلمين ومع البروتستانت على حد سواء، إيمانا منه أن التسامح والتعايش يعدان دليلاً على الضعف، وليس لهما نهاية سوى الكفر. وقد كان فيليب يعامل المنشقين الذين كانوا

يحاولون تحرير بلادهم فى فلاندرز بالعنف نفسه الذى كان يعامل به "المهرطقين" فى بلاده. وقد وجد فريدريش شيللر فى فيليب الثانى، وذلك بعد قرنين من الزمان، نموذجًا لكل ما يعيب أوروبا ولكل ما يمثل قيم عكس التنوير. وأبرز الشاعر الألمانى فى مسرحية دون كارلوس فكرة المتاجرة بالدين، بجعله فى خدمة الاستبداد السياسى ليس إلا:

الملك (بعد فترة صمت): إن ابنى يتعاون مع الخونة.

كبير المحققين فى محكمة التفتيش: إذًا، ماذا قررت؟

الملك: على الكل، وإلا فلا.

كبير المحققين: وماذا تعنى بهؤلاء الكل؟

الملك: عليه أن يهرب أو يموت.

كبير المحققين: عليك يا سيدى أن تقرر.

الملك: أفلا تستطع تأسيس مذهب جديد يبرر قتل المرء ابنه الوحيد قتلاً بشعًا؟

كبير المحققين: لقد فنى ابن الرب ذاته على الصليب من أجل تحقيق العدل السرمدى.

إن القائل: إن الرجل الحكيم يضحك خائفًا مرتعدًا كان ولا بد أن يشير إلى إسبانيا فى القرن السادس عشر. لا يأتى الضحك فى رواية سرفانتيس ضحكًا بريئًا، بل يأتى غالبا مرتبطًا بالخوف والقسوة، وهو ما كان يراه الكاتب انعكاسًا لذلك الانتقال الذى كان يشهده من ثلاث حضارات إلى حضارة واحدة. كانت الحضارة العربية هى الغالبة من حيث اللغة والعلم لمدة تربو على نصف الألفية. ثم حل محلها اللغة والعلم القشتاليان. ولكن آثار الوجود العربى لم تنمح. ونجد ثيربانتيس قرب نهاية الجزء الثانى من الرواية يقدم تفسيرًا لتلك الظاهرة التاريخية على لسان الفارس حيث يتكلم مع تابعه الذى لا يفهم معنى كلمة albogues (الأبواق) كما تأتى مثلاً فى جملة

كهذه: "وماذا لو ضربت الأبواق وسط كل هذه الموسيقى؟".

سأل سانشو: "وما الأبواق؟ لم أسمع عنها أو أرها فى حياتى".

أجابه دون كيخوته قائلاً: "الأبواق" تشبه شمعدانات نحاسية. وعندما تضرب واحدة بالأخرى من الناحية المفرغة تصدر صوتًا ليس بالمزعج، وإن لم يكن جميلاً أو متناغمًا، وهو صوت ملائم لطبيعة المزمار والدفوف المنحوتة من الأشجار. إن الكلمة مغربية الأصل، مثلها فى ذلك مثل الكلمات التى فى لغتنا القشتالية التى تبدأ بحرفى "ال"، مثل المِحَسَّة (almohaza) أو كلمة وجبة الغذاء (almorzar)، أو الحمراء (alham(bra، أو المأمور (alguacil) أو الخزامى (alhucema) أو المخزن (almacén) أو الخزانة (alcan-cla)، وغيرها من الكلمات المماثلة. لقد ذكرت ذلك دون تحضير لأنه لم يخطر لى إلا عندما ذكرت أنت كلمة "الأبواق"[13].

ما من شىء فى هذه القصص يرد "دون تحضير". تمتلئ الجعبة بأحجار الألماس المشغولة بعناية، وكل شىء يحسب بدقة قبل أن يكتب على الورق. لا يمكننا تصور غير ذلك فى عصر مثل عصر محاكم التفتيش الكاثوليكية. وما يثير شغفنا هو تلك الأفكار التى كان ثيربانتيس يعلم أن ليس بوسعه التعبير عنها فى كتابه، وهنا يمكن القطع بأن مأساة بنى وطنه كانت تشغل عقله حتى وهو يكتب الرواية.

احتفل فيرديناند وإزابيلا فى عام ١٤٩٢ بفتح الأندلس بطردهم لليهود؛ حيث منحت الجالية اليهودية اختيارًا بسيطًا: إما الدخول فى المسيحية أو الرحيل. وقد اختار الكثير منهم الرحيل، ومن هؤلاء الكثير الذين ذهبوا إلى الإمبراطورية العثمانية التى منحتهم حق اللجوء إليها[14]. وقد كان على الباحثين حتى نهاية القرن العشرين أن يسافروا إلى إسطنبول لو أنهم أرادوا أن يسمعوا اللغة الإسباعبرية تستخدم فى

(13) Américo Castro, The Structure of Spanish History, Princeton: Princeton University Press,1954.

(14) Miguel de Cervantes, Don Quixote, trans. Edith Grossman, New York: Harper Collins, 2003. pp. 900-901.

الحديث كما كانت تستخدم فى القرون الوسطى فى إسبانيا. (وقد فنيت الجماعات اليهودية القديمة، ورحل الكثير من أبنائها إلى بلاد أخرى مثل إسرائيل؛ وذلك منذ صعود تيارات الإسلام السياسى فى تركيا).

أما الآخرون الذين لم يرغبوا فى ترك موطنهم فقد كانوا على استعداد للتخلى عن ماضيهم من أجل مستقبل أولادهم. وهكذا تحولوا إلى المسيحية وبقوا فى إسبانيا كمسيحيين جدد، وكان ولاؤهم دائمًا أمرًا مشكوكًا به. وقد علا شأن بعض منهم مثل هؤلاء المنتمين إلى عائلات من التجار أو الأطباء الذين كانوا يعملون فى البلاط ولدى النبلاء - حيث استطاعوا فى مناسبات عديدة إثبات ولائهم للكنيسة بطريقة انتقامية كانت تثير دهشة الآخرين ممن كانوا يشاركونهم الديانة نفسها فى الماضى.

وقد كان توماس دى توركيمادا أحد هذه الأمثلة؛ حيث أصبح أول كبير قضاة فى محاكم التفتيش الكاثوليكية وكان مثالاً حيًا على أن تعصب الذين يتحولون من دين إلى دين ليس له حدود. فقد أصبح وهو المنحدر من أسرة متحولة إلى المسيحية مثالاً للقسوة، إذ أمر بحرق ما لا يقل عن ألفى "مهرطق" يهودى - أى اليهود الذين انتقلوا إلى المسيحية؛ ولكن بقيت دوافعهم موضعًا للشك، فوقعوا قيد التجسس ثم تم الإبلاغ عنهم لسلطات محاكم التفتيش. وربما يكون العدد الحقيقى لمن وقعوا قيد هذه العقوبة أكبر بثلاثة أضعاف، إذ تتعدد الإحصاءات حول ذلك. وعلى الرغم من أن الموسوعة الكاثوليكية المعاصرة تتكرم بالاعتراف بأن محاكم التفتيش الكاثوليكية قد تكون تجاوزت الحدود فى بعض الأحيان، فإنها فى الوقت نفسه تبرر مثل تلك الأفعال الإرهابية التى ارتكبتها بسوق الأكاذيب الواضحة:

> **كان نقاء العقيدة المسيحية فى إسبانيا فى ذلك الوقت فى خطر ماحق جراء وجود الموريسكيين والمارانوس[١٥] الذين تحولوا سطحيًا من اليهودية والإسلام إلى المسيحية، لأسباب مادية بحتة. وقد ارتكب المارانوس جرائم شنيعة فى حق**

---

(١٥) بل لقد وصلت سفينة محملة بهؤلاء إلى كوشين الواقعة على ساحل مدينة كيرالا فى جنوب الهند؛ حيث منحهم مهراجا مدينة كوشين-ترافانكور الملجأ والأراضى لبناء معبد يهودى ومنازل لأنفسهم. ويقع المعبد الآن فى شارع اليهود ويجرى ترميمه دوريًا.

المسيحية، وحاولوا تهويد أسبانيا قاطبة. ... وفى عام ١٤٨٣ أصدر البابا قرارًا بتعيين توركيمادا الذى كان يشغل منصب مساعد قاض فى محاكم التفتيش منذ الحادى عشر من فبراير من عام ١٤٨٢، ليصبح كبير المحققين فى قشتالة، وفى السابع عشر من أكتوبر من العام نفسه مد سلطته القضائية لتشمل أراجون.

وقد تولى البوليس السرى التابع لمحاكم التفتيش الكاثوليكية مهمة ترهيب الناس، وكان يطلق عليه اسم الأخوّة المقدسة. وقد كان يهدف إلى القضاء على التفكير النقدى وتأسيس هوية مسيحية واحدة فى أوروبا عن طريق عمليات واسعة من التطهير العرقى(١٦). لم يكن يكفى أن يتحول تجار الفضة اليهود فى مايوركا إلى المسيحية، ولكن كان لزامًا عليهم إثبات ذلك بأن يجلسوا أمام حوانيتهم يوم السبت ويتباهوا بأكل لحم الخنزير.

وتشير الدلائل السياقية إلى أن ثيربانتيس كان ينحدر من عائلة من اليهود المتحولين إلى المسيحية؛ أى إنه كان موصومًا محكومًا إلى الأبد. وليس لدينا دلائل موثقة على ذلك لأن هذه العائلات كانت حريصة على محو أى أثر يربطها بالديانة اليهودية (مثلما فعل اليهود تحت حكم الرايخ الثالث فما بعد)، حتى لا تظهر أية أدلة تدينها فيما بعد عندما يتقدم أى من أفراد العائلة بدعوى إثبات أنه مسيحى قديم وليس متحولاً من اليهودية. وعلى الرغم من ذلك، لم يمنح ثيربانتيس موافقة على السفر للعالم الجديد عدة مرات. وعلى الرغم من حصول ثيربانتيس على "شهادة النقاء" التى مكنته من الحصول على وظيفة وضيعة فى منزل أحد أصحاب المقام الرفيع فى كنيسة روما، فقد بقى معروفًا فى موطنه الأول فى منطقة لا مانتشا بأنه ينحدر من أصول يهودية، الأمر الذى استخدمه منافسه الأديب لوبى دى فيجا ضده أثناء أحد النزاعات بينهما. كما نجد دليلاً كاشفًا على ذلك فى عمله الأدبى الشهير الذى نحن بصدده هنا.

كانت فكرة أن ثيربانتيس لا يكتب رواية فى الأساس من أحد المجازات الممتدة

(١٦) تعنى كلمة "مارانوس" المستخدمة فى مصف اليهود الذين تحولوا إلى المسيحية "خنازير".

المتعددة التى استخدمها فى روايته. فهو يقول: إنه وجد مخطوطًا مغربيًا فى أحد أسواق طليطلة القديمة، مكتوبًا بالعربية، وكان كل ما فعله أنه استأجر مترجمًا. وهكذا، نجد ثيربانتيس يؤكد فى بداية الكتاب السمات المتميزة التى ساهمت فى تشكيل الهوية الإسبانية:

> **كنت فى أحد الأيام فى سوق الكانا فى طليطلة عندما جاء صبى يبيع بعض الكراسات والأوراق القديمة لأحد تجار الحرير. وبما أننى مولع بالقراءة، حتى قراءة الأوراق الممزقة الملقاة فى الشوارع، فقد دفعتنى تلك الهواية لأن ألتقط أحد المجلدات التى كان الولد يبيعها فوجدتها مكتوبة بحروف أعرف أنها حروف عربية. وبما أننى تعرفت على اللغة ولكن لم أستطع قراءة ما هو مكتوب، فقد نظرت حولى باحثًا عن أحد الموريسكيين يمكنه التحدث بلغة قشتالة يمكن أن يقرأ لى ما هو مكتوب. ولم يكن من الصعب أن أجد مثل هذا المترجم بالقرب منى، فحتى لو أننى كنت أبحث عمن يتحدث لغة أفضل وأقدم من العربية لوجدته(١٧).**

اللغة الأقدم هى بالطبع اللغة العبرية، مما يجعل تلك الجملة دليلاً على أصول ثيربانتيس العرقية. أما عنوان المخطوط فقد كان "قصة دون كيخوته دى لا مانتشا، كتبها المؤرخ العربى سيد حامد بينينجيلى". ونجد فى الكتاب تأثيرًا إسلاميًا واضحًا. وكيف لا إذا أخذنا فى الاعتبار "المشكلات" التى كان يعانى منها الموريسكيون فى الداخل والحل النهائى الذى وضعته الكنيسة والقصر الملكى؟ يقدم ثيربانتيس مفارقة ساخرة للتهكم على النزعة الأورثوذوكسية السائدة، بإيحائه أن مؤلف الرواية الإسبانى المسلم قد سعى إلى التقليل من شأن خصال دون كيخوته الحميدة، إذ إن المسلمين "بطبعهم يجنحون نحو الكذب". وهكذا، فلو تصاعدت أية شكاوى فسوف "يقع اللوم

---

(١٧) كان فريدريك الثانى فى صقلية (الذى كان يعرف اللغة والثقافة العربية معرفة متميزة) قد أرضى النبلاء والكنيسة بأن قام بالتطهير العرقى بصورة أكثر إنسانية بقليل. كان المسلمون الذين يرفضون التحول إلى المسيحية ينقلون فى السفن إلى مدن خاصة بهم فى إيطاليا. وسرعان ما شُنت الهجمات على هؤلاء بعد وفاة فريدريك وتعرضوا للمذابح. ونجد سردًا متخيلاً لهذه الأحداث فى روايتى سلطان فى باليرمو. لندن ونيويورك، فرسو، ٢٠٠٠ .

على الكلب مؤلف الرواية". ثم يستمر ثيربانتيس قائلاً فى الفقرة نفسها: إن على المؤرخين "أن يكونوا محددين وصادقين ومتجردين عن الهوى، فلا تجعلهم المصالح ولا المخاوف ولا الضغائن ولا العواطف يحيدون عن طريق الحقيقة، ابنة التاريخ، خصيم الزمن، ومعقل الأفعال العظيمة، الشاهد على الماضى، وذلك الذى يضع المثال الذى يحتذى فى الحاضر ويحذر من مزالق المستقبل".

ثم ضف إلى ذلك كله مشاركة ثيربانتيس فى معركة ليبانتو حيث هزم التحالف الكاثوليكى العثمانيين، والفترة التى قضاها بعد ذلك فى السجن فى الجزائر وتجربته فى المغرب بصفة عامة. وقعت كل هذه الأحداث وسط خلفية الهاجس الكاثوليكى إبان القرن السادس عشر بالخطر الذى يشكله العثمانيون للسيادة الكاثوليكية على العالم المسيحى الغربى، الذى كانت حركة الإصلاح تشكل فى الوقت نفسه تهديداً داخلياً له.

كان العثمانيون يرحبون بالمهرطقين البروتستانتيين ويمنحونهم المأوى والمال. وقد شبه خوان جويتسولو خوف فيليب الثانى من العثمانيين بالخوف الذى كان سائداً تجاه أعداء الشيوعية أثناء الحرب الباردة:

> **كان الأتراك اليونانيون يثيرون شغف وخوف الدول المسيحية فى آن واحد، وذلك بسبب ترابطهم الثقافى والأيديولوجى، الذى يقدم لأعدائهم بديلاً ممكنًا ولكنه خطر فى الوقت ذاته، ناهيك عن قوتهم العسكرية التى لا يمكن إنكارها. وقد جاءت الإمبراطورية العثمانية، كما حدث مع الاتحاد السوفيتى (١٩١٧-٩٠)، موضوعًا للكثير من الدراسات التحليلية والبورتريهات والروايات والقصص والخيال... وفى هذه المجموعة الضخمة من الأعمال تلوح لنا بوضوح شهادات الأسرى والهاربين والجواسيس والمرتدّين. .. ولأن ثيربانتيس كان مجيداً لفن الإيحاءات اللفظية والتعبيرات الملتبسة والمفارقات، فقد كان يستمتع بتفكيك قناعات القارئ الراسخة بخبث ودفعه نحو منطقة محاطة بالشك والغموض.**

كيف للمرء إن لم يكن الأمر كذلك أن يفسر وجود شخصية صاحب الحانوت ريكوته الموريسكى فى الرواية، الذى منحته ألمانيا اللوثرية حق اللجوء إليها بعد الحل النهائى الذى أدى إلى ترحيل مليون موريسكى من إسبانيا فى عام ١٦٠٩، مما أدى كذلك إلى محو السكان من مناطق كاملة (وعلى الأخص فى محيط فالينسا)؟ وقد كان ثيربانتيس حريصاً على تأكيد ولائه للنظام فى إسبانيا ولكن عملية طرد الموريسكيين تسببت له فى صدمة جعلته يتخلى عن حرصه ويسمح لقلبه أن يملى على القلم ما يكتب مباشرة، وهو ما أنتج لنا الحوار المؤثر الذى دار بين سانشو بانزا وريكوته الذى كان يعيش فى وقت سابق فى قرية سانشو، ثم عاد خلسة من منفاه ليجلب بعض الأشياء الثمينة التى كان قد أخفاها فى أماكن سرية، ولكنه عاد فى المقام الأول ليتنفس هواء إسبانيا ويتنعم بشمسها. نجد ثيربانتيس يصف ذلك بحذر، مضمناً وصفه بعض الجمل التى تضمن براءته لو أن محققاً بارعاً قرأ الكتاب عن كثب. نجده يفعل ذلك بين السطور:

قال ريكوته دون أن يستخدم اللغة المغربية فى أى موضع من حديثه:

"تعرف جيداً يا جارى وصديقى سانشو بانزا أن القرارات والمراسيم التى أصدرها جلالته بشأن بنى عرقى قد أصابتنا جميعًا بالخوف والرعب. على الأقل أنا تأثرت بذلك كثيراً على ما أظن، حتى إننى كنت أتخيل أن العقوبة القاسية قد وقعت بالفعل على أنا وأولادى حتى قبل أن يحين موعد الرحيل الذى تحدد لنا. ولهذا فأعتقد أننى رتبت أمورى كما ينبغى لرجل حصيف يعرف أن المنزل الذى يعيش فيه سوف ينتزع منه فى وقت معين...

"وباختصار، فقد كان من العدل والمنطق أن يتم تأديبنا بعقوبة النفى: تلك العقوبة التى يراها بعضهم عقوبة مخففة، بينما كانت بالنسبة إلينا أفظع عقوبة يمكن الحكم علينا بها. نحن نبكى على إسبانيا حيثما كنا، فقد ولدنا هنا وهذه الأرض

أمنا، وها نحن لا نجد المرفأ الذى تصبو إليه نواتنا الكليمة، ونجد أنفسنا فى الساحل البربرى، كما فى كافة البقاع فى أفريقيا التى كنا نأمل أن نلجأ إليها وأن تستقبلنا بأذرع مفتوحة، لا نجد سوى الإهانات والتخوين... وتبقى رغبتنا الملحة فى العودة لأسبانيا. ولهذا تجد معظم هؤلاء الذين يعرفون اللغة جيدًا مثلى، ومنهم الكثير، يهجرون زوجاتهم وأبناءهم ويعودون، يحدوهم حبهم العظيم لإسبانيا. والآن أعرف حقيقة القول الشائع الذى يقول: إن حب الوطن جميل..."[١٨].

لقد أخطأ دستويفسكى قليلاً فى قراءته لثيربانتيس، وهو الذى شبه الرواية بالكتاب المقدس. رأى دستويفسكى فى دون كيخوته المسيح المولود من جديد، الذى يمثل كل قيم الخير فى مواجهة الشر. ولكن الرواية تتميز بالكثير الخارج عن المألوف، والذى لا يعطى مصداقية لقراءة مثل قراءة دستويفسكى. لقد كتب باختين الناقد الأدبى الروسى العظيم كتابات قليلة عن ثيربانتيس. هل اعتبر باختين العمل بمثابة هجوم على كل أنواع الدوجما الدينية ومن ثم نفر منه؟ من الصعب البت فى هذا الأمر. ولكننا نجد أن ما كتبه باختين عن دستويفسكى ينطبق أكثر على ذلك العمل الرائع، دون كيخوته:

مجموعة من الأصوات وانعكاسات الوعى المستقلة وغير المتداخلة، توليفة فريدة من الأصوات ذات الوجاهة والمصداقية - ذلك فى الواقع ما يمثل الملمح الرئيس لروايات دستويفسكى. ما نراه فى أعماله ليس مجرد مجموعة من الشخصيات والأقدار فى عالم موضوعى واحد، يقدمها لنا وعى المؤلف الوحيد. ولكننا نجد تعددية من انعكاسات الوعى- لكل حقوقه المتساوية ولكل عالمه الخاص يأتى متصلاً ولكن غير متداخل فى وحدة الحدث.

---

(١٨) دون كيخوته، ص. ٦٧ .

نعم، يسمح ثيربانتيس لمائة زهرة أن تتفتح فى الرواية. إنها رواية متعددة الأصوات، ولكن يبقى سر غامض صغير. ما سبب غضبه؟ لو أننا نحينا جانباً نموذج الحكاية داخل الحكاية الموروثة من الثقافة العربية، فماذا نجد فى قلب هذه الملحمة المدهشة؟ يسخر الكاتب مساحة كبيرة فى بداية الرواية للهجوم على أعمال الكتاب الرومانسيين من الدرجة الثالثة الذين كانوا مهووسين بعصر الفروسية، بل نجده يدمر هؤلاء الكتاب تدميراً. ماذا يعنى كل ذلك؟ يمثل هؤلاء الكتاب فى ظنى بصورة شديدة الغموض بدائل لما لا يستطيع الكتابة عنه. يدور الفصل السادس (الجزء الأول) بشكل أساس حول عملية تطهير مكتبة دون كيخوته التى تتم أثناء نومه. أما الكتب التى يتم حرقها بأسلوب مشابه لأسلوب محاكم التفتيش فهى كتب من الدرجة الثالثة عن الفروسية؟ كأنها روايات ميلز آند بون الرومانسية، ولكن فى العصور الوسطى. يشترك أحد القساوسة فى انتقاء الكتب التى سوف تقذف فى النار، معلقاً على الكتاب الأول بقوله: "إن هذا الكتاب هو منبع الوحى لبقية الكتب، وعليه أرى أن علينا إلقاء الكتاب لألسنة اللهب دونما التفكير فى أعذار، بما أنه يروج للعقيدة التى تتبعها تلك الفئة الضالة." يرى الحلاق الذى يقوم بمساعدة القسيس أنه ربما ينبغى الإبقاء على الكتاب بما أنه أصل وليس صورة. وهنا يوافق القسيس على مضض. وبعد عدة فقرات نرى كتاباً مستقى من ذلك الكتاب الذى عُفى عنه يلقى فى النار، ونجد القسيس قائلاً: إن "الرحمة التى لحقت بالأب لن تنقذ الابن". يهدف استخدام ثيربانتيس لشخصية قسيس إلى جعله يرمز إلى السبب الحقيقى وراء غضبه وحنقه. ألا يمكن أن نعتبر ثيربانتيس يقول: إن العهد القديم سوف ينجو من النار بينما يحترق كل ما دونه؟

توضح لنا حادثة إطلاق سراح العبيد وواقعة تخيل سانشو أنه حاكم الجزيرة – والتى لا تعدو كونها مزحة تعرض لها التابع الملكى من قبل بعض النبلاء الراغبين فى التسلية – أن ثيربانتيس كان يمقت الظلم. تجعل الواقعة الأخيرة النبلاء يضحكون فى الرواية، ولكنها بالتأكيد لا تضحك القارئ. يوحى لنا ثيربانتيس هنا أن المزحة تنقلب على منفذيها.

كما يظهر نفور ثيربانتيس من الدوجما جلياً فى مواضع عديدة فى الكتاب؛ مثل الواقعة التى يهجم فيها دون كيخوته مشرعًا حربته على مجموعة من التائبين والقساوسة الذين يظنهم العدو، كما يظهر فى العديد من التعليقات الجانبية والحوارات الساخرة التى يتداولها مع سانشو بانزا. وفى أحد المواضع فى الرواية، يعلن سانشو أنه لو كانت حسنته الوحيدة هى ولاؤه للكنيسة الكاثوليكية وكراهيته لليهود، فإن ذلك وحده يكفى لأن يحفر له مكانًا فى التاريخ. وهاكم الفقرة التى تأتى فى بداية الفصل السابع والعشرين من الجزء الثالث؛ حيث يعود المؤلف المغربى الخيالى مرة أخرى:

> **يبدأ سيد حامد، مدون هذه الوقائع العظيمة، هذا الفصل بعبارة أقسم بوصفى مسيحى كاثوليكى...، وهى العبارة التى يعلق المترجم الذى استأجره عليها قائلاً: إن القسم الذى يقسمه سيد حامد بوصفه مسيحيًا كاثوليكيًا بينما هو دون أدنى شك مغربى مسلم لا يعنى سوى أنه عندما يقسم، فهو يقسم أو ينبغى أن يقسم بالحق، مثلما يفعل المسيحيون الكاثوليكيون، وأن يقول الحق فى كل ما يقول، وعليه فقد كان يقول الحق عندما كتب قصة دون كيخوته، مثلما كان يقول الحق عندما أقسم بوصفه مسيحيًا كاثوليكيًا..[١٩].**

هل يمكن القول: إن الكاثوليكية، كما تمارسها إسبانيا الجديدة المحررة من الكفر، هى المركز الغائب فى الرواية والذى تنبنى عليه كل الأجزاء؟ لن يعجب هذا التفسير القراء التقليديين، ولكنه موجود تقريبًا فى كل فصل من فصول الرواية. أعتقد أن باختين الذكى قد فهم هذا وهو ما حدا به أن يتجنب الكتاب كلية. فقد كان يعلم المعنى الذى يحويه الكتاب، بعكس دستوفسكى.

---

(19) Don Quixote, 637.

وبعد موت الفارس، يكتب المؤلف الجملة الأولى فى الفقرة الأخيرة من الرواية: "لقد ولد دون كيخوته من أجلى وحدى، كما ولدت أنا من أجله وحده؛ كان يعرف كيف يتصرف، وكنت أعرف كيف أكتب...".

نعرف جيداً تصرفات دون كيخوته. فقد أصبحت العبارات التى تصف بعض مظاهر هذه التصرفات جزءاً من لغتنا اليومية، "مبارزة طواحين الهواء"، على سبيل المثال. أعتقد أن ثيربانتيس يحاول أن يخبرنا بشىء ما عن طريق المطابقة التى يجريها بين كتابه وهذه التصرفات. يقول لنا: لا تعتقدوا أننى عندما هجمت على طواحين الهواء الأدبية فى بداية الرواية لم أكن أعى ما أفعل. كان من الحتمى أن يفعل ما فعل بتلك الطريقة، بسبب العصر الذى كان يعيش فيه. هذا ما يجعله شجاعاً ومعاصراً بدرجة كبيرة. لقد كان يكتب فى عصره؛ ولكنه كان يكتب لكل العصور، وكان يهدف بكتاباته إلى تحذير الأجيال القادمة.

يناير/كانون الثاني ٢٠٠٩

٣

الحرب والسلام، الحياة والقدر

جاءت نشأتي في بيت شيوعي في دولة غير شيوعية في أعقاب الحرب العالمية الثانية لتعني أن أكون جزءًا من تجربة ثقافية يشترك فيها جماعة كبيرة من البشر موزعين على كل أنحاء الكرة الأرضية. يصف أقراني في الولايات المتحدة أنفسهم بأنهم "أطفال الحفاضات الحمراء"؛ حيث كانت المطابخ وحجرات الجلوس في بيوتهم مملوءة بأعداد من الصحف والمجلات؛ مثل "سوفيت ويكلي" و"سوفيت لتراتشر" و"ماسيس آند ماينستريم" و"ليبور مانثلي" و"فور آي لاستنج بيس" و"فور آي بيبولز ديموكراسي" وغيرها- كانت الأخيرة مجلة قصيرة العمر. وقد كانت معظم هذه الجرائد والمجلات متاحة في عدة لغات كبرى، وبعض اللغات النادرة.

جاء ذلك نتاجًا للإعجاب العالمي الذي حظيت به الثورة الروسية في عام ١٩١٧ من قبل جيل آبائنا. وقد تجلت إحدى نتائج ذلك الإعجاب في صورة الانتشار العالمي للثقافة الروسية: كافة أنواع الموسيقى، وأشكال فنية تتضمن حتى فن الباليه الذي كان يهابه الكثيرون، كما كانت هناك أيضًا رقصة الجوباك الشيقة، إلى جانب الأدب بالطبع، ذلك الأدب العظيم الذي أصبح جزءًا أساسيًا مما يتعلمه الأطفال في بيوت الحفاضات الحمراء في جميع أنحاء العالم. لم يكن منزلنا في لاهور يختلف كثيرًا، وكنت فيما بعد أجد متعة كبيرة في مقارنة تجاربي بتجارب الأصدقاء من الأتراك والصينيين وجنوب الأمريكيين الذين مروا بمراحل مشابهة.

كانت روائع الأدب الروسى تشغل مساحة كبيرة فى مكتبة والدى. لم يطلب منى أحد أن أقرأها قط، وقد يكون هذا هو سبب قراءتى لها. وجدتنى وأنا فى عمر السادسة والسابعة من عمرى مرغمًا على حفظ ترجمات إحدى قصائد بوشكين إلى الأردية والإنجليزية (وكانت القصيدة تدور حول الحرية وعن أن أصفاد سيبيريا الثقيلة سوف تسقط يومًا ما) وأن أرددها خلال اجتماع رابطة الكتاب التقدميين فى حضور العديد من شعرائنا ونقادنا العظماء الذين كان مترجم القصيدة دون شك موجوداً بينهم. كنت أجد سعادة فى التشجيع الذى أتلقاه وفى التربيت الذى كانت وجنتاى تتعرضان له مما كان يتسبب فى إصابتى بكدمات لمدة طويلة. وبعد سنوات طويلة خلت، وجدت نفسى أتساءل ما إذا كان أي من الرفاق يدرك أن قصيدة بوشكين كانت تنطبق بشدة على معسكرات العمل الإلزامى فى عهد ستالين. أشك كثيراً فى ذلك.

جعلنى ذلك أعرض عن بوشكين لعدة سنوات، ولكننى أعدت اكتشافه لاحقًا وأصبح صديقًا أبديًا. كتب بوشكين قصيدة "إلى سيبيريا" التى كنت أقرؤها صغيراً تكريمًا لانتفاضة الديسمبريين: "سوف تنكسر أصفادكم الثقيلة،/ وسوف تتهاوى سجونكم - وسوف/ تحيّيكم الحرية مبتهجة عند الباب،/ وسوف يضع إخوانكم السيف فى أيديكم".

قضيت سنين متعجبًا من نهاية رواية أونيجين (Onegin) الشعرية التى كتبها بوشكين. كيف تأتى لبوشكين أن يجعل الكلمة الأخيرة لامرأة؟ لقد جاء رفضها للرجل الذى أحبته فى الماضى أمراً جريئًا وغير تقليدى بالنسبة إلى خاتمة قصيدة ملحمية من القرن الثامن عشر. أو هذا ما كنت أرى. وقد اكتشفت بعد ذلك بوقت طويل أن الشاعر كان هو الآخر غير مرتاح لخاتمة قصيدته التى تشهد إهانة رجل. وقد فكر فى ختمها بصورة أكثر بطولية: يرحل أويجين المذلول عن عالمه وينضم لجماعة الديسمبريين. عرض بوشكين المقاطع التى كتبها على بعض الأصدقاء الذين رأوها تحمل نبرة تحريضية تجعل من الصعب نشرها. كان بعض أصدقاء الشاعر من الديسمبريين-

وهو ما قد يفسر لنا لماذا رسم الشاعر في إحدى صفحات مخطوط القصيدة مشنقة يتدلى منها خمس جثث لديسمبريين. كان الجزء المقطوع من القصيدة يتضمن الإشارة إلى القيصر بعبارات؛ مثل "الحاكم الضعيف المراوغ"، و"رجل غندور يعادى الكدح الشريف"، و"يصيبه المجد على حين غرة". ولكن تلك الأبيات الأخرى محيت تمامًا. ولو أن الشاعر لم يلق حتفه في مبارزة حمقاء تافهة، لكان دونما شك أعاد تجميع القصاصات المحروقة لكى يتركها للأجيال التى ستأتى بعده.

كان الكتاب الروسيون تحت حكم القيصر ومن بعده ستالين يكتبون في معظم الوقت وهم تحت أعين الرقيب النافذة الساهرة. ولكن الرقباء كانوا يسهون عن الكثير. وعلى الرغم من أوجه التشابه بين الدوجما التى ميزت الواقعية الاشتراكية في عصر ستالين والواقعية الاجتماعية التى تمثل رافدها الأكبر في عصر القيصر، فلا نجد الكثير مكتوبًا حول هذا الموضوع.

لم يكن الرقيب في عصر القيصر هو الذى يصر على اتباع معايير معينة؛ بل الناقد. كان الناقد الروسى الشهير بيلنسكى وحشًا مخيفًا يمكن أن يؤدى تعليق له على أحد الكتب إلى تدمير ذلك الكتاب كلية، وإن لم تكن لديه القدرة نفسها على تدمير المؤلف. (كان من الممكن في عصر ستالين أن يؤدى تعليق نقدى سلبى بحق أحد الكتاب إلى السجن أو الموت). كان بيلنسكى على الأقل محبًّا للأدب، وهو ما لا ينطبق على كثير من زملائه الذين كانوا يشترطون الاقتناع بالمحتوى التعليمى في أى قصة أو مسرحية أو رواية قبل أن يضعوا عليها خاتم الإجازة، وكانوا يتساءلون أولاً عم إذا كان العمل يزيد الوعى الجماهيرى؟ وإن لم يكن كذلك، فالمقصلة النقدية هى الحل الوحيد. وقد جاءت مقاومة النقاد من أتباع اتجاه الواقعية الاجتماعية لاستبداد القيصر عظيمة، ولكن كان أسلوب تناولهم للأدب ينم عن خيال تسطيحى ساذج. لم يقم هؤلاء لحسن الحظ بإصدار أية عقوبات قضائية.

قدم أنطون تشيخوف إيجازًا عبقريا لهذا السجال الواسع فى رواية قصيرة صدرت فى عام ١٨٩٥ بعنوان: ثلاثة أعوام، فى صورة نقاش أدبى يدور فى منزل أحد المثقفين الأثرياء:

نظر كونستانتين إلى يارتسيف نظرة غاضبة قائلاً: "لا يمكن اعتبار العمل الأدبى ذا أهمية أو فائدة إلا لو كانت فكرته الأساسية تقدم لنا غاية اجتماعية ذات معنى، فإذا كان الكتاب يرفض العبودية أو كان المؤلف يدين المجتمع الراقى وسلوكياته التافهة، فذلك إذًا عمل أدبى مهم وقيّم. ولكن بالنسبة إلى الروايات والأحاجى التى لا تتضمن سوى التأوهات ولماذا أحبت هذه المرأة ذلك الرجل ثم تركها – أقول: إن تلك الكتب تافهة ويجب أن تذهب للجحيم".

ردت يوليا سيرجييفنا قائلة: "أتفق معك تمامًا يا كونستانتين إيفانيش؛ حيث أجد أحد الكتاب يسهب فى وصف لقاء بين عاشقَين والآخر يصف واقعة خيانة والثالث اجتماع المحبين بعد التنائى. ألا يجدون موضوعات أخرى؟ هناك الكثيرون ممن يعانون المرض والتعاسة والفقر، والذين ينتابهم القرف بالتأكيد عند قراءة تلك الأشياء".

تضايق لابتيف حين سمع زوجته، وهى الشابة ذات الأعوام الاثنين والعشرين، تتحدث عن الحب بهذه الطريقة الجادة الجافة. وقد عرف بحدسه السبب.

رد يارتسيف قائلاً: "لو لم يكن بإمكان الشعر أن يحل المشكلات التى تعدها مهمة، فلماذا لا تحاول أن تجد الحل فى كتب عن التكنولوجيا أو الشرطة أو القانون الاقتصادى، أو أن

تقرأ مقالات علمية؟ لماذا ننتظر من روميو وجولييت أن تتناول قضية الحريات الأكاديمية أو معايير النظافة فى السجون، لا أن تتناول الحب، فى الوقت الذى بإمكانك فيه أن تجد عدة مقالات وكتب مبسطة الشرح عن هذه الموضوعات؟".

قاطعه كونستانتين قائلاً: "ولكنك تبالغ!" نحن لا نتحدث عن عمالقة مثل شكسبير وجوته؛ بل عن العشرات من الكتاب الموهوبين والمتواضعين الذين سيكون من الأفضل لهم أن يتركوا موضوعات الحب ويتصدوا لمهمة تلقين الجماهير المعرفة والأفكار الإنسانية".

كان ذلك رد تشيخوف على الهجوم العنيف الذى كانت أعماله تلقاه على يد النقاد الشعبويين؛ حيث وصف أليكساندر شابيشيفسكى تشيخوف بعبارة "المهرج الأدبى" الذى سوف ينتهى به الحال للاضمحلال فى الحضيض، منبوذاً لا يحزن عليه أحد ولا يذكره أحد. وربما كان ذلك هو ما دعا بولجاكوف للسخرية من شابيشيفسكى فى كتابه مرجريتا والسيد (The Master and Margarita) أو ربما يرجع السبب لوجود نقاد كثيرين ممن يشبهون شابيشيفسكى فى العصر السوفيتى. وقد كانت هناك فى ذلك الوقت نزعة قوية وحيوية نحو كتابة الأدب قبل - الثورى، وذلك على الرغم من رقابة القيصر والنقاد الشعبويين. وقد نجحت مجموعة من المجلات الأدبية النشطة فى الاستمرار فى الظهور والتأثير على الرغم من الرقابة، كما كانت أعمال كتاب مثل بوشكين وليرمونتوف وجوجول ودستويفسكى وسالتيكوف - شيدرين وتشيخوف وتنجيريف وتولستوى وأستروفسكى تحظى بنسبة قراءة عالية فى حدود ما كانت تسمح به أعداد من يعرفون القراءة وقتها.

وقد شهد العقد الذى تلا الثورة نقاشات ثقافية عنيفة، ولكن ذلك لم يؤثر فى استمرارية الأساليب الأدبية. فقد عارض كل من لينين وتروتسكى فكرة "الفن

البروليتارى"، كما كان آى. فى. لوناخارسكى، أول مسئول شعبى (وزير) للتعليم، ناقدًا أدبيًا موهوبًا وكان يعتبر أن الأدب الروسى الحديث قد ولد مع بوشكين. وبينما كانت فكرة الثقافة البروليتارية تحظى بمؤيديها، فإنها لم تكن جزءًا من سياسة الدولة فى العشرينيات. كان تروتسكى يرى أن الحديث عن "الأدب البروليتارى" حديث فارغ وضار، إذ كان يرى أن المدافعين عنه "يزيفون الرؤى وينتهكون فكرة التوازن ويشوهون المعايير ويدعمون غطرسة صغار النقاد وهو الأمر الأخطر".

وقد رد الفنانون الطليعيون السوفيت على هذه الأفكار، قائلين: إن طبقة جديدة أصبحت فى السلطة الآن، وإن هذا الفن جاء نتيجة لذلك، وإن ذلك التطور الفنى اللافت كان له وجود حتى من قبل قيام الثورة، بل وكان مبشرًا بها. وقد رد تروتسكى على ذلك قائلاً: "إن الطبقة الجديدة لا تخلق ثقافة جديدة من اللا شىء، ولكنها تسعى لاستعادة ملكيتها من الماضى، وتبحث فيه وتعيد تنظيمه ثم تبنى عليه. ولو أننا لم نستعن بتلك "الخزانة من الملابس المستعملة" التى تجمعت على مر العصور، فلن نشهد أى تقدم فى العملية التاريخية".

لم ينتج الكتاب السوفيت الذين حاولوا الكتابة أثناء عصر الرعب أعمالاً ذات قيمة حقيقية، بينما جاءت إنجازات الرسامين المنتمين لتيار الواقعية الاشتراكية أفضل، محققة نتائج أكثر زلزلة فى بعض الأحيان. نجد إحدى هذه اللوحات تقدم لينين فى صورة بطولية يخاطب مجموعة صغيرة من العمال، ولكنك عندما تنظر بتدقيق تجد أن أحد العمال يغط فى نوم عميق. أما الكتاب فقد لجئوا لاستخدام الحكايات الرمزية (كما فعل بلجاكوف)، أو حكايات أخلاقية ساذجة تخلو من أى صراع حقيقى. وقد شهد ذلك الوقت كذلك بعض التحولات الإيجابية: فمع الاتساع السريع لرقعة القراءة والكتابة ظهرت طبقة واعية من القراء أقبلت بشراهة على قراءة الكتب الشهيرة، التى كانت دور النشر التابعة للدولة تحرص على إعادة طبعها بشكل منتظم.

وفى نهاية فترة الخمسينيات التى توصف بأنها فترة "بداية الذوبان"، قامت نوفى مير أهم المجلات الأدبية فى البلاد بنشر رواية يوم فى حياة إيفان دينيسوفيتش

(A Day in the Life of Ivan Denisovich) للكاتب أليكساندر سولزينستين، التى يتناول فيها حياة أحد المساجين السياسيين. وقد لاقت الرواية إقبالاً سريعًا، مما تسبب فى وقوع اللجنة المركزية فى الحزب فى حيرة كبيرة، وهى اللجنة التى كانت حريصة على عرقلة مسار "بداية الذوبان". وقد منعت رواية دكتور زيفاجو (Dr. Zhivago) للكاتب بوريس باسترناك (وهو الأمر الذى أدى لاحقًا إلى فوزه بجائزة نوبل للأدب)، الأمر الذى حدث مع روايتين لاحقتين لأليكساندر سولزينستين وهما الدائرة الأولى(The First Circle). وعنبر مرضى السرطان (Cancer Ward) وتمكن الكاتب من تهريب أصل الروايتين خارج البلاد حيث صدرتا بلغات متعددة، فى تحد واضح للرقابة. "أعداء الشعب" لا يفنون.

وقد نُشرت خلال الثمانينيات أعمال اثنين من الكتاب خارج روسيا - كاتباى المفضلان أندرى بلاتونوف وفاسيلى جروسمان. كان بلاتونوف الذى ولد فى عام ١٨٩٩ ابنًا لحداد يعمل فى فى مصلحة السكة الحديد، وقد اتجه خلال فترة تعليمه المبكرة نحو دراسة الهندسة، ولكن قدراته الأدبية سرعان ما تبينت. ولأنه كان ينتمى إلى عائلة راسخة فى الطبقة العاملة فقد أرسله اتحاد فورونيج للكتاب البروليتاريين وهو فى سن العشرين لحضور المؤتمر التأسيسى لاتحادات العمال الروس الذى أقيم فى عام ١٩٢٠ . وعندما سئل بلاتونوف فى أحد الاستبيانات عن الاتجاه الأدبى الذى ينتمى إليه، أجاب بدقة: "لا أنتمى إلى أى اتجاه. لدى اتجاهى الخاص".

وقد تنقل بلاتونوف كثيرًا فى الريف خلال عام ١٩٢٩ وكتب نصًا لاذع السخرية عن سياسة الجماعية التى كان ينهجها ستالين بعنوان للاستخدم المستقبلى: دفتر أحوال فلاح فقير. (For Future Use: A Poor Peasant's Chronicle) وقد رفض جميع الناشرين الذين عرضت عليهم الرواية نشرها للأسباب نفسها، إذ شعر جميعهم أن نبرة الكتابة "خاطئة". وقد فوجئ بلاتونوف بموافقة دار ريد فيرجين سويل للنشر على نشر الكتاب، وكان يرأس تحريرها فى ذلك الوقت الكاتب أليكساندر فادييف الموالى للنظام. وتورد أحدث طبعات موسوعة الكتاب الروسيين ما حدث:

قام فادييف أثناء تجهيزه الكتاب للنشر بوضع خطوط تحت الفقرات التى كان يرى ضرورة حذفها لاعتبارات سياسية، ولكن عمال المطبعة أساءوا فهم تعليمات فادييف، فقاموا بكتابة الأجزاء التى تحتها خط ببنط واضح بدلاً من حذفها. وقد سهل ذلك مهمة ستالين عندما جاء الكتاب إليه، إذ أغضبته القصة وأسماها "دفتر أحوال المزارع الثرى"، كما نعت مؤلفها "بالحثالة". وقد انعقدت اللجنة المركزية بالحزب فى جلسة خاصة لإدانة المجلة التى يشرف عليها فادييف لنشرها قصة بلاتونوف "المعادية للاتحاد السوفييتى". وسرعان ما غير فادييف اتجاهه بعد أن تبين الاتجاه الذى أخذته الأحداث؛ حيث قام بنشر مقالة يدين فيها القصة التى كان قد وافق عليها من قبل، ناعتًا بلاتونوف بصفات؛ مثل "عدو الطبقة" و"عميل المزارعين الأثرياء" المتخفى.

لا أعتقد أن عمال الطباعة "أساءوا فهم" تعليمات فادييف، فقد كان هؤلاء العمال من أكثر العمال وعيًا سياسيًا، سواء قبل الثورة أو بعدها. وتشير كل الدلائل إلى أنهم كانوا يفهمون مقصد فادييف جيداً وقرروا تلقينه درساً.

كتب بلاتونوف رواياته الثلاث الكبرى بأسلوب تجريبى متأثر كثيراً بالنزعة الحداثية. وقد كتب رواية البحر الصبيانى (The Juvenile Sea) فى عام ١٩٣٤ ونشرت فى عام ١٩٨٦، ثم الهوة التأسيسية (The Foundation Pit) فى عام ١٩٣٠ ونشرت فى عام ١٩٨٧ . أما رواية تشيفينجور (Chevengur) فقد نشرت فى عام ١٩٨٨ بعد أن رفضت الدار الفيدرالية للنشر نشرها فى عام ١٩٢٩ . وقد استاء بلاتونوف من رفض نشر الأخيرة أكثر من الرفض الذى تلقاه بخصوص الأعمال الأخرى، وأرسل مخطوط الرواية لماكسيم جوركى مع رسالة تقول: "رفضوا نشرها... بحجة أن الكتاب سوف

يفهم على أنه معادٍ للثورة. ولكننى كتبته بقناعات مختلفة تماماً ...". كان جوركى يفهم الموقف؛ ولكن لم يكن باستطاعته فعل شىء. لم يكن باستطاعة أحد فعل شىء.

ويقى المخطوط دون نشر، ولكن ابن بلاتونوف المراهق ألقى القبض عليه واحتجز لمدة ثلاثة أعوام تحت ظروف مزرية؛ حيث أصيب بمرض السل وتوفى بعد إطلاق سراحه بمدة قصيرة. كان بلاتونوف على حق: كانت تشيفينجور رواية ثورية تتناول الخطر الكامن وراء خطط السياسات الجماعية المستبدة، وتستشرف مغبة تحول آلة الدولة نحو البيروقراطية التى تمثل خطراً يهدد الثورة. ويشبه بلاتونوف هذه العملية بنمو الخلايا السرطانية، حيث يتنبأ بقدرتها على تشويه وخنق وقتل كل خلايا البنية الحية.

تدور الرواية حول البلدة الصغيرة المسماة تشيفينجور التى يقطنها أحد عشر بلشفيًّا بالعدد، يؤمنون بأنهم نجحوا فى تأسيس مجتمع شيوعى. هؤلاء البسطاء يعتقدون أن الشيوعية تتأسس بالقضاء على الطبقة البرجوازية. لا تكمن المشكلة فى تصورهم فى ملكية الأرض والمصانع بل فى الأفراد. إنهم يملكون السلطة، إذاً فليقتلوا البرجوازيين الكلاب أولاً، ثم أنصاف البرجوازيين، ثم أرباع البرجوازيين، ثم...؟ ثم ستجبر الشمس الحب على النمو من قلب الأرض من تلقاء نفسها. وتتناول القصة عمليات إعدام أصحاب الأراضى وأنصاف البرجوازيين تناولاً مؤلماً: "نفذ دخان بطىء من رؤوس البرجوازيين، ثم سالت منها بعد قليل مادة خام تشبه الشمع المنصهر..." إنه عمل شاق. ثم قرر سكان مدينة تشيفينجور أن "يغسلوا أرضيات البيوت الفارغة. لتصبح ملائمة لسكنى البروليتاريا فى القريب العاجل". يبدى المؤلف تعاطفاً واضحاً مع العمال الأحد عشر، فهم ضحايا التاريخ، ونتاج للأمية والعبودية الممتدتين منذ مئات السنين، هم أبناء فكر الحكم المطلق. تبدو الرواية أحياناً وكأنها المعادل الأدبى لمقالة جرامشى المعنونة: "الثورة على رأس المال" التى ترى فى الثورة التى تولد غير مكتملة "ضرورة بيولوجية"، كان الروس سيقعون قيد استبداد الذئاب لو لم تحدث.

أدرك قائد تشيفينجور غريزيًا حاجة المدينة إلى شخص مثل ستالين:

> **كان الأمر الوحيد الذى يثير اطمئنان تشيبورنوى هو وجود مكان خفى بالقرب من موسكو يسمى الكرملين، والذى وجده بروكوفى على الخريطة. يجلس لينين هناك ممسكًا بالمصباح مفكرًا. لا ينام، بل يكتب. ما الذى يكتب؟ تشيفينجور موجودة فى الواقع وقد آن الأوان للينين أن يتوقف عن الكتابة، ويتحد مع البروليتاريا، ويعيش...**

ما من عجب أن الرواية فهمت فى عام ١٩٢٩ على أنها هجوم شديد على أيديولوجية البيروقراطية السوفيتية. يقول لنا المؤلف: إن الستالينية ما هى إلا اشتراكية الحمقى والبدائيين. توفى بلاتونوف فى سن مبكرة فى عام ١٩٥١، بعد إصابته بمرض السل نفسه الذى أودى بحياة ابنه.

أما فاسيلي جروسمان فينتمى إلى مرحلة لاحقة. ولد الكاتب فى أوكرانيا فى عام ١٩٠٥، ودرس الكيمياء فى جامعة موسكو، ثم التحق بعد تخرجه بالعمل كمهندس مراقب إجراءات السلامة فى مناجم دونباس. وقد لفتت قصته القصيرة بعنوان: "فى بلدة بيرديتشيف" انتباه ماكسيم جوركى. بدأ جروسمان بكتابة روايات وقصص قصيرة بأسلوب الواقعية الاشتراكية. وهى أعمال لم تكن مميزة ولكنها كانت تعكس قدراته الأدبية. ثم انتقل إلى موسكو فى عام ١٩٣٣، حيث تبناه جوركى. وقد انتابت جروسمان الذى كان إلى حد ما مواليًا للشيوعية صدمة كبيرة حين ألقى القبض على ابن خالته وصديقه المقرب ناديزدا الماس بتهمة مساندة المعارضة التروتسكية. كان كلا الرجلين يعرف المعارض فيكتور سيرجى وكانا من المعجبين به. وقتها ألقى القبض على الكثيرين من المنتمين إلى الدائرة نفسها، ولكن سيرجى سمح له بمغادرة الاتحاد السوفيتى فى عام ١٩٣٦ .

خضع جروسمان نفسه للتحقيق من قبل البوليس السرى ولكن ذلك حدث كأمر شكلى، إذ لم يضايقه أحد. ولكن ابن خالته تعرض للنفى، بينما حالف الحظ ناديا

ونجحت فى الهرب. وقد جاء معظم ما تعلمه جروسمان عن المعارضة اليساسرية منها ومن أعضاء المجموعة الآخرين، وهو ما استخدمه استخدامًا جيدًا فى روايته الحياة والقدر (Life and Fate)، رائعته التى شرع فى كتابتها بعد الحرب العالمية بقليل.

شاع خلال العقود الثلاثة الماضية التقليل من ارتباط هؤلاء الذين انشقوا عن النظام بالشيوعية. كان جروسمان شيوعيًا عتيدا، ولكنه لم يسمح لذلك بالتأثير على حكمه على الكثير من القضايا. وقد كان كثيرًا ما ينطق بالحقيقية، حتى فى الأوقات التى لم يكن ذلك فيها مناسبًا. كما لا نستطيع التشكيك فى الثقة التى كان يكنها الحزب له، وإلا كيف صار مراسلاً سياسيًا خاصًا لجريدة الجيش المسماة النجم الأحمر: (Red Star) حيث كان يرسل تقارير من الجبهة الشرقية بانتظام؟ وقد شهد مباشرة المعركتين الفاصلتين فى الحرب العالمية الثانية - ستالينجراد وكورسيكا - واللتين قصمتا ظهر الرايخ الثالث وجعلتا النصر النهائى أمرًا حتميًا.

وعندما بدأ الجيش الأحمر فى التقدم، اكتشف جروسمان تفاصيل موت والدته وموت يهود آخرين، فانتابه إحساس جارف بالذنب حتى نهاية حياته، حيث كان يرغب فى إحضار والدته لتعيش معه فى موسكو فى أمان لولا اعتراض زوجته. ثم شرع جروسمان فى كتابة "الكتاب الأسود" بالاشتراك مع إليا إيرينبيرج وهو الكتاب الذى يصف التصفية العرقية بإسهاب. ثم انفصل جروسمان عن النظام بشكل قاطع بالتزامن مع الهجمات التى شنها ستالين فى أواخر أيامه ضد اليهود التى أدت إلى تصفية الحزب وهيكله منهم، إذ لم يعد قادرًا على تقبل المزيد.

وقد جاءت الحياة والقدر نتاجًا لكل هذه الأحداث، وجاء حصار ستالينجراد مركزيًا فيها. كان حصار المدينة فى خضم حرب وحشية قاسية هو الاستعارة التى استخدمها جروسمان ليعبر عن أحوال القرن العشرين.

يعد مؤلف الحياة والقدر جزءًا من أحداث الرواية، بخلاف الحال مع باستيرناك وسولزينيتسين، فقد كان على دراية بخبايا عمل نظام ستالين، وجعلته المرارة والغضب اللذان شعر بهما خلال الفترة التى تلت الحرب مباشرة ينسى السبب الذى جعله شيوعيًا فى المقام الأول. يعبر المؤلف عن تعاطف حقيقى مع الجنود والرجال الذين

يقطنون "المنزل رقم ٦/١"، فهم يحاربون من أجل الاتحاد السوفيتى غير عابئين بالمرشدين الملتحقين بقوات الجيش. إنهم يحاربون لأن عقولهم مستقلة وأرواحهم نافذة فى نقدها. هم الأبطال الوحيدون فى رواية يسودها الغباء والوحشية اللذان ميزا الحقبة الستالينية والفاشية[٢٠]. كانوا جميعهم أعضاء سابقين فى قوى المعارضة التى دمرها ستالين، والذين بقوا بعد أتلانتيس. ذلك هو الإهداء الذى كتبه جروسمان لهؤلاء الذين حذروا فى وقت مبكر (فى العام ١٩٢٤) من المنعطف الذى كانت الأمور تسرع إليه. يقول أحد الموجودين فى المنزل رقم ٦/١ فى محادثة مع أحد المرشدين:

> **قال سوشكين: "لا أستطيع فهم ما يجرى هنا، فيبدو أن الكل مرعوب من جريكوف، ولكنه يدعى أنه واحد منهم. ينامون جميعهم فى كومة واحدة على الأرض، بما فيهم جريكوف، ويناديه باسمه الأول فانيا. سامحنى، ولكن الأمر يشبه أحد كوميونات باريس أكثر ما يشبه وحدة عسكرية".**
>
> **اهتم مرشد المنطقة بما سمعه، وأمر بيفوفاروف بجمع معلومات مفصلة عن الأحوال فى المنزل رقم ٦/١ وبأن يعنف جريكوف فى التو واللحظة. ثم أرسل فى الوقت ذاته لعضو المجلس العسكرى السوفيتى وإلى رئيس القسم السياسى فى الجيش محذرًا من الوضع المقلق داخل المنزل رقم ٦/١، سواء من الناحية الأخلاقية أو السياسية.**

تأتى رواية الحياة والقدر متشابهة بشكل عام مع رواية الحرب والسلام (War and Peace) لليو تولستوى؛ إذ يسهب المؤلفان فى عرض آرائهما حول التاريخ والفلسفة، التى تأتى غالبًا فى صورة غير متماسكة تمامًا، مما يجعل السرد محملاً

---

(٢٠) لم يكن بوسعه رؤية التساوى بين الاثنين أثناء الحرب، لكنه كان أسهل بكثير فى الرواية. فلو لم يكن هناك فرق كبير بين الاتحاد السوفيتى والرايخ الثالث، فما الداعى للانضمام لطرف دون الآخر؟ كان جروسمان يعلم أن اليهود السوفيت تمكنوا من تنظيم قدرتهم على المقاومة على الرغم من موجات المعاداة للسامية هناك، وهو السبب الذى جعل من هاجروا لإسرائيل لا يشعرون بأنهم ضحايا الهزيمة بالقدر الذى يشعر به أبناء دينهم الذين نجوا من التطهير العرقى لليهود.

بأكثر من اللازم. كان من الممكن لكتاب جروسمان أن يظهر بشكل أفضل لو أنه لم يقلد الكونت تولستوى فى هذا الصدد؛ إذ يجعل ذلك الأسلوب الرواية مملة للغاية.

ولكن يبقى وجه كبير للاختلاف بين الكتابين يجعل من الحياة والقدر رواية أفضل، حتى مع اختلافنا أحياناً مع التاريخ الذى يؤطر العمل. يكتب جروسمان وهو فى حالة نفسية شديدة الفنائية، معبراً عن عداوته لكل ما هو سوفيتى، رافضاً كافة أوجه الستالينية بمقت شامل يدعونا للتفكير فى أنه ولا بد يحمل قدراً صغيراً من كرهه لذاته كونه كان فى وقت ما جزءاً من ذلك النظام، حتى ولو بصورة هامشية[٢١]. وتتطور حبكة الرواية، فى ظل غياب تام لتصنيفى الخير والشر، لتعرض لنا الرغبات المكبوتة فى الحياة اليومية فى الاتحاد السوفيتى تحت حكم ستالين. ويمكن بشكل ما اعتبار الرواية رواية تاريخية واقعية بامتياز، مكتوبة بأسلوب مؤثر يعتمد على التحفظ فى التعبير مثلما نجد محاولة إيفينيا فى الفصل الرابع والعشرين الحصول على تصريح للبقاء فى كويبيشيف (المدينة التى عادت الآن تحمل اسمها القديم، سامرا، التى يحمل أحد أزقتها اسم أبيها البلشفى). تفشل إيفينيا فى الحصول على التصريح جراء التعنت البيروقراطى والخوف وغياب الإنسانية. لا يأتى وصف جروسمان هنا منطوياً على شبهة الميلودراما؛ إذ يعرض الحياة اليومية كما كان يعيشها المواطنون السوفيت، حتى ذوى الحظوة القليلين منهم.

يكمن الفارق بين جروسمان وتولستوى فى أن جروسمان قد خبر الحرب بالفعل ثم كتبها فى روايته العظيمة بينما كان على تولستوى أن يبنيها من الألف إلى الياء. ويتطلب بناء التاريخ فى الرواية الكثير من الحرص. فلا ينبغى تشويه الأحداث والأشخاص. فلو كانت الرواية مثلاً تتناول حياة قائد عظيم، فلا ينبغى تقديمة بصورة مغالطة إلا بالقدر الذى يمكن تخيله. لم تكن حجرة النوم المكان المفضل لتولستوى ولكنها جاءت فى رواياته مسرحاً لأحداث مؤلمة[٢٢]. يأتى بناء الحدث التاريخى المتعلق

---

(٢١) لو أن جروسمان لم يتوفى فى عام ١٩٦٠ لكان شهد صدور روايته على أجزاء فى المجلة الأدبية الرسمية أكتوبر فى عام ١٩٨٨- قبيل انهيار الاتحاد السوفيتى بسنوات قليلة.

(٢٢) علق أنتونى باول ذات مرة قائلاً : إن أنا كارنينا كانت ستصبح رواية أفضل لو أن البطلة التى تحمل الرواية أسمها كانت تزوجت فرونسكى وأقامت علاقة مع كارينين. لم يكن الأمر تطلب تغيير السطر الأول فى الرواية: "تتشابه العائلات السعيدة جميعها، ولكن لكل عائلة تعيسة تعاستها الخاصة".

بشخصية كوتوزوف فى رواية تولستوى غير تاريخى، وهو ما ينتج لنا أحد أضعف شخصيات البطل التى صاغها الكاتب فى حياته. تصور رواية الحرب والسلام نابليون فى صورة الوغد، بينما تعلى من قدر الجنرال كوتوزوف شديد الرجعية. يرمز الرجل الذى يمتلك الأقنان إلى الفلاحين فى روسيا الأم مثلما تفهم الأسرة التى تملك عبيداً التى تمجدها كاتبة رواية ذهب مع الريح (Gone with the Wind) احتياجات العبيد الذين يملكونهم أكثر ما يفهمها أى مناد بالقضاء على العبودية. قد لا تعجب هذه المقارنة محبى تولستوى، ولكنها تستحق التمعن: ناتاشا هى سكارليت أوهارا فى الحرب ضد نابليون، وكوتوزوف هو روح روسيا الباقية إلى الأبد:

> **يمثل نابليون للمؤرخين الروس، ويا للعجب، مصدراً للحماس والإعجاب. يرونه عظيماً، وهو ذلك الأداة التاريخية المتناهية التفاهة، الذى لم يظهر أى قدر من الكرامة الإنسانية فى أى مكان حتى فى المنفى. وفى الوقت نفسه يرى هؤلاء المؤرخون كوتوزوف كشخص غير واضح المعالم ومثير للشفقة، وهو الرجل الذى قدم مثالاً نادراً فى التاريخ لإنكار الذات والوعى المستقبلى بمغزى ما يحدث فى الحاضر، منذ بداية ظهوره على الساحة حتى نهايته فى عام ١٨١٢، من بورودينو حتى فيلنو، كان متسقاً مع ذاته فى كل ما قال أو فعل... وعلى الرغم من ذلك فمن الصعب تصور شخصية تاريخية كانت تتفانى بكل عزم وتصميم فى سعيها نحو هدف واحد لا يتغير. ومن الصعب تخيل هدف أكثر أهمية وأكثر اتساقاً مع إرادة شعب بأكمله...**

ترى، ما الذى كان يدور برأس الكونت تولستوى حين كتب هذه السطور؟ هل كان يشعر بالتطابق مع الرجل؟ تحول تولستوى إلى صورة كوتوزوف، مخلّص روسيا أجمع، المعلم العظيم، والنجم الذى يهتدى به الناس. يقع الكتاب أحياناً تحت وطأة مثل تلك الخيالات. ببساطة، لا يمكن للشخصيات الخيالية الهامشية المرسومة بعبقرية أن تنافس الجنرال. يأتى تصوير شخصية نابليون فى شكل زائف. وقد كان ستوندال الذى شارك فى الصراع نفسه ناقداً لنابليون ولكن من موقع أكثر راديكالية بكثير.

انعكس الموقف والنبرة المتعصبة التى تميز الحرب والسلام فى أسلوب ستالين وورثته من بعده. لم يكن جروسمان غافلاً عن كل هذا؛ حيث صور فى روايته الحياة والقدر لجوء الكثيرين لاستحضار تولستوى خلال الحرب العالمية الثانية. يرى أحد الجنرالات السوفيت أن تولستوى قد شارك فى الحرب ضد نابليون وأنه يجب على أحد المحققين تصحيح ذلك:

ثم تحدث جورييف عن التغطية الرديئة التى تقدمها الصحف للحرب.

"هؤلاء الأوغاد لا يشهدون المعارك بأنفسهم، بل يكتفون بالجلوس على الضفة الأخرى لنهر الفولجا ويكتبون مقالاتهم. ولو قدم لهم أحد عشاءً جيدًا، يكتبون عنه. هم بالتأكيد ليسوا مثل تولستوى. يقرأ الناس رواية لحرب والسلام منذ قرن من الزمان وسوف يقرءونها لقرن آخر. لماذا؟ لأن تولستوى كان جنديًا؛ لأنه اشترك فى الحرب بنفسه. ولهذا كان يعرف من يستحق الكتابة أن يكتب عنه".

قال كريموف: "إذا سمحت لى يا رفيقى الجنرال، فإن تولستوى لم يشارك فى الحرب الوطنية".

"لم يشارك فيها- ماذا تقصد؟".

رد كريموف: "أقصد ما أقول. فهو لم يشارك فيها؛ بل إنه لم يكن قد ولد وقت الحرب ضد نابليون".

أجاب جورييف قائلاً: "لم يكن قد ولد؟ ماذا تعنى؟ كيف ذلك؟".

ثم بدأت هنا مناقشة عنيفة – لأول مرة تحدث بعد إحدى محاضرات كريموف. وقد اندهش كريموف لرفض الجنرال تصديقه كلية.

ثم نجد جروسمان يعود لذات الموضوع لاحقًا فى الرواية:

قال سكولوف: "لو كنت ستتكلم هكذا، لن يكون هناك مكان فى المشهد الثقافى الرسمى لأى عمل أدبى من القرن الماضى".

رد مادياروف قائلاً: "بالعكس. فماذا عن تولستوى؟ لقد حول فكرة الحرب الشعبية إلى شعر. والآن أعلنت الدولة لتوها حربًا شعبية. لقد تطابقت فكرة تولستوى مع فكرة الدولة، وهكذا فقد استدعيت البساط السحرى، بحسب تعبير كريموف. والآن نسمع تولستوى فى المذياع، ونشهد أمسيات أدبية مخصصة له، بينما يعاد طبع أعماله طوال الوقت، بل إن قادتنا يقتبسون من كلامه الكثير".

بعد مرور سنوات عدة، وجدتنى فى محادثة طويلة حول ذلك الموضوع مع كاى دامودوران، وهو أحد قيادى الحزب الشيوعى الهندى. وكان دامودوران لا يزال مصدومًا وغاضبًا وهو يتذكر الواقعة التالية:

أذكر أن زرت الاتحاد السوفيتى مرة أخرى فى عام ١٩٦٢ لأسباب صحية. وكنت قد تعلمت القليل من اللغة الروسية أثناء فترة سجنى بين أعوام ١٩٤٠-١٩٤٥، وقد كان ما تعلمته يكفى لكى أستطيع قراءة جريدة برافدا ولكن ببطء شديد. وقد تزامن وجودى فى موسكو مع الاحتفال بذكرى فشل نابليون فى غزو موسكو وما تبعه من انسحاب لجيوشه. وكانت مجرد فكرة الاحتفال بانتصار يرجع لعهد القيصر غريبة بما يكفى، ولكن ما زاد الأمور سوءًا فى رأيى كان ذلك المقال المسهب فى هجاء نابليون على صفحات برافدا. شعرت حينذاك بالفزع إزاء الحماس القومى الشديد الذى تميزت به المقالة. كان نابليون يمثل

بالطبع قوة ثورية مضادة فى سياق الثورة الفرنسية، ولكن لو كان لنا أن ننحاز لأحد الطرفين فى حرب مع حكم القياصرة الشمولى، فسوف يكون الانحياز لنابليون بالطبع وليس للقيصر.

لقد كان نابليون على الرغم من كل شيء يحمل الثورة البرجوازية - الديموقراطية لتلك الأراضى التى كان يغزوها، حتى ولو أتت تلك الثورة فى صورة مشوهة وغير نقية. وقد اصطفت كل قوى الرجعية فى أوروبا ضده. ويمكننا هنا التماس التشابه مع اجتياح الجيش الأحمر لشرق أوروبا فى نهاية الحرب العالمية الثانية والقضاء على الأسلوب الرأسمالى فى الإنتاج. كنت أرقد فى المشفى أقرأ تلك المقالة ولم يكن لدى الكثير غير ذلك لأفعله، ولهذا فقد قررت كتابة رسالة إلى رئيس تحرير برافدا لأعبر له عن صدمتى وغضبى تجاه الموقف الرجعى الذى تتخذه المقالة. وبعد تلك الحادثة وجدتنى أسعى بحماس لكى أحصل كل يوم على نسخة من برافدا لأرى إذا ما كانت رسالتى ستنشر، وكنت أصاب بالإحباط كل يوم.

وبعد مرور أسبوع جاء أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى لزيارتى مدعيًا رغبته السؤال عن صحتى وأخبرنى أنه قرأ الرسالة التى بعثت بها للجريدة. ولما سألته كيف تأتى له أن يقرأ رسالتى والتى كانت موجهة لرئيس تحرير الجريدة، وجدته يتجاهل السؤال وينبرى فى الدفاع عن تقييم برافدا لنابليون. وقد قاطعته قائلاً: إننى أرحب بإقامة نقاش معه أو مع أى من الرفاق الذين يكتبون فى الجريدة، ولكنى لا أرغب فى سماع محاضرة مطولة فى حجرتى فى المشفى. كل تلك

الأمور بالطبع تنم عن مشكلات أكثر خطورة، ولكن تلك كانت الطريقة التى تفتحت بها عيناى. يمكن أن تتعلم الكثير وأنت فى الاتحاد السوفيتى لو أنك أردت التعلم!(٢٣).

كان تولستوى يجهز لكتابة رواية عن الديسمبريين ولكنه غيَّر رأيه وكتب الحرب والسلام بدلاً منها، تلك الرواية التى لا تختلف كثيراً عن مسلسلات التليفزيون المملة أو قصص الحب الساذجة التى تجعلها بعض شخصياتها اللافتة أكثر تشويقاً. وجدير بالذكر أنه ليس من بينها تلك الشخصيات شخصية أندراى (الذى يمثل طبقة النبلاء) ولا ناتاشا التى يمكن اعتبارها الأميرة ديانا فى سياق الثقافة الروسية(٢٤) يأتى على لسان إحدى الشخصيات فى أعظم روايات سولزينيتسن بعنوان الدائرة الأولى أنه "عندما يكون لدولة ما كاتب عظيم، فكأنما لديها حكومة ثانية"، وهو بالتأكيد لم يكن يتحدث عن الحرب والسلام.

ينطبق وصف سولزينيتسن أكثر على بعض روايات تولستوى الأخرى التى يقوم فيها بزعزعة الأفكار الثابتة، على الرغم من أن نزوع الكاتب نحو استخدام الأسلوب المتقعر فى سرد الحكاية الأخلاقية قد يجعلنا نلفظ العمل كلية. خذ مثلاً رواية البعث (Resurrection). على الرغم من تميزها بما سبق، فإن الرواية تشدنا لها لأنها تتناول موضوعاً يمكننا التماهى معه اليوم: الدين المؤسسى. فقد طرد تولستوى من الكنيسة الروسية الأرثوذكسية جراء كتابته هذا العمل. وسوف تساعدنا الفقرة التالية على فهم السبب، وهى عبارة عن تصوير لأحد كبار موظفى الدولة:

وقد كان المركز الذى يشغله توبوروف، والذى ينطوى على تناقض فى الغايات، لا يتأتى إلا لرجل غبى ومتبلد الحس، وهما صفتان تميزان توبوروف. وقد تمثلت المفارقة التى انطوى عليها

---

(23) New Left Review 1: 93, September-October 1975.

(٢٤) كنت ضيفًا على اتحاد الكتاب فى موسكو فى إحدى زياراتى للمدينة فى الثمانينيات؛ حيث أخبرنى مضيفى أن المبنى الجميل الذى يشغله الاتحاد كان فيما سبق مملوكًا لعائلة من النبلاء استوحى منها تولستوى عائلة روستوف فى الرواية. لم أفعل سوى الابتسام.

> **المركز الذى يشغله فى أنه كان من واجباته أن يحافظ على الكنيسة التى تعلن بنفسها أن الله بذاته هو الذى أسسها وأنها لا يمكن أن تزعزعها بوابات الجحيم أو الفعل الإنسانى - لا يحافظ عليها فحسب، بل يدافع عنها بكل الإجراءات الخارجية المطلوبة بما فيها العنف. كان من الضرورى أن تدافع مؤسسة أقامها الإنسان، وهى المؤسسة الكنسية التى أسسها القيصر ويديرها توبوروف وموظفيه، عن المؤسسة المقدسة الثابتة التى أسسها الله. لم يكن توبوروف يدرك تلك المفارقة، ولم يكن يرغب فى أن يراها، ولهذا فقد كان قلقًا إزاء إمكانية أن يتمكن كاهن كاثوليكى وضيع أو راعى أبرشية أو شخص طائفى من تدمير تلك الكنيسة التى تعصى على بوابات الجحيم. لقد كان توبوروف، شأنه فى ذلك شأن كل من يفتقرون إلى الحس الدين العميق الذى يدرك أن البشر إخوة متساوون، مقتنعًا تمامًا أن الناس العاديين مخلوقات مختلفة كل الاختلاف عنه، وأن الناس تحتاج إلى ما يمكنه هو الاستغناء عنه. فهو لم يكن يؤمن بشىء فى أعماق وجدانه، وكان يجد ذك الوضع مريحًا وطيبًا. ولكنه كان يخاف من أن يصل الناس إلى الحالة نفسها وجعل جل واجباته، كما كان يقول، أن ينقذهم من ذلك. لقد كان موقفه من الدين الذى ينادى به أشبه بموقف مربى الدواجن تجاه الجيف التى يقدمها كغذاء لدواجنه. الجيفة شىء مقرف، ولكن الدواجن تحبها وتأكلها، ولهذا يصح أن نقدم جيفًا للدواجن.**

لقد كانت رواية الحرب والسلام استثناءً فى ذلك الوقت. وعندما كتب تولستوى فيما بعد روايته المناهضة للاستعمار وعنوانها: حاج مراد (Hadji Murad) عبر فيها عن غضب عارم. يقدم الفصل الخامس عشر بالتحديد تصويرًا آفلاً لنيكولاس الأول ورفضًا شديدًا لفساد النظام الاستبدادى:

جلس نيكولاس إلى المائدة مرتديًا معطفًا أسود بشرائط على الأكتاف ولكن دون حشوات على الأكتاف، مستندًا بجسده الضخم الذى يحيط بكرشه المتضخم إلى ظهر المقعد، محدقًا فى الوافدين الجدد بعينين ثابتتين لا حياة فيهما. كان وجهه الطويل الشاحب ذو الجبهة العريضة التى يحيطها من الجانبين خصلات من شعر ممشط للأمام بعناية بحيث يتصل بالشعر المستعار الذى يغطى الجزء الأصلع من رأسه، باردًا وحجريًا بشكل خاص فى ذلك اليوم. كانت عيناه فى المعتاد معتمة، ولكنها كانت أكثر بلادة فى ذلك اليوم، وكان تعبير من عدم الرضا بل والغضب يكسو وجهه، ويظهر على شفتيه المطبقتين تحت شواربه المعقوفة لأعلى ووجنتيه الحليقتين - التى تُرك عليهما قطعًا متساوية من السوالف التى تشبه المقانق - كل ذلك فوق الياقة البيضاء وفوقها ذقنه تضغط عليها.

... وعلى الرغم من اقتناعه أن تصرفه أتى ملائمًا فإنه قد بقى لديه شعور غير مريح. ولكى يقضى على ذلك الشعور فقد شرع فى الانغماس فى التفكير فى شىء طالما منحه السكينة - فى أمر عظمته الشخصية.

قال تشيرنيشوف: "من الواضح أن الخطة التى وضعتموها جلالتكم قد بدأت فى إتيان الثمار".

كان نيكولاس يطرب بشكل خاص بمثل ذلك الإطراء على مواهبه الإستراتيجية؛ لأنه على الرغم من فخره بتلك المواهب، فإنه قد كان يعلم فى صميم وجدانه أنها لا وجود لها، ووجد لديه الآن الرغبة فى سماع المزيد من الإطراء الموجه لشخصه.

[بعد إصداره قرار، ينطوى على غلطة إملائية، وينص على أن ينفذ أحد البولنديين عقوبة المرور اثنتى عشرة مرة بين صفين مكونين من ألف رجل يضربه كل منهم بعصا فى يده كلما مر أمامه] أدرك نيكولاس أن اثنتى عشرة ألف ضربة باستخدام العصا الرسمية لا تعنى موتًا مؤكدًا جراء التعذيب فحسب؛ بل إنها تمثل فوق هذا قسوة لا داعى لها. تكفى خمسة آلاف منها لقتل أقوى الرجال. ولكنه كان يستمتع بأن يكون قاسيًا دون رحمة، كما كان يستمتع بتذكر أن عقوبة الإعدام قد ألغيت فى روسيا.

[عند دخوله قاعة احتفال ينتظره فيها مائة من المواطنين خرج] عليهم بنظرة لا حياة فيها، صدره متسع، كرشه بارز من فوق الأربطة المربوط بها ومن تحتها، يشعر بنظرات الجميع مثبتة عليه بإجلال وتذلل، مما منحه إحساس أكبر بالانتصار والزهو... وبعد أن قدم له الجميع التهانى والتحية بمناسبة العام الجديد، سار إلى الكنيسة. حيا الله نيكولاس ومدحه، من خلال القساوسة خادمى الله، مثلما حياه ومدحه البشر الدنيويون، كما أنه تقبل تلك التهانى بكرم على الرغم من ضجره بها. جاء كل ذلك كما ينبغى أن يكون؛ لأن رفاه وسعادة العالم أجمع متوقفان عليه، وعلى الرغم من أن تلك الأمور قد أرهقته، فإنه لم يزل لا يبخل بعونه على الكون.

كان يمكن لفقرات كهذه أن تدخل تغييرات مدهشة على كوتوزوف وعلى الحرب والسلام.

٤

عوالم أنتونى باول المختلفة

هيا بنا نرقص

شعرت بالتأثر حينما دعانى متحف والاس كولليكشن وجماعة أنتونى باول البحثية لإلقاء المحاضرة الافتتاحية السنوية[٢٥]. أولاً: لأنهم من الواضح لم يكونوا مقتنعين بفكرة أن شخصًا مثلى يمثل اختيارًا غير مناسب، وثانيًا: وهو الأهم؛ لأننا بحاجة للخروج من المنظور قصير النظر الذى ينظر/يعتبر أن كتابًا مثل "رقصة على موسيقى الزمن" (A Dance to the Music of Time) لا يمكن أن يعجب سوى "المتحذلقين" أو قراء الديلى تيليجراف، على الرغم من أن نوعى القراء غير متطابقين فى الوقت الحالى. ولكن للأسف جاء مثل هذا الافتراض ليشكل حكمًا مسبقًا كان له التأثير الكبير على تقييم سلسلة روايات باول العظيمة لفترة طويلة من الزمن، وها قد حان الوقت فيما أعتقد للتخلى عنه. دائمًا ما تنتابنى الدهشة حين أذكر مثل تلك الكتب أمام شباب وشابات؛ إذ أجدهم ينظرون إلى فى حيرة. لا يعنى ذلك أنها لا تعجبهم. ولكنهم لم يسمعوا قط عن باول. هل يأتى ذلك نتيجة لتحول الحياة الثقافية فى هذا البلد نحو الأقلمة والتسويق، أم أن الناس لا تقرأ كثيرًا هذه الأيام؟ لست واثقًا من الإجابة، وأجد التخمين هنا لا طائل منه. كم منا كان سيقرأ شكسبير لو لم يكن يمثل أيقونة الثقافة الرسمية الخالدة وجزءًا مهمًا فى المقررات الدراسية بل وهناك مسرح تدعمه الدولة لتقديم مسرحياته؟

(٢٥) تقدم هذه المقالة عرضًا أكثر تلخيصًا للمحاضرة الافتتاحية التى ألقيتها فى يناير (كانون ثان) من عام ٢٠٠٨ .

لا تقدم الروايات الخمس التى تتضمنها مجموعة رقصة على موسيقى الزمن للقارئ الذى يقرؤها للمرة الأولى صورة الغطرسة الطبقية الخفية، ولكنها تقدم تأملاً قصصيًا فى التاريخ الاجتماعى لخمسة عقود حاسمة من القرن الماضى، بدءًا من انتهاء الحرب العالمية الأولى ووصولاً إلى فترة الستينيات المضطربة. يأتى محور الرواية متمثلاً فى التاريخ والثقافة والكوميديا والعلاقات المتبادلة بين هؤلاء. وتعد الرواية عملاً لكاتب روائى حاد الذكاء، ذى خبرة عميقة بالثقافة الأوروبية بخلاف الحال إزاء الكثير من أنداده.

ولقد جاءت معرفته بتلك الثقافة ليكون لها التأثير العميق على أعماله، الأمر الذى لم يتمثل فى إعجابه ببروست فحسب؛ بل وفى غرامه بستوندال كذلك. وقد لفت انتباهى إعجابه بستوندال (الروائى الفرنسى المفضل لدى) إذ كشف لى عن انفتاح أدبى مثير للإعجاب. فقد استطاع، على الرغم من آرائه السياسية المحافظة، أن يقدر قيمة كتابات لكاتب تختلف نظرته للعالم اختلافًا كبيرًا عنه، إن لم تكن آراءً شديدة الإغراق فى نزعتها اليسارية سواء بالنسبة إلى الوقت الذى كان يكتب فيه أو إلى العصر الحالى. ويأتى كتاب حياة هنرى برولار -(Life of Henry Brulard) تلك السيرة الذاتية التى بالكاد تنجح فى إخفاء حقيقتها والتى تكيل الاحتقار للنزعة الفرنسية المحافظة – العمل المفضل من أعمال ستوندال لدى باول. يقرر ستوندال بهدوء فى إحدى حواشى الرواية أن عامه المفضل لم يكن العام ١٧٨٩ (بداية الثورة)، ولكن ١٧٩٣ ... ذلك العام الذى أعدم فيه الملك والملكة بقطع رأسهما. ويطلق ستوندال اسم "الألتراس" على الذين كانوا يدعمون النظام القديم والأنظمة التى تشبهه التى أتت فيما بعد، ومنهم أبوه والقساوسة المحليون الذين خانوا كل المثل العليا التى كان ستوندال يؤمن به. يأتى الكتاب مفعمًا بالحيوية والحماس. كما يذكر باول مرارًا وتكرارًا أن روايته المفضلة هى رواية الشياطين (The Devils) أو المسكونين (The Possessed) لدستويفسكى. تقدم كل تلك الأعمال اختلافات كبيرة عن رواية رقصة؛ إذ لم يكن لبروست ولا ستوندال، ولا

لدستويفسكى بالطبع، أى تأثير على طريقة باول فى الكتابة، تمامًا كما لم يتأثر بروست بكتاب ألف ليلة وليلة، العمل الأدبى المفضل له.

كان باول بشكل ما أكثر الكتاب الإنجليز أوروبية، ولهذا فمن المفيد أن نكرر أن مشروعه الأدبى الذى تفتق عن رقصة على موسيقى الزمن ليس له مثيل فى الأدب الإنجليزى، فما من شىء يضاهيه. ويفضل أن ننظر إلى ذلك العمل فى الإطار ذاته الذى ننظر من خلاله إلى بروست وموسيل. وعلى الرغم من أن باول ينتمى إلى جيل أصغر منهما، نجده لا يبعد عنهما زمانيًا بكثير. ترعرع بروست خلال العقود الثلاثة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى؛ التى يطلق عليها "الحقبة الجميلة"، بينما اشترك موسيل فى الحرب العالمية الأولى. أما أنتونى باول فقد ولد فى عام ١٩٠٥ ولكنه بقي مسكونًا بذكريات تلك الحرب؛ حيث كان ينتمى إلى عائلة عسكرية وكان يعرف الكثير من العسكريين. كان يدرك أن الحرب قد أبادت جيلاً كاملاً، كما أنه شارك فى القتال فى الحرب العالمية الثانية. وهناك فقرة مؤثرة فى كتابه الفلاسفة العسكريين (The Military Philosophers) نجد فيها الراوى عابرًا نورماندى ومرتديًا زيه العسكرى، ثم فجأة:

> **قال كوب: "أريدك فقط يا سيادة المقدم جينكينز أن تتهجى اسم المكان الذى قضينا فيه ليلة أمس". [طالما تساءلت عما إذا كان اختيار الاسم "كوب" يأتى متأثرًا بريتشارد كوب الذى كان أحد معلمى التاريخ بكلية باليول بجامعة أكسفورد].**
>
> **"ك-ا-ب-و-ر-ج يا سيدى". وبينما كنت أنطق بآخر حرف وجدت دموعى تثج ثجًا. وتغير كل شىء. وإذ بكل شىء يعود إلىّ فى صورة شلال من الذكريات؛ مثل كعكة المادلين المغموسة فى الشاى. كابورج، لقد خرجنا لتونا من كابورج، من بعلبك بروست. كنت أقف منذ دقائق قليلة على الممشى الذى تمشت عليه ألبرتين، مرتدية قبعتها الوبرية وبصحبتها فرقة الفتيات**

اللاتى كـان مـارسـيل يظن أنهن بطلات ركـوب الدراجـات المحترفين. من هناك دخلت ألبرتين حياة مارسيل. كان بوسعنا لو نظرنا من خلال نافذة جراند هوتيل؛ بحيث يتخيل من يرانا أننا ننظر خلال حوض أسماك كبير، أن نرى سانت لوب يجلس إلى الطاولة نفسها مع بلوخ ويكذب متظاهرًا بأنه على صلة بعائلة سـوان. وفى طرف الممشى نجد نادى القـمـار الذى لا تزال حوائطه تحمل صورًا لأوراق اللعب المتهرئ؛ كتلك الأوراق التى تظاهر تشارلوس، مرتديًا قبعته السوداء القشية، بتفحصها بعدما حاول عن بعد تقييم جوانب الجاذبية الجسدية والإمكانات التى يمتلكها الراوى.

هناك فى الحقيقة مشهد مضحك وقع قبل هذا المشهد، يجد فيه الراوى نفسه تحت الطاولة مع الجنرال ليدمو أثناء إحدى الغارات الجوية؛ حيث سأله الجنرال: "ما رأيك فى ترولوب؟" وهو السؤال الذى أجاب عنه بجملة: "لا يعجبنى كثيرًا". ثم تحدث عما يحبه بالفعل. يحدث ذلك كله وهو ممسك بنسخة من طريقة سوان (Swann's Way) التى كان يقرؤها قبل وقوع الغارة.

وعلى الرغم من فرق الأجيال بين بروست وموسيل وباول، فقد جاءت مشروعاتهم الأدبية متشابهة فى حجمها وطموحها، على الرغم من اختلافها فى الأسلوب والمحتوى ونقاط الانشغال (فقد كان بروست منشغلاً بتأرجح النزعات الجنسية لدى البشر، بينما انشغل موسيل بنمط الحياة الملكى المنظم). كما يمكن عقد مقارنة شيقة بين المشكلات التى واجهها كل منهم فى طريق خلق أسلوب كتابته المتميز قبل شروعه فى كتابه الأكثر شهرة. فلو حاولنا مثلاً إجراء مقارنة بين التجريب فى استخدام اللغة لدى روبرت موسيل وأنتونى باول، لوجدنا أن القصص القصيرة التى كتبها الكاتب النمساوى فى بداية مشواره الأدبى تتميز بالحيوية والتشويق، ولكنها تختلف كثيرًا فى أسلوبها مع عمل مثل الرجال غير ذوى الصفات (The Man Without Qualities). تتميز روايات باول

المبكرة بطبيعة لماحة، كما يمكننا أن تستشعر على سبيل المثال أصول رواية رقصة على موسيقى الزمن فى عملة القصصى الأول رجال بعد الظهيرة .(Afternoon Men) نجد المحادثة التى تجرى بين أتووتر ولولا فى إحدى الحفلات البوهيمية البائسة محادثة مضحكة للغاية، تستخدم الاقتصاد فى التعبير الذى سوف يضحى فيما بعد حرفة متميزة على يدى بيكيت وبينتر. ولو تتبعنا تطور كتابات باول لوجدنا أن التغير لا يطرأ على كتاباته من ناحية الموضوع أو الحساسية الأدبية، ولكن من ناحية الأسلوب. فبينما تتميز رواياته المبكرة بأسلوب انتقائى متعمد، أخذ أسلوبه فى التغير مع شروعه فى كتابة رقصة على موسيقى الزمن - وهو المشروع الذى احتاج خمسة وعشرين سنة حتى ينتهى منه. كما أن تأثر ذلك التغير بالتأكيد بانغماسه فى قراءة كتاب برتون المعنون تحليل الحزن (Anatomy of Melancholy)، إلى جانب التأثير الذى أحدثه شروعه فى كتابة عمل عن جون أوبرى. وها نحن ننتظر بشغف ظهور السيرة الذاتية التى تقوم حاليًا هيلارى سبورلنج بكتابتها لكى نعرف المزيد حول هذا الموضوع. ولكن من الواضح أن أسلوب الكاتب كان قد أضحى أسلوبًا متفردًا وقت شروعه فى كتابة رقصة علي موسيقى الزمن؛ إذ اتخذ نزعة باروكية زخرفية، وهو ما يرقى بالكوميديا لمستوى أعلى من مستويات الروايات الأولى، وكذلك يجعل من رقصة على موسيقى الزمن ذلك العمل الأدبى الرائع.

كان باول محظوظًا ومقاتلاً صلدًا فى آن واحد. لم يستطع أحد من نظرائه الأوروبيين استكمال أعمالهم. فقد توفي بروست فى سن مبكرة نوعًا ما، فى عامه الحادى والخمسين، مما أدى إلى نشر كتابه البحث عن الزمن المفقود(In Search of Lost Time) بعد وفاته؛ بينما كانت تصليحاته للمسودات لم تكتمل بعد. أما موسيل فقد تحداه قلمه، وبقيت روايته العظيمة "الرجال غير ذوى الصفات" عملاً غير مكتمل. وقد كان باول يعى كل ذلك، مما شحذ إصراره على إنهاء أعماله. وقد استغرق العمل فى رقصة على موسيقى الزمن خمسة وعشرين عامًا. وذكر باول بنفسه أنه أنهى الكتاب عند ذلك الحد، لأنه كان يدرك المخاطر المتضمنة فى الاستمرار فى الكتابة لمدة

طويلة. كما أن الزمن كان قد تغير؛ إذ كان باول يمينى النزعة سياسيًا، بينما كان أصدقاؤه البوهيميون (وأورويل) يجنحون لليسار. ولكن ذلك كله كان قد تغير وقت انتهائه من كتابة الرواية الأخيرة فى سلسلة رقصة على موسيقى الزمن التى جاءت بعنوان سماع النغمات السرية (Hearing Secret Harmonies) فوجّه باول الإهداء فى فاتحة الرواية إلى روبرت كونكويست. لم يعد شارع شارولت فى نهايات الستينيات مقصداً للبوهيميين، وأضحى مقهى برتوريللى المكان المعتاد للقاء مجموعة من الكتاب المعادين لليسار والمؤمنين بالحرب الباردة، الذين كانوا يشاركون كونكويست فى دعم الحرب فى الهند الصينية. وقد كان لذلك فى رأيى تأثير عكسى على النغمة والبناء فى روايته الأخيرة.

متى شرعت فى الرقص مع رواية رقصة على موسيقى الزمن لأول مرة؟ كان ذلك فى عام ١٩٧٩ أو ١٩٨٠، وكنت مسافراً من لندن إلى المكسيك لحضور مؤتمر عن اليسار مع بيرى أندرسن الذى كان يجلس بجانبى طوال الرحلة (التى تستغرق إحدى عشرة ساعة) معيداً قراءة بعض المجلدات من رقصة على موسيقى الزمن. كان مطعم كازانوفا الصينى (Casanova's Chinese Restaurant) بالتأكيد إحدى تلك الروايات. وقد جاء وقت ما أصبحت فيه ضحكاته معدية مما حدا بأحد الركاب الأمريكيين أن يأتى إليه قائلاً: "يا أخ، ما الذى تقرأ؟ يبدو مضحكًا جداً". فتوقف صديقى عن القراءة لبرهة قائلاً: "نعم، بالتأكيد". ثم عاود القراءة.

كنت أحمل معى كتابًا مملاً نوعًا ما، مما جعلنى أحقد عليه. وبعد مرور عدة أشهر، اشتريت المجموعة كاملة فى بريطانيا بالغلاف الرائع الذى أعده مارك بوكسر، وقمت بقراءة العمل كاملاً. يسمع المرء أحياناً أناسًا يحكون عن بدئهم قراءة سلسلة رقصة على موسيقى الزمن برواية مسألة تنشئة (A Question of Upbringing) ثم توقفهم عن القراءة بعدها؛ إذ لم يستطيعوا تصور كيف سيستمر العمل ليصبح ما هو عليه الآن. لم يعجبهم المجلد الأول فلم يكملوا قراءة بقية المجلدات. أما أنا فقد أحببت

المجلد الأول؛ ولكن أفادنى أنى وضعت المجلدات كلها مرصوصة على الطاولة التى بجانب الفراش، حتى تكون القراءة منظمة وذات استمرارية. أثق أن ذلك هو ما جعل لسلسلة رقصة على موسيقى الزمن ذلك التأثير السريع على.

ومنذ عدة سنوات قابلت أحد أهم نقادنا الأدبيين فى أحد حفلات عيد الميلاد، ودارت بيننا المحادثة الآتية:

"ما رأيك فى رقصة على موسيقى الزمن؟".

"ياه، هل قرأتها؟".

"نعم قرأتها".

"لم تعجبنى. واضح أنها أعجبتك".

"نعم، ولكن لماذا لم تعجبك؟".

"عالم مغلق".

كان ذلك هو جل ما قاله، ووجدتنى أقاوم رغبتى فى سؤاله عما لو كان قرأ العمل كاملاً. أعترف أننى قرأت المجموعة مرتين فقط، ولكنها بالتأكيد لا تمثل عالمًا مغلقًا. فهى تحوى حكايات ممتعة عن الحياة البوهيمية فى لندن بين ١٩٢٠ و ١٩٥٨، تلك العقود التى لم يختلط فيها أنتونى باول بهذا العالم وحسب، بل وغالبًا ما استمتع أكثر ما استمتع بحفلات كشف الهوية الجنسية فى حى بلجرافيا فى لندن. يذكر باول فى كتابه دفتر كاتب (The Notebook) أنه: "لا يمكن أن تكون فنانًا مبدعًا إذا كنت واقعًا قيد أى نوع من أنواع التقييد الذى يجعل منك مفكرًا متعاليًا".

والآن، فلنر ما موضوع الرواية؟ تدور الرواية حول الإبداع - فعل إنتاج الإبداع ذاته. الأدب، والكتب، واللوحات، والموسيقى، ذلك هو ما ينخرط فيه معظم شخصيات الرواية لمعظم أوقات حيواتهم. يكتب مورلاند الموسيقى، بينما يرسم بارنبى، ويمارس إكس ترابنل الكتابة والتأليف، أما كيجين وممبر وماكلينتك فيمارسون النقد، كما ينشر

الراوى الكتب ثم يصبح هو ذاته كاتبًا. إن الموسيقى والرسم والأدب والنقد هى الأمور التى تجذب الروائى. ويأتى مزيج فكرة الإبداع مع الكوميديا التى تعم الحياة اليومية ليشكل خلفية داعمة للعمل. وينبغى هنا أن أذكر مرة أخرى أن الكوميديا فى العمل تأتى على مستوى عالٍ جداً.

وإذا كان استكشاف الإبداع الفنى هو أحد الموضوعات العظيمة التى تتناولها رقصة على موسيقى الزمن، فإن العمل يتميز كذلك بقدرته الفائقة على رسم الشخصيات. وفى هذا الصدد أرى وجوب اعتبار شخصيتى ويدميربول وباميلا فليتون فى الروايات مساويتين لشخصيات مثل تشارلوس فى ملحمة بروست، وديوتيما وأولريتش فى الرجال غير ذوى الصفات. وقد ادعى لورد لونجفورد كثيراً أن شخصية ويدميربول مستقاة من شخصيته. نجد فقرة مسلية كتبها باول فى مذكراته اليومية عن حضوره حفل تجمع أصدقاء قدامى فى أكسفورد ومقابلته دينيس هايلى مصادفة. يحييه القائد والنائب السابق بحزب العمال كما لو كانا صديقين لم يلتقيا منذ زمن ثم يقول: "كنت دائمًا أود أن أسألك عما إذا كنت استقيت شخصية ويدميربول من إدوارد هيث". ويجد القارئ الذى ينتهى من قراءة رقصة على موسيقى الزمن للمرة الأولى الفضول يراوده لاكتشاف الشخصيات الحقيقية التى استقيت منها بعض شخصيات العمل. ويمكن أن يتحول ذلك الفضول إلى هاجس استحواذى مثل الولع بمتابعة القطارات وإحصائها؛ ولذا فينبغى مقاومته.

كتب أنتونى باول ذات مرة أنه ما من شخصية قصصية تستقى من شخصية واحدة، إذ دائمًا ما تأتى الشخصيات القصصية مركبة: تتجمع أحيانًا عدة ملامح من أناس قابلتهم فى حياتك فى شخصية قصصية واحدة. ينطبق ذلك على باول أكثر حتى مما ينطبق على بروست كما نعرف من الكتاب الممتاز الذى كتبه جورج باينتر عن بروست. تأتى معظم الآفات التى يلصقها بروست بشخصية تشارلوس انعكاسًا لشخصية الكاتب نفسه، أما الشخص الذى استقى بروست معظم شخصية تشارلوس

منه، ذلك الأرستقراطى المتعالى المسمى مونسكيو، فقد كان بالتأكيد يفهم الأمر، إذ قال لأحد أصدقائه: "ربما علي الآن أن أغير اسمى ليصبح مونبروست". يأتى ويدميربول إذًا شخصية متخيلة أكثر من تشارلوس، أى شخصية ذات طابع عام. فنحن نرى الشخصيات المدّعية ذات القدرات المتواضعة تطفو على السطح حولنا فى كل مكان، بينما تكاد كل الحكومات الأوروبية (بما فيها مجموعة الفاشلين العاملين مع جوردون براون) تكتظ بأمثال ويدميربول – وليس ذلك حكرًا على أوروبا. يأتى ذلك كسبب آخر يحدونا لأن نعيب على التغير الشامل الذى طرأ على ويدميربول فى المجلد الأخير عندما يصبح غير متسق مع شخصيته، ويتحول إلى شخصية غريبة ثم يقتل فى النهاية. وتكشف لنا مذكرات باول عن أنه كان يفكر فى كتابة نهاية مختلفة؛ حيث يختفى ويدميربول فى الغمامة التى ظهر منها، وهو ما كان سيأتى أكثر تماشيًا مع رقصة الحياة والموت.

تحكى رقصة على موسيقى الزمن حكاية تمتد لخمسة عقود، تؤدى المصادفة فيها دورًا مهمًا فيما يحدث للشخصيات. كم مرة حدث منذ أن قرأت الكتاب أن التقيت مصادفة بشخص لم أره منذ قرابة العشرين عامًا ووجدتنى أتمتم لنفسى: "إنها رقصة على موسيقى الزمن "– وهى فعلاً تلك الرقصة. ولكن تلك المصادفات تمثل كذلك البنية الأكبر للرواية. وتأتى الصداقة كموضوع محورى آخر فى العمل؛ إذ تتضمن الرواية فقرات مؤثرة عن الصداقة، عن معناها ومدى أهميتها وعن شعورك حال فقدك أحد الأصدقاء– غالبًا، ولكن ليس بالضرورة، أثناء الحرب. يترك ذلك أثرًا عميقًا يجعل الأصدقاء الذين ينجون من الموت أكثر أهمية، مما يجعلك تشعر بألم شديد عندما يفعلون ما يسيئ.

يملك باول فى أعماله الأدبية أو فى مذكراته أو فى يومياته قدرة كبيرة على أن يكون لمّاحًا ولاذعًا، ساخرًا بل شريرًا مؤذيًا. وهو يكتب كتابات مليئة بالإطراء عن أناس كثيرين، بل يرى بعضهم أن إطراءه يأتى أكثر مما ينبغى. ماذا نستخلص إذًا

من بعض الملاحظات التى قيلت عنه قريبًا، بعد سبعة أعوام من وفاته؟ تأتى الملاحظات مرتبطة بمسألة الصداقة. كان من المعتقد أن فى إس نايبول أحد أصدقائه؛ حيث تعج مذكرات باول اليومية بذكره بصورة ملحوظة. كما يضم كتاب نايبول الأخير، وهو ليس أفضل كتبه، بل فى الواقع أسوأها، مقالة عن باول. ولم يكن ما أثار دهشتى فى هذا الأمر متعلقًا بالنقد الأدبى، فما من مشكلة فى ذلك. فلكل منا الحق فيما يحب ويكره. ما أثار دهشتى كان ادعاء نايبول - الذى أفترِض مصداقيته - بأنه لم يقرأ رقصة على موسيقى الزمن خلال السنوات الطوال التى كان فيها صديقًا مقربًا لأنتونى باول وزوجته فيوليت؛ حيث كان دائم الزيارة لهما متقمصًا فى الغالب دور مهرج الملك الذى يتلفظ بعبارات عن العرق والطبقة الاجتماعية التى لم تكن تحظى بقبول كبير فى المجتمعات المهذبة. لماذا إذًا لم يقرأ نايبول الروايات؟ لا يتحتم على المرء استساغة عمل كتبه أحد الأصدقاء، ولكن بالتأكيد ينبغى عليك أن تقرأه. وأيًا كان الأمر، فدعونا نقبل فكرة أنه لم يقرأ الكتب ولكنه بالتأكيد ادعى قراءتها فى العديد من المناسبات. ولكن نايبول يضيف أنه بعد أن قرأها بعد وفاة باول داهمته فكرة أنها لم تعجبه، وأنه اكتشف أنها أعطيت أكثر من قيمتها، إذ لم يجد فيها سردًا يستحق الحديث عنه، وما شابه ذلك. ثم نجده يتبع ذلك بنميمة يحكيها عن فلان وعلان ممن لم تعجبهم لا الروايات ولا باول ذاته. فى الواقع تأتى النبرة العدائية التى كتب بها نايبول ملاحظاته أهم ما أثار انتباهى- فحتى لو افترضنا أنه لم يقرأ الكتب إبان حياة باول، فما الذى حدا به لأن يقف الآن ويتبول على قبر صديقه؟ أعلم أنه قد يكون للحصول على جائزة نوبل تأثير غريب على الأشخاص، ولكن يظل المرء آملاً أن يتجاوزوا ذلك، ولهذا فسوف تبقى تلك الإساءة محاطة ببعض الغموض.

ولكن هل يشكل رأى نايبول أمرًا غامضًا بالفعل؟ نجد فى رواية الكتب تجهِّز المكان (Books Do Furnish a Room) أن الروائى إكس ترابنل المخبول بالليدى باميلا والمنقاد لها يفقد تعقله تدريجيًا: "ظهرت حالة التشتت العقلى الذى انتابته بوضوح أكثر عندما أصبح فى الشارع. كان حتمًا فى حالة سيئة. أدرك أن كل الكلام الذى قيل عن

الكتابة، الذى أتى على المنوال نفسه الذى ينتهى عليه الحديث فى أية سهرة يكون بها، قد أصبح محض وسيلة لتجنب اضطراره إلى مواجهة مشكلاته الشخصية".

أو بتعبير آخر، وكما قال الروائى الصينى العظيم كاو زيكوين فى القرن الثامن عشر:

تصبح الحقيقة تخيلاً، عندما يصبح التخيل حقيقة.

ويصبح الحقيقى غير حقيقى عندما يصبح غير الحقيقى حقيقياً.

٢٠٠٨

ذلك كتاب غريب[٢٦]، يتألف من قصاصات لكتابات متفرقة ومتقطعة، "تركيبات خاطئة" من أسماء متعددة وعناوين للكتب والأقوال المأثورة والمواقف والاقتباسات والحبكات الدرامية - "يتقاسم رجلان السكن فى شقة، فيقرأ أحدهما مذكرات الآخر، ثم يتحول الأمر إلى شر خالص"؛ "فلان على علاقة بزوجة علان، ويحاول أن يعودها على الدقة فى المواعيد، حتى يكون للوضع بأكمله فائدة تعود على علان"- كما يضم الكتاب عدة قصص مسلية تتكون من سطر واحد: "الغذاء الذى يحمل اسم إيرل ساندويتش"؛ كنا نفكر فى وزارة الخارجية أو البى بى سى. تعرف أن الأخيرة لا تتطلب اختباراً"؛ "يخيل لى أن بعض النساء يتصورن أنك ليس لديك ما تفعله أفضل من الجلوس معتدلاً ليلاً لسماع الحكايات عن الزوج الأول"؛ "كانت كتاباتها سيئة، حتى بالنسبة إلى كونها روائية سحاقية". الكتاب بصفة عامة مكتوب بنبرة هادئة مسترخية، فى حين تأتى شظايا الكتابة تحمل روحًا ذكية وأسلوبًا رشيقًا. كما يغيب عن الكتاب الخوض فى موضوعات ذات طبيعة أدبية أو سياسية أو عسكرية أو شخصية. ولا تخبرنا المقدمة القصيرة التى كتبها المؤلف بالكثير.

شرع أنتونى باول فى كتابة هذا الدفتر- كما تشير الدلائل المتضمنة فيه- فى عام ١٩٣٠، أى عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره، ثم استمر فى الكتابة عبر سنوات الحرب ولعدة سنوات بعد انتهائه من كتابة مجموعته الراقصة رقصة على موسيقى الزمن.

لا يضع الكاتب تواريخ بعد كل تدوينة، مما يدعم الانطباع بأنه لم يخطط قط لنشر ذلك العمل الذى يحمل اسم دفتر كاتب (A Writer's Notebook). ولكن نشر الكتاب جاء فى وقته، كما جذب الكتاب اهتمام المعنيين بكتابات باول من جميع

(26) Anthony Powell, A writer's Notebook, London: Heinemann, 2001.

المشارب. يتضمن الكتاب العديد من الشواهد التى تمهد لصدور رائعته التى نحتفل بالذكرى الخمسين لصدورها بعقد مؤتمر عنه فى جامعة إيتون.

ويأتى اختيار إيتون لإقامة الحدث اختياراً موفقًا إلى حد كبير (كان من الأكثر لياقة أن يقام الاحتفال فى المتحف الموجود بميدان مانشستر الذى يضم متحف والاس)؛ إذ يجنح المؤتمر فى إيتون نحو نظرة جزئية مجحفة تعتبر المجلدات الاثنا عشر التى تتكون منها مجموعة رقصة على موسيقى الزمن محض تسجيل لشطحات ونزوات مجموعة معينة من الـ "المتحذلقين" - وأطياف متعددة من التعالى الطبقى، وليس عملاً تمثيليًا لمؤلف متمكن. تكمن عبقرية رقصة على موسيقى الزمن فى التشابك الذى تحققه بين التاريخ والثقافة والكوميديا.

تأتى التغيرات فى زوايا التركيز فى العمل، إلى جانب التغيرات فى الموضوعات، سريعة ولاهثة ومشوقة، سواء كانت بين اعترافات بالهوية الجنسية فى حى بلجرافيا، ولقاء بين مجموعة من البوهيميين فى منطقة فيتزروفيا ذات السمعة السيئة، ومنه إلى معسكر حربى مهجور فى شمال أيرلندا واقع تحت سيطرة ويلز. يأتى الوصف مفعمًا بالحيوية والمرح. تغطى أحداث الكتاب نصف قرن، وفى تلك الفترة تؤثر عمليات الحياة- مثل الولادة والعمل وشرب الخمر والأكل والشجار والوقوع فى الحب وإنجاب الأطفال والموت - على الناس بأشكال مختلفة. ويأتى تصوير الشخصيات متنوعًا ومفعمًا بالحياة، سواء كانوا كتّابًا، أو رسامين، أو نبلاء، أو موسيقيين، أو مفكرين يساريين، أو ضباط عسكريين، أو نقاد أدبيين، أو رجال أعمال، أو نساء بوهيميات، أو متصوفين، أو أرستقراطيين آفلين، فتأتى النتيجة ممتعة عندما تتخطى الشخصيات الحدود الاجتماعية بينها وتجتمع من مناح حياتية متنوعة فى مشهد واحد. تحدد المتطلبات الاجتماعية التركيب النفسى للرجال والنساء فى رقصة على موسيقى الزمن وسلوكهم وأخلاقياتهم وملابسهم وصفاتهم ولغتهم وعاداتهم. تجمعهم الصدفة، ثم يتكفل التاريخ وما تمليه القلوب بالباقى.

نقرأ فى دفتر كاتب أحد أقوال باول المأثورة: "لا يمكن أن تكون كاتبًا مبدعًا لو كنت مفكرًا متعاليًا بأية صورة من الصور". لم تكن عودتى للرواية بعد ظهور الدفتر ضرورية فحسب، بل كذلك ممتعة. يمكن أن تصبح القراءة الثانية لرواية ممتعة للغاية ما بشكل من الأشكال؛ إذ يزول الغموض عن السرد مما يساعد فى إبراز بنية العمل ويمكننا من تذوقه بشكل أعمق. لا تتحرك الرواية مدفوعة بقصص حياة "المتحذلقين"؛ بل تأتى عملية الإبداع ذاتها فى لبّ العمل.

يؤلف مورلاند المقطوعات الموسيقية، بينما تقف مونا أمام الرسامين، ويرسم بارنبى، ويكتب إكس ترابنل بينما يفكر جينكنز ويمارس كيجين وميمبرز وماكلينتك النقد. نجد باول منتحلاً شخصية الراوى، يستعرض مشكلة لغوية: "تجعل تعقيدات الحياة الاجتماعية من الصعب تبسيط العادات والتقاليد الإنجليزية، بينما تخلو إستراتيجيات لغوية؛ مثل المفارقة والاقتصاد فى التعبير- التى تستخدمها كافة الطبقات من سكان هذه الجزيرة فى الحديث - بالتأثير الطبيعى المرجو من الكلام المنقول". ولكن للاقتصاد فى التعبير مشكلاته... إذ إنه قد يشجع على التهرب من الحقائق المزعجة".

يبقى رقصة على موسيقى الزمن عملاً غير مسبوق فى تاريخ الأدب الإنجليزى الحديث، فى حين تأتى الأعمال التى تجاريه فى اتساع المدى مقصورة على بعض الكتب التى ظهرت فى باريس وفيينا خلال العقود المبكرة من القرن الماضى. كان بروست وموسيل وباول يتفقون فى نفورهم من فكرة الفوردية الثقافية. لم يكونوا يكتبون بهدف استمتاع القراء، وكان العائد التجارى بالنسبة إليهم أقل أهمية من جديتهم المتحمسة وإيمان كل منهم العميق بمشروعه الأدبى. وعلى الرغم من الاختلافات التى نلحظها بين كتاباتهم فى النغمة والأسلوب، فإنه يمكننا بسهولة تخيل رسم كروكى قام به جورج جروز تظهر فيه ثلاث شخصيات منغمسة فى ذواتها - تشارلاس وديوتيما وويدميربول - يحدقون بشغف فى النقطة ذاتها.

يتخلل كتاب "دفتر كاتب" العديد من الأسماء، منها اختيارات قام بها كتاب آخرون قد أثارت فضول باول. فمثلاً يمكن أن نستشعر نغمة الانتصار فى التدوينة التالية: "تشاترلى" اسم من منطقة سارتيز أخذه لورانس من هناك. ارجع إلى "حُماة اللعبة"، والسيد رومفورد هاوندز، فى الفصل الأول، صفحة ١٦١". ثم العبارة المستفزة: "عدم قدرة هنرى جيمز على اختراع أسماء جيدة ولائقة، وبالذات اختياراته غير الموفقة لأسماء القصور الريفية". أما باول ذاته فقد كان ينظر للأسماء نظرة جادة، وغالبًا ما كان يبحث فى مراجع متعددة: مثل "كتاب القيامة" عن اسم يتناسب مع الشخصية التى يخلقها.

ويظهر هذا الاهتمام الغريب واضحًا فى رقصة على موسيقى الزمن؛ حيث نجد الراوى يقول: "فاجأنى الاسم "سانى فيربراذر" كاسم متكرر يشير إلى الرجولة الواضحة المباشرة". أو عندما نجد ومبلدون يخاطب الراوى قائلاً: "ظننت أنه أنت يا جينكنز. ولكن اسمك منتشر جداً بحيث لم أستطع التأكد".

ويأتى اسم روزى ماناش مستقى من اسم البارون ماناش الذى دخل فى مبارزة بالسيوف مع سوان فى ملحمة بروست، ولكن ماذا نقول عن عازف الكمان المتجول كارولو الذى يعزف فى فيجامور هول فى رواية مطعم كازانوفا الصينى؟ نجد أنفسنا نفكر ما إذا كان الكاتب قد توصل للاسم وهو جالس فى مطعم إيطالى بعد أن حضر حفلاً موسيقيًا، وأن الاسم مزيج من الاسمين كاروسو وبارولو. ولكنه يخبرنا فى جملة عابرة أن الاسم ما هو إلا شطحة عابرة، وأن اسمه: ويلسون أو ويلكنسون أو باركار - وهو اسم العائلة الذى يعكس الكثير من التعقل". والآن، ماذا عن اسم ويدميربول، الذى يظهر للمرة الأولى فى كتاب أنتونى باول دفتر كاتب؟ تكشف لنا المذكرات التى كتبها باول بين عامى ١٩٨٢-١٩٨٦ أنه أخذ الاسم من كتاب لوسى أتكينسون عن الحرب الأهلية الإنجليزية؛ حيث كان ويدميربول أحد القادة فى جيش كرومويل. لا يسعنا حيال ذلك سوى أن نأمل أن يكون الكابتن ويدميربول وهو أحد أفراد "الجيش

المثالى الجديد" يؤمن، على عكس الشخصية الروائية التى تتخذ اسمه، بالقول المأثور إنه: "لا يرتقى الرجل إلى أعلى العلا إلا لو لم يكن يعرف وجهته".

أما بالنسبة إلى موضوع الوحش، فينبغى هنا الإدلاء باعتراف. فبعد إعادة قراءتى رقصة على موسيقى الزمن تأكد لدى انطباع ثان؛ إذ لم أجد نفسى مقتنعًا بالرواية الأخيرة. بدا لى التحول الذى حدث لويدميربول غير متسق مع شخصيته. فلو كان المؤلف الذى يكتب خلال المرحلة التى أعقبت الحرب مباشرة يجنح سياسيًا نحو اليمين فإنه غالبًا ما ينحو نحوًا اجتماعيا يساريا بوهيميا. ولهذا ينبئ الإهداء الموجه إلى روبرت كونكويست فى كتاب سماع النغمات السرية (Hearing Secret Harmonies) عن تغير ما طرأ على توجهات القارئ.

هل يمثل التغير غير المقنع الذى طرأ على ويدميربول وحوله إلى أحد أتباع تشارلز ديكينز تحولاً غريبًا؟ يقدم لنا "دفتر كاتب" مفتاحًا للغز فى صفحة ١١٠: "تنتهى القصة كلها بجينكنز يرقب عمالاً يعملون فى الشارع من نافذة حجرة شهدت بعض الأحداث؛ مثل رحيل ويدميربول كما أتى فى الضباب الذى يلف الكون".

تمامًا، كان ذلك سيشجع القراء على تخيل سيناريوهات مختلفة لمستقبل ويدميربول. كنت سأراه يصير أحد الأعضاء المؤسسين للحزب الديمقراطى الاجتماعى، ثم يأتى يوم ما وحينما يظن أن لا يراقبه أحد، ينحنى ليربط رباط حذائه فى بهو مجلس اللوردات ليفاجأ بمن يضربه على مؤخرته بنسخة مطوية من صحيفة الديلى تيليجراف. وبينما يعتدل ليرى من الذى فعل ذلك، يفاجأ بأنها رئيسة الوزراء بنفسها فى حالة مرحة. وحينئذ، تشوه نظرة الوله وجهه. وبعد هذه الواقعة التى أثرت حياته، نجده يغير ولاءاته مرة أخرى؛ ليصبح متحدثًا باسم الجناح التجارى المتحفظ فى الحزب القديم، يسعى الناس إلى متابعته. وبينما يقترب من عامه الثامن والتسعين فى يناير (كانون الثانى) من عام ٢٠١١، يظهر وجهه مرة أخرى على شاشات التليفزيون. إنه أقدم مليونير يقوم بإمداد الكيان الجديد لحزب العمال بالتمويل الخفى...

٥

ريعان شباب السير سلمان رشدى

أطفال منتصف الليل (Midnight Children) وما بعدها

لاقت رواية أطفال منتصف الليل (Midnight Children) احتفاءً كبيرًا بوصفها عملاً أدبيًا رائدًا، وانهال النقاد من كافة بقاع العالم الأنجلوساكسونى بالمديح على كاتبها، سلمان رشدى، كما حصلت على جائزة البوكر الرفيعة. وقد شهدنا مقارنات عدة بين رشدى وجونتر جراس وجابريل جارثيا ماركيز، اللذان يقر الكاتب بتأثيريهما الواضح على رواية أطفال منتصف الليل. نجد الكثير من التشابه بين سليم سيناء، الراوى والشخصية الرئيسة فى الرواية، الذى يمثل سلمان رشدى إلى حد كبير، وشخصية أوسكار فى رواية طبل الصفيح (Tin Drum)، كما لن يكون من الصعب علينا تحديد الشخصيات التى تشبه الجنرالات فى شبه القارة الهندية فى روايات من أمريكا اللاتينية مثل خريف البطريرك. (Autumn of the Patriarch) ولكن تبقى تلك المقارنات دونما أهمية واضحة، إذ إن مدينتى جدانسك وماكوندو ليستا بومباى.

تدعونا كتابات رشدى إلى عقد مقارنات ليس مع جراس وماركيز فحسب؛ بل مع كتاب آخرين كتبوا عن الهند. ويكمن السبب وراء أننا لم نر مثل تلك المقارنات حتى الآن فى أن المعلقين والنقاد الإنجليز قد جنحوا دائمًا نحو إغفال السياسات الكامنة وراء رواية أطفال منتصف الليل. ومن المهم أن نفكر فيما لو أن ذلك يجىء نتيجة لإحساس ما بالذنب أو الإحراج أو الجهل أو توليفة من تلك العوامل الثلاثة. الأمر الذى لا يحتمل الشك هو أن رواية رشدى تمثل هجومًا على أهداف محددة وواضحة:

الطبقات الحاكمة من أهل البلاد فى جنوب آسيا. لا يمثل الكتاب مجرد تركيبة لطيفة للحياة اليومية فى شبه القارة الهندية؛ بل هو إدانة سياسية قوية لهؤلاء الذين يحكمون تلك البلاد، وكذلك، بالتبعية لمن وضعهم فى مواضع النفوذ والامتياز التى هم فيها الآن. وفى هذا الصدد فمن العدل القول: إن ظهور الرواية جاء كنقطة تحول مهمة فى تاريخ تطور الأدب الإندو - إنجليزى القصير.

من المهم هنا أن نتذكر سريعًا ظهور وتطور ذلك التراث الأدبى الغريب نوعًا ما. شكلت ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضى عقوداً مهمة وحاسمة فى الهند كما فى أماكن أخرى. ففى تلك الفترة بدأت تتولد طبقة طليعية جديدة جاءت نتاج اشتداد النزعة القومية، وتطور الحزب الشيوعى ونشأة نضال اتحادات العمال والنقابات. وقد ساعد تكوين اتحاد الكتاب المناهضين للفاشية ومنظمة الكتاب التقدميين (وكلاهما يعد فى الأساس تكوينًا تابعًا للحزب الشيوعى الهندى) على توجيه غضب الكتاب والشعراء والمؤلفين المسرحيين فى اتجاهات يسارية. وكان الروائى الهندى ملك راج أناند الممثل الأول لاتجاه الواقعية الاشتراكية من بين الكتاب الهنود الذين يكتبون بالإنجليزية؛ حيث حدد نطاق كتاباته تحديداً واعيًا بحيث يقتصر على هؤلاء القابعين فى أدنى درجات السلم الاجتماعى. ويمكننا تبين ملامح مشروعه السياسى - الأدبى فى روايات دالة مثل الحمّال (The Coolie) والمنبوذ (The Untouchable).

أما فى الجنوب فى مدراس، شرع آر إن نارايان فى إنتاج روايات على النقيض التام من روايات أناند. كان نارايان يكتب كوميديات اجتماعية تقترب من الصوفية عن الحياة الريفية فى جنوب الهند التى نتج عنها مع الوقت تقديس الديانة الهندوسية والقرية الهندية. لم يجد ذلك المسار الذى اتخذه نارايان من يشجعه سوى طبقة محدودة من الهنود، ولكنه لاقى شعبية واسعة بين الموظفين الإنجليز. (ويبقى نارايان حتى الآن من أكثر الكتّاب المفضلين لدى نايبول- بالطبع يمكننا معرفة السبب). ولم تظهر الرواية الهندية فى هذا المشهد الحديثة سوى فى الفترة بعد ١٩٦٠ .

من المهم هنا الإشارة باختصار إلى ما يجب اعتباره المصدر الرئيس لرواية أطفال منتصف الليل، وهنا أقصد سلسلة من أربع روايات كتبها بول سكوت، وهى معروفة باسم رباعية الراج (The Raj Quarter)، كما يجرى الآن تصويرها فى الهند من قبل شبكة تليفزيون جرانادا. كان بول سكوت (الذى توفي فى سن مبكرة جراء مرض السرطان) يختلف كثيراً فى اتجاهاته الأدبية والسياسية عن سلمان رشدى، ولكن تبقى رواياته لتقدم أقوى شهادات على العقود الأخيرة فى تاريخ الاستعمار البريطانى فى الهند. يضع سكوت يده بنجاح على السياسات الاستعمارية الخفية بشكل أفضل بكثير مما تقدمه التقارير السياسية، ويساعد فى الوقت ذاته على تبيان العوامل التى مكنت البريطانيين من حكم الهند خلال تلك الفترة الطويلة دون مواجهة ثورة عارمة. كما يصور فى روايته التعاون الذى كان قائمًا بين الإدارة الاستعمارية وطبقة ملاك الأراضى الهنود بتصوير حساس ومتخفٍ. ويمكننا فى العصر الحالى أن نستشعر الامتداد بين تصويره لسياسات الاستعمار العنصرية والشخصية العنصرية الإنجليزية من ناحية، والعنصرية التى يمارسها البريطانيون داخل بيوتهم فى الحاضر.

سمعنا الكثير عن الإرث الأيديولوجى الذى خلفته فترة الحكم البريطانى فى الهند، ولكن نادراً ما نقرأ أو نسمع تحليلاً مفصلاً عنه. نجح الاستعمار فى نسج شبكة قوية ذات قدرة على تقييد وعى هؤلاء الواقعين فى نطاق تسلطها، فقد خلقت لدى الهنود إحساسًا بكره الذات متأسسًا على العرق واللون مما ضاعف من أضرار التمييز الناتج عن نظام الطوائف الاجتماعية الصارم. كان يجرى "تعليم" الهنود بأن البشرة البيضاء علامة على التفوق. لم يكن ذلك مجرد مثال للعدوان الأيديولوجى؛ إذ نجد أمثلة لمن يروج "لتفوق" ذوى البشرة البيضاء ليس فقط فى كتابات كبلنج - شاعر الاستعمار البريطانى "المأجور"- وقطعان المبشرين الذين نزلوا إلى المستعمرات مثل الطفيليات، ولكن كذلك فى أوجه القوة والامتياز المادية. وعندما هب بعض المقهورين رافضين لتلك الأسطورة تعرضوا لقمع شرس. تسهل لنا الرباعية الروائية التى كتبها سكوت أن نتعرف على العنصرية الاستعمارية، ولكنها تستحى من الحديث عن نسلها

غير الشرعى: يعتبر أهل الشمال فى الهند أهل الجنوب أدنى منهم شأنًا بسبب لون بشرتهم الأدكن قليلاً، وذلك حتى يومنا هذا. علاوة على ذلك، نجد هذه الظاهرة مقصورة إلى درجة كبيرة على ثلاث طبقات فى مجتمع جنوب آسيا، وهى ثلاثتها طبقات محددة ولكن متداخلة سويًا: الطبقات الحاكمة، وطبقة الموظفين، والجيش. تمثل الطبقات الثلاث إرثًا مباشرًا للراج. ويأتى ذلك الوضع المشوه على النقيض من العنصرية الأنجلو - أمريكية التى نراها منتشرة فى الطبقات الأقل حظًا من المواطنين البيض، التى يجرى استغلالها على يد الطبقة الحاكمة الشرسة.

حصلت الهند وباكستان على استقلالهما عن بعضهما البعض عند منتصف الليل، وهو ما تشير إليه عبارة "منتصف الليل" فى رواية رشدى. وقد تحددت عملية "منتصف الليل" عن طريق اتفاق بين السلطة الاستعمارية التى كانت فى طريقها للرحيل والحزبين القوميين فى البلاد. (تجدر الإشارة هنا إلى أن حزب المؤتمر الوطنى الهندى وحزب الرابطة الإسلامية فى باكستان كليهما تأسسا بمبادرات إنجليزية). وهكذا تصبح لقراءتنا لسكوت فائدة لو أننا أردنا تقصى أصول رواية "أطفال منتصف الليل".

يقول سلمان رشدى فى قصته: "يمكن أن يكون للواقع محتوى مجازى. ولد ألف طفل وطفل، وكان هناك ألف احتمال واحتمال لم يسبق أن تجمعت فى مكان واحد من قبل، كما كانت هناك ألف طريق مسدود وطريق. يمكن أن تجعل أطفال "منتصف الليل" يمثلون أشياء كثيرة، تبعًا لوجهة نظرك: يمكن أن تراهم فى صورة الضربة الأخيرة لكل ما هو رجعى فى بلادنا المنكوبة بالخرافات، التى كانت هزيمتها مرجوة فى سياق اقتصاد القرن العشرين الآخذ فى التحديث، كما يمكن أن تراهم فى صورة الأمل الحقيقى فى الحرية، والذى انطفأ للأبد..." ص٧٢ .

وقبل أن أعلق على مدى دقة هذا الرأى الجدلى، من المهم التأكيد على أن الرواية تتكون من قسمين. يأتى القسم الأول فى صورة إعادة تشكيل للماضى؛ حيث يعود الجد آدم عزيز إلى وطنه بعد أن درس الطب وقرأ ماذا علينا أن نفعل؟ (What Is to Be

Done?)، للينين فى هايدلبرج، تاركًا خلفه حبيبته ورفيقته الألمانية إلزا لوبين. وسرعان ما يتورط آدم فى زيجة دبرتها عائلته؛ حيث يتزوج ابنة أحد أعيان الريف. ألقى آدم أول نظرة على عروسه المنتظرة من خلال ثقب فى ملاءة، ثم تأتى إلزا لتزوره فى الهند، فتسمع عن حبه الجديد وتنتحر غرقًا فى مياه بحيرة دال الراكدة فى مدينة ستريناجار بكشمير. وهكذا يظهر لنا فى بداية الرواية انعكاس رمزى لقضية سوف تعاود الظهور على الصفحات التالية: إن معركة اللحاق بركب الحداثة معركة خاسرة.

ثم نجد الأب أحمد سيناء يظهر بطلاً رئيسًا فى حدث آخر ذى دلالة رمزية. نراه فى بومباى يشترى قصرًا كان مملوكًا لرجل إنجليزى وفى منطقة كانت فى الماضى حكرًا على "المنتصرين". ويبقى هذا المشهد معنا طوال الرواية: تنتحل طائفة حاكمة جديدة بيوت الحاكم البريطانى ومكاتبه وزيه النظامى ومواقفه وأساليبه فى التعامل. نشأت هذه الطبقة فى ظل المستعمر، يدللها أحيانًا ويلفظها أحيانًا، ولم يكن مسموحًا لها بمراقبة من هم أعلى منها إلا عن بعد. والآن ها هى هذه الطبقة الجديدة تنتظر على أهبة الاستعداد لتقفز مكان من كانوا يحكمونها فى السابق. نجد أكثر متحدثى تلك الطبقة تهذيبًا وثقافة يتحدث بلغة غير مألوفة. ومع دقات ساعة منتصف الليل فى يوم الخامس عشر من أغسطس (آب) ١٩٤٧ يعلن جواهر لال نهرو باكيًا: "حددنا منذ سنين طويلة موعدًا للقاء القدر...". كانت مشاعره مفهومة من قبل أفقر المواطنين وأرقهم حالاً، ولكنه اختار أن يتواصل مع العامة باللغة الإنجليزية. أما فى باكستان المجاورة فقد خاطب محمد على جناح مئات الآلاف من الفلاحين الأميين، الذين لا يجيد الكثيرون منهم حتى الأردية؛ حيث يجيدون لهجتهم المحلية فقط، بالإنجليزية! ومع مرور الوقت ذبلت القشرة الخارجية مما تعلمه الناس من الموظفين الإنجليز، ثم اختفت للأبد. ويأتى وصف رشدى لتلك الفترة الانتقالية حادًا وفى بعض الأحيان كوميديًا، ولكنه يبقى مفتقدًا للقوة والغضب اللذين يسمان الجزء الثانى من الرواية.

يأتى منظور رشدى "للتاريخ" غريبًا فى بعض الأوقات. يعبر موقف عزيز، جد سليم فى سيناء عن عدوانية شديدة تجاه سياسات المسلمين مؤيدى الانفصال، وكذلك

بالتبعية الدينية تجاه الدولة التى تتأسس فى كراتشى. لن تهاجر العائلة، على الأقل أثناء حياة الجد، ولكن تأتى حادثة التقسيم مشوبة بالكثير من التعتيم فى الرواية، فى حين نجد فى الفيلم الهندى بعنوان الرياح الساخنة (Garam Hava) تصويراً مؤثراً للصراعات الشخصية والتناقضات السياسية التى قضّت مضاجع معظم عائلات الطبقة المتوسطة فى المدن التى تقرر بقاؤها جزءاً من الهند، وقد قدم الكاتب والصحفى الهندى خوشوانت سينغ فى روايته بعنوان قطار مسافر إلى باكستان (Train to Pakistan)، تصويراً مفصلاً للمعاناة المصاحبة لمحاولات عبور الخط الفاصل والعودة بالأصدقاء العالقين على الجهة الأخرى. كما تقدم لنا أول قصيدة كتبتها فتاة فى السادسة عشر من عمرها من السيخ فى عام ١٩٤٧ أفضل تصوير للمأساة التى نجمت عن التقسيم. كما نجد استدعاءً لروح الشاعر الصوفى العظيم وارس شاه الذى عاش فى أواخر القرن الثامن عشر فيما كتبته أمريتا بريتام، واحدة من أعظم شعراء الهند. فبينما كان السيخ والمسلمون يذبحون بعضهم البعض دون تمييز، كتبت بريتام:

أقول اليوم لوارس شاه: تحدث من داخل قبرك

وافتح من كتاب الحب صفحة أخرى

عندما بكت فتاة من البنجاب

كتبتَ ألحانك الحزينة

واليوم تنادى عليك

ملايين الفتيات الباكيات:

"انهض، يا من تداوى الجراح الدفينة

وانظر إلى البنجاب أرضك:

تتناثر الجثث فى ربوع الغاب

وينساب الدم فى نهر الشناب.

وها هو رشدى يختار مرة أخرى التركيز على المذبحة المعروفة التى حدثت فى منتزه جاليانوالا با غ فى مدينة أمريتسار فى عام ١٩١٩ التى كتب عنها الكثيرون قبله. كان هذا بالتأكيد حادثًا جللاً فى تاريخ الحكم البريطانى للهند، ولكنه من أوجه أخرى ليس بأهمية انتفاضة موبلا فى مالابار فى عام ١٩٢١، أو التمرد غير المسبوق الذى شهدته قوات البحرية (والإضراب العام الذى صاحبه) الذى هز أركان السلطة فى عام ١٩٤٦ . بالطبع فإن أطفال منتصف الليل رواية وليست وثيقة تاريخية، ولكنها رواية تستكشف واعية تاريخ التقسيم فى شبه الجزيرة الهندية، فلا يمكن تجاهل الانتقائية هنا. يأتى الجزء الثانى من الرواية أكثر تماسكًا، ويقدم للقارئ رؤية قوية بأسلوب أدبى مباشر وحماسة السياسة.

يترعرع سليم سيناء فى أواخر الخمسينيات ليضحى رجلاً ناضجًا فى السبعينيات. ولهذا كان بإمكانه مراقبة ثلاثة تحركات محورية مراقبة مباشرة: الانقلاب العسكرى فى باكستان فى عام ١٩٥٨، والخلاف على بنجلاديش فى عام ١٩٧١، وفرض حالة الطوارئ فى الهند فى عام ١٩٧٦ . وتتسبب هجرة عائلة سيناء إلى باكستان فى تغيرهم جميعًا. يطلق على أخت سليم فى بومباى اللقب الودود: القردة النحاسية؛ أى الفتاة المليئة بالمشاغبات والنزعة الاستقلالية. أما فى باكستان فتتحول الأخت إلى مسلمة نقية الأصل، ومغنية تثير همة الوطن بأغانيها الوطنية فى عام ١٩٦٥ خلال المصادمات المسلحة مع الهند. وتظهر لنا فى هذه المرحلة من مراحل الرواية شخصية محورية وهى شخصية نو الفقار ضابط الجيش الانتهازى. نراه فى الجزء الأول فردًا لزجًا يخدم ضمن قوة اللواء دوسون ويتزوج الخالة إيميرالد ثم يدرك أن مستقبله التجارى فى باكستان. نجد الرائد الشاب وقد تحول إلى "لواء يشبه وجهه وجه المهرج بنشينيللو"، فنراه على مائدة العشاء فى بيته يتآمر مع زملائه من قادة الجيش على اغتصاب السلطة السياسية فى عام ١٩٥٨:

كان الجنرال "ذو الفقار" يصف تحركات القوات، بينما أحرك أنا آنية الفلفل بصورة توضيحية. وتتلبسنى الحالة الاستعارية فأقوم بتحريك إناء الملح وأوعية الصلصة: فهذا مرطبان الخردل الذى يمثل المجموعة (أ) التى سوف تحتل مكتب البريد الرئيسى. وهناك آنيتان للفلفل تحيطان بملعقة الغرف مما يعنى أن المجموعة (ب) قد أحكمت قبضتها على المطار. كنت أشعر بمصير بلادى فى يدى وأنا أحرك أوعية التوابل وأدوات المائدة، وأجعل كئوس الماء تلقى القبض على أطباق البريانى الفارغة، وأصفّ آنية الفلفل فى مراكزها حول أباريق الماء. وعندما توقف الجنرال ذو الفقار عن الكلام توقف كذلك زحف الأدوات على المائدة. بدا أيوب خان وكأنه يستقر فى مقعده. هل كانت غمزته بعينه تجاهى محض تخيل؟ على أية حال فقد صاح رئيس الأركان قائلاً: "عظيم يا "ذو الفقار"، عرض عظيم". وبعد عدة أسابيع كانت آنية الفلفل الحقيقية قد استولت على البلاد.

تأتى شخصية "ذو الفقار" كأحد أكثر الشخصيات التى رسمها رشدى روعة؛ إذ يمثل النسخة الباكستانية من شخصية رونالد ميريك فى مجموعة روايات بول سكوت بعنوان: رباعية الراج، وهى صورة النموذج الأصلى للاجئ المسلم الذى له أصول من الطبقة الوسطى الميسورة الحال الآتى من الهند. وقد اختار ذو الفقار أن يعمل فى الجيش، فيتحول الولاء تجاه رؤسائه البريطانيين الذى اعتاد عليه لمدة طويلة إلى رؤسائه البنجاب الجدد فى باكستان. (وهو تافه لأقصى حد مثله مثل معظم الضباط من نفس جيله، يعتقد غالبًا أن مجلة ريدرز دايجست مطبوعة عميقة وأن مجلة تايم مجلة المثقفين الكبار). "ذو الفقار" رجل جلف، وماكر، وفاسد، ومنعدم الإحساس. ويتعامل مع الضباط ذوى الرتب الأعلى بخنوع ذليل يكاد يكون سخرية بالنفس. يشعر "ذو الفقار" بخيبة أمل شديدة تجاه ابنه ظفار الذى لا يزال يتبول فى فراشه؛ إذ يعتبر

اختلالات التبول أموراً تتنافى مع الرجولة، وهى الصفة التى يراها الجنرال "ذو الفقار" تصف كل الهندوس. وتأتى أقوى الفقرات فى الكتاب تلك التى يصور فيها سلمان رشدى باكستان تحت حكم الجنرالات؛ حيث نراها تتجرع يومياً سم التعصب المغالى للوطن والجماعة. يأتى ذلك الوصف مطعماً بصور موجزة تقدم لنا حكاماً إقطاعيين يحكمون بلاداً آيلة للسقوط، وأمهات "يتنصتن على أحلام بناتهن"، حب الطفولة، وخيالات المراهقة، وتأثير شرب الكحوليات.

ويرمز موقع "ذو الفقار" كمحرك رئيسى للأحداث فى رواية رشدى إلى عوامل الاستمرارية والانقطاع خلال الفترتين السابقة والتالية للعام ١٩٤٧؛ إذ سنجد مثل هذا النوع من ضباط الجيش ينظم ويرتكب أعمالاً وحشية على مدى واسع. يأتى وصف رشدى للغزو الباكستانى لإقليم شرق البنغال فريداً من نوعه فى الأدب الهندى-الإنجليزى، إذا لا يأتى كمجرد تصوير لأفراد من الأشرار (على الرغم من كثرة هؤلاء)، ولكن لنوبة سعار أصابت الطبقة الحاكمة المرعوبة، جاءت متمثلة فى تدريب وحدات كوماندوز خاصة على قتل البنغاليين، والاستخدام المستمر لعبارات تنم عما يشابه الفاشية الجمعية - تأتى كلها بغرض تبرير عملية قتل المثقفين والعمال البنغاليين وتسهيلها. فالبنغاليون لا يعتبرون "مسلمون حقيقيون"، بل هم ممن تحولوا من الهندوسية إلى الإسلام منذ فترة قريبة نسبياً، وهو ما أعلنه الكثيرون من معاتيه البنجاب فى الفترة بين ١٩٧٠-١٩٧١ . وقد برر الكثيرون عمليات الاغتصاب بذريعة أننا "سوف نغرس بذور مسلمين حقيقيين داخل أرحام هؤلاء البنغاليات العاهرات". (ما زلت أتذكر تلك الكلمات التى قالها لى ضابط شاب فى الجيش، والذى كان للحق مشمئزاً لدرجة جعلته يترك الجيش ثم يترك بعدها البلد بأكملها).

أعادت لى قراءة أطفال منتصف الليل ذكريات كثيرة من ماض بعيد. ما زلت أتذكر دهشة أصدقائى ورفاقى البنغاليين عندما كنت أشارك فى اجتماع مفتوح بجامعة داكا، وقدمت طرحاً يفيد بأنه ما من أمل أمام أى حكم ذاتى ذى معنى، وأنه

من الأحرى أن يسعوا من أجل إقامة "لال بانجلا" (بنجلاديش الحمراء). وقد أخبرت العديد من البنغاليين الذين لم يكونوا يؤمنون بالفكرة فى السر بأن الجيش يفضل ارتكاب مذابح واسعة النطاق على أن يستجيب لمطالبهم. والآن أصبح العديد ممن تناقشت معهم وقتها فى عداد الأموات. توفي بعضهم فى اليوم الأول للهجوم الذى شنه الجيش الباكستانى، الذى يصفه رشدى هنا:

> **منتصف ليلة ٢٥ من مارس، ١٩٧١: وبعد مرورهم بالجامعة، والتى كانت تحت القصف، دلّ البوذا قوات الجيش على مخبأ الشيخ مجيب. خرج الطلاب والمدرسون مهرولين من نزلهم، فقابلهم وابل من الرصاص، ولطّخ الميركروكروم الممرات المزروعة فى الفناء... وبينما كنا نسير فى شوارع المدينة، نظر شهيد من النافذة فرأى أشياء لم تكن حقيقية ولا يمكن أن تكون: جنود يدخلون نزل الفتيات دون أن يقرعوا الأبواب، ونساء يسقن إلى الشوارع، وأدخلوهن أيضًا، دون أن يقرع أحد الباب... عندما يصبح التفكير مؤلمًا جدًا، يكون الدواء فى الفعل... يشد الجنود- الكلاب مقود رقابهم: وعندما ينطلقون، يتقافزون سعداء نحو العمل. ياالهول المطاردة التى يشرع فيها الكلب الذئبى وراء غير المرغوب فيهم! ياالأعداد الذين قبض عليهم من الأساتذة والشعراء! ويا لها من نزلات تعسة وقعت بأعضاء حزب عوامى وبمراسلى مجلات الموضة وهم يقاومون إلقاء القبض عليهم! أعمل كلاب الحرب الخراب فى المدينة. يتبادل فاروق وشهيد وأيوب نوبات التقيؤ جراء استنشاقهم رائحة الحرائق الآتية من الأحياء القذرة المزدحمة... لن يبقى أحد من غير المرغوب فيهم آمنًا اليوم، وما من مخبأ آمن. تتعقب الكلاب البوليسية الفارين من أعداء الوحدة الوطنية، بينما تغرس الكلاب الذئبية التى لا ترغب أن يتفوق عليها أحد، أسنانها الحادة فى جثث الضحايا...**

يجب أن يعاقب "ذو الفقار" على جرائمه؛ ولذا سوف يموت ميتة عنيفة ترمز لعملية التطهر أكثر منها نهاية سياسية. ويأتى ظفار ابن الجنرال فى صورة الأداة المختارة للقضاء على الجنرال؛ إذ يقتله عندما يكتشف أن أبيه مجرمًا فاسداً يتحالف مع المهربين. يحدث ذلك فى نوبة غضب، ولكنه ينفّذ بهدوء ينم عن تماسك فاعله (بعكس ما يتوقع الجميع). ولكن لا يعنى موت "ذو الفقار" بأى حال من الأحوال انتهاء معاناة "أطفال منتصف الليل"، الذين سيضحون معاقين سياسيًا، ومشوهين جسديًا، يخضعون لأشكال أخرى من الإهانة تقوم بها الأرملة خلال فترة حالة الطوارئ البغيضة. سوف ينجحون فى الإطاحة بها، ولكن لن يأتى من يخلفها أفضل منها، ذلك الرجل الثمانينى ("ذلك الشخص الهرم الخرف الذى يأكل الكاجو والفستق ويشرب يوميًا كأسًا من مائه هو") والذى يحيط به أفراد العصابات التابعة له. يرى رشدى اليسار فى صورة "جيتو للسحرة"؛ حيث:

> **اصطف الحواة والذين يخرجون الأرانب من القبعات خلف السيد دانجى وحزبه الشيوعى الهندى التابع لموسكو والذى يدعم غاندى خلال فترة الطوارئ؛ ولكن سرعان ما أخذ البهلوانات فى الميل تجاه اليسار والتعقيدات الغريبة التى ينطوى عليها الجناح النازع نحو الصين. أما آكلو النار وبالعو السيوف فقد كانوا معجبين بتحركات عصابات حركة ناكساليت المسلحة، بينما تبنّى المنومون المغناطيسيون والذين يسيرون على الجمر المانيفستو الذى أصدره نامبودريباد (وهو لم يكن يجنح نحو موسكو ولا بكين) ورفضوا العنف الذى تتبناه حركة ناكساليت. كما ظهرت اتجاهات تروتسكية بين نصّابى لعب الورق، بل وحركة "تأسيس حكم شيوعى عن طريق الانتخابات" فى صفوف المعتدلين من أعضاء الفريق المتخصص فى التكلم من بطونهم. عرفت وقتها أننى قد دخلت فى دائرة وجدت فيها موهبتنا القومية القديمة فى التولد بالانقسام مراتع جديدة، وإن لم تكن تنطوى على التعصب الدينى والمكانى الأعمى.**

ولو كان رشدى توغل فى سفره جنوبًا لتسنى له التعبير عن احترامه لأرملة أخرى دمرت فى حماية حالة الطوارئ زهرة شباب جزيرة سيلان فى واحد من طقوس العنف الصاخب، ولجاءت خاتمة روايته أكثر تأثيرًا: "لمنتصف الليل أطفال كثيرون؛ لم تأت ذرية الاستقلال كلها فى صورة آدميين. العنف والفساد والفقر والجنرالات والفوضى والجشع وحساء الخضروات وآنية الفلفل التوابل..." ولكن هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟ هل كتب على جنوب آسيا قدرًا غامضًا بأن تنتقل من كارثة لكارثة؟ أم هل سيحدث "شيء ما". وإذا ما حدث، فما هو؟ هل نشهد الآن نهاية كل الآمال كما يلمح النص أحيانًا؟

ينم الكتاب بالقطع عن نزعة من التشاؤم والعدمية. وقد نفى رشدى تلك التهمة مؤخرًا فى تحليل نفسى بديع؛ حيث قدم طرحًا بليغًا مفاده أن آراءه لا تنطبق مع آراء الراوى فى الرواية. ويعترف رشدى بأن "قصة سليم تدعوه لليأس، ولكنها تروى بطريقة تهدف بقدر ما تسمح به قدراتى إلى تقديم موهبة الهنود فى إعادة تجديد ذواتهم مرة بعد مرة. ولهذا لا يفتأ السرد يتفيأ قصصًا جديدة، ولهذا أيضًا نجده "متزاحمًا محتشدًا". ويأتى هيكل الرواية بازدحامه ليشير إلى الإمكانات اللامتناهية التى يملكها هذا البلد، كما يشكل المعادل المتفائل لمأساة سالم الشخصية. لا أرى أنه بإمكاننا القول: إن كتابًا مثل هذا يعد كتابًا يائسًا."(٢٧)

ربما. لكننى أجد هذا الطرح غير مقنع. أولاً لأن التوتر بين الشكل والمضمون لا يأتى مؤثرًا بالشكل الذى يشير إليه رشدى. فالقصص الجديدة والقصص الفرعية الجديدة تأتى لتدعم بعضها البعض؛ بحيث يأتى الانطباع القوى فى النهاية جانحًا نحو اليأس. أما بالنسبة إلى فكرة "إعادة تجديد ذواتهم مرة بعد مرة": فما معنى ذلك، إذا كان يعنى أى شيء؟ هل يمكن القول: إن الناس فى القرى على مدى القرون الستة الماضية كانوا منخرطين فى عملية "إعادة تجديد ذواتهم مرة بعد مرة"؟ أم هل المقصود

(27) Salman Rushdie, "Imaginary Homelands", London Review of Books, 7-20 October 1982.

من العبارة الإيحاء بإمكانية حدوث صحوة جديدة على مستوى الوعى السياسى؟ هنا يمكن أن نتفق مع رشدى، ولكن ذلك لن يحل المشكلة كلية. أتى رد الفعل على الرواية فى جنوب آسيا على عدة مستويات. ففى صالونات إسلام آباد ولاهور وكراتشى (وبالقطع فى بومباى ودلهى وكالكتا) كانت الرواية موضوعًا للنميمة. من الجنرال "ذو الفقار"؟ لم يغب عن أحد أن تلك الشخصية تمثل محاكاة جزئية للجنرال المتقاعد شاهد حامد، ولا حتى عن الجنرال نفسه. كما جاءت صفات التعالى الاجتماعى والتأدب المبالغ فيه وكل الحركات التمثيلية المرتبطة بشخصية العمة إيميرالد لتنم عن أشخاص حقيقيين، قيل لى: إنهم مستاءون مما جاء فى كتاب رشدى المغضوب عليه.

وكما يعترف رشدى نفسه فقد جاءت التهمة متمثلة فى التشاؤم؛ إذ ذكر لى العديد من الأصدقاء من جنوب شرق آسيا أن "الكتاب لا يقول أى شيء إيجابى عن هذا الجزء من العالم". وقد جاء الرد أحيانًا بأن الكتاب يقول ما يقوله الهنود والباكستانيون فى السر لبعضهم البعض. نجد الشعور بقلة الحيلة فى باكستان وبنجلاديش والهند فى هذه الأيام أكثر سطوة مما هو عليه فى أطفال منتصف الليل. وقد جاءت أمور مثل المصير المأساوى لجموع البنغاليين وانتصار العسكر فى باكستان وفشل الحزب الشيوعى (الماركسى) الهندى فى تحقيق أقل تطلعات أتباعه لتبرر إلى حد ما موقف رشدى. تأتى أطفال منتصف الليل كرواية تمثل الاتجاه الإنسانى الديمقراطى الراديكالى. وعلى الرغم من أنها لا تتعدى تلك الحدود، فإن الرواية تظل عملاً بالغ الأهمية.

ولكننا على الرغم من ذلك نجد نواة منطقية للاعتراضات التى أثارها بعض الاشتراكيين فى شبه القارة الهندية على الرواية. لا يتمثل الأمر كثيرًا فى نزعة العدمية القومية التى تمثل عنصرًا قويًا فى الرواية، ولكن فى أن رشدى الذى يكتب من الخارج (كما يقول هو عن نفسه) لم يتمكن من صياغة موضوعه بشكل كامل. وقد ترتب على ذلك غياب الكثير من الجوانب بالغة الثراء فى الحياة الثقافية والسياسية لشبه القارة

الهندية. ولنأخذ مثالاً واحدًا يتبين فى التأثير الكبير للشعر كشكل أدبى شائع فى جنوب آسيا. ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى أن غالبية الناس هناك ما زالوا لا يعرفون القراءة والكتابة بلغتهم الأصلية (وكذلك الإنجليزية)، وعليه فلم تستطع الرواية أو القصة القصيرة أن تحل محل تجمعات إلقاء الشعر (أو ما يسمى موشايرا) .(mushaira) يمثل الشعر أداة التعبير الأدبى السائدة فى شبه القارة منذ ما يقرب من أربعة قرون. يرجع تاريخ الغزل، وهو قصيدة غنائية قصيرة، إلى عصور ملوك المغول فى الهند خلال القرون الوسطى، وعادة ما يستخدم للهجوم (الذى يأتى شرسًا فى بعض الأحيان) على المؤسسات ذاتها التى تسمح بوجود هذا النوع من الشعر، بل أحيانًا على الخالق ذاته. وقد استمرت كتابة الغزل ورواجه حتى يومنا هذا، إذ إنه يكتب فى المقام الأول بغرض الإلقاء الشفاهى أكثر منه بغرض القراءة. وطالما وقف شعراء شبه القارة، سواء قبل أو بعد الاستقلال، يلقون شعرًا يعبر عما لا يستطيع الساسة قوله، أو قل لا يجرؤون على قوله. وقد أبدع إقبال وطاغور ونظر الإسلام وفايز أحمد فايز وجوش مليحابادى اتجاهًا شعريًا جديدًا، ثم تبعهم شعراء مثل شاهر لوديانفى (متوفٍ) وحبيب غالب الذين لا يزال بعضهم على قيد الحياة وقد اعتادوا السجن على يد الأنظمة المتتالية فى باكستان، أو أحمد سليم الشاعر الغنائى البنجابى الذى كتب أشعارًا عن البنغال بينما كان الجيش البنجابى يتأهب لتنفيذ حمام الدم هناك.

لا ينبغى أن نؤله شعراءنا، فهم كانوا ولا يزالون يرتكبون أخطاءً إنسانية وسياسية، ولكن الكثيرين منهم قد رفضوا الخضوع لمحاولات الإسكات أو الشراء من جانب النظام. ولم يضعف من روحهم المعنوية لا القمع السياسى ولا التقدم فى السن ولا الفقر ولا المآسى الشخصية ولا النبذ من قبل رجال شرطة الحقل الأدبى أو رجال الشرطة الحقيقيين، ولم يفتّ فى عضد أناتهم ولا أقلامهم. وأنا على يقين أن رشدى سوف يتأثر بقراءة المجازات القوية التى تصف اغتصاب بنجلاديش فى شعر فايز، كما سيسعده اكتشاف أن شاهر لوديانفى قد جعل من التاج محل فى ثلاثينيات القرن العشرين موضوعًا لقصيدة غنائية بريختية تناولت جوانب غير الردهات التى تفوح منها

رائحة البول (وهى بالمناسبة الحالة العامة لأكشاك التليفونات العامة فى بريطانيا فى العصر الحالى!) ولو كنا نبحث عن الحقائق التى طالما حجبت عن نظر الناس وأغفلها التاريخ، مخفياً إياها بحرص حتى لا تثير عواطف متجددة وخطيرة، فليس علينا سوى دراسة الإنتاج الغزير للشعراء من جنوب آسيا من أعلاهم لأدناهم. هذا هو الجانب الغائب عن أطفال منتصف الليل، والذى يزعج الكثيرين الذين يحاولون إخفاء يأسهم بالهجوم على يأس الآخرين.

وقد ازداد تدهور الأوضاع فى شبه القارة منذ أن كتب رشدى ذلك الكتاب. فقد رتب النظام السعودى لانقلاب إسلامى فى بنجلاديش، الدولة التى انتُهكت باسم الإسلام. لم يكن لكاتب روائى أن يخلق شخصية مثل الجنرال ضياء. وها نحن نشهد انتعاش اللاجئين الأفغان الذين تسببوا فى زيادة كمية الهيروين المنتج فى باكستان بمئات المرات، كما ينتعش الجنرالات الذين يحمونهم. يتم منع الكحوليات فى الدولة، ولكن الإسلام لا يمنع الهيروين! تبدو لنا جرائم "ذو الفقار" تافهة بالمقارنة بذلك. ليس من الممكن أن تطالع مجلة أو جريدة هندية دون المرور على قصص أكثر بشاعة من تلك التى تزين صفحات أطفال منتصف الليل. وها نحن نرى تزايد التساؤلات من جانب المخضرمين الذين شهدوا الصراعات القديمة، كما من الأصغر منهم والأصغر والأصغر، يدورون حول السؤال نفسه: "هل وصل كفاحنا للاشىء؟" ويرى بعضهم (بصفة أساسية الماويين الذين صدموا فى أحلامهم) أن الإجابة المدوية هى "نعم". وقد جاءت عصابات النكزاليين كنتاج لصدمة حقيقية وليس أدبية؛ إذ كان الفشل مقدراً لسياساتهم، كما اتضح أن الآلهة التى كانوا يعبدونها كانت آلهة مزيفة. ولكننا لا نملك إجابات نقدمها لمعظم مقاتلى الأمس. وعلى الرغم من أنه لا يمكن تقديم الإجابة لهؤلاء فى صورة هجوم أدبى أو استعارات شعرية، فعلينا ألا نقلل من شأن الأفكار. فأنا مقتنع أن للشاعر وصانع الأفلام والروائى الآن دوراً أكثر أهمية من ذى قبل.

لن تصل رواية رشدى لجماهير جنوب آسيا، ولكن سيقرؤها النخبة الذين يتحدثون الإنجليزية (ربما يكون عددهم أكبر ممن فى بريطانيا) وفى هذه الحالة، أهلا بالرواية؛ حيث إن مناقشتها فى حد ذاته أمر يحسب للمؤلف. فلم يسبق أن جاءت

رواية أخرى عن الهند بهذا التأثير. ولكن أين الإجابة التى يمكن أن نقدمها للمفكر المنغلق على ذاته أو النقابى أو عضو عصابات النكزاليين السابق أو عضو الحزب الشيوعى (الماركسى) فى الهند؟ يمكننا أن نفعل ما هو أسوأ مما فعله رجل مسن فى منفاه فى المكسيك والذى كان قد خبر أشد الإخفاقات التى أصيبت بها الطبقة العاملة فى أوروبا، ولكنه بقى رافضًا للتراجع الفكرى. فقد كتب تروتسكى ردًا فى رسالة شخصية لصديقة كتبت له معبرة عن تشاؤمها التام: "سخط وغضب واشمئزاز؟ نعم، وحتى الإنهاك المؤقت". كل هذا من صميم الإنسانية. ولكنى لن أصدق أنك رضختى للتشاؤم، لأن ذلك سيكون بمنزلة الاستياء الكسول والشاكى من التاريخ. كيف يمكن ذلك؟ "يجب أن نأخذ التاريخ كما هو"، وعلينا أن نتعارك معها بقبضاتنا عندما نراها تسمح لنفسها بمثل هذه النوبات من الغضب الحقير العجيب.

الجنرال ضياء وسلمان رشدي والحمير

أتمنى أن يحصل سلمان رشدى على جائزة البوكر مرة ثانية. سوف تكون بالتأكيد مستحقة. تأتى روايته الأخيرة بعنوان العار (Shame) أكثر تركيزًا وتأثيرًا من أطفال منتصف الليل. وبينما تتمثل فى الرواية كل الجوانب القوية فى أطفال منتصف الليل نجدها متخلصة من نقاط ضعفها. تأتى الترجمة الحرفية لعبارات اللغة الأردية إلى الإنجليزية التى يوردها رشدى فى نثر إنجليزى متألق شديدة الفكاهة. ولكننا نشعر أن تلك المتعة مقيدة؛ إذ يدفعها رشدى دفعًا لكى تمتزج بالسخط. جعل التصوير المباشر الذى يعتمده رشدى من الضحك والغضب أمرين متلازمين، العاطفتان التوأم الملتصقتان اللتان تقدمهما العار. يكمن السبب فى أن الكتاب لا يدور حول وطن متخيل – فالوطن وياللأسف حقيقى أكثر من اللازم. تمثل العار هجومًا أدبيًا – سياسيًا عنيفًا على باكستان المعاصرة. ولم تكن الرواية لتنشر فى وقت أفضل من هذا الوقت. ولكننى لا أنتوى هنا أن أقدم عرضًا نقديًا للكتاب، ولكن دراسة لموضوعه. وأجدنى أتمنى ألا يكتفى رجال الأدب البريطانيين فى عروضهم الأكثر تفصيلاً للكتاب بالتركيز على القشرة الأدبية، وأن ينفِّذوا نظرهم على أقل تقدير إلى الدولة المحتضرة التى تقبع فى القاع منه.

ينشغل الجنرال ضياء الحق مجددًا بقتل الناس. الضحايا هذه المرة هم سكان إقليم السند الجنوبى القصى. ويفاجأ الجيش أن السكان يقاومون. لقد انتبه الغرب ونحن لا نريد الكثير من الجلبة. ضياء الحق من أحد الطغاة المفضلين لدى البنتاجون ووزارة الخارجية البريطانية. والشعور متبادل كذلك. فقد فاجأ الدكتاتور أحد الصحافيين الغربيين مؤخرًا بمونولوج ذاتى طويل حول مآثر السيدة تاتشر. إنها زعيمته العالمية المفضلة، ويتمنى لو اقتدى بها أكثر... إلخ. وفى حديث خاص استشعر الصحافى أن ذلك الحب لا يتعدى الإعجاب التافه. ولو لم يكن ضياء الحق يعانى من الكبت الشديد لكان لحق بما يمكن تسميته بالنادى الحصرى العالمى الذى يضم رجالاً

يرون السيدة تاتشر جذابة جنسيًا، ولكنا قد أضفنا الجنرال ضياء الحق للقائمة التى تضم أنتونى باول، والسير إسايا برلين وكريستوفر هيتشينز. أما فى تلك اللحظة فإن تفكيره أكثر انصبابًا على التشبث بالسلطة منه على رئيسة وزراء بريطانيا. فقد تبددت هالة الخوف التى حكم بها لمدة ست سنوات، وسوف يرقص الناس فى الشوارع عندما يذهب. ليس أمامه سوى ثمانية عشر شهرًا على أقصى تقدير.

غالبًا ما تتفوق الحقيقة على الخيال فى دولة ضياء الحق الجحيمية. يقدم لنا رشدى فى العار شخصية مولانا داوود، ذلك المُلا الملتوى المتهالك الذى يكيل اللعنات على عمر الخيام، ذلك البطل الضد/المشاهد العابر أو أيا كان: "يا رب، يا إلهى المعذب، أنزل جبلك النارى المتقد على ذلك المسخ الإنسانى!" يطلب داوود العون من الخالق ولا يسعى إلى الفعل المباشر. بعد أن ينتهى رشدى من كتابة قصته مباشرة تحدث هذه الواقعة فى مدينة كراتشى التى تعد مدينة كوزموبوليتانية. فقد وجد الناس طفلاً حديث الولادة أمام أحد المساجد، فأبلغوا المُلا الذى تفحص الوليد وأمر بألا يمسه أحد. وفى اليوم نفسه تحدث المُلا فى خطبته عن مساوئ الجنس والممارسات غير الشرعية والزنا وما إلا ذلك، كما أدان كل الخطايا التى ترتكبها النساء. ثم أمّ المصلين إلى خارج المسجد؛ حيث قاد عملية رجم للطفل الوليد الذى لقى حتفه؛ لأنه لم يكن مرغوبًا فيه اجتماعيًا - فجاءت الإبادة هى الحل الوحيد. إنه درس عظيم فى العدالة الإسلامية. أما تفسيرى الشخصى فهو أن المُلا نفسه هو أبو الطفل، مما يفسر ترك الطفل أمام المسجد. يشتهر الملالى فى باكستان بالاغتصاب وغالبًا ما يكون ضحاياهم من الصبيان الصغار، وتكثر القصص المتداولة فى القرى والمدن حول القهر الجنسى الذى يمارسه الملالى. ويمكننا بمنطق مرعب اعتبار تنصيب ضياء الحق لهم كحماة للأخلاق المنهارة قرارًا حكيمًا.

يأتى ملاك الثأر فى رواية رشدى فى صورة امرأة محدودة الذكاء تعقد العزم على القضاء على كل من يمارس القهر عليها. وأعتقد أن الكثير من الرجال الباكستانيين

المتعاطفين سياسيًا مع رواية رشدى لن يفهموا الرمزية المعقدة هنا. فالتسلط الذكورى متأصل فى باكستان لدرجة تجعل أى محاولة يقوم بها الرجال لفهم دورهم فيه تغرق فى بحر من طقوس التكيف الاجتماعى والمعايير المزدوجة والمعايير السياسية والدينية بطريقة تجعلها كلها أدوات لتعميق القهر الممارس بحق النساء. وقد ألقى القبض منذ أسابيع قليلة على شاب وشابة ووجهت إليهما تهمة الزنا وإنجاب طفل غير شرعى. كانت المرأة عمياء وحكم عليها بثلاث سنوات فى السجن وغرامة ١٠٠٠ روبية وخمس عشرة جلدة. وتقرر أن يكون الجلد علنيًا حتى يردع العار اللاحق بها الأخريات. أما الرجل؟ لقد أطلق سراحه. بالطبع. ولم يؤذ أحد الطفل. علينا أن نشعر بالعرفان تجاه وقائع العفو الصغيرة التى تحدث فى باكستان تحت حكم ضياء الحق.

وكما تقدم لنا الروايات اللهو والتسلية، فإن الحياة تفعل الشىء ذاته أحيانًا. ففى مجتمع يعامل بنى الإنسان (خاصة النساء) كالحيوانات، قد يحدث العكس فى بعض الأحيان. فقد انتبه شرطيو الحراسة العاملين لدى ضياء الحق منذ عدة أسابيع إلى بعض الحمير الشاردين فى مدينة عمركوت. لم يكن أحد فى صحبة الحمير كما لم يكونوا يحملون شيئًا فوق ظهورهم الهزيلة. ارتاب الشرطيون فألقوا القبض على الحمير واقتادوهم إلى المخفر ووجهوا لهم تهمة بمخالفة قانون حظر التسكع. وهكذا رفض القانون إطلاق سراح الحمير، كما لم يستدل على محام يمكنه تقديم طلب للكفالة. ولم يأمر حاكم مدينة عمركوت بإطلاق سراحهم الفورى سوى عندما أخذوا فى النهيق والتبرز والتبول. وقد جاءت تلك الحادثة الفريدة التى قام بها المساجين ذوى الأربع والتى تقدم نموذجًا فعالاً للتحرك الجماعى مثارًا لإعجاب الكثير من المواطنين العاديين. وهكذا كما ترون يكون الجلد نصيبًا للنساء الكفيفات والناشطين السياسيين المتمردين، والرجم نصيبًا لحديثى الولادة.

يواجه سلمان رشدى بالتأكيد منافسة قوية فى وقائع مثل تلك الواقعة المبتكرة.

تايم آوت

سبتمبر/ أيلول ١٩٨٣

مقابلة مع سلمان رشدي حول رواية العار

طارق علي: قال لى القصاب صباح اليوم: لقد قرأت ما كتبته عن العار واشتريت الكتاب؛ لأننى كنت قد قرأت أطفال منتصف الليل. وقد اندهشت لما قال؛ لأنه ليس من المعتاد وسط المشهد الأدبى النخبوى فى بريطانيا أن يجد المرء قصاباً يناقشه حول أحدث الروايات الرائجة بينما يبيع اللحم، وبخاصة لو كان ذلك فى صبيحة يوم الثلاثاء. ولكن كان ذلك ما قاله القصاب لى. سألته: وما رأيك فى أطفال منتصف الليل؟ فأجاب: لقد أزعجتنى كثيراً. فقلت: يا الله، ثم أضفت: إذاً فقد اشتريت رواية العار. فأجابنى قائلاً: بدأت لتوى فى قراءتها - ولا أعتقد أن بدايتها مشوقة ومليئة بالأحداث مثل بداية أطفال منتصف الليل. ولكننى قد بدأت فيها لتوى، وسوف أخبرك عن رأيى عندما أنتهى من القراءة. تلك بالطبع واقعة صغيرة ولا أود اتخاذها للتعميم بالقول: إن كل قصاب فى بريطانيا يقرأ كتاباً عن "جزار" باكستان. ولكنى أعتقد أن الناس فى بريطانيا، بما فيهم سلمان رشدى، قد بدءوا فى كتابة روايات تتخطى ببطء الحواجز الأدبية، جاعلين هذه الكتابة الأدبية متاحة أمام قطاع كبير جداً جداً من الجمهور، وهو أمر لا يمكن سوى أن يسعدنا - وجود جمهور متنام من القراء فى عصر التلفاز والفيديو والخصخصة. ولهذا، لا أعتقد أن سلمان رشدى يحتاج لتقديم - كلكم تعرفون أنه مؤلف أطفال منتصف الليل التى فازت بجائزة أدبية كبرى، كما تعرفون أنه كتب رواية العار المدرجة الآن على القائمة القصيرة للجائزة لنفسها لهذا العام، وأن هذا الكتاب بالطبع ليس مجرد رواية: بل هو رواية سياسية قوية جداً جداً تتناول مجتمعاً معيناً تنتشر فيه قراءة الروايات، وأن طبعات سرية ومخالفة للقانون تتسرب بكل تأكيد من الهند عبر الحدود بصورة متسارعة. هذا شىء يصعب على الناس فى هذا البلد تصديقه، ولكننى أود أن أقول فى البداية، وقبل أن أتحدث مع سلمان: إن الجمهور الذى يقرأ الأدب، أو جمهور القراء الذين يقرأون الأدب المكتوب بالإنجليزية فى الهند يفوق بكثير نظيره فى بريطانيا من حيث العدد. ولهذا تأتى تلك الروايات، وروايات

أخرى بالطبع، ولكننى أخص هنا هذه الروايات؛ لأنها تتناول ذلك الجزء من العالم، ولهذا فهى ذات أثر عميق فى الهند. وقد نظر القراء فى الهند إلى أطفال منتصف الليل رواية سياسية - كما هو الحال مع رواية العار. ومن دواعى سرورى أن أجد المجتمع الأدبى فى هذا البلد ينظر لرواية العار بوصفها رواية لا تبتعد عن السياسة، بل هى رواية سياسية قوية. وقد ساد اعتبار أطفال منتصف الليل إنجازًا أدبيًا كبيرًا - وهى كذلك بالفعل، ولكنها لم تكن مجرد ذلك. بينما جاءت النظرة لها فى الهند شبه النقيض لذلك.

سلمان: أنت لم تعش فى باكستان بالفعل بل قضيت سنوات عمرك المبكرة فى الهند. وكما ذكرت فى العديد من المقابلات الصحفية، فقد خانتك عائلتك وعبرت الحدود إلى الدولة الدينية واستقرت فى باكستان، ولهذا جاءت سفراتك إلى باكستان بمثابة رحلات قصيرة فى العطلات من هنا. كيف تسنى لك تصوير هذا المجتمع دون أن تكون قد عشت فيه؟

سلمان رشدى: أولاً، لم تكن كل سفراتى قصيرة، فقد امتدت بعضها إلى ستة أشهر، وهى مدة طويلة بما فيه الكفاية. طويلة جدًا بما فيه الكفاية فى الواقع. ولكن هذا المجتمع كذلك مجتمع أبسط من المجتمع الهندى على سبيل المثال؛ إذا إنه أقل تعددية. الغريب فى الهند أنها تشكل خليطًا عظيمًا، بينما نجد فى المقابل باكستان شيئًا واحدًا. لا أدرى، أعنى، كيف صورت ذلك المجتمع- فى الحقيقة أعتقد أننى اخترعته. [ضحك] وقد اكتشفت مع أطفال منتصف الليل أن الإتيان بتفاصيل شديدة الغرابة والترحال الحر فى عالم الخيال وهى أمور تعتقد أنها لا يمكن أن تعبر عن الحقيقة يتضح فى النهاية أنها حقيقية. فعلى سبيل المثال، تجدنى أختلق فى رواية أطفال منتصف الليل حادثة ولادة سليم ودخوله البيت لأول مرة؛ حيث تكتشف أمه ومربيته أن عينى الطفل لا تطرفان فينتابهما القلق، ولذلك يطرفان عينيه بأيديهما حتى

يعتاد على فعل ذلك. كتبت مثل هذه القصص والتى كنت أعتقد أنها محض اختلاق ساذج؛ لكى أتمكن من كتابة الجملة التى تقول: إن أول دروس الحياة التى تعلمها سليم كانت أن علينا أن نواجه الحياة بعيون مفتوحة طوال الوقت، هل فهمتنى؟ ثم عند ولادة ابنى فيما بعد فى مشفى جامعة لندن جاءتنى الممرضة الفلبينية قائلة: لا تقلق لأن عينى الطفل لا تطرفان. [ضحك] فوقعت من على المقعد؛ لأننى كنت قد اخترعت الواقعة. ولكن يبدو أن فعل طرف العين يحتاج وقتًا؛ لكى يقوم به الطفل الوليد وهو ما قد يصيب الآباء والأمهات الذين ينجبون للمرة الأولى بالقلق.

ط ع: وهو ما يقودنا للعلاقة المتشابكة والمثيرة بين الخيال والتاريخ. فقد سألنى الكثيرون عما إذا كانت رواية العار دقيقة تاريخيًا، أم أنها مبالغ فيها لدرجة هزلية تجعلها تشويهًا للتاريخ. وقد أجبت وقتها بأن الجنرال ضياء ينتج الخيال بشكل أكثر تماسكًا من سلمان رشدى. وهناك واقعة تذهل الناس ولكنها واقعة حقيقية ذكرتها الصحافة فى باكستان تقول: إن قطيعًا من الحمير وجد شاردًا فى شوارع مدينة صغيرة تسمى عمركوت، فألقى أحد رجال الشرطة اليقظين القبض عليه وساقه إلى المخفر، حيث أودع الحمير السجن حتى يأتى من يدفع لها الكفالة. وقد رفض المحامون العمل على إطلاق سراح الحمير، فتم استدعاء حاكم المدينة فى وقت متأخر من الليل حين كان الحمير آخذين فى النهيق والتبول والتبرز، فأمر بإطلاق سراحهم فورًا. وقد انتشرت القصة فى باكستان، وأصبح الحمير – لن أقول موضوعًا لتبادل الأنخاب، لأن الأنخاب ممنوعة – ولكنها أصبحت مثار إعجاب كبير. ولو أنك ضمنت رواية العار حادثة كتلك لاتهمك الناس بالجنون.

س ر: نعم... تعتبر العار تعبيرًا ضئيلاً عما يحدث فيما يبدو لى. يمكننا تبادل الحكايات طوال الليل، ولكننى أرى قصة القرية التى سارت نحو البحر جديرة بالذكر فى هذا السياق.

ط ع: فعلاً. قصة مدهشة.

س ر: مرة أخرى، لم يكن لى أن أكتبها دون أن يكذبنى الناس. فقد بدأت فتاة من القرية فى رؤية تجليات وأجمع أهل القرية على أنها عرافة. وفى يوم من الأيام ذكرت الفتاة أنها رأت أن على القرية بأكملها أن تذهب فى رحلة للحج إلى كربلاء، تلك المدينة المقدسة فى العراق. ولأنهم أناس متعقلون فقد أوضحوا أن كربلاء بعيدة جداً وأنهم قرويون فكيف يتسنى لهم الذهاب؟ ردت الفتاة قائلة: إن الرؤية التى رأتها تطلب من أهل القرية جميعهم الذهاب إلى شاطئ البحر، وأن الماء سوف ينشق، وأنهم سوف يمشون على قاع البحر حتى يصلوا إلى كربلاء. وهكذا فقد ذهب أهل القرية – حملوا أمتعتهم وساروا لمئات الأميال حتى وصلوا إلى البحر، ثم توجهوا لشاطئ أنيق يسمى خليج هوكس ودخلوا المياه. وقد غرق كل أهل القرية فيما عدا ستة أو سبعة أشخاص على ما أظن، بما فيهم الفتاة نفسها للأسف. قد تكون تلك الواقعة مضحكة، ولكنها كذلك تعكس صورة مذهلة لعمق الإيمان.. ثم تطلبت القصة منى خلق توسعين مختلفين لها، أحدهما فكاهى والآخر غير فكاهى. تمثل الجانب الفكاهى فى أن الحكومة الباكستانية شرعت بجدية فى توجيه تهمة الشروع فى الهجرة غير الشرعية لهؤلاء القرويين، وهو ما يوضح لك ماهية الحكومة فى باكستان. [ضحك] وقد أسقطت التهمة فيما بعد. ولكن الأمر الآخر الذى أتى غريبًا جداً كان أن الناجين من القرية قد اعترفوا، كل على حدة ودون فرصة الاتفاق على ما يقولون، أنهم رأوا الماء ينشق وأنهم رأوا باقى القرية تسير نحو كربلاء وأنهم كانوا غير جديرين بصورة أو بأخرى، ولهذا فقد انغلق البحر أمامهم. وعندما لفت بعضهم انتباههم إلى جثث القرويين ردوا قائلين: يمكنك أن ترينا ما تشاء: ولكننا رأينا ما رأينا. تمثل هذه الحكاية فى رأيى قصة رمزية عن باكستان ليس بوسع أحد أن يختلقها. ولهذا فلو كانت رواية العار تحاكى الواقع بدقة لما صدقها أحد.

أعتقد أنه يجدر بى أن أشرح مجدداً المنظور السياسى الذى كتبت الكتاب منه. أعتقد أن الكتاب يواجه خطورة أن يقرأه بعضهم ممن يعرفون باكستان معرفة جيدة

على أنه حكاية رمزية عن باكستان. ولكننا لا يمكن أن نترجم أحداث الكتاب مباشرة إلى وقائع الحياة فى باكستان، كما لا يمكننا القول: إن كل الشخصيات حقيقية. فأرجومان حرابا، مثلاً، ليست بينظير بوتو. لا يمكن النظر للأمور بهذه الطريقة. كما أنه لم يطلق على بناظير، على حد علمي، لقب "العذراء ذات السروال الحديدى"... بل إننى قد أطلقت الكنية التى اشتهرت بها - القرنفلية - على شخصية أخرى فى الرواية، بهدف التشويش على السذج. ولكننى وجدت أن ضياء وبينظير ليسا شخصيتين مأساويتين، على الرغم من غرابة أن يصبح أحد مؤيدى بينظير هو منفذ الإعدام شنقًا بحق ضياء، وهو الأمر الذى اعتبرته يستحق التعمق فيه من وجهة نظر الرجلين. لا يمثل الرجلان شخصيات مثل عطيل وهاملت - شخصيات عظيمة بها عيب خطير، بل هما حمقان، ممثلان هزليان، رجلا عصابات، مهرجان، هم أناس من قاع الحياة. وقد يكون من المظاهر الثابتة فى باكستان وفى العالم أجمع فى الوقت الراهن أن الحكام ممثلون هزليون، مما أملى علىّ منهجًا خاصًا فى الكتابة. فقد كان على أن أحاول كتابة قصة مأساوية - لأن الموقف كما أظن موقف مأساوى، ولكن كان علىّ أن أكتب تلك المأساة فى صورة ملهاة؛ لأن أبطال المأساة لا يستحقون منزلة المأساة. وقد جعل ذلك مهمة الكتابة صعبة ومشوقة فى آن واحد؛ لأننى أتعامل مع شخصيات كوميدية مبالغ فيها، ولكنهم يشغلون مواقع مأساوية فى التاريخ تجعل منهم مادة تستحق الكتابة عنها.

سؤال من أحد الحاضرين: فى الواقع أجدنى أشعر بخيبة الأمل حين أسمعك تقول: إنك لا تعتبر شخصية أرجوماند حرابا هى بينظير بوتو؛ إذ أرى أن من أهم عناصر الجذب فى الكتاب هو أن الشخصيات الرئيسية مرتبطة بشخصيات حقيقية فى باكستان.

س ر: كنت أعلم أن إسكندر حرابا يمثل بوتو بشكل ما، وأنه لو كان له ابنه فسوف يفترض الناس مثل ذلك الافتراض- ولكنها ليست كذلك، بل أرى أنها أرجوماند

حرابا أكثر تشويقًا من بينظير بوتو! سأحكى لك عما فعلت. من شبه المتعارف عليه أن الكاتب يستخدم جوانب من شخصيات أناس يعرفهم فى رسمه لشخصياته المتخيلة، فتراك تستخدم مثلاً حواجب هذا الشخص، أو سوء طبع هذا أو لكنة ذاك - أو أى سمات أخرى. ذلك جزء من عملية خلق الشخصية فى العمل الروائى. وتصبح المسألة أكثر تعقيداً عندما تستخدم جوانب من شخصيات عامة معروفة. وهناك أصداء كثيرة لشخصيتى ضياء وبوتو فى شخصيات رازا وحيدر وإسكندر حرابا ولن أنكر ذلك.

ط ع: ليس بإمكانك إنكار ذلك.

س ر: بلى. أعتقد بإمكانى ولكن ذلك لن يفلح. [ضحك] ولكن يجب ألا نفهم بقية الكتاب على أنه يتحدث عن عائلتيهما. لا توجد على حد علمى قرابة بين ضياء وبوتو، بينما تظهر أهمية علاقة القرابة فى الكتاب. فالكتاب يدور بصورة ما حول موضوع القرابة.

سؤال: لا يفوق جهل الإنجليز بتاريخهم القمعى فى الهند سوى جهلهم بما ينزلونه بأيرلاندا. ألا يقلقك نوع التجاوب الذى تخلقه قراءة تصوير المجتمع الذى تقدمه الرواية المغرق فى الخيالية الذى يتسم غالبًا بالفكاهة هنا فى إنجلترا؟

س ر: ربما كان من حسن الحظ أنه يصعب على الكتاب معرفة كيف سيقرأ الناس كتاباتهم - وغالبًا ما يقرأ الناس بطريقة أكثر تشويقًا من طريقتك فى الكتابة؛ حيث يمكن للقراء أن يضيفوا أو يحذفوا أشياء من الكتاب. أعتقد كما ذكر طارق فى البداية بوجود اتجاه ما هنا، كما فى أمريكا، نحو تقليل أهمية الواقع فى هذه الكتابات. يبدو لى أن الخيال الجامح يمثل عنصراً ضعيفًا فيما أكتب، أو أنه موجود لكى يمكننى من قول أشياء أراها حقيقية. دائمًا أيصيبنى الاكتئاب حين أجد أناسًا يتحدثون عن الخيال الجامح وكأنه نوع من أنواع الهروب من الواقع؛ لأنى لا أراه هروبًا. فعندما تجيد استخدامه يصبح أداة لجعل معايشتك للواقع أكثر قوة وتأثيراً. أعتقد أن قراء رواية العار سيجدون صعوبة أكثر فى تجاهل محتواها السياسى مما

يجدون أطفال منتصف الليل؛ لأن المحتوى السياسى فى العار ببساطة أكثر مركزية هنا وتتم مناقشته بشكل أكثر وضوحاً.

ط ع: ومن أحد الأسباب التى أدت إلى ذلك أنك تقدم حيلة أدبية أجدها قوية التأثير بأن تخاطب القارئ مباشرة وتحكى وقائع حقيقية؛ مثل تناولك العشاء مع أحد المسئولين فى وَزارة الخارجية والذى يدافع عن ضياء، أو الأحداث التى تقع فى منطقة إيست إند فى لندن - تلك الخيالات التى بنيت عليها شخصية صوفيا زنوبيا والتى أراها ذات تأثير كبير يجعل من الصعب علينا أن ننسحب كلياً من الرسالة التى يحاول الكتاب توصيلها.

س ر: نعم، هذا ما قصدته بهذه الشخصية. فقد كنت أرى أهمية الاشتباك مع علاقتى بالأمور الواقعية وكذلك بمصادر تلك الأمور- إذ إن الأمور الواقعية تبقى قيد الانفجار فى أية لحظة. وكذلك فإن لقصة ضياء وبوتو وقعًا عاطفيًا لدى كثير من الناس؛ ولذا فقد وجدت أنه من الطبيعى أن أناقش تلك الأمور، وأن أقول: إن تلك هى وجهة نظرى فيما يتعلق بالأمور الواقعية. كما كنت أعرف أن تلك الأمور سوف تكون السبب وراء كره الناس للكتاب - إذا ما كانوا سيكرهونه - لأن ذلك أمر لا ينبغى للكاتب أن يفعله- أن تتدخل وتتحدث عن نفسك وسط الرواية. ولكن لو كانت تلك قصة شفاهية - أعنى لو كنت أجلس هنا وأنت هناك وأحكى لك قصة هذا الكتاب فلن يكون من الغريب أن أتدخل بين الحين والآخر لأعلق على سلوك إحدى الشخصيات أو معنى حادثة معينة أو عن رأيى فى هذا الأمر أو ذاك؛ لأن السرديات الشفاهية كما تعلم يتداخل فيها الراوى والحكاية بهذا الشكل. ولكن ذلك نادراً ما يحدث فى الروايات المكتوبة. وقد كانت تلك الأجزاء من أصعب أجزاء الرواية فى الكتابة.

ط ع: أرى أن هناك شيئًا آخر يظهر بوضوح، ألا وهو النساء فى الرواية. ففى بداية الكتاب نجد هؤلاء النسوة الثلاث محبوسات داخل بيت فى مدينة كويتا، وتجد نفسك تشعر بالاختناق الذى يشعرن به، ثم تجد الإحالات المنتشرة فى الكتاب. فهناك

مثلاً عبارات القدح البنجابية المختارة وهى تعبيرات سوقية أراها مشوقة جداً من وجهة نظر علم الاجتماع. ثم أخيراً نجد الشخصية الرئيسة، صوفيا زنوبيا، المرأة التى تصبح الملاك الذى يتولى الإبادة. كنتَ تحدثت فى مناسبات أخرى عن النزعة الجنسية المكبوتة، والتى تشبه العنف فى كثير من الأوقات فى دول: مثل باكستان، كما فى العالم الإسلامى بصفة عامة، وهو أمر يثيره كذلك فيلم يول (Yol) ليلماز جونى. هل كنت تقصد تناول هذا الأمر؟

س ر: ليس تماماً. لقد أبدى أحد المعلقين فى جريدة ماركسيزم توداى قلقه الشديد إزاء النساء اللاتى يقدمهن الكتاب، وذكر أننى لم أكن لطيفاً فى التعامل معهن. وقد أصابنى ذلك بانزعاج شديد؛ لأننى كنت أراهنُ فى الحقيقة فى قلب الكتاب.

ط ع: أعتقد ذلك أيضاً.

س ر: لقد استولين على الكتاب وأصبحن أكثر أهمية من قصة ضياء وبوتو، أو بقول آخر: لم تصبح قصة ضياء وبوتو مشوقة إلا حين تراها من خلال عيون هذا الغطاء أو تلك المجرة من النساء المحيطات بهما، أمهات وبنات وعاشقات وغيرهن. نرى النساء فى كثير من الأحيان فى صورة شخصيات ضعيفة، ولكنى أرى الرجال أكثر حقارة. تضطر النساء فى مثل تلك المجتمعات إلى صياغة شبكات الدعم المحيطة بهن وصياغة أساليبهن الخاصة فى التعبير عن التضامن معاً إلى آخر ذلك - وهو ما قد أتى بهؤلاء الأمهات الثلاث. كانت تلك طريقتى لقول: إن البنات الثلاث المسجونات فى البيت كان عليهن التوصل لطريقة تساعدهن على التعامل مع الوضع الراهن، وأن ما فعلنه كان أن أصبحن ذلك المخلوق ذا الثلاث رؤوس - ذلك الثالوث. والغريب هو أننى لم أعرف لمدة طويلة هن أمهات لِمَن؟ كنت فقط أرى أن هناك فكرة لا أستطيع التخلص منها؛ لأنها مشوقة جداً. وقد أخذت فى تجربة إلحاقهن بشخصيات معينة ولكن لم يجدِ الأمر. فكرت فى البداية فى جعلهن أمهات الدكتاتور، رازا، وحاولت كتابة فقرة أجعلهن فيها أمهاته، ولكن الأمر لم يعجبهن ألبتة - لم يردنه. ولهذا فقد محوت كل ما كتبت

وانتظرت أن يجدن طفلهن. وأخيراً فقد وجدنه، وهنا كان علي أن أعيد كتابة الكتاب؛ لكى أجعل لهن هذا الابن. ولكننى افتتنت بهن، لأنه بعكس ما حدث فى أطفال منتصف الليل؛ حيث كنت أجعل الشخصيات تفعل الأشياء بالطريقة التى أريدها منها، كانت شخصيات العار كثيراً ما ترفض منحى ذلك الامتياز، وكانوا على العكس يعطونى تعليماتهم بما أفعل بهم. وتعد الأمهات أحد أمثلة ذلك. ولكن تبقى كذلك حقيقة أننى فى البدء لم أتخيل أن الكتاب سينتهى فى باكستان- كما لم أتخيل أن رازا بالضرورة سوف يموت، بل كنت أتخيل أن ينتهى به الأمر فى لندن، كما كنت أعتقد أنه سيهرب وينتهى به الأمر فى شقة فى حى ساوث كينزينجتون - ذات ستائر مسدلة دائماً بينما التدفئة المركزية تعمل طوال الوقت. وقد كتبت فصلاً كاملاً عن رازا فى المنفى وفى شارع جلوشستر وكنت أحسبه فصلاً جيداً. ولكن حين حاولت أن أدخله ضمن الكتاب ظهر لى أمران: أولهما: أنه قد رفض أن يترك البلد. يتناول الكتاب فكرة الحدود، تلك الحدود التى وراءها العدم. وعندما رسخت تلك الفكرة فى الكتاب بدأت الشخصيات تنصاع لها قائلين: إنهم لن يعبروا الحدود، لأن الفراغ يقبع خلفها، وأن وجودهم مقصور على ذلك الوجود داخل الحدود. ولهذا فقد رفض ضياء الرحيل. أما السبب الثانى فكان أننى جعلت من صوفيا زنوبيا ذلك النوع الذى يشبه آلهة الانتقام التى تجبرك على إتاحة الفرصة أمامها. فلا يمكنك تجنب ذلك الأمر. وهكذا فقد وجدت أن المنطق الذى تطور مع الشخصيات قد أصبح يتحكم فيما يحدث فى الكتاب.

ط ع: أظن أن وزارة الخارجية البريطانية سوف تغضب كثيراً لو أنك سمحت لصوفيا زنوبيا بالانتقام؛ إذ إن هؤلاء الذين قرءوا الكتاب يعرفون أن الأمر ينتهى بالديكتاتور نهاية مزرية على يد مصعد صغير وينتهى مطعوناً بكل تلك السكاكين.

س ر: نعم - ينتهى به الأمر مقطعًا إلى أشلاء. كان علي أن أفعل شيئًا. وبما أننى لم أتمكن من تأليف ثورة، فقد اكتفيت بالطعنات! وكذلك فقد وجدت الحادثة التى ذكرتها عن الدبلوماسى حادثة شيقة: لأنها تمثل لقاءً عابراً بدبلوماسى بريطانى يعمل

فى منطقة جنوب آسيا ويعرف البلاد هناك جيداً ويتحدث لغاتها. كنت معجبًا به. ثم عند ذلك شرع فى إلقاء خطاب طويل عن صحة موقف بريطانيا وأمريكا فى مساندة الجنرال ضياء من أجل تحقيق الاستقرار فى المنطقة. ذلك نموذج للحديث الذى تود تجاهله؛ حيث تقول لنفسك: إنه ما من فائدة سوف تعود من العراك بهذا الشأن، فلأذهب إذًا إلى البيت. ولكنك تجد نفسك تتعارك. وهكذا فقد اتهمته بالتهم المعتادة، فقلت: إن ذلك رياء، وردّ هو بالنفى. وقد بقينا هكذا لبعض الوقت. أما ما قد أثار اهتمامى فكان سلوك زوجته التى تصرفت باحترافية أكبر. يتعلم المرء بعد عشرين عاماً من الزواج من دبلوماسى أشياءً مهمة. فكلما كان الرجل يقول شيئًا، أيًا كان ذلك الذى يقول، كان يبدو عليها الشك وتأخذ شهيقًا حاداً وتحرك رأسها دون أن تقول شيئًا. وبينما كنا نغادر حجرة الطعام، أخذتنى تلك السيدة جانبًا وقالت لى: أخبرنى يا سلمان، لماذا لا يتعامل الناس فى باكستان مع الجنرال ضياء بالطريقة المعتادة؟ فسألتها: ماذا تقصدين؟ الاغتيال؟ فردت قائلة: نعم. وجدت ذلك التعليق من جانبها شديد الغرابة، ثم شعرت أنه نذير سوء؛ لأنه يدلك على أن الغرب، عندما يتدخل فى أمور مجتمع أو حكومة أو وضع سياسى معين مثل باكستان فإنه لا يترك للشعب خياراً سوى الاغتيالات. كانت السيدة تقول لى بصورة غير مباشرة: إن جميع السبل قد أغلقت عدا سبيل العنف، فافعلوا إذًا ما عليكم فعله وسوف تستقيم الأمور فيما بعد. ثم بعد ذلك نجد الاستحواذ العنيف على السلطة فيقول الجميع: انظروا لهذا البلد، إنه يعج بالعنف – عنيف وهمجى وشبه متحضر ولم يتحرك أبعد من العصور الوسطى ويحتاج إلى السيطرة من جانبنا. وهكذا يضعون رجلاً آخر فى منصب القيادة وتصبح الطريقة الوحيدة للتخلص منه هى القتل. بل وتقترح عليك زوجات الدبلوماسيين ذلك خلال حفلات العشاء. ولهذا فقد ضمنت الكتاب تلك الحادثة كما أننى تبعت نصيحتها بشكل ما فى الكتاب.

ط ع: كنت قد استمعت فى المذياع إلى مقابلة صحفية مع إينوك باول منذ حوالى خمسة أعوام؛ حيث سأله مقدم البرنامج: سيد باول، تبدو فى الوقت الحالى رجلاً

منعزلاً، ولكن دعنا نفترض أنه لديك فرصة الحصول على أى عمل، ما العمل الذى تختاره؟ كان من الواضح أن مقدم البرنامج يود أن يجر باول للحديث عن ما سيفعله لو أصبح رئيساً للوزراء، أو وزيراً للداخلية أو أى شىء آخر. فرد عليه باول بسرعة البرق قائلاً بأسى: لا أعتقد أن ذلك الاختيار متاح أمامي، ولكن لو كان بإمكانى لأصبحت حاكماً للهند. نعم لقد قالها! إذاً فالرباط بين البريطانيين والهند رباط قوى جداً جداً، وبخاصة لدى الطبقات الوسطى الدنيا فى المجتمع البريطانى، كما بالطبع فى الطبقات الوسطى العليا، ومن الممتع تأمل ذلك الاتجاه نحو الحنين إلى الماضى. هناك مثلاً تصوير فيلم الأعمدة البعيدة (The Far Pavilions)، وتقديم بول سكوت فى حلقات على تليفزيون جرانادا وكل تلك الأشياء التى تعتبر حسنة أو سيئة. ولكن المشكلة الكبيرة فى هذا البلد هى كيفية التعامل مع العنصرية. لقد أضحت العنصرية قضية منسية فى الوقت الراهن؛ لأنهم خفضوا معدلات الهجرة فأصبح السود ممنوعين من دخول هذا البلد، ولهذا تجد الناس يتخيلون- وأعنى هنا أولئك المنعزلين عن هذه الأمور - إن المشكلة قد انتهت، فى حين أنها لم تنته.

س ر: أعتقد أن هذا صحيحاً.

ط ع: أما الشىء الآخر الذى يتضح بجلاء فى الكتاب فهو العلاقة بين العار ذاته والعنف، وهو ما يجعل الكتاب يخاطب الناس فى كل مكان. وأعتقد أن تلك هى الفكرة التى تريد توصيلها. فالعار ليس ممثلاً فى جنوب آسيا أو فى الشرق أو قاصراً عليهما: أعنى أن سيمون دبوفوار وسارتر قد كتبا عما يفعله العار بالناس: إنه يدفعهم للعنف. ولهذا فإن ما تتناوله فى الكتاب ينطبق على الكثير من الدول فى الغرب على الرغم من أن أحداث الرواية تدور فى الشرق.

س ر: لقد كنت أعتقد ذلك أيضاً، وأرى أن هناك خطورة ما فى كتابة الروايات حين تعتقد أنك تقدم شيئاً يخاطب الناس فى كل مكان، فتجد نفسك تكتب الكتاب بطريقة تبين أنك تتناول موضوعاً يهم الناس جميعاً، ثم ينتهى بك الأمر إلى كتابة كتاب

ضعيف. ولهذا فقد قررت أن أبعد هذه الفكرة عن ذهنى وأتناول موضوعى ببساطة فى السياق الذى أكتب عنه. ولو وجده القراء بعد ذلك منطبقًا على حياتهم فهذا أمر حميد. ولكن ما يلفتنى للعلاقة بين العار والعنف أنها تسير فى الاتجاهين. فليس الأمر قاصراً على أن الإذلال يولد العنف، وهو أمر حق، ولكن أن العنف بدوره يولد الإذلال. وتكاد هذه الفكرة تكون بديهية لو نظرنا إلى النساء اللاتى يتعرضن للاغتصاب، أو من يتم الاعتداء عليهن فى الشارع. فهؤلاء غالبًا لا تأتى ردة فعلهن فى صورة غضب، ولا فى صورة الرغبة فى الانتقام ولكن تأتى متمثلة فى إحساس بالعار. ذلك إحساس غريب أن يشعرن هن بالعار، فما الذى فعلن؟ ولكن يبدو أن الموضوع يسير فى الاتجاهين، أن العنف يؤدى إلى العار والعار يؤدى إلى العنف، وأننى قد كتبت تلك الرواية بهدف تبيان تلك العلاقة المحورية.

سؤال: من المفترض أن هناك تعصبًا دينيًا فى باكستان ولكننى لم أجد ذلك فى الكتاب.

س ر: ألم تجده؟ لو كان الأمر كذلك فربما كان يجدر بى أن أؤكد ذلك أكثر فى الكتاب. يتحدث الكتاب عن مُلا معتوه وهو أقرب أصدقاء الجنرال، وتلك كانت إحدى وسائل الإشارة إلى التعصب الدينى. وأعتقد أننى تحدثت عن رازا كشخص ذى علاقة وثيقة مع الإله - يقتل الإله الناس من أجل الجنرال.

سؤال: ربما لم تقنعنى شخصية المُلا المعتوه.

ط ع: ولكن المُلا المعتوه شخصية حقيقية جداً جداً. وهناك الكثيرون مثله، وما يفعلونه هذه الأيام - أعنى تلك الواقعة التى يحكمون فيها على طفل وليد بالرجم حتى الموت...

س ر: لقد فعلوا ذلك حقاً.

ط ع: ... وقد فعلوا ذلك حقاً فى كراتشى، المدينة الكزموبوليتانية...

س ر: من دواعى أسفى أن شخصية المُلا المعتوه لم ترق لك - لقد كنت مغرمًا بالمُلا المعتوه. كان يدعى المُلا داوود. إنه رجل لطيف. يظن عندما يذهب إلى إسلام آباد أنه قد ذهب إلى مكادى.

ط ع: إنه فى الواقع مُلا معتدل بالمقارنة مع ما هو قائم بالفعل.

س ر: نعم، نعم! أشعر أن على أن أكرر دومًا أن هذا الكتاب يقدم صورة مخففة للواقع؛ أعنى أن الواقع مرعب بدرجة تجعلك غير قادر على كتابته.

ط ع: لم يكن للانتفاضة الكبرى التى حدثت فى السند أى مبعث دينى. هل تعرف الهتاف المعتاد الذى تهتف به الجماهير فى التظاهرات: "الله أكبر". (Nara-i-takbir) لقد كان الشعار الرئيس الذى هتف به المتظاهرون فى السند ولأول مرة بعيدًا تمامًا عن هذا الشعار ولكنه محاكاة ساخرة له. :(Nara-i-Sind) "يحيا السند،" وذلك بالتحديد لكى يسخروا من الهتاف الدينى- إذًا فهناك تغيير يحدث أمام عينيك.

س ر: ولكننى أرى أن من سيتولى الأمور، أيًا كان، أى زعماء مدنيين يتبقون فى باكستان بعد رحيل الجيش سوف يكون أمامهم فرصة قصيرة جدًا لتأسيس دولة مدنية مبنية على مؤسسات مدنية. وأعتقد أنه لو فشلت تلك المحاولة فسوف تواجه باكستان مشاكل كبيرة.

سؤال: أتساءل كيف ترى باكستان كدولة ممكنة. هل لباكستان مستقبل بحق؟ هل لها هوية تحدد كنهها كدولة قومية ذات وجود دائم، أم هل تتوقف تلك الهوية على الصلات التى يمكن أن تخلقها مع الهند وتطور تلك الصلات؟

س ر: بما أن طارقًا قد انتهى للتو من كتابة كتاب بعنوان: هل تنجح باكستان؟ (Can Pakistan Survive?) فأعتقد...

ط ع: الأمر طويل ومتشعب ويصعب تناوله. أتفق مع ما قاله سلمان فى رده على السؤال الأخير: فى تقديرى أنه إذا سقطت الدكتاتورية فسوف يكون أمام الساسة

المدنيين الذين ينتظرون الآن على الأطراف ثلاث أو أربع سنوات حتى ينظموا أنفسهم، وهو ما يعنى إعادة بناء الدولة من أعلى إلى أسفل، وهو ما يستتبع إصلاحات مكثفة وشديدة الراديكالية فى قوانين الإصلاح الزراعى حتى يتمكنوا من كسر قبضة ملاك الأراضى وكبار ضباط الجيش السابقين والحاليين الذين يمثلون قطاعًا كبيرًا من طبقة ملاك الأراضى فى البلاد. وهكذا فهناك مهمة واضحة أمام هؤلاء الساسة، وإذا لم ينجحوا فيها وعاد الجيش وعادت الكرّة فأعتقد أن باكستان سوف تشهد عملية "بلقنة".
ومن اللافت فى كل التقارير الواردة من باكستان فى الوقت الحالى أن أحد أكثر الزعماء العالميين شعبية أثناء الانتفاضة فى السند ليس ريجان ولا مارجريت تاتشر أو زعماء أوروبيين آخرين، أو كما كنا نجد فى الماضى، العقيد القذافى أو آية الله خومينى أو عاهل السعودية. أكثر الزعماء جماهيرية هى السيدة غاندى، وهى ظاهرة مثيرة للاهتمام لو أخذنا فى الاعتبار أن الباكستانيين قد تربوا على كراهية الهند. لماذا؟ لأنها كانت الزعيمة الوحيدة التى وقفت تنادى: أوقفوا القتل! إنكم تقتلون الناس لأنهم يفعلون هذا الشىء أو ذاك، وهو أمر مرفوض. لقد كان ذلك فى الحقيقة قولاً معتدلاً، ولكن كان له تداعيات كبيرة وقتها حيث قال الناس: إنها الوحيدة التى تحدثت عنّا. وأحيانًا يؤدى هذا الأمر إلى ديناميكية التعويض - ربما تاتى هى وتقوم بالمهام التى يجب علينا القيام بها بدلاً منا. وهو أمر خطير لأنه قد تكون له عواقب وخيمة. ولكن من الناحية الأخرى أرى أن اللصاق القديم الذى كانوا يخنقون به أى تعبير عن النفس فى باكستان لم يعد مؤثرًا، وقد تهاوى.

س ر: إنه آخذ فى التهاوى. أعتقد أن هناك أسبابًا سلبية تجعل نجاح باكستان ممكنًا. السبب الأول جغرافى - سياسى. فمن المهم للغرب وجود دولة تفصل بين روسيا والهند. فلروسيا والصين والهند جميعهم حدود مع باكستان- بفضل وجود أفغانستان، وهذا أحد الأسباب التى تجعل الغرب فى رأى يهتم بالإبقاء على دولة ما هناك، دولة ليست ضعيفة، ولا هى جزء من الهند، ثم هناك فى اعتقادى الفزع المجرد من فكرة إعادة اتحاد الهند وباكستان، تلك العملية المادية التى تمثل إعادة الاتحاد مع

الهند التى سوف تكون... أعنى أنه من المروع مجرد التفكير فيما سيحل بإقليم البنجاب. إذًا فسوف يحث هذان الأمران الناس على الإبقاء على دولة ما هناك. وكذلك فإننى أرى أن باكستان لا تشبه الهند وأعتقد أن ذلك سوف يولّد مشكلة ثقافية كبيرة. فلقد أخذت الثقافتان فى الابتعاد عن إحداهما الأخرى بشكل متسارع منذ استقلال باكستان. ولو أردنا تلخيص الأمر فحتى فى جيلى كان للكثير منا اتصال بأشخاص على الجانب الآخر، ولكن الآن نرى تراجع معرفة الكثيرين بهؤلاء الذين يعيشون فى البلد الآخر، وعندما كنت فى الهند هذا العام تعجبت كثيراً عندما وجدت الهنود يعرفون القليل عن حياة الناس اليومية فى باكستان - ووجدتهم تواقين لمعرفة ذلك، ولكنهم كانوا يعرفون القليل بالفعل فيما عدا صور نمطية كرتونية لطبيعة الحياة هناك. وقد كان الوضع كذلك فى باكستان أيضًا، مما أوضح لى أن البلدين تتباعدان بصورة واضحة وهو أمر يجعل اتحادهما صعبًا للغاية. كما أن احتمال البلقنة صعب هو الآخر لأن ببساطة هل يمكن لكل من هذه الدويلات أن تنجح كدولة مستقلة؟ وهنا يمكن التكهن أنه على المدى الطويل فسوف تضم أفغانستان الخط الحدودى الشمالى الغربى، وسوف تضم إيران بالوشستان وتعود البنجاب للهند. ثم ماذا يحدث للسند وقتها؟ أعتقد أن تلك الأسباب السلبية تدعم الدافع إلى الإبقاء على دولة ما هناك. ولكن طارق على حق. فأمامنا ثلاثة أو أربعة أعوام حتى نرى ما إذا كان الأمر سينجح أم لا. وأجدنى غير راغب فى أن أكون هناك إذا لم ينجح الأمر.

سؤال: ماذا ترى يا سلمان بالنسبة إلى إمكانية التدخل الأجنبى؟

س ر: شخصياً لا أجد ذلك الخيار جاداً. هل توافقنى؟

ط ع: لا. لا أعتقد ذلك. لا أعتقد أن الروس مهتمون على الإطلاق - بل تشير الدلائل إلى أنهم يستميتون فى محاولة إجراء مفاوضات للوصول إلى تسوية للخروج من أفغانستان. ولا أعتقد أن الإيرانيين فى مركز، سواء عسكرى أو اقتصادى، يجعلهم يحاولون احتلال جزء آخر من العالم. أما النظام فى الهند، فلا يريد بلقنة باكستان

لأسبابه الخاصة؛ لأنهم يخشون أن يؤثر شيوع هذا النموذج على استقرار طبيعة الهند الفيدرالية، التى ظلت متماسكة حتى الآن بالنظر إلى كونها من دول العالم الثالث. ولهذا فما من قوة أجنبية ترغب فى تقسيم باكستان، الذى لو حدث فسوف يأتى جراء انفجارات من الداخل، من داخل باكستان، يكون من الصعب على النظام احتواؤها. بمعنى آخر فسوف يضطرون إلى ذلك اضطرارًا وعندها فقد يضطر الهنود أو غيرهم للتدخل للحيلولة دون الانفجار التام. وربما ينتهى بنا الأمر فى وضع أحسن حالاً بقليل نناقش فيه الوحشية التى تظهر فى أحداث الرواية. وأؤكد مرة ثانية أن تلك الظاهرة ليست شرقية خالصة كما أوضح الفيلم العظيم الأب والسيد (Padre Padrone) الذى أخرجه الأخوان تافيانى. ولكن العار تتناول الوحشية يا سلمان وما من مهرب منها... فالرواية تصور العصابات البالوشية على أنها تعشق الماشية وهكذا. لماذا وضعت ذلك فى الرواية؟ هل لديك أدلة على ذلك؟

س ر: نعم، تشير مصادرى من داخل العصابات البالوشية [ضحك] أن الجنس يشكل مشكلة لهم. كما أننى يجب أن أقول: إننى أجعل منهم ملائكة فى الرواية؛ أعنى أن عملية ممارسة الجنس مع الماشية لا تسىء إليهم، كما أرى. بل إننى كنت أكتب عن رجال يعيشون وحيدين، وما علَّهم يفعلون. ولا أجد مشكلة فى ذلك، أن يعيش الناس هناك لمدة سنين وسنين بل كانت تلك طريقتى لتصوير... وأعتقد أن الأمر حقيقى فعلاً. لا بد أنه حقيقى- فهو أحد تلك الأمور التى سوف تبدو جذابة مع الوقت، لو أنك أعملت خيالك وتصورت حالة من يعيشون فوق الجبال طوال تلك الأعوام.

سؤال: لقد ذكر طارق ذكرًا سريعًا أن التعليقات النقدية على الكتاب فى الهند جاءت أكثر عنفًا مما هى عليه هنا. هلا تحدثت أكثر عن تلك الفوارق؟

س ر: لقد جاء الأمر أكثر تطرفًا فى اعتقادى فى حالة أطفال منتصف الليل، فى حين شهدت إنجلترا، وكذلك أمريكا إلى حد ما، عدم الرغبة فى الاشتباك مع الجانب السياسى فى الكتاب. أما فى الهند فقد حدث العكس - وما زال الناس فى الهند لا يتعاملون مع الكتاب بوصفه مغرقًا فى الخيال، ولكن يتعاملون معه كرواية تاريخية.

سؤال: وهل ترى انعدام تلك الرغبة هنا ناتج عن انعدام رغبتنا فى إدخال السياسة فى الأدب، أم هو أمر يخص الهند وباكستان؟

س ر: بداية، أرى أن الأمر يتعلق بالجهل. لا أعتقد أن الناس يعرفون الكثير عن الوضع السياسى الذى يصوره الكتاب مما يجعل من السهل تجاهله وقراءة الكتاب كمجرد قصة. لا أود تضخيم هذا الأمر ولكننى فخور بأن الكتاب يمثل عدة أشياء مختلفة فى أماكن مختلفة، مما يجعل الذين يقرءونه دون معرفة بالهند يرون أشياءً أخرى فيه. ولكننى أذكر أنه عند صدور عرض طارق لرواية أطفال منتصف الليل فى مجلة نيو ليفت ريفيو لم أكن قد قابلته قبل. وقد جاءت المقالة سياسية، وليست مقالة إطرائية - إذ أذكر نقده لى لأننى تجاهلت الشعر الأردى، على سبيل المثال، فى الكتاب. [ضحك] لا تتاح لك إمكانية كهذه كثيراً - لكى تغتنم الفرصة! على أية حال فقد أسعدنى أن أجد من يتناول الكتاب من الناحية السياسية فى إنجلترا، مما حدا بى أن أكتب له خطابًا، وقد كان ما كان. وكما ذكرت، فإننا نجد الجانب السياسى أوضح فى هذا الكتاب الجديد، وهو ما لفت نظر حتى النقاد الإنجليز إلى وجوده. ولكننى حتى الآن أسمع ممن يكتبون عرضًا للكتاب كلامًا؛ مثل: بالطبع يبدو الكتاب من النظرة السطحية كرواية سياسية، ولكن فى الواقع يمكن للمرء تجاهل ذلك الجانب إذ إنه غير ذى أهمية. ما يهم حقًا هو الجوانب الجمالية، وها هى. ولهذا أعتقد أنه ليس بالإمكان أن نجعل الإنجليز يغيرون ما هم عليه.

١٩٨٣

تذييل: الفتوى وما بعدها

جاء الأمر مصادفة غريبة فى منتصف ذلك الصيف. ففى يوم السابع عشر من أغسطس/آب من عام ١٩٨٨ وصلتنى نسخة مسودة من رواية "آيات شيطانية"، وفى اليوم نفسه انفجرت طائرة الجنرال ضياء الحق فى باكستان مما أسفر عن مقتله ومقتل عدد آخر من كبار العسكريين بالإضافة إلى السفير الأمريكى فى باكستان. كان ضياء الحق طاغية مكروهًا فى دولة أخذت أكثر من نصيبها من الطواغيت. كنت فى ذلك الوقت اضطلع بإنتاج سلسلة إخبارية اسمها ملف باندونج للقناة الرابعة. حادثنى رئيس التحرير فاروخ دوندى هاتفيًا وكان مصرًا على أن نعد حلقة خاصة عن موت الطاغية. وبينما كان كل أفراد فريق إعداد ملف باندونج يجرون اتصالات مع باكستان، تمكنت أنا من الوصول إلى بينظير بوتو التى أخبرتنى أنها تواجه صعوبات شديدة فى إثناء أتباعها عن الخروج فى الشوارع للاحتفال. وقد جاء صوتها مرتعشًا من الحماس. وقتها جاءت نصيحتى لها كما يلى: "أصرى على عقد انتخابات عامة على التو".

وكأن موت إحدى شخصيات رواية العار والتحدث هاتفيًا مع شخصية أخرى من الرواية لم يكونا كافيين فى يوم واحد، فقد جاءتنى مكالمة هاتفية من المؤلف.

"ما رأيك؟"

رددت قائلاً: "أخبار مدهشة. يعلم الله من رتب للعملية هذه المرة".

سكتَ قليلاً.

"كنت فى الحقيقة أسألك عن رأيك فى روايتى".

أخبرته أن الرواية قد وصلتنى لتوها، وإننى لم أجد الوقت لتصفحها، وإننا مشغولون فى إعداد حلقة خاصة. ثم تناقشنا سريعًا فى أمور باكستان.

تسارعت وتيرة الأحداث خلال هذا العام، فلم أقرأ الكتاب سوى بعد مرور وقت طويل، أثناء رحلتى بالطائرة إلى باكستان عقب انتخاب بينظير بوتو رئيسة للوزراء لأول مرة. لم أجد الرواية بنفس جودة وتماسك العار، كما لم تكن على مستوى التحرير الراقى نفسه الذى تميزت به أطفال منتصف الليل. لم أجد فى الأجزاء الخارجة ما يضايقنى. أحسست أن قراءة الكتاب تشبه دخول قصر ممعج. تجد بعض غرفه مرتبة وبعضها الآخر غير مرتب. كنت قد كتبت بعض الملاحظات وأنا على الطائرة تمهيداً لكتابة عرض صحفى نقدى للكتاب، ولكن الأحداث حالت دون ذلك.

عندما وصلت باكستان كان الإسلاميون المنتمون إلى الجماعة الإسلامية، والذين قد أضرهم موت الجنرال الذى سهل تغلغلهم فى حرم الجامعات ووسائل الإعلام والجيش، قد بدءوا حملة لزعزعة حكومة بوتو المدنية. وقد تضمن ذلك حرق نسخ من رواية رشدى واقتحام السفارة البريطانية. أطلقت الشرطة قنابل الغاز المسيل للدموع وعم التوتر أرجاء إسلام آباد. وقد تناقشت مع بينظير فى الرواية أثناء لقائنا؛ حيث قالت لى: "أطلب منه توخى الحرص. هؤلاء الناس جادون". وكانت بينظير قد سألتنى فى مناسبة أخرى عن سبب سخرية رشدى منها فى رواية العار وتسميتها بصاحبة "السروال الحديدى". أحلتها وقتها إلى رسالة نشرت فى الملحق الأدبى لصحيفة تايمز، تقول: إن رسم الشخصيات فى الرواية يأتى دون مبررات واضحة.

كانت الهند أولى الدول التى صادرت الكتاب؛ حيث لم تكن حكومة حزب المؤتمر الوطنى راغبة فى خسران كنز مهم من الأصوات الانتخابية. كم تغير الزمن! وعندما عدت إلى بريطانيا وجدت أن أنصار الجماعة الإسلامية هناك كانوا يعملون بجد واجتهاد؛ حيث أحرقوا الكتاب فى مدينة برادفورد بينما كان إقبال ساكرين، أحد قيادى الجماعة الإسلامية فى بريطانيا، يدافع عن حرق الكتاب بغضب مكبوت ونشوة واضحة، قائلاً لوسائل الإعلام: إن ذلك الفعل يأتى نتيجة للألم الذى تسبب فيه الكتاب

ناهيك عن دوافع الحق والفضيلة. وقد وصف خصوم ساكرين ما قاله وفعله بالزيف والشر. وقتها خصصنا حلقة من برنامج ملف باندونج عن الموضوع وأسميناها "ضجة حول رواية آيات شيطانية"، وأذيعت على القناة الرابعة خلال الأسابيع التى تلت تلك الأحداث.

وربما كان الأمر سيبقى محدوداً بالسياق المحلى لولا أن أية الله الخومينى الراحل قرر أن يجعل من القضية قضية دولية. وقد روى أن الزعيم الروحى الملهم للثورة الإيرانية شاهد مقاطع لحرق الكتاب فى التلفاز، ولأن كل الذين كانوا يحرقون الكتاب كانوا ملتحين، فقد أراد آية الله أن يعرف السبب وراء اشتعال غضب كل هؤلاء المؤمنين. كانت روايات رشدى حتى ذلك الوقت تحظى بمقالات مشجعة أو بمجرد الذكر فى صحيفة طهران تايمز. وكان ذلك الوقت يشهد خلافاً سياسياً بين رجال الدين، جاء مرتبطاً بالتنافس العدائى مع المملكة العربية السعودية؛ الذى أدى إلى مصادمات لفظية وجسدية بين الحجاج الشيعة والشرطة الوهابية فى مكة. كانت الرياض وطهران تنفقان أموالاً طائلة على المساجد فى أوروبا، ولهذا فقد قرر الخومينى الزج بالرواية فى هذا الخليط حتى يؤكد زعامته، ولكن دون دراسة كافية للمعترك الذى كان على وشك دخوله. إذاً تعمقت الأزمة جراء محض رغبة فرد واحد كان عازماً على اختطاف الأضواء من أنصار الجماعة الإسلامية فى السعودية.

ولهذا فقد أصدر الخومينى فى الرابع عشر من فبراير/شباط فتوى بإباحة دم رشدى جراء كفره، وأهاب بأى "مسلم حق" أن ينفذ الحكم إن استطاع. جاء ذلك على الرغم من أن التراث الشيعى ذاته لا يتعامل بلطف مع سيرة أية واحدة من زوجات الرسول. كان القرار سياسياً وليس دينياً، وكان رشدى خلال مكالمتى الهاتفية معه فى ذلك اليوم مصدوماً ولكن ثابتاً: "لا يحدث كثيراً أن يسجل التاريخ اسمك". بالتأكيد!

وقد وصف فى إس نايبول الفتوى وصفاً مشاغباً بأنها "شكل متطرف من أشكال النقد الأدبى". أما أنا فلم أكتب مقالتى النقدية المزمعة قط. فقد انتزعت الرواية من

المجال الأدبى وأضحت إعلانًا للحرب. وصار علينا الدفاع عن الكاتب بأى ثمن[٢٨] وقد ذهب رشدي ليعيش فى الخفاء، وتمكن من الحفاظ على حياته، بل أصبح أحد مشاهير العالم، وهو ما كان يشعره بغبطة طفولية. كيف لكل ذلك أن يؤثر على خياله النشط؟ عم سيكتب؟ وكيف له الآن أن يكتب فى بيئة تشبه الموت؟ وقد كان عدد من النقاد اليساريين قبل صدور الفتوى قد أثاروا العديد من التساؤلات حول مؤهلاته ككاتب وتعاملوا نقديًا مع روايته العار بقسوة شديدة[٢٩] لم أكن أتفق مع معظم ذلك الهجوم، كما أن التاريخ للأسف كان قد أثبت صحة نظرة الكاتب التى انتقدها الكثيرون لحجة أنها مغرقة فى التشاؤم والسوداوية. كما أننى لم أعتبر الرواية متحاملة على النساء؛ حيث تضمنت شخصيات نساء قويات، فى حين سلطت الضوء على القهر الذى يتعرضن له.

وقد شهدت كتابات سلمان رشدى خلال العقدين الماضيين للأسف انحدارًا واضحًا فى قوة الخيال وجودة الكتابة. وأنا على يقين من أن سلمان رشدى نفسه يدرك أن الأرض تحت قدميها (The Ground Beneath Her Feet) كتاب وضيع. من المؤكد أن رشدى لم يعد إلى كتابة مثل هذا الكتاب الوضيع. كتاب غريب ومختل؟ ولكن شيئًا ما كان قد تغير فى كتابات رشدى. فقد بدأت بيئته الجديدة فى تشكيل وعيه، وأصبح يستمتع بواقع أنه محاط بالمتملقين. كما حدث تغير واضح فى نظرته السياسية. فقد كان من الصعب أن نجده فى ريعان شبابه يجنح إلى ستر عريه بقماش العلم الأمريكى

---

(٢٨) كتبت أنا وهاوارد بينيتون فى غضون عشرة أيام مسرحية تقدم تحليلاً دراميًا لتلك الأزمة وأسميناها ألف ليلة وليلة الإيرانية . (Iranian Nights) وقد عرضت المسرحية فى مسرح رويال كورت الذى كان يديره وقتها ماكس ستافورد-كلارك والذى كان داعمًا لنا بشكل يفوق بكثير دعم الصبيان الذين كانوا يديرون مسرح ناشونال ثياتر، حتى على الرغم من حذفه لعنوان المسرحية الأصلى الذى كنت قد اخترته لها: يوم نزهة المُلا. وقد اشتركت فى مناظرة لاحقًا مع بعض الملالى ضمن فعاليات خاصة نظمها مسرح ترافرس فى إدنبره. كان المسرح منقسمًا إلى قسمين. جلس فى أحد الجوانب الجماهير الغفيرة التى شحنها الملالى فى الحافلات، وفى الجانب الآخر جلس المدافعون عن رشدى. وعندما سألت عما لو كان أى منهم قد قرأ الكتاب، لم يرفع أحد يده. إذًا كان الأمر عبارة عن علاقة من طرف واحد. وقد أتى غريمى بفعل لم يخدم قضيته بالتأكيد عندما هددنى بقطع لسانى بعدما قرأت عدة أبيات لأبى العلاء المعرى، الشاعر المسلم الأعمى المتشكك والذى كان يقطن قرية قريبة من مدينة حلب فى عام ١٠٨٧:
"اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين .. وآخر ديّن لا عقل له".

(٢٩) يحتوى الكتاب على مقال لاذع بعنوان: "عار سلمان رشدى" by Aijaz Ahmed, London and New .York: Verso, 1992 In Theory

المزين بالنجوم والخطوط، ويقف أمام المصورين الذين سيضعون صورته على غلاف مجلة فرنسية كما فعل بعد ١١ من سبتمبر، أو أن يقبل دعوة من جورج بوش للبيت الأبيض كما فعل بعد حرب العراق التى كبدت ذلك البلد مليون قتيل وخمسة ملايين من النازحين. كان رشدى قد قرر ألا يدعم تلك الحرب تحديداً، ربما تحت ضغط من الليبراليين فى نيويورك والذين كانوا أكثر شراسة من نظرائهم البريطانيين. وفى حين أسهب أصدقاؤه فى مدح الروايتين الأخيرتين، جاءت الروايتان أشبه بتقليد ساخر لرواياته الناجحة الأقدم والتى كان من الصعب عليه كتابة روايات مثلها بعد أن أصبح شخصاً آخر.

أما بالنسبة إلى قبوله لقب فارس من تونى بلير فيجدر ألا نتحدث كثيراً عن هذا الأمر. فقد تحقق التوازن أخيراً لفكرة "التعددية الثقافية" التى ينتهجها حزب العمل الجديد الذى منح إقبال ساكرين هو الآخر لقب فارس. كرم النظام الفاسد الحقير نفسه الكاتب والشخص الذى أحرق كتابه. ولكننا ما زلنا نرى دواعى للبهجة. فقد التقط أحفاد منتصف الليل فى باكستان العصا، إذ نجد رواية محمد حنيف، قضية المانجو المتفجرة (A Case of Exploding Mangoes)، تكمل ما توقفت رواية العار عنده، وذلك بأسلوب وشكل فنى خاص بالمؤلف.

وكذلك نجد قصص دانيال معين الدين القصيرة ترسم صورة لبلد لا نراه فى الأعمال غير القصصية التى تصف ذلك البلد. كما تثير رواية محسن حامد بعنوان: الأصولى المتردد (The Reluctant Fundamentalist) أسئلة محرجة، كما أنها أفضل بكثير من رواية جون أبدايك التى تتناول موضوعاً مشابهاً. لم نر حتى الآن روائيين أمريكيين من الشباب يتناولون الإرهاب الذى تتسبب فيه دولتهم. تدور رواية اليقظة الضائعة (The wasted Vigil) لنديم إسلام فى أفغانستان؛ حيث أنتج الاحتلال المتواصل- من قبل الاتحاد السوفيتى فى البداية ثم الولايات المتحدة والناتو الآن - نسيجاً اجتماعياً مريضاً وخبيثاً. وهكذا نجد الأحفاد يتفوقون على الجد. هكذا يجب أن تكون الأمور. فالخيال مثل التاريخ يصل إلى ذروته حينما يستطيع أن يفكك تشابكات خيوط الحياة الإنسانية المعقدة.

٢٠٠٩

٦

الهندى المجادل: خلاف مع أمارتيا سن

لقد تكلم حكيم البنغال. أخبرنا أن للتعددية أصلاً ضاربًا فى القدم فى تاريخ الهند؛ حيث نجدها متضمنة فى أقدم النصوص الهندوسية، كما لو كانت نهرًا يتدفق عبر التاريخ (بما فى ذلك حقبة حكم مغول الهند التى كانت البلاد تخضع فيها للحكم الإسلامى) وحتى قدوم البريطانيين فى القرن الثامن عشر. ذلك الإرث الثقافى الذى تجاهله الاستعماريون والمتشددون الدينيون على حد سواء هو الذى يشكل الثقافة الهندية ويقدم تفسيرا قويا لالتزام كافة الطبقات الاجتماعية بفكرة الديمقراطية. وقد ساهم تراث المجادلة فى "جعل تعدد المذاهب هو الأصل فى الهند"، مما كان له أثر كبير على السياسة والديمقراطية فى البلاد "وشكّل أولوياتها المدنية". تنطلق معظم المقالات المثيرة التى يحتويها كتاب أمارتيا سن الجديد من هذه الرؤيا، حيث جاء الكتاب بمنزلة مجموعة من التأملات حول الهند مكتوبة بأسلوب لغوى يختلف عن كتبه الأخرى التى تتناول فلسفة الأخلاق والفقر. ولا تهدف المقالات لمخاطبة الأكاديميين؛ بل لتكون مداخلات أمام القارئ العادى فى بلد الكاتب الأم، التى يبقى سن مرتبطًا بها ارتباطًا قويًا حتى بعد حصوله على جائزة نوبل والمنصب الذى حصل عليه فى جامعة هارفارد بوصفه من أبناء الطبقة العليا هناك.

وعلى الرغم من أن المقالات التى يحتوى عليها كتاب الهندى المجادل (The Argumentative Indian)[٣٠]، كتبت فى أوقات مختلفة، فإنه قد أمكن جمعها بنجاح فى كتاب

(30) Amartya Sen, The Argumentative Indian: Writings on Indian History, Culture and Identity. London: Allen Lane, 2005.

واحد. وهناك الكثير يمكن الاتفاق عليه هنا. ولكن تبقى نظرة سن متعالية وشديدة التمسك بقيم المدنية والعقلانية، بما يتناسب مع باحث تشكل فكره فى الهند إبان حقبة نهرو، وهى تلك الفترة التاريخية التى تحظى بهجوم مستمر فى العصر الحاضر من جانب القوميين الهندوس من ناحية ومن جانب بعض الهنود البارزين الأنيقين الذين يتبعون الفرع الأمريكى لمدرسة "مؤرخى التابعين" الأمريكية من ناحية أخرى. ولا يعتبر سن دخول الإسلام إلى الهند بمنزلة خنجر غرس فى جسد الحضارة الهندية. على العكس، فهو يرى أن تأثير حكم مغول الهند قد جاء محموداً وهو الحال بالتأكيد فيما يتعلق بالطعام؛ إذ أوضح المؤرخ عرفان حبيب أن الفلاح الهندى المتوسط كان يأكل طعامًا أفضل وأكثر فى عدد المرات إبان تلك الفترة مما كان عليه الأمر تحت حكم البريطانيين.

ولو أخذنا فى الاعتبار عنوان كتاب سن فلن يكون من الأدب بمكان إثبات خطأ ما يقول بمجرد إيماءة برؤوسنا، كما هى العادة فى شبه قارتنا العزيزة. ولهذا فإننى، ذلك الباكستانى المجادل، سوف أثير فيما يلى بعض الشكوك حول طرح سن الرئيس فى الكتاب، إلى جانب عرض نقدى لبعض مما لم يتضمنه الكتاب.

هل يمكن اقتفاء أصول الديمقراطية الهندية فى النصوص المقدسة كما يرى سن؟ وهل هناك صلات مادية (على عكس الصلات الباطنية) بين ولع المواطنين العاديين بالديمقراطية والطروح التى يقدمها بوذا (٢٧٣-٣٢ قبل الميلاد) ناهيك عن الإمبراطور المغولى أكبر (١٥٥٩-١٦٠٥)؟

من الثابت أن الملاحم السانسكريتية القديمة تعج بقصص النزاعات، وأن الحكايات المتعددة التى تحتويها هذه الملاحم تتميز، كما يقول سن، "بالحوارات الممتعة، والمعضلات، ووجهات النظر البديلة"، مثل تلك المتمثلة فى شخصية جافالى النازعة إلى الشك فى ملحمة رامايانا (Ramayana) والذى يشرح بالتفصيل كيف أن "الأوامر المرتبطة بعبادة الآلهة والقرابين والعطايا والتوبة قد وضعها أناس ماهرون فى

النصوص المقدسة (الساسترا) لمجرد إحكام سيطرتهم على أشخاص [آخرين"]. وحين كان أشوكا ينظّم القوانين التى سيدور حولها النقاش فى مجالس بوذا كان يطالب بأن يسود الاحترام المتبادل بين الطوائف المختلفة. وبينما كانت محاكم التفتيش الكاثوليكية تبث الرعب فى أوروبا فقد قضى الإمبراطور أكبر، وهو مسلم، بأنه من حق أى فرد أن يعتنق الدين الذى يروق له." كما قام بتنظيم حوارات بين الأديان فى مدينة أجرا ضمت هندوسًا ومسلمين ومسيحيين وبارسيين ومعتنقى الديانة الجاينية ويهود وملحدى مدرسة كرافاكا، الذين كانوا يذهبون إلى أن أصحاب الديانات البراهماتية قد أرسوا قواعد لمراسم الموتى "لمجرد الحصول على أموال" لأنفسهم. ثم إننا نجد أغنية فيديك ذاتها عن بداية الخلق تنتهى بالشك: "من يعلم بحق؟ من أين نشأ الخلق - ربما شكل نفسه بنفسه، وربما لا - لا يعمل سوى هذا الذى ينظر إليه من العلياء، ومن أعلى سماء - وربما لا يعلم".

ولكن يبقى الشك الذى عبر عنه بعض الحكام ورأيناه منعكسًا فى النصوص القديمة فى معظم الأحيان مقصورًا على النخبة الكهنوتية. وقد جاءت الحوارات التى كانت تدور فى بلاط الإمبراطور أكبر بين الفقهاء من الطوائف والأديان المختلفة مشابهة للنقاشات التى كانت تدور قبل ذلك بعدة قرون فى معسكر القائد المغولى جنكيز خان (١١٦٢-١٢٢٧)، إلا باستثناء أنه كان يُسمح للجنود المغول بالاستماع إلى النقاش والمشاركة فيه. أما البلاط فى إمبراطورية مغول الهند فقد كان معزولاً عن عامة الشعب، وما من شك فى أن رجال البلاط كانوا يستمعون ويومئون برؤوسهم عندما كان الإمبراطور يبتسم حين يكسب أحد الأطراف نقطة فى النقاش، ولكنهم لم يكونوا أحرارًا فى التحدث. ولم يكن مسموحًا بإلقاء الأسئلة سوى للإمبراطور وبعض مستشاريه المقربين. ولم يجد ذلك التسلط من قبل فئة قليلة على فئة كبيرة - الذى كان يتم فى صورة مزيج من قوة الإرغام ونفوذ الدين - من يقف فى وجهه فى الهند إلا حين أتى الاستعمار الرأسمالى. لم يكن هناك من يتحدث باسم التابعين.

وبعكس ما كان الحال عليه فى بلاد الإغريق لم تكن هناك ثمة مؤسسات فى المدن تجرى فيها مناقشة القضايا المهمة. أما المجالس القروية (البانشايات) التى بولغ فى

تعظيم دورها، فقد كانت مقصورة على ذوى الحظوة، ولم يكن للفقراء فيها مكان سوى مطالبى المعونة. لقد أنتجت الهند القديمة نظام طوائف اجتماعية قبيح أدى إلى تأجج الانقسامات والانشقاقات فى وقت مبكر من تاريخها. وفى الوقت ذاته لم تستطع البرهماتية ولا أفرعها الأكثر جموحًا - البوذية والجاينية أن تنتج ما يمكن أن نطلق عليه فلسفة سياسية قادرة على وضع أساس لتجمع شعبى أو شبه شعبى كالذى نراه فى بلاد الإغريق، الذى كانت قراراته الرسمية تبدأ بالعبارة التالية: "لقد قرر العامة". وقد كانت تلك المجالس فى مدينة أثينا محرمة على العبيد، ولكنها كانت تضم سماسرة الفلاحين، بل بعض الفلاحين الذين كانوا يعملون لدى الغير. وهكذا كانت تدور نقاشات بين الأغنياء والفقراء. وكان الأثرياء يخشون جموع الناس، وهو ما أنتج لنا تلك المقولة المزهوة الشبيهة بصفقة إغاثة المتضررين من الركود الاقتصادى فى عشرينيات وثلاثينيات الولايات المتحدة، التى نطق بها سولون؛ حيث قال: "وقفت أحمى الاثنين الأغنياء والفقراء بدرع قوى، ولم أسمح لأى منهما أن ينتصر على الآخر دون حق". ولكن حتى تلك التقاليد التى لم تُنس قط قد اختفت تمامًا. ثم ظهرت فكرة الديمقراطية مرة أخرى بعد الثورة الإنجليزية ولم تجد شكلاً مؤسسياً سوى بعد الثورتين الأمريكية والفرنسية.

وقد أنتجت الهند القديمة شعراء وفلاسفة ومؤلفين مسرحيين عظامًا، كما أنتجت فنونًا وآلهة وإلهات تضاهى أيًا مما أنتجته أثينا القديمة. ولكنها لم تنجب أرسطو. كما لم يظهر فى شبه القارة ما يمكن أن يضاهى ولو من بعيد التجمعات الأثينية أو مجلس الشيوخ فى روما. وينم ذلك قطعًا عن قصور ما. فعلى الرغم من المشاحنات التى كانت تدور بين أفراد النخبة وعلى الرغم من بعض العبارات الرائعة التى تنم عن الشك من قبل سن، فإنه قد بقى العامة تحت السيطرة الشديدة عبر تاريخ الهند. وقد كان القادة الهندوس والمسلمون على حد سواء يقمعون أية انتفاضة تهدد الوضع القائم. وفى ذات الوقت تمأسست الخرافات واللاعقلانية عن طريق شبكة من هيمنة الكهنة.

ولا تتمثل صلابة التراث البرهمانى فى تشجيع النقاش فحسب، بل فى قوة نظام الطوائف الاجتماعى الظالم الذى نراه حتى يومنا هذا يتخلل روح الديمقراطية الهندية. ويجد المرء نفسه يتمنى لو أن سن، وهو أحد الذين انتقدوا بشدة التفاوت الاقتصادى،

قد عبر لنا عن رأيه تجاه ما إذا كانت العولمة سوف تقوى الانحيازات الطائفية الاجتماعية فى الهند أم تضعفها. ونحن نجد "القائد د. أمبيدكار، الذى كان ينتمى للطبقة المنبوذة، وأصر على المطالبة بعدم اعتبار طائفته الاجتماعية من الهندوس حتى يتسنى لهم المطالبة بدوائر انتخابية منفصلة عن الحكم البريطانى، كما فعل المسلمون، أنّبه المهاتما غاندى بلطف، لأسباب نبيلة بالتأكيد. كانت قيادات حزب المؤتمر الحاكم بلا شك تعلم علم اليقين أن ثقلها من حيث التعداد سوف يتأثر جداً لو أن "الطوائف الاجتماعية الدنيا" خرجت من تعداد الهندوس.

ولكن ماذا عن الهنود المسلمين؟ لقد خلق الغزو المغول للهند دولة مركزية قوية ولكنها لم تكن تحمل جنين الوعى الديمقراطى، حتى فى أكثر صورها بدائية وأرستقراطية. كانت منزلة الإمبراطور سامية، وكان بإمكان رعيته أن يعرضوا مظالمهم مرة فى الأسبوع، وكان يمكن إذا حالفهم الحظ أن يحصلوا على عطايا من النقود والكلمات الطيبة. ومن المهم أن نعرف أنه بينما تمت ترجمة كل النصوص الإغريقية والرومانية التى كانت موجودة فى القرنين الثامن والتاسع إلى العربية، وأنه بينما ازدهرت مدارس الفلسفة والرياضيات والفلك والطب الإسلامية فى قرطبة وباليرمو وبغداد، فإن الابتكار الوحيد الذى أتى به الإغريق وهو فكرة الديمقراطية لم يرتحل إلى تلك الأماكن. كان الخليفة يمثل القائد الروحى والحاكم الفعلى فى آن واحد، وكانت أية فكرة تنطوى على وجود مجلس من الأنداد ترى على أنها تحدٍّ كافر لخليفة الله وممثل الله على الأرض. وهكذا فقد تأسس الحكم المغولى فى الهند على التحالف بين الأغنياء، وعلى خلق بيروقراطية مركزية تحكم سيطرتها على مساحات شاسعة من الأراضى.

ويمكن القول: إن سن على حق فى التأكيد على تسامح مغول الهند وبصفة خاصة الإمبراطور، وبخاصة تجاه الأغلبية غير المسلمة. ولكن لم تكن أسباب تلك السياسة مجرد أسباب خيرية. كان الغزاة المسلمون، مثل البريطانيين الذين أتوا بعدهم، يعرفون أن استقرار الحكم يتوقف على الحصول على قبول طبقات مهمة من النخبة من

أصحاب الأرض. وقد نجح المسلمون فى ذلك، بل إننا نجد آخر الأباطرة المغول العظام، الإمبراطور المتدين ذى الأفق الضيق أورنكزيب يقود جيشاً إمبراطورياً يتألف من خليط من القيادات الهندوسية والمسلمة. وعندما احتل جيش شركة الهند الشرقية إقليم البنغال فى عام ١٧٥٧ واستخدمه كجسر للوصول إلى داخل الهند، وجعل من كالكتا أولى عواصم البريطانيين فى الهند، كان الجيش يتألف من عدد قليل من الضباط البريطانيين، وأسلحة أوروبية ومجندين محليين يحصلون على رواتب شهرية. كانت الشركة فى أمس الحاجة إلى الحلفاء، مثلما كان الأمر مع المغول الذين سبقوها، وكانت غالباً ما تشتريهم من الأسواق.

جاءت النهضة البنغالية التى أنجبت كاتباً وشاعراً استطاع أن يحصل على جائزة نوبل مثل رابندرانات طاغور، والمخرج ساتياجيت راى، وأمثال سن وغيرهم نتاجاً لتوليفة فريدة بين التراث المحلى والحداثة الإمبريالية المعتمدة على الاقتصاد الرأسمالى. ولم تكن هناك لتقوم حداثة فى الهند دون الرأسمالية. وقد جاءت الديمقراطية فى الهند البريطانية (كما فى بريطانيا ذاتها) بعد مرور قرن ونصف نتيجة للضغوط من أسفل التى مارستها النخبة من الطبقة الوسطى التى كانت آخذة فى التنامى فى كالكتا. وقد أعلن المفكر الإصلاحى رام موهون روى "إن ما تفكر فيه البنجال اليوم، تفكر فيه الهند غداً".

ولهذا فقد كان المنظرون الإمبرياليون والمدافعون عن الاستعمار من أمثال رديارد كيبلنج يحتقرون إقليم البنغال، وكانوا يرون أن البنغاليين مفكرون عقيمون غير مؤهلين للقتال، على عكس "الأعراق القتالية" المنتمية للبنجاب وللمنطقة الشمالية الغربية. وتعج كتابات كيبلنج بالصور النمطية الساذجة للموظف البنغالى ذى البشرة الداكنة، الذى يتناقض مع النبيل المنتمى إلى عرق الباشتون ذى البشرة الفاتحة أو المقاتل ذى الأصول الملكية. وقد كان من الأفضل أن يبقى هؤلاء دون تعليم؛ خشية أن تتعاظم ثقتهم مثل حال البنغاليين.

حتى لو افترضنا وجود تراث "جدالى" قوى فى الهند قبل ثلاثة آلاف عام، فهل كان تمثل القنوات الواهية التى مر من خلالها التيار الديمقراطى؟ هذا هو طرح سن كما كان الحال فى طرح أكاديميّى ما بعد الاستعمار (بصورة أكثر أناقة) الذين استبعدوا ساخرين فكرة أن الوجود البريطانى فى الهند كانت له أية صلة بانتشار الأفكار الديمقراطية وببزوغ الديمقراطية هناك. وأرى أن ذلك يمثل ضرباً من التخمين. قد لا يروق لنا ذلك الأمر، ولكن ليس بوسعنا إنكار الأثر القوى لمائة وخمسين عاماً من الحكم البريطانى فى الهند، الذى أتى بالرأسمالية إلى البلاد وساهم مساهمة طاغية فى تشكيل شخصية المؤسسات الهندية.

يتقبل سن دون مناقشة الطرح الذى قدمه المؤرخ بارتا شاترجى الذى يقول، كما تأتى كلمات شاترجى نفسه: إن ظهور فكرة القومية فى الهند قد خلقت لنفسها مجالاً تحظى فيه بالسيادة داخل المجتمع الاستعمارى، حتى قبل أن تبدأ مرحلة صراعها مع القوى الاستعمارية. وقد فعلت ذلك عن طريق عملية تقسيم العالم الذى تدور فيه المؤسسات الاجتماعية إلى فلكين - المادى والروحانى. أما المادى فهو المجال المعنى "بالخارج"، بالاقتصاد... بالعلم والتكنولوجيا... حيث أثبت الغرب تفوقه... أما المجال الروحانى، على الجانب الآخر، فهو المجال "الداخلى" الذى يحمل العلامات 'المؤصلة' للهوية الثقافية. وكلما عظمت قدرة المرء على تقليد المهارات الغربية فى المجال المادى... زادت حاجته إلى الحفاظ على خصوصية ثقافته الروحانية.

وهنا يستشعر المرء نكوصاً عن التعريف المدنى لماهية الوطن القومى الذى كان يتبناه نهرو، وجنوحاً نحو منطقة القومية الهندوسية المشوشة ولكن بطريقة فائقة التحضر. لقد انحرف مؤرخو ما بعد الاستعمار من أمثال شاتيرجى فى خلافهم مع السياسيين الهندوس اليمينيين انحرافاً مخيفاً، برفضهم اشتراكية نهرو التى كانوا يعيبون تعميقها لمركزية الدولة وارتباطها بالطبقة الوسطى فى الحضر؛ حيث كان اليمينيون يؤكدون أن محتوى القومية فى الهند كان دائماً روحانياً، أى دينياً، محققين

بذلك الإقصاء للأقلية الكبيرة من المسلمين فى الجماعة القومية. (وعندما شن الجناح القومى أو الهندوسى القومى منذ عامين حملة مشينة داخل الولايات المتحدة ضد قرار مكتبة الكونجرس منح روميلا ثابار وهو أحد أبرز المؤرخين العلمانيين المعنيين بالهند القديمة منحة دراسية، شهدنا صمتًا مطبقًا من جانب غالبية المؤرخين الهنود فى الجامعات الأمريكية). ما "ثقافة المرء الروحانية" و"هويته الثقافية" إن لم تكن الدين، حتى ولو جاء متخفيًا فى صورة رابطة حماة البقر أو الصندوق الوطنى لإعادة بناء المساجد؟ هل كان للقومية أن تسير فى اتجاه أكثر كوزموبوليتانية منه روحانية؟

هنا يبرز سؤال غاندى: هل كان من الضرورى أن يستخدم المهاتما لغة وصوراً روحانية (هندوسية) لكى يفيق معظم أهل الريف من سباتهم؟ لم يكن نهرو ولا طاغور مقتنعين بذلك وطالما تجادلوا مع هذا الثعلب العجوز، ولكن غاندى لم يتراجع عن هذه النقطة. هما اللذان توقفا عن محاولات إقناعه؛ حيث أصاب اليأس طاغور وظل نهرو يحدوه أمل ضعيف فى أن الخسائر يمكن إصلاحها. ولكن الأمر لم يكن كذلك، وانتهى فى النهاية بانفصال مميت عن المسلمين العلمانيين بما فيهم محمد على جناح مؤسس دولة باكستان. بالطبع كان هناك دومًا إرهاصات لذلك المنحى القومى وهو ما اتضح مراراً وتكراراً فى موجة الإضرابات التى شلت البلاد فى نهاية عام ١٩٤٥ ثم فى عام ١٩٤٦، حينما اتحدت صفوف المسلمين والهندوس والسيخ فى البحرية ضد البريطانيين واستولوا على السفن، رافعين راية لثورة. كان هذا أهم تمرد فى تاريخ الإمبراطورية البريطانية. ثم انتهى الأمر باستسلام البحارة "للهند وليس لبريطانيا" بناء على نصيحة جناح وغاندى.

وقد ساعد الارتباط "بخصوصية الثقافة الروحانية للمرء" بلا شك فى تأجيج التقسيم الدموى الذى تعرضت له شبه القارة، ولكن لم يكن للمؤسسات التى شكلت العمود الفقرى للدولتين الجديدتين اتصالاً كبيراً بالتراث الروحانى. كانت تلك المؤسسات من صنع البريطانيين، ولا يقتصر الأمر على البرلمان الذى ساهم دون شك

فى توحيد الهنود. ولكن الجيش فى باكستان المجاورة، وبدرجة أقل القطاع الحكومى، وكلاهما من صنع الحكم البريطانى فى الهند هما اللذان توليا حكم البلاد. ماذا حدث للتراث "الجدالى" إذًا؟ كانت مدينة تكسيلا التى تقع شمال إسلام آباد مركزًا لأحد أكبر الجامعات (البوذية) فى العالم، وكان ذلك قبل قدوم الحقبة المسيحية بقرون طويلة. لا أعنى أن معظم الباكستانيين يحبون الديمقراطية أو يكرهونها. كانت قوة إمبريالية جديدة هى التى قضت بأن الجيش هو أقوى ضامن للاستقرار فى الدولة الوليدة. وكانت واشنطن متسقة مع نفسها هنا؛ حيث أشادت كوندوليزا رايس هذا العام إبان زيارتها لباكستان بالجنرال مشرف ونظامه الحاكم - الذى يبدو للعيان نظامًا علمانيًا استبداديًا - ووصفته بأنه نموذج للعالم الإسلامى. (بما فيه العراق؟).

أضحت الديمقراطية فى الهند الشكل الوحيد الممكن للحكم وذلك لدرجة كبيرة بسب الجغرافيا. فلو كانت باكستان قد تحولت إلى دولتين بعد أحد عشر عامًا من الحكم العسكرى الدكتاتورى الذى امتد من ١٩٥٨ و١٩٦٩، فماذا كان سيحل بالهند لو حاولت فرض نظام حكم عسكرى؟ هل كان الأمر سينتهى بها إلى الانقسام إلى ثلاثة أجزاء؟ أم هل كانت ستتشظى إلى أكثر من ذلك؟ لقد أدركت النخبة الإقليمية أن خطوة كتلك سوف تولد كارثة اقتصادية، ولهذا فقد أصبحت وحدة الهند تحت مظلة ديمقراطية هى الخيار البديهى للبلد. هذا السبب بالإضافة إلى عداوة جموع الجماهير للحكم الاستبدادى هو ما يفسر استمرار النظام الديمقراطى، ولكن لا ينبغى لنا فى الوقت ذاته أن نقلل من تأثير قاطرة الرأسمالية على إضعاف الديمقراطية فى الهند كما هو الحال فى معاقل الرأسمالية نفسها. قد يكون الهنود يريدون الديمقراطية ولكن ذلك فى حد ذاته لا يشكل أحد متطلبات الرأسمالية النشطة، وهو ما برهنت عليه أوروبا خلال الثلاثمائة عام الأولى من الرأسمالية، وما تبرهن عليه الصين اليوم.

يأتى مقال سن الذى يتناول عملاق الأدب البنغالى طاغور (١٨٦١-١٩٤١)، الذى توفى قبل ستة أعوام من الانفصال بين الهند وإقليم البنغال الذى كان يهيم به عشقًا، مرصعًا بالجواهر الثمينة. فسن على دراية كبيرة بكتابات طاغور، وكان جده، أحد أبرز مؤرخى الهندوسية يعمل مع الشاعر العظيم فى جامعة سانتينيكيتان وهى أكاديمية

تعليمية تقدمية كان لها تأثير كبير على تأسيس الوقف الخيرى لدارتنجتون هول فى إنجلترا. وقد تعرضت منزلة طاغور فى الغرب لتقلبات كثيرة؛ إذ شكل الجانب الروحانى الباطنى عنصر جذب كبير للكثيرين فى الغرب بما فيهم لودفيج فيتجينشتاين، ولكن ذلك كما يوضح لنا سن كان وجهًا واحدًا من وجوه طاغور. فقد كان طاغور يمثل صوت العقل فى إقليم البنغال وفى الهند. كان كوزموبوليتانيًا يحض الشعب على تحرير نواتهم ويطالبهم بتحرير أنفسهم من البرهماتيين والبريطانيين، وأن يكسروا نير قيود الفقر والطوائف الاجتماعية. وقد كان طاغور يرى أن المخاطر التى تواجه الهند مخاطر بنيوية، وليست روحانية. فقد كتب فى عام ١٩٣٩ قائلاً: "لا يتطلب الأمر أن تكون انهزاميًا؛ لكى تشعر بالقلق الشديد تجاه مستقبل الملايين الذين يعانون الجوع والمرض والاستغلال، سواء من قوى داخلية أو خارجية، كما يتعرضون فى ذات الوقت لمشكلات الطائفية، على الرغم من ثقافتهم الفطرية وتراثهم السلمى".

يفتقر ما كتبه سن عن طاغور إلى مقارنة مع شاعر هندى عظيم آخر: محمد إقبال (١٨٧٧-١٩٣٨)، الذى كان يكتب بالأردية والفارسية. كان لدى إقبال هو الآخر نزعة باطنية ذات مذاق صوفى. وقد تأثر إقبال الذى يصغر طاغور فى العمر بأفكار هيجل والتراث الفلسفى الألمانى، وكان نهرو وجناح من المعجبين به. وقد توفى إقبال هو الآخر قبل التقسيم، وللأسف فقد قامت دولة باكستان بتحنيطه رمزيًا؛ إذ تشوهت رسالته بشكل يجعل الكثيرين فى باكستان يعتبرونه من أنصار تيار الإحياء (الماضى) وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. فقد كان إقبال، مثل طاغور، يمقت رجال الدين المسلمين والمسيحيين ويحتفى بالعقل والمعرفة، كما يتضح فى شعره الذى يفصل فيه بين الله والإنسان:

خلقتَ الليل وخلقتُ أنا المصباح

خلقتَ الطين وخلقتُ أنا الأقداح

خلقتَ البرية والجبال والوديان

وخلقتُ أنا مساكب الزهور

والأيكة والبستان

أصنع المرايا من الحجر

وأجد الترياق فى السموم

لو عرف طاغور وإقبال بما فعل الزعماء الحاليون بشبه القارة القديمة؛ لأصابهما الذهول، ولأصيبا، مثل سين، بالانزعاج إزاء التحول إلى المفاعلات الذرية والصواريخ ذات الأسماء الشخصية التى يوجهها كل جانب إلى الآخر. حتى هؤلاء الذين يختلفون مع سين أو يعتبرونه نمرًا بنغاليًا مستأنسًا أدردًا سوف يجدون أنفسهم مضطرين إلى الدخول فى نقاشات معه. ذلك فى حد ذاته سبب كاف يجعلنا نرحب بظهور الكتاب.

٢٠٠٥

٧

مقابلتان: ماريو فارجاس يوسا وخوان جويتيسولو

ماريو فرجاس يوسا والتاريخ الحقيقى لأليخاندرو مايتا (The Real Life of Alejandro Mayta)

جيسون ويلسون (رئيس الجلسة): تدور الرواية التى سنتحدث عنها اليوم حول ثائر تروتسكى مغمور فى بيرو، يحاول أن يقوم بثورة فى منطقة جبال سيارا ولكنه يفشل. يتعرف القارئ من خلال سلسلة من المقابلات واللقطات الذكية من الماضى على طبيعة التعقيدات التى يواجهها أى شخص يرغب فى فهم ما حدث فى تاريخنا القريب، وعلى الأخص فى بيرو. ولكن الرواية كذلك تدور حول موضوع كتابة الرواية ذاته، وهو ما يعنى أنها رواية آسرة تثير فى الوقت ذاته قضايا جدلية تتنوع بين طبيعة الفعل السياسى فى أمريكا الجنوبية وعما يمكن أن يقال عن التاريخ القريب ولفعل الكتابة الروائية ذاته، وصولاً، ويا للعجب، لعملية قلب للمعتاد يحاول ماريو أن يحققها فى الرواية، وهو الأمر المتعلق بالتضاد المتأصل بين الخيال والحقيقة. بشكل ما، ينتمى هذا العمل إلى تراث روائى صنعه ماريو لنفسه فى أدب أمريكا اللاتينية. أشعر أن هذه الرواية تركيبة من الواقعية الموثقة بدقة والمؤثرات الواقعية - وبصفة خاصة فى استخدام ماريو للحوار وصوت المتكلم - بينما لا تقدم القصص المتضمنة روايات واقعية واضحة. وفى الوقت ذاته يخلق التلاعب بالقارئ على المستوى التقنى نمطًا آخر من القصّ ينجح دومًا فى أسر القارئ داخل القصة. إنها عمل روائى يقدم نفسه فى صورة حقيقة متخيلة.

طارق على: أود أن أقول: إنه عندما وصلتنى هذه الرواية فى البريد كنت على أتم استعداد لأن أكرهها، سواء نتيجة لما نسمعه عنها فى حلقات النميمة أو عن ردة فعل اليسار فى أمريكا اللاتينية تجاهها. هذا اعتراف واجب، ثم بدأت أقرأها بعين تحمل أحكامًا مسبقة. ولهذا فقد أصابتنى الدهشة لأسباب عدة، أولاً: حين وجدت أن أجزاءً كبيرة من الرواية تصور ما كان يمكن أن تؤول إليه الحياة فى دوائر يسارية صغيرة، سواء فى أمريكا اللاتينية أو فى أجزاء من أوروبا أو حتى من آسيا، أو ما كانت الحياة عليه فى تلك الأماكن، أو ما ستصبح الحياة عليه فيها. وقد جعلنى ذلك أشك فى الطرح الذى يقدمه ماريو فى الرواية، وهو أن القص ما هو سوى أكاذيب. فعلى مستوى ما، نجد هذه المقولة مبتذلة ومكررة. ولكن القص هنا ليس أكاذيب كاملة، وأعتقد أن الرواية تقدم جزءًا من حياة دائرة يسارية صغيرة تقديمًا دقيقًا. فهى تصور بعض المحادثات ببراعة آمل أن يخبرنا الكاتب كيف توصل إليها؛ لأنه لا يمكن أن تقدر على ذلك لمجرد مطالعتك نسخًا قديمة من الصحف اليسارية، بل يتحتم عليك أن تكون على معرفة ببعض الأشخاص نواتهم. ولكى أكون أمينًا، فإن الرواية لم تعجبنى مثلما أعجبتنى رواياته الأخرى، ولا أرى أن هذا الكتاب على نفس مستوى جودة رواية العمة جوليا وكاتب السيناريو (Aunt Julia and the Scriptwriter) التى تعد أحد أعظم كلاسيكيات هذا القرن. ويكمن السبب فى ذلك، جزئيًا، كما أتصور فى بنية الرواية. فهناك ثلاثة مستويات أو ثلاث بنىً فى الرواية. هناك أولاً: الوضع المستقبلى العام، ذلك الوضع الخارجى، الذى يقدم لنا بيرو الممزقة جراء الحرب الأهلية. ولكن تلك ليست مجرد حرب أهلية؛ بل هى انعكاس لصراع أخلاقى على مستوى العالم. فهناك جنود المشاة الأمريكيون الذين يساندون القلة الحاكمة فى بيرو، وهناك الحملة الكوبية - البوليفية التى تدعم العصابات. يدور ذلك كله فى تسعينيات القرن العشرين. ثم هناك المستوى الآخر الذى يقدم لنا الراوى فى صورة مؤرخ شفاهى يحاول استخراج تاريخ وحياة شخص واحد. أما الجزء الأخير فيظهر فيه أليخاندرو مايتا الحقيقى الذى يختلف كلية عما كان الناس يقولون عنه، وعما حاولت الرواية الإيحاء به، وهو أمر عظيم على

المستوى الأدبى ولكننى بصفة شخصية لم أجده مقنعًا تمامًا. أود الآن أن أقول: إننى وجدت البنية المستقبلية فى الرواية غير ذات ضرورة؛ لأن الوضع اليوم فى بيرو مخيف جدًا حتى دون اللجوء لتصوير قوة الحملة الكوبية - البوليفية من ناحية، وجنود المشاة الأمريكيين من ناحية أخرى. فهناك إيحاء بأننا بحاجة لتدخل أجنبى حتى تتم هذه الأشياء، بينما نجد أنه فى هذا العام تم العثور على مقابر جماعية... أما الأمر الذى لفت انتباهى أكثر من غيره فقد كان فى الواقع أن الراوى ظل خاملاً طوال الرواية، لا ينخرط فى مجادلات عنيفة مع هذا الطرف أو ذاك. وفى نهاية الرواية نجد تفسيراً لذلك الخمول عندما نجد الراوى وقد أصبح شديد السخرية والتشاؤم. وأجد الكتاب بصورة أساسية ينزع إلى السخرية والتشاؤم، تبعًا لما يقوله الراوى وللطريقة التى ينتهى بها الكتاب وهو أمر يعكس مشكلات أخرى. أما النقطة الأخيرة فهى بالطبع أن الكتاب يثير أسئلة مهمة حول التروتسكية.

أما الشىء الوحيد الذى افتقدته فى الرواية فكان أن الحياة فى الدوائر التروتسكية كانت معنية بصورة أشمل بتناول السياسة العالمية وليس السياسة داخل البلد التى ينتمون إليها، وهو ما أعرفه حقًا؛ لأننى على علم بهذه الحركات من الداخل. ولكننى لم أستشعر ذلك فى الرواية. فهناك أوقات تشعر فيها بحق أن هؤلاء التروتسكيين ليسوا مجتمعين فى مرآب فى مكان ما وسط ليما، ولكنهم قد يكونون على سطح القمر لو أننا حكمنا بالموضوعات التى يناقشونها. أما الأداة المستخدمة وهو الصراع الخارجى فهو فى رأيى مستخدم؛ لكى يغطى على الرغبة فى تناول الوضع السياسى فى بيرو لأنه وضع لافت، وأعتقد أن تناوله كان سيأتى بتأثير أكبر. نجد أن قائد العصابات المخضرم، الذى لا يزال يشارك فى السجالات السياسية، هوجو بلانكو، هو الشخص الحقيقى الوحيد الذى يذكره ماريو فى الرواية - وهو شخص أعرفه جيدًا منذ كان صغير السن مثل أليخاندرو مايتا. وهكذا فإن حكمى العام أن هذه رواية مكتوبة بطريقة جد آسرة وهى رواية جد ممتعة، ولكننى وجدت النغمة العامة متشائمة ويائسة بالمقارنة بكتاباته السابقة.

ماريو فارجاس يوسا: لقد استخدمت بالطبع تجربتي في الجامعة كمادة لشخصية مايتا، حينما كنت مناضلاً لمدة عام في حزب صغير حل محل الحزب الشيوعي في بيرو في أعقاب حركة القمع الواسعة هناك في عام ١٩٥٢، كما أنني كنت خلال عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٤ عضواً في منظمة متناهية الصغر - بالأحرى جماعة. وأجدني دوماً أحمل ذكريات تلك النشاطات المكثفة التي كنت أقوم بها التي كانت في الحقيقة عديمة الفائدة؛ لأننا كنا منعزلين تماماً - مجرد مجموعة من الطلاب ليس لها أي اتصال بالجماهير أو بالعمال. وأعتقد أنني كتبت المناقشات السياسية التي وردت في الكتاب من ذكريات ذلك النوع من المناقشات التي كانت تدور بيننا في تلك الخلايا الصغيرة التي كنا جزءاً منها. ولكن الأهم عندي عندما كنت أكتب الرواية هو ما كان التروتسكيون يمثلونه لنا في ذلك الوقت. وقتها كان التروتسكيون، من منظور ستاليني، هم العدو الأعظم، ذلك الوحش الأسود - حتى قبل ظهور الإمبريالية الأمريكية وقبل النازية والفاشية. ولو أننا كنا قليلي العدد في بيرو فقد كان التروتسكيون شبه غير موجودين، مجرد ثلاثة أو أربعة، وكانوا العدو الأعظم. كنا مقتنعين تماماً أنهم كانوا يعملون مع الشرطة، وأنهم عملاء أجانب، وكنا نحاول أن نكتشف ما كانوا يفعلونه، ونتعقب مؤامراتهم... كان ذلك كله يحدث في ظل نظام دكتاتوري عسكري، وكان ما نفعله في كثير من الحالات محض مثالية - كما كان يتسم بالشجاعة المتناهية - ولكنه كان في الوقت ذاته عديم النفع تماماً؛ إذ كنا منغمسين في عالم مجرد يعج بالطروح الأيديولوجية التي ليس لها جذور عملية في المجتمع الحقيقي وفي الواقع الحقيقي الذي كنا نعيش فيه. أعتقد أنني استخدمت كثيراً من هذه الخبرات الشخصية في كتابة الرواية.

وعلى الجانب الآخر فقد كانت فكرتي الأولى عن الرواية مختلفة تماماً عما أصبحت الرواية عليه. كانت فكرتي الأولى أن أحاول إعادة صياغة ما حدث في بيرو ليس في عام ١٩٥٨ مثلما يقدم الكتاب ولكن في عام ١٩٦٢، في شكل قصصي:

محاولة ثورية قادتها مجموعة صغيرة من الناس، مجرد بضعة شباب، وما أحسبه عشرة أو اثني عشر تلميذاً في المدرسة في مدينة صغيرة في منطقى وسط الأنديز.

كنت في باريس عندما وقعت تلك الأحداث وما زلت أتذكر انبهاري بوقوعها في بيرو. كان الجميع يتحدث عن الثورة في هذا الوقت، وبخاصة الأمريكيين اللاتينيين في باريس الذين كانوا يحلمون بتأسيس أنظمة جديدة في أمريكا اللاتينية على غرار كوبا. ولكن عندما وقع ذلك في بيرو بالفعل أصابتني الدهشة كما أنني تأثرت به كثيراً. كانت تلك محاولة ثورية واضحة استمرت لبضع ساعات فقط، وكنت متحمساً لفكرة كتابة نص روائي يحاول تصوير ما حدث - كيف تسنى لحفنة من الناس يعيشون في ظروف كتلك أن يتمردوا بهذه الصورة، وأن يعتقدوا أن بإمكانهم القيام بثورة بهذه الطريقة. تلك كانت فكرتي الأولى لكتابة الرواية، التي كانت في الغالب ستنتج رواية واقعية تتناول محاولة سياسية شجاعة وخطرة أو شيئاً من هذا القبيل. كان ذلك في عام ١٩٦٢ . وقد حدث الكثير في بلادي منذ ذلك التاريخ، وتغيرت الكثير من أفكاري السياسية تغيراً كبيراً، كما مرت علاقتي ببلدي ذاتها بمراحل متعددة. وعندما شرعت في كتابة الرواية جعلتني الأحداث في بيرو وقتها أغير ما كنت أنتويه للرواية. كان ذلك في عام ١٩٨١ على ما أظن. بدأت وقتها في إجراء مقابلات شخصية مع أناس من الذين شاركوا في تلك المحاولة الثورية أو شهدوا الأحداث، وسرعان ما اكتشفت التناقض والحكايات المختلفة أشد الاختلاف. كنت أجد بعض هذه الاختلافات متعمداً في بعض الأحيان؛ حيث يقوم الناس بتغيير الماضي حتى يتسنى لهم تسويغ الواقع أو تسويغ دورهم في تلك الأحداث. ولكن بدا الأمر في حالات أخرى أن الناس لم يكونوا مدركين أنهم يغيرون الماضي، وأنهم في الحقيقة يمزجون التاريخ بالخيال؛ لأن ذكرياتهم ذاتها كانت آخذة في التغير، وفي تشكيل الواقع مثلما يفعل الروائي. وقد جذبتني عملية تشكيل التاريخ بهدف تسويغ الحاضر، وكيف يغير الحاضر الماضي ويشوهه.

عندما شرعت فى كتابة الرواية وقتها، كنت قلقًا إزاء الأحداث السياسية فى بيرو.
كنا قد استعدنا الديمقراطية والحكم المدنى، وأبعدنا الجيش بعد اثنى عشر عامًا من الحكم الدكتاتورى، كما شهدت الانتخابات مشاركة شعبية كبيرة - أعتقد أن الغالبية العظمى من المواطنين فى بيرو كانوا يؤيدون الحكم الديمقراطى. وفى تلك اللحظة نفسها بدأ الإرهاب فى بيرو - ظهرت جماعة سياسية جديدة تسمى "الدرب المضىء - فى اليوم نفسه الذى بدأ فيه الحكم الجديد، وشرعت فى تنفيذ أعمال إرهابية، وكانوا يعلقون الكلاب فى أعمدة الإضاءة فى ليما. كانت تلك هى البداية... ثم بدأت فى التو موجة عنف سياسى - مستهلة بقمع من جانب الشرطة ثم من الجيش، ثم أخذ الجو العام فى البلاد فى التدهور قليلاً قليلاً، وازداد العنف قليلاً قليلاً حتى أحكم العنف قبضته على المدينة. وكان من الواضح أن العنف سيزداد ويأخذ فى تدمير وإفساد المؤسسات الديمقراطية التى كنا سعداء ب... أعنى أننى كنت قلقًا ومتوترًا إزاء تلك الأوضاع. وأعتقد أن تلك الحالة النفسية ولّدت لديَّ فكرة قصة مشابهة لقصة نهاية العالم، وهو ما حاولت تقديمه فى هذه الرواية. من الصعب أن أحاول تقديم شرح واضح، ولكننى أعتقد أن ما أردت فعله هو أولاً: أن أكتب قصة تقول: إن القصة يمكن ألا تكون مجرد عملية أدبية تخلق فيها أسطورة خيالية مستخدمًا التاريخ والخبرات المعيشة كمادة لها، ولكن أن القصة تؤثر كذلك على مجالات الخبرات الأخرى، وأن القصة مثلاً متجذرة بعمق فى التحركات السياسية وأن بإمكانها أن تمثل المحرك الأساسى للفعل السياسى، وبالأخص فى الأوساط الراديكالية التى تؤمن بإمكانية تغيير الواقع تغييرًا جذريًا. ما نوع العلاقة بين القصة والأيديولوجية على سبيل المثال؟ تعد الأيديولوجية أحد فروع أو تجليات الرغبة فى صناعة القصة والتى تضرب بجذورها فى أعماق الطبيعة الإنسانية، أو على الأقل يمكن للأيديولوجية أن تصبح كذلك، وبالأخص فى تلك البلاد ذات التراث الطوبوى القوى؛ مثل الحال فى أمريكا اللاتينية. وعلى الجانب الآخر، لم أجدنى راغبًا فى تقديم خطاب فكرى معين فى هذه القصة التى تشبه قصة نهاية العالم، ولكن أردت تقديم قصة خيالية تتناول الأساليب الملتوية التى ينتهجها العنف؛ لكى يحكم قبضته على مجتمع ما. يعد ما يفعله مايتا

ورفاقه فى هذا الكتاب عملاً بطوليًا بلا شك، فهو رجل شديد النبل وتتميز فكرته عن المجتمع بالمثالية الشديدة، فهو يقف ضد الظلم، وهكذا فتمرد على المجتمع بسبب التفاوت الرهيب فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولهذا فهو يعتبر رجلاً إيجابيًا فاعلاً. نجد هذا الرجل فى لحظة ما يتقبل فكرة أن العنف هو السبيل الوحيد لتغيير الأمور. ولو أننا نظرنا إلى بيرو خلال الثلاثين عامًا الماضية لوجدنا أن تلك القيم البطولية المثالية النبيلة قد أخذت فى الانهيار شيئًا فشيئًا، فبمجرد أن يتأسس العنف وتصبح القاعدة الأساسية للعبة السياسية فى المجتمع تبدأ الأمور فى الانهيار بشكل منظم. ويصير العنف تدريجيًا أقل مثالية وبطولة وأكثر عميً فيستحيل أمرًا خارج السيطرة بالكامل سواء من الناحية الأيديولوجية أو الناحية الأخلاقية. ولهذا أقدم رؤيتى للبلاد التى دمرتها التدخلات الأجنبية وكأنها تتجه نحو نهايتها - أردت أن أتتبع العملية حتى آخرها. كما أردت إبراز الخيال القصصى الكامن وراء كل ذلك. صحيح أن الراوى يتميز بالسلبية الواضحة - بل هو سلبى تمامًا، ولكنه يحاول كتابة القصة، يحاول التأكيد على أن الحلم والابتكار وكتابة القصص لها مكان حتى فى مجتمع تظهر فيه بوضوح المشكلات الاجتماعية الجوهرية. فكتابة القصص أو الشعر أو رسم اللوحات يعد عملاً ذا معنى فى بلد مثل بيرو وفى بلادنا فى أمريكا اللاتينية، هو أمر له مسوغاته الأخلاقية والتاريخية، وليس عملاً تافهًا أو وضيعًا. وأنا على ثقة من ذلك؛ لأن هذا ما أفعل، على الرغم من أن الكرب لا يزال يلم بى، وقد خلقت من هذا الفعل الحكايات التى تدور حول الراوى فى الرواية. ولهذا كما ترى فقد امتزجت فى الرواية العديد من المشاريع والأهداف كما كانت آخذة فى التغير. فماذا كان المنتج النهائى؟ أظن أنه يمكن للقارئ أو الناقد أن يتوصل إلى ذلك بصورة أفضل منى.

ط ع: يمكن الخلوص مما قاله ماريو إلى أن الكتاب والعنف الذى يصفه وموقفه هو تجاهه قد تأثر كثيرًا بالمصادمات التى نشبت بين سانديرو لومينوزو والنظام الحاكم، وهو ما يمكننا فهمه بالطبع. ولكن ذلك يصبح أمرًا غريبًا حتى لو نظرنا إليه فى سياق تاريخ الحركة الراديكالية فى أمريكا اللاتينية، التى لا تزال تطلق على نفسها

مسمى الحركة الماوية فى الوقت الذى انتهت فيه الماوية كحركة سياسية، سواء فى أنحاء أخرى من أمريكا اللاتينية أو فى معظم أنحاء آسيا؛ حيث كانت تتمتع بنفوذ كبير فيما قبل. فسياساتها تأتى بصورة عامة معتوهة تمامًا؛ لأنها تقوم بأعمال معتوهة. ولكن أن يجعلك ذلك تخرج بتلك النتيجة...

م ف ل: ولكن ما تلك النتيجة التى أخرج بها؟ إننى لست واثقًا من النتيجة التى أخلص إليها...

ط ع: لقد ذكرتَ أن هناك عنفًا متصاعداً ولكن تاريخ أمريكا اللاتينية كله على مدار ثلاثمائة عام تاريخ عنف، حتى من قبل أن تظهر تلك المجموعة الصغيرة بزمان. لقد وجدتنى وأنا أقرأ عن تلك الحملة الموجهة من قبل كوبا وبوليفيا ضد الأمريكان أتساءل عما لو كانت المعادل المعاصر لما حدث فى تاريخ بيرو ذاتها، والصراع بين بوليفار وسان مارتن من جانب، وبين قواتهما وقوات إسبانيا من جانب آخر. ولهذا لا أجد العنف أمراً جديداً، ولا يسعنا أن نتعامل معه على أنه أمر منفصل ونقول: إن هناك عنفًا وكفى. لا يكفى القول: إن الجماعات الراديكالية تخلق نصوصاً قصصية فى أمريكا اللاتينية وكذلك فى بقاع أخرى من العالم. أتفق معك على أن بعضهم يفعل ذلك، ولكننى أجد أن أكثر الشخصيات خيالية فى الأمريكتين والذى يبنى كذبة فوق كذبة هو من يعيش الآن فى البيت الأبيض. هذه الشخصية حقيقية، ولكن الطريقة التى يصوغ بها ما يعده منهجه السياسى مبنية على قدر أكبر من القصص الخيالية والأفكار التى تتعلق بإعادة كتابة التاريخ. وهو فى الواقع يفعل ذلك بصورة شديدة الاتساق، بينما نجد تلك القوة العظمى التى يرأسها تدير الأمور فى أنحاء كبيرة من أمريكا اللاتينية. فبينوشية ليس شخصية خيالية للأسف، كما لم يكن سوموزا فى نيكاراجوا شخصية تاريخية عندما نسقت جبهة الساندينيستا للإطاحة به. فكيف لك أن تطيح بدكتاتور عسكرى فى بلد مثل نيكاراجوا على سبيل المثال التى كانت تمتلئ لعقود طويلة بأموال وسلاح من الولايات المتحدة - وهى عقود ساد فيها التعذيب والقمع والعنف اليومى.

هذه إذًا مشكلة جد حقيقية. ولكن بيرو تعد حالة استثنائية من هذا المنظور فى الوقت الراهن. لقد استغل النظام فى بيرو اليوم وجود تلك الجماعة ليمارس قمعًا لا يمكن تصوره حتى ولو قيمناه بالمعايير السائدة فى بيرو ذاتها خلال الثلاثين عامًا الماضية. ولم يقتصر الأمر على الجيش؛ بل امتد إلى حزب الوسط أو اليمين (التحالف الشعبى الثورى) الذى يطلق عصابـ'ته فى القرى؛ لكى تقتل الناس، وحيث نكتشف من الحين للآخر قبورًا جماعية. هذا بالفعل أمر فظيع - وليس بوسعنا أن ننفض أيدينا منه.

جيسون ويلسون: دعنا نناقش موضوعًا أثاره طارق فى البداية حول السخرية التشاؤمية فى نهاية الرواية.

م ف ل: نعم السخرية التشاؤمية - أعتقد أن موقف الراوى يتميز عند النهاية ببعض السخرية التشاؤمية تجاه القارئ، وذلك عندما يكشف عن أنه كان يكذب - وأن المواقف التى كان يسردها حول مايتا كانت من ابتكاره هو. يكمن السبب وراء تلك النظرة فى أن الراوى يفصح هنا عن حيله وأدواته السردية. ولكننى لا أجد نظرته لمايتا مشوبة بذلك التشاؤم الساخر، ولا نظرته للمجتمع أو المشاكل التى يحاول وصفها- لا، بل أجده مكبلاً أكثر منه ساخرًا أو متشائمًا. ألا تتفق معى؟ يكبله ما يشهده وما يكتشفه، كما يدرك أن القصة التى يكتبها ما هى إلا رؤية مشوهة من المادة التاريخية التى يستخدمها. ولكن ذلك حال أية رواية- وتلك هى النظرة التى يمكن أن تقدمها الرواية تجاه أى شكل من أشكال الواقع التاريخى. هل نعد ذلك تشاؤمًا ساخرًا؟ لا أعرف. ربما يثمر ذلك النوع من الكذب، أو ذلك النوع من التشويه الذى تقدمه الرواية أو الأدب بصفة عامة، عن ثمرة مختلفة تمامًا: لأنها ليست تاريخية أو اجتماعية وبالتأكيد ليست أيديولوجية، ولكنها ثمرة بمعنى أنها تعبر عن تجربة معيشة. وهنا أتفق...

جيسون ويلسون: هكذا فأنت تسوغ دور الراوى إذ إن مايتا نفسه لم يستطع تذكر ما حدث، لذا يصبح ما حدث هو الرواية، إذًا فقد قلبت الأمر رأسًا على عقب.

م ف ل: أعتقد أن الرواية تمثل تكملة مهمة للتاريخ؛ إذ إن التاريخ مهما كان جاداً حريصًا لن يقدم لنا التجربة كاملة. سوف يظل هناك شيء ينقص المنهج التاريخي، ألا تعتقد ذلك؟ وأعتقد أن القصة يمكنها أن تقدم تلك الأحداث التي لا يتسنى للتاريخ تقديمها بشكل أكثر يسراً.

سؤال من أحد الحاضرين: أوجه سؤالي إلى طارق علي. فقد جاء أحد انتقاداتك للكتاب في مقالتك عنه موجَّهًا إلى نظرة الكاتب المتسمة بالتشاؤم الساخر، وتجاهله للضمير السياسي في بيرو. أعلم أن السياسة أمر جاذب في أمريكا اللاتينية، ولكنني أتساءل لماذا نتوقع من كتاب أمريكا اللاتينية أن يكتبوا بضمير سياسي، باستثناء أناس مثل بورخيس؟ لماذا لا يكتبون مجرد قصص أو ما يحلو لهم؟ وكأنهم يخونون الوضع السياسي في بلاده لو أنهم فعلوا ذلك.

ط ع: لا، لم أنتقد الكتاب لهذا، فأنا مؤمن تمامًا بالنظرية التي تقول: إن هناك الكثير من الكُتَّاب الموهوبين الذين ينتمون إلى اليمين يكتبون قصائد رائعة، وهو أمر بديهي ولا يضايقني. ولكنني لست متأكداً من الفكرة التي تقول: إن الأدب العظيم هو الأدب الذي يتجاوز السياسة برمتها. لا يمكننا القطع هنا، فربما يتجاوزها وربما لا يتجاوزها، وبالطبع يفلح بعض الأدب العظيم في تجاوزها. الأدب والسياسة ليسا منفصلين تمام الانفصال كما يرى الناس أحيانًا. ولكن هذه الرواية تدور حول السياسة. ولهذا فقد جذبت انتباهي أكثر من الروايات الأخرى؛ لأنها تقدم جزءاً مهمًا من الحياة والفاعلية السياسية المعاصرة. ووجدتني أرغب في أن يشتبك الراوي أكثر مع بعض الأمور التي يصفها – ليس بالضرورة من موقف يساري، ولكن من موقف ما، وهو الأمر الذي تجنبه بحرص للأسباب التي شرحها. تلك كانت الفكرة التي سقتها. لم تكن مطلبًا سياسيًا، لكن مطلبًا أدبيًا.

سؤال: أشعر أن الطرح هنا مشابه للطروح التي قدمها كاتب مثل سارتر، وهو الشخص الآخر الذي يخطر على بالي الآن، الذي سخر سلسلة طويلة من رواياته

للأهداف السياسة ضمن أشياء أخرى، وأتذكر الجدال الذى دخل فيه مع اليسار وبصفة خاصة مع الحزب الشيوعى، الذى كان يرغب فى رؤية بطل أكثر التزامًا. فعندما أسمعك تتحدث هكذا، تتداعى إلىّ تلك الأصداء. أود أن أسأل ماريو ما إذا كان يعتقد أن ما يقوله طارق على وهو كلام شديد الحدة دليلاً على أخلاقيات اليسار؟ أم أنك ترد قائلاً: إن القص يعمل فى اتجاه بينما تسير السياسة فى اتجاه آخر... هل تعتبر خطابه خطابًا سياسيًا أم أدبيًا؟

م ف ل: أجده يقدم توليفة من الاثنين، وأراه خطابًا سياسيًا شديد التحضر. [ضحك] ولكنه للأسف ليس الخطاب السياسى الذى كان يستخدمه أقصى اليسار فى أمريكا اللاتينية. عندما أجدنى مضطرًا إلى الدخول فى نقاش مع راديكاليين من أمريكا الجنوبية، أجد المستوى الذى تنبنى عليه المناقشة مختلفًا، ألا توافقنى؟ نحن شعب شديد الحماس وشديد الرومانسية كما تعلم ولهذا تجدنا أقل تقبلاً للنقد أو المعارضة، وهو ما مثل لنا على مدى القرون مشكلة جد عظيمة. ولكنى أجد سؤالك مهمًا. لا أعتقد أن على الكاتب أن يلتزم بالكتابة عن السياسة، ولكننى أرى التزامًا أخلاقيًا على الكاتب فى أمريكا اللاتينية أن يتناول السياسة. لا أرى الأمر كذلك فى إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا. ولكن فى دول مثل بيرو وشيلى وكولومبيا يضعك كونك كاتبًا فى موضع متميز، بل شديد التميز، إذ إنك تعرف القراءة والكتابة فى بلاد تنتشر فيها الأمية. وعلى الجانب الآخر تجد لديك ككاتب نوعًا من الجمهور، وأنك تحظى بالاحترام حتى من قبل أعدائك. إن السبب فى وحشية الدكتاتوريات فى التعامل مع الكتاب يكمن فى خشيتهم من الكتاب. ربما يكون لديهم تصور ساذج بأن للكتاب سلطة، وأن ما يقولون ويفعلون ويكتبون يشكل خطرًا؛ لأنهم قادرون على تغيير الأمور، ولهذا يزجون بهم إلى السجون أو إلى المصحات العقلية. أعتقد أن ذلك صحيحًا؛ لأنه كما كان الحال فى أوروبا خلال العصر الرومانسى، فإن الكاتب فى أمريكا اللاتينية يعتبر شخصًا قادرًا على تقديم الحلول ليس للمشكلات الأدبية فحسب بل للمشكلات التى يعانى الناس منها. ولهذا نجد مطلوبًا دومًا من الكاتب أن يعلق على السياسة

والأخلاق حتى على الأشياء التافهة: إذ إن الكاتب يعتبر أكثر من مجرد صانع للتسلية. ولهذا، فلو أن للكاتب فى أمريكا اللاتينية كل تلك السلطة - حتى لو لأسباب خاطئة ناتجة لفكرة ساذجة عن ماهية الكاتب - فعليه إذاً مسئولية أخلاقية أن يحاول تغيير الأمور، وأن يحاول تحسينها. وطبعاً حينما يختلى الكاتب بشياطينه الصغيرة فهو حر فى فعل ما يحلو له، وأنا شخصياً أرى أن عليه الانصياع لما تمليه عليه تلك الشياطين. ولكن وفى الوقت ذاته، أرى أنه على الكاتب أن يحاول إعمال خياله ومعرفته وقدراته اللغوية من أجل تحسين الأمور - أى أن يستخدم تلك السلطة التى يمتلكها فى مجالات اجتماعية ومجتمعية كذلك. ومن هذا المنطلق لا أجدنى أعارض من يرون أنه على الكاتب فى أمريكا اللاتينية أن يكون ملتزماً بشكل أو بآخر.

١٩٨٦

مقابلة مع خوان جويتيسولو

طارق علي: يدور الكثير من الكلام فى الوقت الراهن، وبخاصة فى الصحافة والمجلات الأدبية الألمانية، على أننا نشهد اختفاءً للكتاب الذين يمارسون النقد، والكتاب المفكرين، والكتاب الذين يتداخلون مع العالم الذى يقع خارج الروايات التى يكتبونها - أى نهاية التراث الفرنسى المتمثل فى التداخل مع الواقع المعيش الذى يمثله سارتر وسيمون دبوفوار. ومن أحد الأسباب التى يعزى إليها ذلك - وهو رأى لا أقبله بالمناسبة، ولكننى أود أن أخبركم بما وصل إليه النقاش حول هذا الأمر- أقول: إن أحد الأسباب يتمثل فى أن العقود الثلاثة الماضية قد شهدت استهانة كبيرة بالثقافة للدرجة التى قضت على أى إمكانية لوجود كتاب جادين وكتابة جادة فى ثقافتنا. وهناك لمحة من الحقيقة فى هذا الكلام، إذا ما توغلنا فى تحليل النظرة المعاصرة للقصة والمسرح كسلع استهلاكية. والحق يقال: إن القصة والمسرح ينظر إليهما تلك النظرة منذ زمن ولكن هذا الاتجاه أخذ فى الظهور بقوة خلال السنوات الماضية، بينما أضحى فن النقد فى مجمله إما مسألة شهرة وصيت أو عملية تخليص حسابات قديمة - مع الأخذ فى الاعتبار بالطبع وجود استثناءات نزيهة. ولكننا لا نجد فى الصفحات الأدبية سوى نوعين: إما أصدقاء يسدون الصنائع لبعضهم البعض أو شخصًا يحمل فأسًا يضرب به كاتبًا ما. أما الروايات الجادة، أو القصص الجادة فلا تحظى بالدرسة أو أنها تلقى ذكرًا عابرًا. أما عن نفسى، فأجد خوان جوستيسولو، الذى بدأت فى قراءة أعماله منذ عدة سنوات، يعد أحد هؤلاء الكتاب الذين يتحسر النقاد الألمان على فقدهم - ولا ينبغى فى الحقيقة أن يتحسروا؛ لأنهم لديهم جونتر جراس الذى لا يهاب التداخل فى القضايا الكبيرة. أما خوان فيمثل لى وللكثيرين - ليس فى إنجلترا بقدر ما فى إسبانيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربى - أحد هؤلاء الكتاب الذين يكتبون أدبًا قصصيًا مشوقًا لأنه مبتكر فى شكله ومحتواه على حد سواء. وأعتقد أن خوان سوف

يتقبل فكرة أن هناك فقرات طويلة فى أعماله، تأتى أحيانًا فى أعماله القصصية، تجعلك غير قادر على فهمها دون قراءتها بصوت عال، حتى ولو أنك كنت منغمسًا شديد الانغماس فى القراءة؛ إذ تجد نفسك غير قادر على استيعاب المعنى بفضل إيقاع اللغة وبنية الأفكار التى تشبه فن الشعر. وبالإضافة إلى الروايات والتى تنشرها دار نشر سيربنت تيل - وهى بدورها دار نشر مبدعة، تقدم الفن القصصى الذى يصيب دور النشر الأخرى بالفزع - كتب خوان سيرته الذاتية ومجموعة مقالات نقدية. وقد جاء أحدث كتبه بعنوان: وقائع المسلمين (Saracen Chronicle) ليقدم لنا مختارات، وليس تجميعًا، لكتابات خوان النثرية غير القصصية يتناول فيها الماضى والحاضر والروابط الدائمة التى تربط الاثنين حتى لو كان الناس يفضلون ألا يروها. يقدم الكتاب مادة مدهشة أجدها مثيرة ومحفزة. وقد يأتى ذاك كمفاجأة لمن يرون أن الأدب الإسبانى بعد عام ١٤٩٢ أو بعد بدايات القرن الرابع عشر قد تميز بالتقليدية والمحافظة. وهذا بالطبع لم يحدث؛ حيث نجد أن كتاب خوان يبرز بعض الكتاب التقليديين يعرفهم الكثيرون فى مجال الأدب ولكن لم يتم فهمهم جيداً. ولهذا أود أن أبدأ يا خوان بسؤالك سؤالاً شخصيًا سياسيًا وهو: بماذا شعرت وأنت تشهد هذا العام الاحتفالات الكبيرة بذكرى ١٤٩٢ فى كل أرجاء العالم؟

خوان جويتيسولو: لقد كتبت فى الصحافة الإسبانية عن هذا الموضوع وألقيت محاضرة حوله عقدت فيها مقارنة مع الاحتفال بذكرى أخرى. فقد احتفلنا منذ ثلاثة أعوام بالذكرى المائتين على قيام الثورة الفرنسية وها هو الآن الاحتفال الخمسمائة باكتشاف أمريكا. وقلت: إنه على الرغم من ظهور الإرهاب والمقصلة ونابليون والحروب النابليونية والمصائب الكبرى التى تولدت عن تلك الحروب بعد عام ١٧٨٩ فإن أمورًا مهمة تبقى للاحتفال بها فى الحالة الأولى، وهى أمور عامة تتعلق بأناس من كافة المشارب، كما أنها حقيقية وملموسة - مثل إعلان حقوق الإنسان والمواطن. أما فى

حالة الغزو، اكتشاف وغزو أمريكا، فالأمر أكثر تعقيداً. فعلى الأقل سوف يرفض السكان الأصليون هذا الطرح من فورهم؛ لأنهم كانوا ضحايا لهذا اللقاء بين عالمين، الذى نجم عنه تدمير عالمهم على يد العالم الجديد الذى فرضه عليهم المستعمر. وقد حدث الشيء نفسه فيما بعد مع الاستعمار الإنجليزى للهند وأستراليا ونيوزيلاندا، والاستعمار الفرنسى لأفريقيا وهكذا. وهناك سببان يفسران الغزو الإسبانى لأمريكا: أولهما: إن الأسبان كانوا يبحثون عن الذهب مستغلين العمالة زهيدة الأجر مثل الهنود ومن بعدهم السود، وأنهم بذلك بدءوا تجارة الرقيق. ولكن المؤرخين الأسبان قالوا: إن ذلك لم يكن السبب- وأن السبب الرئيس تمثل فى التبشير وتوصيل البشارة لمن يعيشون فى الظلام. ولكننى أتساءل هنا: هل هناك قيمة ما لفرض ثقافة جماعة ما أو لغتها أو دينها على الآخرين بالقوة؟ بالطبع لا. أما المؤرخون الأكثر ذكاءً فقد أقروا بضرورة الفصل بين الاكتشاف والغزو، وأن ما حدث لم يكن احتفالاً بالغزو. ولكننى ما زلت أتساءل: هل يمكن فصل ضرب من ضروب التقدم، أو إنجاز مهم ما، عن السياق الذى أنتجه؟ فماذا لو أننا أردنا على سبيل المثال الاحتفال بجاجارين أول رجل يذهب إلى الفضاء دون أن نأخذ فى اعتبارنا الثمن الذى دفعه وقتها الشعب الروسى، سواء من الناحية الأخلاقية أو الاجتماعية أو الاقتصادية؟ هناك أمثلة كثيرة لمثل تلك الحالات، ولو أننا وضعنا مسألة اكتشاف أمريكا فى سياقها الصحيح فسوف نستطيع دراسة ما حدث فى إسبانيا فى تلك الفترة. مثلاً سنجد أن المراكب الصغيرة الثلاثة قد بدأت رحلتها من ميناء هويلفا وليس من ميناء كاديز الذى كان يعد أهم موانئ إسبانيا فى ذلك الوقت. لماذا؟ لأن هذا الوقت كان يشهد ترحيل آلاف مؤلفة من اليهود إلى خارج البلاد عن طريق ميناء كاديز. إذاً كان ذلك عام طرد اليهود، وهو عام غزو جرانادا الذى تم وسط وعود بترسيخ قيم الاحترام والحريات؛ حريات المسلمين الثقافية والدينية. ونحن نعرف جيداً أن هذا الوعد سرعان ما تحطم وأنهم فرض عليهم اعتناق المسيحية بالقوة. وقد جاء تشكيل جماعة الإخوان الربانيين؛ لتكون أول مؤسسة بوليسية فى الدولة الحديثة. فقد قضوا بحرق المثليين جنسياً، ومنعوا استيراد الكتب المطبوعة من

خارج البلاد، كما طردوا الغجر من إسبانيا، محذرين إياهم بقطع آذانهم لو أنهم عادوا إلى إسبانيا مرة أخرى - وما شابه ذلك من أفعال. كل هذا يأتى مشابهًا لما تفعله الكثير من الأنظمة المعاصرة فى هذا القرن. ولهذا أجدنى أتساءل: ما الشيء الذى نحيي ذكراه؟ فى الحقيقة لا أعرف. فلو كنا شهدنا مراجعات حول هذه القضايا لكان الأمر مختلفًا، أو أننا شهدنا احتفالاً بذكرى لاكاساس الذى كان أسقفًا كاثوليكيًا يعارض الممارسات الاستغلالية بحق الهنود فى كتاباته، لكان ذلك أمرًا لافتًا للنظر. أو حتى لو أننا سمعنا أحدًا يتحدث عن بلانكو وايت الذى كان المثقف الإسبانى الوحيد الذى دعم حركة استقلال المستعمرات المملوكة لإسبانيا، والذى نَعُدُّه الدولة الإسبانية حتى الآن خائنًا على الرغم من أن تلك الدولة دائمًا ما تتحدث عن إسبانيا الأم وعن دول أمريكا اللاتينية بوصفها أبناءها.

ط ع: دعنى ألتقط طرف الحديث من هنا. هناك جانب آخر يقع طى التجاهل، سواء فى إسبانيا نفسها أو خارجها من قبل أولئك الذين لا يعرفون عنها الكثير، وهو أن الغزاة الأسبان الذين شاركوا فى غزو ما يعرف الآن بأمريكا اللاتينية كانوا فى كثير من الأحيان هم أنفسهم من شاركوا فى معارك دامية ضد المسلمين فى إسبانيا نفسها. بمعنى آخر، فقد جاء المنطق الذى استخدموه فى تنظيف إسبانيا وتطهيرها عرقيًا - متمثلاً فى طرد اليهود وتدمير المسلمين وفرض الكنيسة الكاثوليكية لدولة ذات طبيعة واحدة خالصة - بمنزلة مقدمة لما فعلوه بعد ذلك. وقد شهدنا أنظمة فاشية فى القرن العشرين - أنظمة ستالينية. تعمل بالمنهج نفسه. ولكن يمكننا كذلك عقد مقارنات مع ما يحدث فى القرن الحالى، أليس كذلك يا خوان، فعلى سبيل المثال نجد أن الكتاب الذين أرغموا على اعتناق المسيحية فى القرن السادس عشر، ليصبحوا ما أطلق عليه وقتها المسيحيون الجدد، كانوا مضطرين إلى الكتابة بطريقة معينة؛ لذلك نجد كتاباتهم تسعى لعدم إثارة قلق الرقابة والكنيسة، ولكنها كذلك تنطوى على رسالة معارضة للوضع القائم. أجدك تكتب باستفاضة وبمعلومات مذهلة عن كتاب لاثلستينا (The Celestina) لفرناندو دى روخاس، وأود أن أسألك إذا ما كنت ترغب فى الحديث عن ذلك. فماذا كانت انطباعاتك عند قراءة هذا الكتاب للمرة الأولى؟ وكم مرة قرأته...؟

خ ج: نعم لقد أثار كتاب لا ثلستينا إعجابى الشديد حين طالعته للمرة الأولى، وأعده، بعد رواية دون كيخوته، أهم النصوص الأدبية فى الأدب الإسبانى، وأكثرها جرأة، كما أعده الكتاب التراجيكوميدى الوحيد الذى يمكن مقارنته بأفضل ما كتب شكسبير؛ لأننا نجد فى مرحلة تالية أعمالاً مثل مسرحيات كالدرون الدينية أو كوميديات لوب ديفيجا، التى لا أجدها مهمة بالقدر نفسه، على الرغم مما تحمله أعمال كالدرون من خيال مسرحى. ولكن جاءت الرائعة الأدبية الوحيدة متمثلة فى أحد الأعمال التى كتبها كاتب شاب، فى الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين من عمره، وهو واحد من أكثر الأعمال تشاؤمًا؛ إذ يحمل أفظع رؤية يمكنك تخيلها. ولهذا أجدنى أسأل نفسى كيف يتسنى لمثل هذا الشاب أن يرسم تلك الصورة المرعبة والناقدة فى وقت كانت إسبانيا تغزو العالم. يمكننى القول: إن هذا العمل يمثل أول نص أعرفه فى الأدب الغربى لا تجد الله موجودًا فيه، وذلك على الرغم من أن روخاس يتحدث فى المقدمة عن آلام المسيح وعن اليهود الأشرار وكل تلك الأشياء حتى يتمكن من التخفى قليلاً. ولكننا لا نجد فى داخل الكتاب سوى... إنه أول وثيقة لا تعتمد على مبدأ وجود إله. يمكنك فهم ذلك لو تعرفت على ظروف حياة فرناندو ديروخا. فقد كان يهوديًا، وعلى الرغم من أنه خسر معركة أجداده، فإنه من الواضح أنه لم يتقبل المعركة الجديدة، حتى مع أنه اضطر إلى الإشارة لنفسه باعتباره كاثوليكيًا. وهنا أقارنه برامبو، حينما وصل إلى نقطة لا يمكنه المضى قدمًا بعدها. أعتقد أنه أصبح من المستحيل على روخا أن يكتب عملاً آخر بعد لاثلستينا، وذلك لأسباب عديدة، شخصية وسياسية ودينية. أمضى روخا باقى حياته فى إسبانيا، متقاعدًا عن العمل، حيث اكتفى ب... ويعود ذلك لعدة أسباب، فمثلاً ذكر ستيفان جيلام فى كتابه إسبانيا عند فرناندو ديروخا (The Spain of Fernando Rojas) أن أباه قد قضى عليه بالموت حرقًا أثناء فترة محاكم التفتيش الكاثوليكية. كما أن إحدى قريباته قالت عندما كانت فى البيت بمفردها: "ما من عدل فى هذا العالم، ما من حقيقة، ما من إله". ثم شعرت بالرعب بعد أن سمعت نفسها من أن يكون أحد جيرانها قد سمعها وقد يذهب إلى

محاكم التفتيش لكى يبلغ عنها، فذهبت وسلمت نفسها بنفسها للقضاة قائلة: "لقد قلت ذلك فى لحظة تشتت فيها ذهنى". وهنا أمرتها المحكمة المقدسة بتلاوة بعض الصلوات، ولكنها بذلك كانت قد حافظت على حياتها. تعطينا تلك الحادثة فكرة عن مشاعر هؤلاء الذين يتعرضون للترويع، هؤلاء الذين يتحولون لاعتناق المسيحية، المسيحيون الجدد فى تلك الفترة، ورفض القيم القديمة الذى نراه بوضوح فى لاثلستينا.

ط ع: ونجد ثيربانتيس بالطبع يسير على النهج نفسه، ذلك الكاتب العملاق فى الأدب العالمى. كنت تقولك: إنه لو كان ثيربانتيس على قيد الحياة لكان قد فاز بجائزة ثيربانتيس [ضحك] هلا شرحت ذلك؟

خ ج: لأن ثيربانتيس كان... نحن الآن واثقون بنسبة ٩٩٪ أن ثيربانتيس كان من المسيحيين الجدد.

ط ع: من أصل يهودى؟

خ ج: بالتأكيد - من أصل يهودى، ربما كان أحد أجداده يهوديًا. كما أنه من الواضح أن فرناندو ديروخا لم يكن مسيحيًا. أما ثيربانتيس فقد كان مسيحيًا مخلصًا ولكنه ظل طوال حياته يعانى من مشكلة أصوله الدينية. فعندما كان يحارب الأتراك فى ليبانتو على سبيل المثال، وأصيب وفقد ذراعه اليسرى، قضى عدة أعوام فى الأسر فى مدينة الجزائر - وهى فترة من حياته تثير الاهتمام؛ لأنها دعمت صلاته بالثقافة الإسلامية، وهى أمور مهمة فى الكتاب. وحين أطلق سراحه طلب ثيربانتيس الذهاب إلى أمريكا لكى يبنى حياته هناك. ولكن لم يكن مسموحًا للمسيحيين الجدد الذهاب إلى أمريكا، ولهذا فقد رفض طلبه، فلم يستطع سوى أن يحصل على وظيفة محصل للضرائب التى كانت مقصورة على اليهود التقليديين، ثم أصبحت فيما بعد متاحة أمام المسيحيين الجدد. وقد كان المسيحى التقليدى يفضل الموت جوعًا على أن يعتقد الناس أنه يهودى جراء عمله بجمع الضرائب، ولكن ثيربانتيس كان جامعًا للضرائب، وكات زوجته كاتالينا سالازار تنتمى لعائلة فرناندو ديروخا - ولم يكن مسموحًا للمسيحيين

القدامى فى هذا الوقت الزواج من مسيحيين جدد، كما ظل ذلك التمييز قائمًا لمدة قرنين من الزمان. وقد أرست مسألة نقاء الدماء أسس التمييز بين نتائج التحاليل السلبية والإيجابية لو صح استخدامى لمصطلحات طبية. وبالطبع كان المنتمون لأصول يهودية وعربية يشخصون بالاستجابة الإيجابية. كان ذلك هو الوضع فى هذا المجتمع، ولكننى دائمًا أرى أن الناس والكتاب الذين لا يشغلون مرتبة مركزية فى هذه المجتمعات بل يقبعون على الهوامش لديهم قدرة أفضل على تقييم المجتمع أكثر ممن يعيشون فى وسطه. وهذا هو السبب الذى يجعلنا نجد كتابًا مهمين من نهايات القرن الخامس عشر حتى مطلع القرن السابع عشر ينتمون إلى جماعة المسيحيين الجدد. كان ذلك وضع تيريزا الأفيلية، وجونجورا، كما كاد أن يكون وضع فرانسيسكو ديليكادو - أقول كاد... فقد ظل فرانسيسكو ديليكادو يهوديًا... هرب من إسبانيا وذهب إلى إيطاليا. ولكن هناك آخرون مثل... آرياس مونتانو المفكر الإنسانى، وفراى لويس يى ليون، وماتيو أليمان وغيرهم.

ط ع: ولكن أخبرنى يا خوان، فأنا جد محتار: أفهم أن المؤسسة الأدبية - السياسية أيام حكم فرانكو كانت شديدة القلق إزاء الاعتراف بمعظم هذه الأمور، ولكن لماذا نجدها حتى الآن تتبنى الموقف نفسه، مما يجعل تلك الأمور غير معروفة فى إسبانيا، بما فيها فترة السبعمائة عام التى كانت فيها تحت الحكم الإسلامى؟

خ ج: لا يكمن السبب فى قضية سياسية، بل هو أعمق من ذلك. فقد كانت مشكلة إسبانيا على مدى قرنين من الزمان تتمثل فى علاقتها مع أوروبا. وعندما تمكنت القومية الكاثوليكية مع انتهاء القرن السابع عشر من تدمير الثقافة الإسبانية بالكامل، وبدأت إسبانيا الفترة التى أسميها "عطلة من التاريخ"، بدأ بعض الكتاب الأسبان شيئًا فشيئًا فى اكتشاف أن إسبانيا منفصلة كلية عن باقى أوروبا. كانت تلك هى اللحظة التى قال فيها الفرنسيون: إن "أفريقيا تبدأ من جبال البرنيز" الأمر الذى اعتبره الأسبان إهانة لهم. وفى القرن التاسع عشر كان الليبراليون مهووسين بفكرة اللحاق

بأوروبا لسد تلك الفجوة بين إسبانيا وأوروبا، ولذلك فقد حاولوا رفض كل عناصر التاريخ الإسبانى التى لا تنطبق على الصورة الأوروبية. فنجد فى إسبانيا مثلاً مؤرخين مثل مينيديز بيدال أو أورتيجا إى جاسيت يقدمون عرضًا خياليًّا للتاريخ الإسبانى لا يعتمد على قواعد علمية بالمرة، فنجدهم يؤكدون دومًا على تراث إسبانيا الرومانى والقوطى الغربى على حساب الجانب السامى. ولا تجدهم يتحدثون عن اليهود أو المسلمين. وقد قال أورتيجا: إن العرب لا يمثلون مكونًا مهمًّا فى الثقافة الإسبانية، ولكنه مثلاً قال: إن دماء الناس فى شمال إسبانيا تستقى من دماء الناس فى جنوبها - ومثل تلك الأشياء. وقد استمرت تلك العقدة حتى الآن. أما الآن فنجد الإسبان لا يشعرون - وقد كتبت عن هذا من قبل - بأنهم أثرياء جدد وأحرار جدد فحسب، بل أيضًا يشعرون بأنهم أوروبيين جدد، ولهذا فإنهم يشعرون بأهمية أن يكونوا أكثر أوروبية من الأوروبيين. وأجد أن إسبانيا إحدى الدولة الأوروبية التى سوف تصوت بنسبة ٩٠٪ بنعم على اتفاقية ماستريخت لو حدث مثل ذلك الاستفتاء. وطالما سخرت من ذلك، فقلت: إنه لو حدث استفتاء على تغيير موقع إسبانيا الجغرافى ووضعها مكان هولندا أو الدنمارك فسوف يوافق أغلبية الشعب، وهو ما يعنى أن الإسبان دائمًا ما يتطلعون إلى باريس أو لندن وأنهم يسلكون أسرع الطرق التى توصلهم لأوروبا وأنهم تأمركوا لأن تلك أفضل طريقة تجعلهم أوروبيين. وحتى الآن ينزعج الناس الذين يتمحكون بأوروبا من محاولات البحث فى تاريخنا دون أن يفهموا أن ذلك المظهر التخالفى يمثل أفضل ما يمكن أن تسهم به إسبانيا فى الثقافة الأوروبية؛ لأنه ما من نظير فى أوروبا لكتب مثل كتاب الحب الفاضل (Libro de buen amor) لرويز أو كتاب لا ثيلستينا أو لكتاب صورة لوزانا (La Lozana andaluza) لدليكادو، أو لفن المدجنين الذى يمثل دمجًا رائعًا لعناصر عربية ومسيحية، وهو الأمر الذى يبرز الخصوصية الحقيقية للفن الإسبانى. وهذا ما اكتشفه جاودى أمهر معماريينا عندما كتب أن الخصوصية الحقة تعنى الذهاب للجذور. وقد كان هو ذاته متأثرًا بفن المدجنين، كما كان مولعًا بالمساجد العربية الإسلامية التى شحذت خياله الإبداعى. هذا هو السبب.

هناك من يحاولون إعادة التنقيب عن هذه الحقائق، وكان أولهم المؤرخ العظيم أميريكو كاسترو، الذى كان أول من أصر على الطرح القائل: إن إسبانيا قد ولدت إبان الفترة الذى كانت تعيش فيها ثلاثة أديان وثلاث حضارات، وأن تلك علامة لا تنمحى فى التاريخ الإسبانى. وقد اقتفى أثره العديد من التلاميذ والتابعين. ولكننا نقف موقفًا معارضًا تمامًا للمؤسسة الرسمية.

هناك عنصر مهم آخر ساهم فى إنتاج الأعمال التى أتحدث عنها وهو كتاب وقائع المسلمين. كان بلانكو وايت أول من اكتشف أن النصوص القروسطية فى إسبانيا كانت أكثر أهمية من الكتب التى كتبت بعد عصر النهضة، على الرغم من وجود عدد من الكتاب – والذين أعدهم استثناءات عبقرية – مثل يوحنا الصليب وثيربانتيس وجونجورا وكويبيدو. تصعب المقارنة بين نص من القرون الوسطى وآخر مكتوب بعد وصول النماذج الآتية من عصر النهضة فى إيطاليا ومن العالم النيوكلاسيكى – تجد النصوص القروسطية أكثر حداثة. وقد تحدثنا عن ذلك من قبل حينما قلت: إن الأدب يمتلك ما يتجاهله التسلسل الزمنى، وها نحن الآن نشعر بحداثة نصوص مكتوبة منذ ستة قرون، ونعد مجمل الأدب الإسبانى أدبًا معاصرًا. وأنا عن نفسى أشعر أننى بحق أحد معاصرى أرثيبريستا دى هيتا وديليكادو ويوحنا الصليب الذين كان لهم تأثير كبير علىّ، فى حين لا أشعر بأننى معاصر للمؤسسة الأدبية أو للكتاب الذين يبدون لى – مع بعض الاستثناءات النادرة – وكأنهم ينتمون إلى قرن آخر لا أعرف أى قرن هو، ولكنه بالتأكيد ليس القرن الذى أعيش فيه. هذه رؤيتى. وهذا أمر مهم للغاية. ويكمن السبب فى أنه لم يكن ثمة نماذج ثابتة فى العصور الوسطى؛ حيث لم تكن هناك أكاديمية، ولا ضغوط ليخرج الإنتاج الأدبى على صورة معينة. وقد تأثرت فى الكثير من الأساليب التى انتهجتها فى رواياتى بديليكادو أو روخا أو أرثيبريستا دى هيتا. ويلفت نظرى أن الشخصيات فى كتابات دليكادو يعرفون أن الكاتب يكتب عنهم، وأتناول كمثال شخصية لوزانا وهى عاهرة إسبانية تعمل فى بيت دعارة يهودى فى روما خلال فترة حكم أسرة بورجيا؛ إذ نجدها فى إحدى لحظات الرواية تقول: نعم ها

هو الرجل الذى يكتب دومًا عنى- عم تبحث الآن؟ بل إنها تمتدح المؤلف - فتقول له: إن عينيك جميلتان أيها المؤلف .[ضحك] هذا أمر مذهل! تكتشف خلال قراءتك شيئًا جديدًا فى كل صفحة، ويظل لديك الانطباع طوال الوقت بوجود كاميرا تصوير؛ لأنك تستطيع متابعة تحركات الشخصيات من الحوار الدائر بينهم، دون توفر الوصف، بل بمجرد منح انتباهك لتلك.. لا أدرى.. تلك النظرة المحدقة؟ تجد نفسك تتحرك من المشهد العام إلى لقطة متوسطة البعد ثم لقطة مقربة. شئ مذهل. حقيقة لا أجد ما يضارع ذلك سوى فى ثيربانتيس أو جونجورا أو كويبيدو أو يوحنا الصليب فى هذا القرن المسمى بالقرن الذهبى.

١٩٩٢

٨

مقالة قصيرة عن كيبلنج... وسارتر

كيبلنج الذى يحمله الرجل الأبيض

كان كيبلنج بلا شك أكثر الكتاب موهبة ضمن هؤلاء الذين أنتجهم الحكم البريطانى فى الهند. لا يقلل من منزلته تلك أنه ظل لفترة طويلة الكاتب الوحيد الذى أنتجه ذلك الحكم. فأعماله ذائعة الصيت فى البلدان التى تتحدث الإنجليزية ولا يزال حتى الآن يثير الجدل والانقسامات بين النقاد. وتأتى نوبة الجنون التى نشهدها هذه الأيام حياله لمجرد انقضاء حقوق النشر لكتبه، مما نتج عنه تسارع فى إصدار مختارات ودراسات عنه تنافس بعضها البعض.

ولو كنت فى حاجة إلى تقييم أدبى مكتوب بعناية فإن دار نشر فيبر تقدم لك ما كتبه كريج رين. أما لو كنت تبحث عن دراما مبتذلة، أكثر واقعية ولا تأت بجديد فعليك كما هو الحال دائمًا، بكتابات السيد تشارلز آلن. أضف إلى ذلك صدور الطبعة الجديدة لقصة حياة كيبلنج التى كتبها كارينجتون، التى تقدم عرضًا قيمًا ولكن غير نقدى لحياته - تلك المذكرات الرشيقة التى خطها قلم ذلك الرجل العظيم بنفسه بأسلوب يشوبه بعض الكبت، الذى يبدو لنا كأنه لا ينقصه شىء سوى جرعة من النقد الإنجليزى المحبب.

ولكن ما من داعٍ لأن ينتابك اليأس. فقد ظهرت فى الأسواق للتو ثمانى طبعات لأعمال الرجل من دار نشر كتب بنجوين الكلاسيكية، بمقدمات لبى إن فوربانك، ودانيل

كارلن، وساندرا كيمب، وهرميون لى، وديفيد تروتر، وبول درايفر، وسارة وينتل. هنا ينتاب المرء الحنين لمطالعة تقييم ستيف بل لكيبلنج. يمتاز كيبلنج عمن خلفوه بمعرفته الحميمة بالبلاد. فقد كان متأثرًا تأثرًا شديدًا بذكرياته الأولى التى كانت فى الهند وليس إنجلترا. وقد كان أبوه لوكوود شديد الذكاء والثقافة، يهيم بالثراء الثقافى والمعمارى لشبه القارة.

وقد كان لكيبلنج الأب دور كبير فى تأسيس أحد أهم المتاحف فى البلاد، فى مجمع متاجر لاهور، وعلى مقربة من مدفع زامزاور، أو "مدفع كيم" كما جاءت تسميتها فيما بعد. وقد أثار هذا العالم شغف رديارد كيبلنج منذ البداية. ومن الواضح أن العذاب الذى كان قد قاساه فى إنجلترا فى فترات حياته المبكرة، ما بين العيش مع أبوين تبنياه أو فى المدارس الحكومية قد دعم ذلك الشعور لديه.

وجد كيبلنج مهربًا من جو إنجلترا المنغلق الخانق خلال العصر الفكتورى فى الفضاء المفتوح فى الهند. وقد أخذ مع تقدم عمره فى استبيان التأثير الذى خلفته القواعد السياسية والعرقية الصارمة التى يمليها الاستعمار على الهند الإنجليزية البيضاء.

ولم تجئ آراء كيبلنج الموالية للاستعمار متخفية عن الأنظار. فقد كان من كبار المعجبين بسيسيل رودز ورسالة جلب التحضر التى يحملها الاستعمار الأوروبى. لم يكتب كيبلنج قصيدة "العبء الذى يحمله الرجل الأبيض"(The White Man's Burden) بغرض إحداث نقلة فكرية فى الهند، ولكن بهدف الاحتفاء بالاحتلال الأمريكى لكوبا والفلبين. ويضيف كريج رين إلى ما سبق أفكار كيبلنج المعادية للسامية ولأيرلندا.

وعلى الرغم من كل ما تقدم فقد كان كيبلنج مراقبًا لماحًا لا تخفى عليه الجوانب الخسيسة التى تميز شخصيات أبناء بلده المقيمين فى الهند، وقد سخر منهم بشدة فى كتابه حكايات صريحة .(Plain Tales) وقد أثبت التاريخ أن الأدباء الذين سبقوا كيبلنج وأصبحوا فى عداد المنسيين الآن قد فشلوا فشلاً ذريعًا بسبب منهجهم النفعى: واقعية

استعمارية كانت ترى هدفها الرئيس متمثلاً فى تعديد مزايا الاستعمار الاقتصادى لأهلهم فى إنجلترا. وقد خالف كيبلنج هذا التراث بشكل قاطع، متمرداً بكل جوارحه على ذلك النوع من الذل والخنوع. فقد كانت موهبته أكبر وأقوى.

ولكنه على الرغم من ذلك لم يتمكن من تخطى الحوائط المنيعة التى شيدتها الهند الإنجليزية البيضاء، ولهذا أجدنى أختلف مع رين فى مقارنة كيبلنج بتشيخوف، أو المقارنات التى عقدها آخرون بينه وبين بالزاك ومارك توين. فقد جاء إنتاج كيبلنج الأدبى متذبذب الجودة حتى مع وضوح تأثير بلزاك الكبير فى بعض أعماله.

أما فيما يتعلق بالهند الإنجليزية البيضاء أو نصف البيضاء فقد تيسر لكيبلنج عبور الحدود الطبقية هناك. ويضم كتاب حكايات صريحة عدة قصص أبطالها من المجندين: مولفانى وليرويد وأوثيريز، مسجلاً وقائع حياتهم اليومية وعاداتهم واللغة التى يستخدمونها، ونراه يفعل ذلك دون الالتفات لمشاعر الأعضاء الآخرين فى ناديه المحلى الذين كانوا يعيشون فى نعيم الجهل بالظروف التى تعيشها الطبقات الأدنى فى الهند الإنجليزية البيضاء أو عن ظروف فترات خدمتهم. لم يكن ثمة منازع لكيبلنج فى الهند البريطانية فى قدرته على تصوير آمالهم ومخاوفهم مستخدماً لغتهم سواء قبل أو بعد أن ذاع صيته ككاتب.

لم تكن تلك الميزة وحدها قادرة على التغطية على مناطق ضعف كيبلنج، التى كانت ناتجة عن محددات فرضها هو على نفسه. يمكننا ملاحظة ذلك بوضوح فى روايته الأكثر إثارة للجدل كيم. (Kim) نجد فى الرواية كل ما نريد. فهناك الصبغة المحلية والوصف المذهل لمدينة لاهور ومنطقة البازارات، بالإضافة لقدرة الكاتب الفريدة على الإمساك بالاختلافات الدقيقة بين اللهجات الهندية ونقلها للقارئ الإنجليزى، كما يطالعنا تيار النميمة والمؤامرات المكبوت والعلاقة المبهجة التى تجمع كيم ولاما.

ولكن بطل الكتاب الحقيقى هو روح السيد - تلك الدماء البيضاء التى تسرى فى عروق كيم المنتمى إلى عرق مختلط. أضف إلى ذلك دفاعه المطلق عن الإمبراطورية

(من أضعف الفقرات فى الكتاب، كما أنها تأتى غير ضرورية)، فتخرج لك فى النهاية رواية معيبة.

نجد كيبلنج كذلك فى عدد من قصصه القصيرة يحلل المخاوف التى تدور فى خيالات العديد من الإنجليز من أبناء بلده ورغباتهم المكبوتة، والناتجة فى الغالب عن التعليم فى المدارس الحكومية؛ حيث نراه يهاجم التصنع الفكرى لدى الطبقات الوسطى البنغالية هجوماً عنيفاً وإن كان غير ذى تأثير - إذ كان غرورهم يتزايد يوماً عن يوم. كما نجده يضعهم فى موضع المقارنة مع الفلاح البنجابى الريفى الذى "تتوهج ملامحه المنحوتة بوضوح بوهج برونزى خمرى"، أو ذلك الذى "يخط الشيب لحيته وشاربه وينسابا من صخور جبهته ووجنتيه مثل انسياب الألوان فى لوحات مايكل أنجيلو...". يأتى ذلك مع تعظيم "الفضائل الرجولية" عند رجال قبائل البانثان، الذين كان كيبلنج وغيره من الموظفين العموميين يكنّون إعجاباً شديداً لطبيعتهم العنيفة.

والجدير بالذكر أن الهنود الذين ورثوا الإرث البريطانى قد تقبلوا تلك الأساطير، مما ساعد على خلق مناخ أدى إلى الانفصال الذى شهدته باكستان فى عام ١٩٧١، والذى جاء بمنزلة انفصال بين البنجاب والبنغاليين، وهو ما وصفه رشدى وصفاً بديعاً فى رواية أطفال منتصف الليل.

ومن الغريب ألا نجد حتى الآن ناشراً واحداً ينشر طبعة جديدة من شعر كيبلنج، الذى كان بعضه جيداً جداً، وغريباً جداً فى بعض الأحيان. وقد كان لشعر كيبلنج معجبون فى شتى البقاع، من بينهم بيرتولد برخت ، الذى نراه يعيد إنتاج بعض أشعار كيبلنج لخدمة أغراضه الخاصة. ولكن يبقى هذا المقطع من قصيدة "سوق كاليدونيا" لينم عن أن بريخت كان لديه بعض التحفظات على الموقف العام الذى كان يتبناه ذلك الرجل الإنجليزى:

"إن الشرق شرق والغرب غرب!"

هكذا صاح مغنيهم المرتزق

ولكننى لمحت عن ذى قرب

جسوراً تعبر ذاك الخندق

رأيت مَدافعًا ضخمة تتدحرج نحو الشرق

وجنوداً مبتهجين ينظفون المدافع

فى حين رأيت الشاى عائداً من الشرق للغرب

مغموساً فى الدم،

والذهب يعود مصاباً فى الحرب.

ورأيت الأرملة فى وينزور تبتسم

سوداء ثيابها

تأخذ منهم المال وتحشره فى جيوبها

تربت سريعًا على ظهور المصابين

وترسلهم إلى سوق كاليدونيا كى يتسوقوا

ربما ذهبت الهمة عن خطاهم

ولكنهم يحاولون

يعرجون أمام الأكشاك

يشترون ساقًا خشبية مستعملة

تناسب رؤوسهم المتخشبة.

جارديان

يناير (كانون ثان) ١٩٨٧

مقالة قصيرة عن سارتر

سادت أفكار جان بول سارتر الأوساط الفكرية فى فرنسا لمدة تقارب خمسة عقود. وقد واصل سارتر الكتابة بصورة تكاد تكون غير منقطعة منذ نهايات الثلاثينيات حتى وفاته فى عام ١٩٨٠ . كتب سارتر فى الفلسفة والنقد الأدبى وكتب الرواية والمسرح والسيرة الذاتية التجريبية والمناظرات السياسية وعدداً لا يحصى من الخطابات التى كتبها لنساء أحبهن ولأصدقائه ولزعماء سياسيين. وقد كان سارتر معارضًا قويًا للحرب التى شنتها فرنسا على الجزائر ولحرب فيتنام. وقد أقام بالتشارك مع برتراند راسل محكمة لمجرمى الحرب سعت لاتهام الولايات المتحدة بارتكاب جرائم حرب فى فيتنام، كما ظل وعى سارتر السياسى يقظًا حتى النهاية. وعندما وضعتنى الحكومة الباكستانية لفترة قيد المكوث الجبرى فى البلاد فى عام ١٩٧٦ (حيث مُنعت من مغادرة البلاد، وانتزعت ثلاث مرات من داخل الطائرة)، كانت برقية الشجب التى أرسل بها سارتر ودبوفوار هى التى أثرت فيّ أكثر تأثير.

أكتب كل هذا مدفوعًا بقرب صدور كتاب جديد مذهل. كتب سارتر يومياته أثناء فترة تجنيده حين استدعى للاشتراك فى الحرب فى مقاطعة ألساس الفرنسية إبان الحرب الزائفة التى سبقت الحرب العالمية الثانية مباشرة (بين عامى ١٩٣٩-١٩٤٠). وتغطى تلك المذكرات فترة تسعة أشهر وتأتى فى سبع عشرة كراسة، فقدت منها اثنتا عشرة، أو هكذا أبلغنا وكلاء سارتر الأدبيين. أما الخمس كراسات الباقية فتمنحنا فكرة واضحة عن مدى الخسارة التى حلت. تفاجئ يوميات الحرب (War Diaries) التى كتبها سارتر القارئ بروعتها، حتى لو كان ذلك القارئ مثلى من أشد المعجبين بسارتر. فهى خفيفة الظل، سائغة، تجريبية وصفية، مما يجعلنى أشعر أنها ستوضع فى مصاف أعماله الخالدة..

كتب سارتر تلك اليوميات وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره، وتكاد اليوميات تنم عما سيأتى فى كل أعماله اللاحقة. تأتى تعليقاته على كويتلر وجيد ومارلو وكأنها تدريب ممتع فى فهم الذات. كما يأتى وصفه لتجربة قراءته لرواية التربية العاطفية

(Sentimental Education) لفلوبير أثناء تأدية عمله فى إدارة المكالمات الهاتفية فى وحدته العسكرية وصفًا ممتعًا فى حد ذاته، فى حين يأتى هجومه اللاذع على الكتاب مغرقًا فى الكوميدية.

يمكن تحديد خمسة أنماط من الكتابة فى هذه الكراسات: تصوير الذات، ومقالات فلسفية، وحكايات فكاهية ومفعمة بالحياة عن تجاربه فى الحياة العسكرية، وتأملات أدبية، وكتابات نثرية وصفية تتناول بغنائية قوية منطقة ألساس التى كان مجندًا فيها فى ذلك الوقت، بطرقها وسمواتها وبيوت إيواء الجنود وقائمات المشروبات فى مقاهيها. وتأتى المحصلة النهائية فى صورة نص أدبى مذهل يمثل تجميعًا لمواهب الكاتب المتنوعة.

تأتى الفقرة التالية من إحدى الكراسات لتعكس التنوع الكبير فى هذا الكتاب، حيث يعارض سارتر فكرة فرويد القائلة: إن الطفل يعتبر كل أشكال الفتحات رمزًا لفتحة الشرج. يرى سارتر أن الفتحات تشكل "موضعًا للشبق لمجرد كونها فتحة". ثم يشرح سارتر وجهة نظره قائلاً: "من المؤكد أن فتحة الشرج أكثر الفتحات تفعمًا بالحياة، فتحة غنائية، تتغضن مثل الجبهة، تتقلص مثلما يتقلص جسد حيوان جريح، ثم تنفتح أخيرًا - مهزومة ولكن قادرة على البوح بأسرارها...". لا أختلف مع أتباع فكر فرويد الذين ينسجون أغشية بكارة لفتحة الشرج، ولكن تبقى فكرة أن الاحتفاء بالفتحات جاء سابقًا لفكرة فرويد عن فتحة الشرج، وأن الفكرة تنسحب على الكثير من الأشياء الأخرى... وأعتقد أن المتعة التى يجدها الطفل فى إعطاء حقنة شرجية (تلك العملية التى يمارسها كثير من الأطفال من أجل المتعة: التى حدثت لى فى تجربة شخصية حيث أتذكر وأنا فى طفولتى المبكرة صورة جدتى فى أحد فنادق سيلزبيرج، رافعة ذراعيها إلى السماء بعدما أمسكت بى كى أعطى طفلة سويسرية فى مثل عمرى حقنة شرجية) هى فى ذاتها متعة قبل - جنسية.

كان سارتر الشخص الوحيد الذى رفض جائزة نوبل للأدب. كان مرعوبًا من أن يتحول إلى شخص مؤسسى، كما كان يضيق بادعاءات الالتزام التى يتصف بها مانحى الجائزة. كما كان سارتر يكره امتثال الطبقة الطليعية الإنجليزية ويرفض أية دعوة لإلقاء محاضرات فى الجامعات البريطانية. ولسوف يكون من الممتع مراقبة ردود فعل الكهنة الأدبيين فى لندن لهذا الكتاب الذى يصدر بعد وفاة مؤلفه، الذى أتقن كوينتين هوار ترجمته وتحريره بجهد كبير ينم عن حب ويظهر أكثر ما يظهر فى الحواشى التوضيحية.

تايم آوت

نوفمبر ١٩٨٤

٩

الأدب والواقعية الشرائية

إننا نعيش فى زمن غريب. فالرأسمالية لا تزال هى المنتصرة، على الرغم من أنها تعانى من تناقضاتها الداخلية - يعانى ٣٠ مليون شخص من البطالة فى دول منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية وحدها. باستطاعتك أن تأكل الطعام الرخيص السريع نفسه أو تشاهد المواد الرخيصة السريعة نفسها على شاشات التليفزيون. كما أصبح بوسعك أن تقرأ الروايات الرخيصة السريعة نفسها من نيويورك إلى بيكين مروراً بموسكو وفالديفوشتوك. ففى الدول التى تحولت مؤخراً إلى اقتصاد السوق فى شرق ووسط أوروبا نرى الكتاب يستهلك مثلما تؤكل شطيرة البورجر من ماكدونالدز. كما لم يعد عسر الهضم والرياح قاصرين على المعدة. فكما يروج المتنافسون فى مجال الهامبرجر لبضاعتهم المتشابهة، يشترى الناشرون الكبار فى أمريكا الشمالية وبريطانيا الكتّاب ويعرضونهم مثل الماشية. تطرح أكثر الكتب مبيعًا فى المزادات قبل أن تخطو للسوق وذلك عن طريق سلالة جديدة من الوكلاء الأدبيين. من الضرورى أن تباع تلك الكتب، وهنا يدخل التجار الماهرون فى الصورة وتبدأ عملية الدعاية.

وقد لحق الكثير من الكتاب الذين يطلقون على أنفسهم صفة ما بعد الحداثيين بروح العصر؛ حيث نراهم يقومون بجولات ترويجية لأعمالهم منقادين لما يمليه المناخ الأدبى الاستهلاكى. ولم لا؟ ألم يعلن ليوتار، أحد كهنة ما بعد الحداثة أن الرأسمالية ما هى سوى هزة الجماع؟ ألا ترى سكان مقديشيو أو لاباث يهتزون باللذة وهم يفككون العطايا القادمة لهم من باريس؟

أيصبح من المدهش بعد ذلك أن نجد العديد من الروائيين فى أمريكا الشمالية وأوروبا وفى ظل التيار السائد يشرعون فى الكتابة بلغة الإعلانات، سواء كان ذلك عن قصد أو عن غير قصد؟ فالرواية الموجهة للسوق مثلها مثل الطعام الرخيص السريع وغير المستساغ - تهدف إلى الاستهلاك السريع ثم الإخراج من الجسم. أرجو ألا تخطئوا فهمى. فلا تزال الكتب الجيدة وحتى الكتب العظيمة تكتب، كما أن بعضها، صدقوا أولا تصدقوا، يقرأ. ولكن يكتب هذه الكتب فى معظم الأحوال إما كتّاب يعيشون فى بلاد على الهامش أو أنهم أنفسهم مهمشون من قبل ثقافة الغرب الزهوة المسيطرة.

وهكذا يجد المرء نفسه فى معظم الأحيان يقرأ كتبًا قديمة إن هو أراد الإحاطة بالتراث النقدى. ولن تجدنا نتفق فى الكتب الموجودة على رفوف مكتباتنا، ولكن تجدنا جميعًا، ونحن مشرفون على نهاية القرن، نرجع إلى تلك الكتب مرات ومرات. ماذا نجد فيها عندئذ؟ قد نكون مرتبطين بالزمن الذى نعيش فيه بطرق مختلفة. كما أننا قد ننظر لأنفسنا كحداثيين أو ما بعد حداثيين أو أى شىء آخر. ولكن يظل المرء يكتشف أوجه الشبه بين الرواية القديمة المكتوبة منذ قرن أو أكثر والعصر الذى نعيش فيه. "التطهير العرقى" فى البوسنة، إحياء معاداة السامية فى ألمانيا وروسيا، حرب الخليج... تلك الأصوات الصاخبة المزعجة التى تنتهك آذاننا. أليست هذه أصداء للحروب الصليبية أو لما حدث فى إسبانيا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر؟ قد يرغب ما بعد الحداثيين فى نسيان التاريخ، أو نبذه كلية بصفته مجموعة من الوقائع العشوائية. ولكن التاريخ يرفض السكوت. فلنقرأ مثلاً روايات جوزيف روت التى كتبها فى الثلاثينيات ونرى كيف يصف الكاتب تفكك الإمبراطورية النمساوية - المجرية. يتناثر الصرب والكروات من صفحات رواياته وقت الانهيار. القصة ويالأسف مألوفة بدرجة تجعلنا لا نلحظها.

تأتى الأصداء التاريخية واضحة فى الأدب. كتب خوان جويتيسولو عن صعوبة قراءة ثربانتيس بمعزل عن إسبانيا فى الزمن الذى عاش فيه الكاتب. وتعج تلك الرواية العظيمة بإشارات إلى ما حدث وما كان آخذًا فى الحدوث، بينما كان المؤلف يكتب

نصه. فلو أخذنا كمثال حكاية ريكوته المويسكى صاحب الحانوت الآتى من قرية سانشو الذى طرد من إسبانيا بمرسوم ملكى؛ لأنه كان مسلمًا. يعود ريكوته لبلده متخفيًا مدفوعًا بالحنين لها ويجعله ثربانتيس يبكى من أجل إسبانيا، مدركًا بعد فوات الأوان كنه حب الوطن. يمكن بسهولة أن نرى ريكوته كرجل بوسنى أو كردى أو فلسطينى أو صومالى أو سودانى. أما الآن فسوف أقترح مراجعة كاتب من جنسية أخرى ومن قرن تالى وهو الفرنسى بالزاك. يقول فوتران، أحد أكثر شخصيات بلزاك شيطنة فى رواية الأوهام المفقودة (Lost Illusions) التى أعدها تمثل أرفع مراحل كتابة الكوميديا الإنسانية عنده:

> **أتريد أن تعرف ما الذى يراه رجل ذو نزعة سياسية محفوراً أعلى المدخل المؤدى لقرنكم التاسع عشر هذا؟ لقد اخترع الفرنسيون الملكية الشعبية فى عام ١٧٩٣ وانتهى بها الأمر إلى إمبراطورية دكتاتورية... كان نابوليون ثوريًا فى عام ١٩٧٣، وفى عام ١٨٠٤ وضع على رأسه التاج الحديدى، وبدءًا من عام ١٨٠٦ أخذ المدافعون الشرسون عن مبدأ "المساواة أو الموت" يرضخون لعملية تكوين طبقة جديدة من النبلاء، التى سوف يمنحها لويس الثامن عشر صبغة شرعية. أما الطبقة الأرستقراطية المهاجرة والتى ترعى تلك الطبقة فى الوقت الحالى فى فوبورج سان جيرمان فقد أتت بما هو أسوأ... وهكذا، فقد بلغ الجميع فى فرنسا، سواء فى السياسة أو فى الأخلاق، الهدف الذى فضح زيف بداياتهم: فقد فضحت آراؤهم سلوكهم أو فضح سلوكهم آراءهم. كما ذهب المنطق أدراج الرياح سواء بين من هم فى السلطة أو الأشخاص العاديين. وهكذا لم تعد هناك أخلاقيات. وها هو النجاح يصبح اليوم الدافع المحرك لكل الأفعال التى يقوم بها الناس من أى نوع.**

يخبرنا بلزاك أن فى عالمه، ذلك العالم القلق الذى يعكس الثورة وعودة الملكية، لم يكن الهدف من السلطة يتحدد تبعًا لأية مبادئ. أصبحت السلطة تقصد لذاتها وتهدف لخدمة ذاتها. وأنت لو كنت ترى أن ذلك خطأ فإنك بالتأكيد جزءًا من المشكلة. كم يتشابه هذا الواقع مع عالمنا المعاصر. فلو أنك غيرت بعض الجمل والتواريخ لحصلت على وصف لطبقة الموظفين إبان حكم ستالين الذين أضحوا فيما بعد مليونيرات فى بولندا وأوكرانيا وروسيا. أما ذلك الإدمان للنجاح، الذى يقاس غالبًا برصيد المرء فى المصرف، فلم يعد حكرًا على الاتحاد السوفيتى السابق أو أوروبا الشرقية. فقد حدثت واقعة خيالية منذ عدة سنوات فقط فى إسبانيا؛ إذ نجد ملكًا من البوربون يحذر حكومة اشتراكية من ارتفاع نسبة الفساد. وحتى ونحن نتحدث الآن، نجد زعيم الاشتراكيين الإيطاليين، بتينو كراكسى، متهمًا بوقائع فساد كبيرة، بينما استقال وزير العدل الاشتراكى بالحكومة نفسها؛ بسبب تورطه فى وقائع فساد الطبقة السياسية الإيطالية.

ذلك عالمنا، ولكنه فى الوقت ذاته عالم بلزاك. وقد يؤدى بنا هذا العالم إلى تبنى نظرة متشائمة ساخرة، كما يمكن أن يودى بنا إلى القول: إن كل المجتمعات ما هى إلا بؤر للسلطة. ولكن تلك نظرة خاطئة حتى ولو كانت مفهومة ومبررة؛ إذ لم تتوقف بعد عملية إنتاج الأشخاص (الديموجرافيا)، ولا عملية إنتاج السلع (الاقتصاد)، ولا حتى عملية إنتاج المعنى (النظم الثقافية). كيف لنا أن نوقف هؤلاء؟ لا يمكن أن يكون المجتمع مجرد انعكاس لنسق من أنساق السلطة، ولكنه محصلة لأجزاء كثيرة، حتى ولو كانت بعضها خفية. على القاص الجيد أن يكون له مئات الأعين والآذان، تمكنه من التجسس وإصاخة السمع باستمرار. ولا تأتى النتيجة دائمًا فى صورة سردية متواصلة، ولكن فى صورة سردية تضطر القارئ إلى التفكير وأحيانًا لقراءة كلمات الكاتب بصوت عالٍ حتى يساعده إيقاع الكلمات وانسيابها على فهم المعنى الحقيقى.

منذ عدة سنوات قامت إحدى دور النشر المرموقة فى لندن بنشر مدن الملح ، وهى سلسلة من خمسة مجلدات كتبها الكاتب عبد الرحمن منيف. يسعى منيف إلى تصوير

التغيرات التى حدثت فى شرق المنطقة العربية خلال هذا القرن وحولتها من أرض بدوية عتيقة إلى بلدان خليجية حديثة. لم تلفت الرواية الانتباه فى المشهد الأدبى فى لندن. بالطبع. فقد كان النقاد مهتمون بحكايات تافهة وميلودرامية عن حياة الطبقة المتوسطة فى نيويورك. وقتها استحوذ كتاب سطحى ولكن ذكى يحكى عن رجل يدفئ زجاجة اللبن لأحد الأطفال على انتباه جمهور القراء. وقد يأتى الموضوع الذى يشغل الجميع فى الموسم القادم فى صورة حادث قتل مهول فى حرم إحدى الجامعات؛ حيث تتشكل وجهة نظر الكاتب من خلال الفرد غير العابئ بالمجتمع. دعونى أقولها بوضوح: تتجاوز قيمة أعمال منيف بمراحل الأعمال المثيرة والرخيصة السريعة التى تصدر عن دور النشر فى بريطانيا وأمريكا. هل يقلق هذا الأمر المؤلف الذى حرمته العائلة المالكة فى السعودية من جنسيته؟ هو فى الواقع لا يهتم كثيراً. لماذا؟ يعيش منيف فى المنفى فى دمشق. ولكنه يشعر بالرضا لأن كتبه تقرأ على امتداد الوطن العربى، وأنها تتداول سراً فى السعودية نفسها ويعجب بها القراء. يحافظ منيف على علاقة قوية مع قرائه، وهو أمر يهم الكاتب أكثر بكثير من الأوسمة القادمة من مدن الغرب.

لماذا نكتب؟ ولمن نكتب؟ سوف يجيب كل منا عن هذه الأسئلة بشكل مختلف، وبالتركيز على أشياء مختلفة. تأتى الإجابة سهلة لهؤلاء الذين يرفضون عزل أنفسهم عن التاريخ والسياسة العالمية، وأنا منهم. لا ينبغى أن يفر الكتاب من الواقع. وعلينا أن نقاوم بقبضاتنا الأدبية فى وجه مواطن الرعب القديمة والجديدة.

تأتى العملية التاريخية متقطعة؛ ثورات، وحروب، وثورات مضادة، وحظر اقتصادى، وتفكيك لحركات تحررية مقدامة. هذا هو ما يؤثر تأثيراً عميقًا على نفوس الأفراد، وهو نفسه ما ينقذ الفن من الوقوع فى دائرة التكرار الأبدى. حتى عندما تضمر ثورة ما وتتحلل متحولة إلى نقيضها، فغالبًا لا تفلح محاولات تقييد كتابها.

أنتجت الواقعية الاشتراكية أدبًا أحادى النغمة يفتقر إلى الصراع الحقيقى. وقد اتهم الكتاب الذين كسروا تلك القاعدة بأنهم "أعداء الشعب": حيث قتل بعضهم فى

المعسكرات، فى حين نجا البعض الآخر بأن تركوا الأدب كلية. وكان أحد هؤلاء الكتاب روائيًا لم ينشر عمله إلا بعد مرور خمسين عامًا. فقد كانت روايات أندرى بلاتونوف، روايات محرضة على التمرد لدرجة أن تم وضعها فى مكان خاص مغلق بإحكام فى قسم الأرشيف، ولم تعد متاحة حتى للمتخصصين. وقد كان بلاتونوف، يكتب بأسلوب تجريبى متأثر تأثرًا كبيرًا بالحداثة. وكان من بين أعماله بحر الشباب(The Sea of Youth) فى عام ١٩٣٤، ولكنها لم تنشر حتى عام ١٩٨٦ ، كما كتب الهوّة التأسيسية (The Foundation Pit) فى عام ١٩٣٠ ونشرت فى عام ١٩٨٧، كما منعت روايته شيفينجور (Chevengur)، وهى رواية نافذة السخرية، من النشر فى عام ١٩٢٩ ولم تنشر إلا فى عام ١٩٨٨ . تتناول الرسالة بلدة صغيرة يسكنها بالضبط أحد عشر بلشفيًا أسسوا معًا للشيوعية فى البلدة. ويصف الكاتب البيروقراطية المطبقة التى تمارسها آلة الدولة هناك، ويتنبأ بكارثة تحل بالثورة. كان الأمر يشبه السرطان، إذا لم تقض عليه فى الوقت المناسب فسوف يقتل الثورة. ومن العجيب أن موقف الكاتب من البلاشفة الأحد عشر يأتى متباعدًا. لا يوجد أعداء فى شيفينجور. هناك ضحايا التاريخ، نتاج الأمية الضاربة منذ قرون وأبناء الحكم الدكتاتورى. وقد اعتزل بلاتونوف الكتابة، وهو ما أنقذ حياته؛ حيث التحق بالعمل كحارس لبوابة فى نادى اتحاد الكتّاب بموسكو، وكان عليه خلع قبعته عند مروره بالكِتّاب الذين تبنتهم الدولة. لا يجب أن نندهش إذًا عندما نقرأ أن حريقًا قد وقع بمبنى اتحاد الكتّاب فى رواية بلجاكوف الساخرة بعنوان السيد والمارجريتا. (The Master and the Margarita)

وهناك كاتب آخر يدعى فاسيلى جروسمان ينتمى إلى حقبة تالية. ولد جروسمان فى أوكرانيا فى عام ١٩٠٥، ودرس الكيمياء ثم عمل مهندسًا للدفاع المدنى فى أحد المناجم بمنطقة دونباس. وقد انتقل فى عام ١٩٣٣ إلى موسكو وعقد صداقة مع ماكسيم جوركى. نشر جروسمان عددًا قليلاً من القصص القصيرة، لم تكن أى منها استثنائية. وقد عمل مراسلاً لجريدة الجيش الأحمر فى ستالينجراد إبان الحرب

العالمية الثانية. قتل النازيون والده جروسمان، وهو الحدث الذى جعله ينتبه إلى أصوله اليهودية. وقد أصابت نزعة ستالين العنيفة نحو معاداة السامية وتصفية اليهود من نظام الدولة فى فترة ما بعد الحرب جروسمان بالصدمة الشديدة. ثم لفظ جروسمان الفكر التقليدى وكتب إبان ذلك رائعته بعنوان: الحياة والقدر (Life and Fate) صاغها على غرار رواية الحرب والسلام لدوستويفسكى. أنهى جروسمان كتابة روايته فى عام ١٩٦٠، ثم صادرها البوليس السرى فى العام التالى. وقتها كاتب جروسمان لجنة الحزب المركزية مطالبًا استرداد المخطوط، فأخبره سوسلوف أنه من غير الممكن نشر الرواية فى الاتحاد السوفيتى قبل مائتى عام. تخشى كل الدول التى تمارس احتكار الفكر الكلمة المكتوبة. وقد توفى جروسمان فى عام ١٩٦٤ حزينًا منكسرًا.

نشرت الحياة والقدر بعد وفاة جروسمان. وقد نشرت بداية فى الغرب فى عام ١٩٨٥، ثم فى الاتحاد السوفيتى إبان حكم جورباتشوف. وتحمل الرواية رفضًا شرسًا ومؤثرًا لفاشية ستالين، كما تأتى مدينة ستالينجراد المحاصرة رمزًا للقرن العشرين. ولا يظهر المؤلف تعاطفًا حقيقيًا سوى مع الضباط والرجال القاطنين المنزل رقم ١/٦، والرجال والنساء الذين يكرهون الرقيب؛ لأنهم يتمتعون بعقول مستقلة وأرواح نقدية وثابة. هؤلاء هم أعضاء المعارضة التى قضى عليها ستالين.

يبدو كل هذا متقادمًا وأنا أتناوله الآن. فقد انهارت البنية برمتها. بلاتونوف وجروسمان. كيف يتحدثان إلينا اليوم؟ أعتقد أن التشابه واضح لدى الكثير من الكتّاب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. نجد من الصعب على كاتب مفكر أن ينفصل عن الواقع. ولكن الغرب كذلك يقدم لنا دروسًا مهمة. هناك اتجاه متنام نحو الامتثال للأعراف فى الفكر والأسلوب. هنا يسود الاهتمام بالتفاهات ويصبح الأدب فرعًا من فروع صناعة الترفيه، فنرى واقعية السوق تحل محل الواقعية الاشتراكية - يكمن الفارق بينهما فى أن واقعية السوق تمثل تقييدًا مفروضًا من الداخل. وعلينا أن نقاوم وجود واقعية السوق بالحماس نفسه الذى قاومنا به الواقعية الاشتراكية؛ إذ إن هذا

النوع من الأدب يدعو للتعامل معه كسلعة مقدسة، مكتملة فى ذاتها ولا تحيل إلى ما دونها. تدعم السلعة عالية الثمن ظهور دين بديل بينما تسود السوق السلع المتدنية منخفضة السعر. ولكن تلك هى السرعة التى تدور بها السلع التى تتسبب سريعًا فى تهاوى كل الحدود الفاصلة. فبدلاً من إدانة صلف وفساد السلطة والثروة نجد تلك السلع تنحنى أمام أباطرة وسائل الإعلام. كذلك ونجدها فى أكثر حالاتها وقاحة تحتفى بالتسوق، بينما تقلب بلزاك رأسًا على عقب وهو بين يدى أحد أجرأ المدافعين عنها من أمثال توم ولف، جاعلة منه المقابل الأدبى للنمط الجديد الذى دعا إليه جون جراى فيلسوف أكسفورد عندما كتب قائلاً: "يتطلب الدفاع المؤثر عن رأسمالية السوق مراجعة الأخلاق التقليدية التى نرى فيها إعادة صياغة للوظائف الحقيرة؛ مثل وظيفة السمسار أو الوسيط".

ينبغى أن نشن مقاومتنا لواقعية السوق على مستوى الأفكار وليس الجنس أو العرق أو الطبقة. وليس لديّ أى تعاطف مع من يبالغون فى تحرى اللياقة الأخلاقية فيصمون الأدب الغربى برمته كأدب منحاز عنصريًا وجنسيًا، إذ يجعل ذلك، منطقيًّا، أى أدب مناهض للعنصرية أو التحيز الجنسى أدبًا جيدًا. يقضى هذا النوع من التفكير النسبى إلى تقويض كل التحليلات النقدية ولهذا فلا ينبغى الإسراف فيه. تعد رواية المحبوبة (Beloved) لتونى موريسون عملاً عظيمًا، ولكن ليس لأن الكاتبة امرأة سوداء، ولكن لأنها كاتبة ممتازة كتبت قصة شديدة التأثير عن تجارب العبيد. هل كان لكاتبة بيضاء، ليس لديها ذاكرة موريسون التاريخية، أن تكتب مثل هذا الكتاب؟ لا أظن. ولكننى أعتقد فى الوقت نفسه أن كثيرًا من الكتاب السود لم يكونوا ليكتبوه أيضاً. كتب شتاينبك عن حاصدى العنب وعن فترة الكساد الاقتصادى، بينما اهتم فوكنر بالانحلال الذى أصاب مجتمع الأمريكيين الأبيض فى الجنوب والهوة التى كانت تفصل بين الفقراء والأغنياء. أما موريسون فقد استدعت تجربة الرق. يعد الكتّاب الثلاثة من عظماء الكتاب نظرًا لقدرتهم على نسج السرد ذى الطبقات المتعددة، الذى ينطوى على أشكال جديدة من الوعى الاجتماعى والذكاء السياسى، ويتجاوزها فى

الوقت ذاته. وكما أكد جالفانو ديللا فولبا بإصرار فى كتابه نقد التذوق (Critique of Taste) لا ينبغى اختصار ما هو جمالى فى علم الاجتماع، ولا وضعه مقابل العقلانية والسياسة.

يعرف من ولد منا خارج أوروبا وأمريكا الشمالية جيداً أنه ما من جدار مثل سور الصين العظيم يفصل الأدب عن السياسة ولن يكون. أذكر أن عائلتى كانت فى طفولتى تصطحبنى إلى المحافل التى يلقى فيها الشعر فى مدينة لاهور بباكستان؛ حيث كانت تنعقد جلسات قراءة الشعر فى الهواء الطلق وليس فى الصالونات الأدبية، وأمام عشرات الآلاف من الحضور. كان الكثير من الحضور أميين وكانت كلمات الشاعر تعنى الكثير لهم. ومن ناحيتهم فقد كان الشعراء يفهمون أن نقادهم الحقيقيون هم الجمهور الواقف أمامهم. كان الحاضرون يشجعون الشعراء طوال الأمسية ويمطرونهم بالأسئلة والتعليقات، حتى إذا دخلت الساعات الأولى من الصباح شرعنا فى النداء باسم الشاعر الذى أمتعنا أقصى إمتاع حتى يعود ويقرأ بعض شعره مرة أخرى. أما كتابة الرواية فترتبط بالوحدة، أكثر حتى من قراءتها. وهى فى هذا تمثل نقيض قراءة الشعر لجمهور حى. ولكننى أعترف أننى حتى الآن أكتب وفى مخيلتى صورة الجمهور الذى كنت جزءاً منه فى لاهور. تكمن مشكلة الكتاب فى الغرب اليوم أنهم ليس لديهم مقابل لهذا الجمهور القادر على أن يقاسمهم عناء عملية الإبداع بأن يؤكد لهم صدق حدسهم. بالعكس، فلو كانوا يرغبون فى الوصول إلى قرائهم، فعليهم الآن أن يحيطوا أنفسهم بدائرة كاملة من الوسطاء المهنيين - من الوكيل إلى المحرر إلى مسئول الدعاية إلى مقدم برنامج الدردشة - هؤلاء الذين يقيمون أعمالهم، غالبًا دون قراءتها، مستخدمين معايير الواقعية الشرائية.

وبعد أن ينتهى الكتّاب من تلك العملية فسرعان ما يقعون بين يدى النقاد والأكاديميين الذين يستطيعون بطرق كثيرة تجاهل ما يجدونه مقلقًا أو غريبًا. فحينما يصبح المحررون والناشرون المقابل للعلامات التجارية الشهيرة، تصبح لدى النقاد

معاييرهم المفروضة عليهم. وسوف يفيدنا التعرف على آلية العمل تلك. فقد خطا اثنان من الكتاب المعروفين خارج الطريق المرسوم لهما مؤخراً - إذ شرع بريان مور في استكشاف الفقر والمقاومة والفساد والسلطة في روايته، ما من حياة أخرى، (No Other Life) وهي رواية قصيرة تتناول أحداثاً حقيقية وقعت في هاييتي، وجوليان بارنز الذي استكشف التناقضات التي تحكم بلغاريا في مرحلة ما بعد الشيوعية في روايته القصيرة الشيهم. (The Porcupine) وقد يتوقع بعضهم أن يُحتفى بهذين الكاتبين على تناولهما قضايا مهمة على أتم وجه في استطاعتهما، ولكنهما تعرضا بدلاً من ذلك لهجوم نقدي متعال. فقد أشار أحد النقاد بأسلوب مهين إلى أن مور ليس جراهام جرين وأن بارنز ليس ميلان كونديرا. وهكذا يبدو أن على من يرغب من كتاب العالم الأول في الكتابة عن العالم الثالث أن يكون مثل جرين، أو إذا أرادوا الكتابة عن أوروبا الشرقية، فعليهم أن يكونوا مثل كونديرا، أو حتى أن يكونوا مثل برادبري. لا يبدو إذاً أن الفوضى التي أحدثها تبني اقتصاد السوق الحر في الشرق أو الأزمة التي تواجهها الحركات الثورية في الجنوب يمثلان موضوعات لائقة لكتابة الأدب؛ إذ لا يملك النقاد نماذج مريحة تجعل من الممكن وجود تلك المحاولات. ألا يرد على خواطر هؤلاء النقاد أنه قد تكون هناك مشكلات جديدة تحتاج المتابعة والنقاش؟ وأن عليهم أن يشجعوا الكتّاب على تناول تلك المشكلات بدلاً من الاكتفاء بالتكرار؟ ولكنهم لو فعلوا ذلك فسوف يقلقون السوق بتفضيلاته المتوقعة والممنوحة بدقة، كما يقلقون رسالة السوق التي تدعو إلى الامتثال للأنماط المعتادة. لا تصلح ثقافة الواقعية الشرائية للنقد الأدبي، وهو سبب آخر يجعلها غير صالحة للأدب.

نيو ليفت ريفيو

مايو - يونيو (أيار-حزيران) ١٩٩٣

١٠

خاطرة حول الصهيونية ومعاداة السامية

تعد معاداة السامية أيديولوجية عنصرية موجهة ضد اليهود، ولها جذور قديمة. ونرى المفكر الماركسى البلجيكى إبرام ليو (والذى كان ناشطًا فى المقاومة إبان الحرب العالمية الثانية قبل أن يقبض عليه الجستابو ويعدمه) فى أحد أعماله العظام قضية اليهود: تحليل ماركسى (The Jewish Question: A Marxist Interpretation) الذى صدر بعد وفاته فى فرنسا فى عام ١٩٤٦ يبتكر فئة "طبقة الناس" ليصف بها الدور الذى قام به بعض اليهود الذين نجحوا فى الحفاظ على خصائصهم اللغوية والعرقية والدينية على مر القرون دون أن يقعوا قيد الاستيعاب فى ثقافات أخرى. ولم تكن تلك الظاهرة قاصرة على اليهود؛ إذ نشهدها بالوضوح نفسه فى أقليات عرقية أخرى؛ مثل الأرمن فى الشتات، والأقباط، والتجار الصينيين فى جنوب شرق آسيا، والمسلمين فى الصين، وغيرهم. ومن أهم خصائص تلك الجماعات أنهم يصبحون مثل الوسطاء فى مجتمعات ما قبل الرأسمالية، يستاء منهم الأغنياء والفقراء على حد سواء. وقد لعبت معاداة السامية فى القرن العشرين على مخاوف وهواجس الفقراء، فى حين أشعلها من أعلى رجال الدين (فى روسيا وبولندا) والسياسيون والمثقفون (فى ألمانيا وفرنسا وكذلك إيطاليا فى فترة ما بعد ١٩٣٨)، أو المشروعات التجارية الكبرى (فى الولايات المتحدة وبريطانيا). ويفسر ذلك لنا قول أوجست بيبل: إن معاداة السامية هى "اشتراكية البلهاء". فجذور معاداة السامية اجتماعية وسياسية وأيديولوجية واقتصادية مثلها فى ذلك مثل جذور أى شكل آخر من أشكال العنصرية. وقد كانت المذابح التى

ارتكبت فى حق اليهود خلال الحرب العالمية الثانية، التى نفذتها ماكينة الاستعمار الألمانية المبنية على تشابك المصالح السياسية والعسكرية والصناعية، من أبشع الجرائم التى شهدها القرن العشرين، ولكنها لم تكن الوحيدة؛ إذ أودت المذابح التى قام بها البلجيك فى الكونغو إلى مقتل ما بين عشرة واثنى عشر مليون قتيل فى الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى. ولكن تكمن خصوصية عملية التطهير العرقى لليهود فى أنه حدث فى أوروبا (قلب الحضارة المسيحية)، وأنها نفذت بصورة مخططة من قبل الألمان والبولنديين والأوكرانيين واللتوانيين والفرنسيين والإيطاليين، كما لو كانت أمرًا طبيعيًا، فأبرزت بوضوح "وضاعة الشر" كما تقول حنا أرندت. وقد بدأت معاداة السامية بشكلها التقليدى الرائج فى التراجع فى أوروبا الغربية منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية؛ حيث بقيت فقط بين فلول الفاشية أو مؤسسات الفاشية الجديدة.

كانت الأقليات اليهودية تحيا فى تعايش فى القاهرة وبغداد ودمشق. ولم يكونوا وقتها يعانون من عملية إبادة اليهود فى أوروبا. كما كان المسلمون واليهود على مر التاريخ أقرب لبعضهم البعض من قرب أى منهما للمسيحية. حتى بعد عام ١٩٤٨، عندما تصاعد التوتر بين الفصيلين على مدى شرق المنطقة العربية، كان ذلك التوتر ناجمًا فى المقام الأول عن الاستفزازات الصهيونية – مثل تفجير المقاهى اليهودية فى بغداد– وهو ما ساعد على طرد اليهود العرب من بلادهم إلى إسرائيل.

وللصهيونية غير اليهودية المتوغلة فى الثقافة الأوروبية أصول قديمة؛ إذ ترجع نشأتها إلى الطوائف المسيحية الأصولية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، الذين فسروا العهد القديم تفسيرًا حرفيًا. وقد ضمت تلك الطوائف أشخاصًا مثل أوليفر كرومويل وجون ملتون، وفيما بعد، ولأسباب أخرى، انضم لهم روسو ولوك وباسكال. لا يوجد ما يسمى "حقوقًا تاريخية" لليهود فى فلسطين. تتجاهل تلك الأسطورة الغربية التاريخ الفعلى. وقد وصف براوخ سبينوزا فى القرن السابع عشر العهد القديم بأنه "مجموعة من القصص الخرافية"، كما أنه أنكر الأنبياء مما دفع سلطة المعبد اليهودى فى أمستردام إلى طرده من الديانة. وكانت أغلبية كبيرة من اليهود تعيش خارج فلسطين خلال الفترة الطويلة التى سبقت الغزو الرومانى لمنطقة

يهودا فى عام ٧٠ قبل الميلاد. ثم اختلط اليهود بالتدريج مع الجماعات المجاورة لهم مثل الفينيقيين والفلسطينيين الأوائل. أما فلسطينيّو العصر الحديث فهم فى المقام الأول من نسل القبائل العبرانية القديمة وهو ما أثبته علم الجينات مؤخرًا، الأمر الذى أغضب الصهاينة.

وقد أيد الرايخ الثالث فيما بعد، ولأسباب خاصة به، إقامة وطن لليهود. تطرح مقدمة قوانين نورمبرج التى كتبت يوم ١٥ من سبتمبر ١٩٣٥ طرحًا يقول:

لو أصبح لليهود دولتهم التى يشعر فيها غالبية الناس بالوطن فسوف نعتبر القضية اليهودية منتهية من اليوم، وهو ما سيفعله اليهود أنفسهم. لم يبد الصهاينة المتشددين على وجه الخصوص اعتراضات كثيرة على الفكرة الأساسية التى قامت عليها قوانين نورمبرج؛ لأنهم يعرفون أن تلك القوانين تمثل الحل الصحيح الأوحد للشعب اليهودى.

وبعد مرور عقود على ذلك نرى حاييم كوهين، القاضى السابق بالمحكمة العليا فى إسرائيل يقول:

قضت سخرية الأقدار أن ذات الطرح العنصرى المعتمد على البيولوجيا الذى صاغه النازيون وأدى إلى صياغة قوانين نورمبرج الغاضبة، يمثل أساس التعريف الرسمى لماهية اليهودية فى قلب دولة إسرائيل[٣١].

تمثل الصهيونة الحديثة أيديولوجية القومية اليهودية العلمانية، وهو أمر لا يتعلق كثيرًا باليهودية كدين. وقد أبقى الكثير من اليهود التقليديين على عداواتهم مع الصهيونية حتى يومنا هذا - مثل طائفة الحاسيديم التى انضمت يوم ٢ من أبريل (نيسان) من عام ٢٠٠٢ إلى مظاهرة فلسطينية فى واشنطن، حاملين لافتات تقول: "تسقط الصهيونة" و"يا شارون: الدم الفلسطينى ليس ماءً". أما الصهيونية فى القرن التاسع عشر فهى رد مباشر على موجة معاداة السامية البشعة التى اجتاحت النمسا.

(٣١) ترد الفقرة فى كتاب: Joseph Badi, Fundamental Laws of the State of Israel, New York Twayne Publishers, 1960, 156.

رحل أوائل المهاجرين اليهود إلى فلسطين فى عام ١٨٨٢ . وكان بعضهم مهتمين فقط بتسجيل وجودهم الثقافى هناك، ثم تأسست دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ بقيادة الإمبراطورية البريطانية، ودعمتها الإمبراطورية الأمريكية التى خلفتها. كانت إسرائيل دولة استيطانية أوروبية روَّج زعماؤها الأوائل لأسطورة "أرض دون شعب لشعب دون أرض"، وهو ما كان يعنى إنكار وجود الفلسطينيين على تلك الأرض. وقد أجرت جريدة ها أرتس مقابلة جريئة مع المؤرخ الصهيونى بينى مورس (أعادت مجلة نيو ليفت ريفيو نشرها فى عدد مارس (آذار) - أبريل (نيسان) ٢٠٠٤)؛ حيث أقر المؤرخ بالحقيقة. فقد هَجَّر الجيش الصهيونى سبعمائة ألف فلسطينى من قراهم فى عام ١٩٤٨ . كما وقعت حوادث اغتصاب عديدة ضمن اعتداءات أخرى. ووصف المؤرخ تلك الوقائع بدقة معلنًا إياها "تطهيرًا عرقيًا"، وليس إبادة جماعية، ثم شرع يدافع عن التطهير العرقى إذا كان من تنفيذ حضارة أرقى. وقارن المؤرخ تلك الوقائع بقتل المستوطنين الأصليين لسكان أمريكا الأصليين فى أمريكا الشمالية، وهو الأمر الذى وجده موريس مبررًا. وهكذا فقد اتفقت معاداة السامية مع الصهيونية على أمر واحد: أن اليهود جنس متميز لا يمكن دمجه فى المجتمعات الأوروبية، لهذا فقد كان فى حاجة إلى جيتو كبير أو وطن خاص به. وتفضح الديموجرافية المعاصرة زيف هذا الادعاء؛ إذ يعيش غالبية اليهود خارج إسرائيل، خاصة فى أوروبا وأمريكا الشمالية.

وقد بدأت الحركة المناهضة للصهيونية فى صورة حملة نضال ضد المشروع الصهيونى الاستعمارى. أدَّى المفكرون المنحدرون من أصول يهودية دورًا مهمًا فى تلك الحملة، وما زالوا يؤدُّون الدور نفسه حتى يومنا هذا، حتى داخل إسرائيل نفسها. وقد جاء الجزء الأكبر من معرفتى بالصهيونية ومعاداة الصهيونية من كتابات ومحاضرات اليهود المعادين للصهيونية: أكيف أور، وموشيه ماخوفر، وحاييم هاجنبى، وإيزاك دويتشه، وياجيل جلوكشتاين (تونى كليف)، وإيرنست ماندل، وماكسيم رودنسون، وناثان فاينشتوك، وكثيرين غيرهم. ذهب هؤلاء إلى أن الصهيونية وبُنى الدولة اليهودية لا تعِد بمستقبل حقيقى للشعب اليهودى المستوطن إسرائيل. كل ما يستطيعه هؤلاء هو الحرب إلى ما لا نهاية.

وليست الحملة المضادة "لمعاداة السامية" التى تجتاح أوروبا اليوم سوى حيلة تقوم بها الحكومة الإسرائيلية لتضمن تحصين الدولة الصهيونية ضد أى نقد ينالها جراء وحشيتها المنهجية تجاه الفلسطينيين. فقد تسببت الضربات اليومية التى يقوم بها سلاح الجو الإسرائيلى فى دمار شديد أصاب المدن والقرى الفلسطينية، ونجم عنه مقتل آلاف المدنيين، وبخاصة الأطفال. كما أن المواطنين الأوروبيين يعلمون ذلك تماماً. لا يمكن ويجب ألا نأخذ النقد الموجه لإسرائيل على أنه عداء للسامية. واقع الأمر أن إسرائيل ليست بالدولة الضعيفة المعدومة الحيلة. فهى أقوى دولة فى المنطقة، وتملك أسلحة دمار شامل حقيقية لا من صنع الخيال، كما تملك دبابات وقاذفات قنابل وطيارين أكثر مما تملك الدول العربية مجتمعة. والقول: إن أية دولة عربية تستطيع اليوم تهديد إسرائيل قول ديماجوجى بحت. إن الاحتلال هو الذى يخلق الظروف المنتجة للانتحاريين. وقد بدأ الأمر جلياً حتى لقلة من الصهيونيين المتشددين. وهذا ما يعلّمنا أن المنطقة لن تنعم بالسلام طالما بقيت فلسطين قيد الجور والاضطهاد.

لا تحرك المعاناة التى يكابدها الفلسطينيون يومياً ضمير أوروبا الليبرالى (كان هناك ثلاثة صبيان وسط القتلى فى آخر المواجهات فى غزة)؛ حيث يظل الضمير هناك مثقلاً (ولأسباب وجيهة) بعجزه فى السابق عن الدفاع عن اليهود ضد الفناء فى وسط أوروبا. ولكن لا ينبغى أن تستخدم الإبادة الجماعية لليهود كغطاء يبرر ارتكاب الجرائم ضد الشعب الفلسطينى. ويجب أن نسمع أصوات الأوروبيين والأمريكيين واضحة فى هذا الأمر؛ إذ يأتى الرضوخ للابتزاز الصهيونى مرادفاً لكونك شريكاً فى جرائم الحرب التى ترتكب الآن.

٢٠٠٧

الجزء الثانى

يوميات

١١

فـى طـرابـلس لأول مـرة

"كنا نحـاول على مـدى السنوات الثـلاث الماضـيـة أن نجـعلك تأتى هنا لإلقـاء محاضـرة،". كان ذلك ما قاله مضيفى بنبرة شاكية وهو يصافحنى فى المطار. وكانت "هنا" هى طرابلس، عاصمة الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية، تتألق تحت أشعة شمس فبراير (شباط). كان مضيفى موظفًا فى المركز العالمى لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر (وهو المعادل الليبى للكتاب الأحمر الصغير). قلت له: "إن المحاضرة مجرد ذريعة. فأنا فى الحقيقة هنا لأشاهد آثار المدينة الرومانية القديمة – لبدة الكبرى". وضحكنا معًا، هو لأنه اعتقد أننى أمزح، وأنا لأننى لم أكن مازحًا.

كنت أقيم فى الفندق الكبير التابع للدولة الذى أعيد بناؤه فى عام ١٩٨٢ مكان فندق جراند هوتيل الذى يعود تاريخه لحقبة الاستعمار. يبدو المبنى القديم فى الصور أجمل من المبنى عديم الروح الذى حل محله، بعاملى الاستقبال المكفهرين، والخدمة المتدنية والطعام السيئ (أسوأ إفطار فى حياتى، ولا أستثنى فى ذلك إفطار بيونج يانج فى عام ١٩٧٢ تقريبًا).

يطل الفندق على البحر، كما يبعد أمتارًا قليلة عن المناطق السياحية المشهور؛ مثل المسجد – الكنيسة – المسجد الكبير، والسوق والمتحف العثمانيين. وبالقرب من الفندق تقع الأروقة الرخامية التى يعود تاريخها لفترة الاستعمار. تجد بعضها يحمل سحر "الحقبة الجميلة" التى سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى، بينما يذكرك بعضها الآخر

بالعمارة الفاشية الفخمة فى إيطاليا، مثل محطة القطار فى ميلانو. وتقع أعلى الأروقة بنوعيها مجموعة من الشقق الجميلة تغطى حوائطها الخارجية بالزخارف الباروكية والنوافذ الخشبية. كان المستعمرون يقطنون تلك الشقق. وعندما تمشى فى الأروقة المتهالكة المكتظة بالمقاهى المقصورة على الرجال، يمكنك تلمُّس إيطاليا قبل الحرب. هذا أفضل بكثير من محاكاة عمارة دالاس التى تميز مدن الخليج.

جلست مع أحد مثقفى ليبيا المتحمسين على أحد المقاهى المطلة على البحر. كان قد عاد لتوه من كندا ويتحدث بحماس عن مشروعه لإصدار صحيفة أسبوعية. لاحظنا أن معظم الشابات بما فيهن من يسرن متأبطات أذرع أصدقائهن الرجال يرتدين الحجاب. ترتدى القليلات منهن الحجاب الساجب مثل زى الراهبات، ولكن أغلبهن يرتدين غطاء الرأس الذى يحاكى ماركة عالمية. أما ما يلفت الأنظار لهؤلاء الشابات (كما هو الحال فى القاهرة) فكان يتمثل فيما يرتدينه أدنى رؤوسهن. من المألوف أن ترى نساء محجبات يرتدين قمصانًا وسراويل جينز ضيقة. وفى مثل هذه الحالات، يأتى استعراض الشعر ليشتت انتباه الناظر. ولكن الدهشة أصابت مرافقى وصاح قائلاً: "كان الأمر مختلفًا كثيرًا عندما رحلت إلى مونتريال منذ سبعة أعوام". كانت المحجبات أقلية وكانت معظمهن يرتدين التنورة. ووقتها كان نصف رواد المقهى على الأقل من النساء".

هل مارست الدولة ضغطًا ما؟

رد قائلاً: "على العكس. فالحكومة لا تفرض نمطًا معينًا فيما يخص الزى. لا يحدث ذلك الآن كما لم يحدث أيام الملكية". ولكننى أؤكد أن القذافى متدين، وإلا فلمَ أمر بتدمير كروم العنب المحيطة بطرابلس؟ أما الدول المجاورة لليبيا - تونس والمغرب والجزائر فقد احتفظت بكرومها.

أوضح مرافقى قائلاً: "كان ذلك خطأ. لقد كانت كرومنا أفضل".

تحدثنا عن مشروعه لإصدار مجلة ثقافية. كان واثقًا أن التغيير قادم فى ليبيا. كان البوليس السياسى قد بدأ فى التوارى وتوقف عن مضايقة المواطنين، فى حين بقى

عدة مئات من المسجونين السياسيين، فى بنغازى بالأساس، التى تعد معقلاً من معاقل السلفية التى اندحرت هناك بعد التمرد المسلح الذى وقع منذ خمسة عشر عاماً. وكانت بنغازى قد شهدت فى الشهر السابق هجوماً شنه بضع مئات من الإسلاميين على القنصلية الإيطالية بعدما شوهد أحد أعضاء حزب رابطة الشمَّال فى حكومة برلسكونى مرتدياً تى شيرت مرسوماً عليه أحد رسومات الكارتون الدنماركية. وقد أقيل الوزير فى اليوم التالى واعتذر برلسكونى.

قابلت فى اليوم التالى صحفياً مستقلاً فى أواخر الخمسينيات يدخن بشراهة. وقد كان فى الواقع مخلوقاً ملتصقاً بالمقهى لا يفعل الكثير أثناء النهار سوى التدخين وشرب القهوة التركية. تلك شخصية يعرفها جيداً قراء ثلاثية نجيب محفوظ. كان هو الآخر متحيراً أمام النمو السريع لصناعة الحجاب. كانت زوجته قد ارتدت الحجاب منذ خمس سنوات. ولأنها كانت حاضرة معنا فقد سألتها عن السبب، فابتسمت وهزت كتفيها. قلت مفسراً: إننى شغوف بمعرفة ما إذا كان الأمر عبارة عن صيحة موضة عالمية عولمية أم أنه انعكاس لتنامى النزعة الدينية. ردت قائلة: "الاثنان، وأضف إلى ذلك شيوع القنوات الفضائية التليفزيونية. يمكننا الآن أن نحصل على أى شىء، الأفلام الإباحية والدعاة الإسلاميين فى آن واحد. وفى حالتى فإن الحجاب يمثل ردى على الاثنين".

أضاف الصحفى بعد أن تركتنا زوجته: "أرى الأمر انعكاساً لتنامى النزعة الدينية لدى الرجال وليس النساء، فالكثير من النساء يفعلن ذلك لإرضاء الرجال ويعتقدن أن ذلك يدعم فرصهن فى الزواج". ثم حكى لى أن امرأة مغربية قد وجهت إليه بعض الإهانات فى مطعم أحد الفنادق منذ عدة سنوات. كانت ترتدى الحجاب، وقد أصابته الصدمة عندما أدرك أنها غانية. قالت له بعدها: "لو خرجنا وركبنا سيارتك فلن يشك أحد لأننى أرتدى الحجاب. قد يعتقدون أننى أختك أو ابنة عمك أو حتى زوجتك. أنا أرتديه لأسهل الأمور عليكم يا معشر الرجال".

كان العاملون فى قاعتى الإنترنت فى الفندق من الشباب الذكور، يرتدون الجينز ويحيون الزبائن بعفوية بكلمة "أهلاً". وجدت أكثر من عشر رسائل من مختلف وسائل الإعلام فى صندوق الوارد تنتظر منى التعليق أو تطلب مقابلات صحفية حول موضوع الرسوم الكارتونية الدنماركية. لم يكن أحد فى ليبيا قد ذكر الرسوم حتى الآن. أتصفح الرسوم: معظمها ليس مضحكًا. كما وجدت الرسمة التى تصور محمداً إرهبيًا يرتدى عمامة مستفزة وتنم عن نمطية ساذجة. رددت على سؤال صحيفة دوجن نيتير الليبرالية اليومية، وتجاهلت معظم الرسائل الأخرى.

كان الإمام الدنماركى الذى صنع تلك "الغضبة" قد احتاج خمسة أشهر من السفر والتعبئة المكثفين فى العالم الإسلامى. وقد قام حوالى خمسمائة شخص فى أفغانستان المحتلة بمظاهرة. هل كانوا يفكرون فى الرسوم أم فى الدمار والخراب المحيطين بهم فجعلوا من الرسوم ذريعة لينظموا مسيرة أمام إحدى القواعد العسكرية الأمريكية جراء شعورهم بقلة حيلتهم؟ هناك فتح جنود المشاة النار على المتظاهرين وقُتل صبيان. أما فى لاهور فقد أشرفت الجماعة الإسلامية (التى يمثلها فى لندن السير إقبال ساكرين) على أعمال العنف؛ إذ كانوا يهدفون إلى استعادة زمام المبادرة السياسية عن طريق دفع بعض الشباب المدججين بالعصى لمهاجمة أحد البنوك. ربما كانوا يحتاجون بعض المال. أما أحد رجال الدين الذى لا يحتاجون قطعًا للمال فيعد بسيارة جديدة كجائزة لمن يقتل رسام الكاريكاتير لم يحدد الرجل نوع السيارة بالضبط.

يختلف ذلك كثيراً عن ضبط النفس الذى يظهره الإخوان المسلمون فى العالم العربى وأوروبا الغربية؛ حيث أبدى أعضاء التنظيم اعتراضاتهم ولكن بطريقة معتدلة جديدة. هؤلاء يسعون بجد للحصول على السلطة ويريدون أن تصدق الولايات المتحدة أنهم يشبهون الديمقراطيين المسيحيين. يمكن التأكد من ذلك لو نظرنا إلى تركيا التى يحكمها الآن حزب إسلامى موالٍ للاتحاد الأوروبى والناتو.

وفى الليلة نفسها شاهدت على قناة الجزيرة الأخ نصرالله، الزعيم الكاريزماتى لحزب الله فى لبنان، يدلى بتصريح هادئ فى مؤتمر صحفى قائلاً: "لو كان المؤمنون قد

نفذوا أمر آية الله الخوميني بقتل المرتد رشدى، لم يكن محرر الصحيفة الدنماركية ليجرؤ على نشر تلك الرسوم." إن البساطة فى التعبير هى ما يثير الرعب هنا. فالاعتراضات الدينية على الرسوم تأتى فى المقام الأول؛ لأنها تقدم تصويراً لنبى الإسلام، وثانيًا لأن ذلك التصوير يأتى فى شكل كاريكاتير، وهو شكل من أشكال التمثيل البصرى المؤلم لكافة المؤمنين. لا يوجد فى القرآن ذاته ما ينهى عن تصوير الرسول أو أى أحد آخر. لا شيء بالمرة. هناك نواه تتقاطع مع الفكر اليهودى تنهى عن تمثيل الآلهة فى صور، ولكن لأن ذلك مرتبط بعبادة الأصنام التى تمثل آلهة وإلهات. وتأتى الشريعة الإسلامية، التى تأسس الجزء الأكبر منها بعد موت محمد، متناقضة فى هذا الشأن. فبعد ما غزا الدين الجديد إمبراطوريات عتيدة واجهته مشكلات عملية. من ستوضع صورته على العملات المعدنية بدلاً من الحكام الفارسيين والبيزنطيين؟ هناك عملات عليها صورة للنبى تعود إلى القرن الثامن. وحتى فى القرون الأحدث، لم يكن محرمًا تصوير النبى فى الثقافتين التركية والفارسية.

والآن بينما أكتب هذه اليوميات بعد عودتى من لندن تقبع أمامى نسخة مدهشة من رسومات الميراج – نامة وهو كتاب يرجع إلى العصور الوسطى المبكرة يروى قصة الإسراء والمعراج التى صعد فيها النبى إلى السماء من عند قبة الصخرة ليرى مشاهد العقاب وهو يمر عبر الجحيم. ويذهب بعض الباحثين الأوروبيين أن دانتى قد يكون تأثر بترجمة لاتينية لهذا الكتاب. وقد قام مالك باكشى الحيرانى (حيران تتبع أفغانستان فى الوقت الحاضر) بعمل الرسومات المصاحبة للنص المكتوب باللغة الأويجورية. ويبلغ عدد الرسومات ٦١ لوحة تنم جميعها عن حب عظيم للنبى. نجد النبى مصوراً وملامحه تقترب من الملامح فى وسط آسيا، كما يرى وهو يطير إلى السماء على جواد سحرى له رأس امرأة. كما نجد رسومات للقائه مع جبريل وآدم، وتصويراً للحوريات على أبواب الجنة، بينما يعاقب شاربى الخمر فى الجحيم.

كان محمد يصر على القول: إنه محض رسول، محض إنسان، وليس إنسانًا مقدسًا. أما السبب الذى حدا بالشريعة الإسلامية إلى رفض تصويره فى مراحلها التالية فيأتى متمثلاً فى الخوف من أن يتحول الناس إلى عبادة صورته (مثل صورة

يسوع ومريم)، بينما العبادة لله وحده. ولكننا فى الواقع نجد نبى الإسلام يعبد بطريقة تشبه التأليه حتى فى غياب الصور المرسومة التى تمثله. وإن لم يكن الأمر كذلك لصار من الصعب فهم ردود فعل المسلمين المتشددين تجاه توجيه أية إهانة له. كما نجد رسومات تصور زوج ابنة محمد، الخليفة على بن أبى طالب، الذى أثر فى ظهور المنهج الشيعى بعد وفاته، وابنيه الحسن والحسين، فى العديد من الأعمال الفنية الدينية فى إيران، كما يقدس الناس هناك هذه الصور الفنية.

أما فيما يتعلق بما يسمى "الآلام" الدينية، فتلك تجربة لا يشارك فيها غير المؤمنين (مثلى) لحسن الحظ، وهى مقصورة على الكهان فى الأديان المختلفة، ينقلونها لأتباعهم، أو على السياسيين أمثال بوش وبلير وأحمدى نجاد وبالطبع البابا وآية الله الكبير، ممن يجمعهم اتصال مباشر مع الإله، بينما يبقى العديد من المؤمنين، ربما غالبيتهم، لا يستشعرون الإهانة جراء ما فعلته الجريدة الدنماركية اليمينية.

اصطحبنى مرافقيّ فى اليوم التالى إلى مدينة لبدة الكبرى التى كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية فى أفريقيا. كان الطريق يمر بمحاذاة الساحل البكر، مما جعل الرسومات الشيطانية تختفى من ذاكرتى. وبعد أن تنعطف بنا السيارة عند إحد الملفات، تلوح لنا فجأة أعمدة مدينة لبدة مع خلفية البحر المتوسط الفيروزية. أتعجب من حجم المدينة وامتدادها. تأسست المدينة مثل المدن الأخرى الواقعة على الشاطئ هنا فى حوالى عام ١١٠٠ قبل الميلاد على أيدى التجار الفينيقيين. ثم دالت لقرطاجة فيما بعد ليضمها تيبيريوس للإمبراطورية الرومانية بعد هزيمة قرطاجة فى الحرب الثالثة مع مملكة البونيقيين فى عام ١٤٦ قبل الميلاد. وقد أنجبت المدينة الإمبراطور سيبتيموس سيفيروس أحد أباطرة روما؛ حيث لا يزال القوس الكبير الذى يخلده قائمًا. وقد وقعت لبدة فى أيدى قبائل الوندال فى عام ٤٣٩؛ حيث هدموا أسوارها لكى يمنعوا أى هجوم رومانى. ومع قدوم العرب فى عام ٦٥٠ كانت المدينة شبه خالية ولكن أيدى المخربين لم تصل إلى أحجارها؛ حيث كانت المدينة برمتها مدفونة تحت

الرمال حتى اكتشفها أثريون إيطاليون فى عام ١٩١٢ . مكثت لمدة ثلاث ساعات فى المدينة شبه وحيد إلا من بعض العائلات الليبية اللذين جاءوا مصطحبين الوجبات، وبعض السائحين الإيطاليين.

يضم متحف طرابلس العديد من القطع الفنية المستخرجة من لبدة وصبراتة (وهى مدينة إغريقية قديمة)، كما يضم المتحف مجموعة رائعة من التماثيل العتيقة التى لا تزال سليمة ومكتملة. ولكن لفتت انتباهى قطعة أخرى فى المتحف؛ حيث رأيتها محاطة بصندوق من الزجاج وحولها التحف الأثرية - كانت سيارة فولكس فاجن زرقاء تعود للستينيات. تلك هى السيارة التى كان يركبها القذافى فى الستينيات، عندما كان ضابطًا شابًا فى الجيش يدور فى شوارع طرابلس مشجعًا زملاءه من الضباط أن يحذوا حذو عبد الناصر ويُسقطوا حكم الملك إدريس الموالى للغرب. وقد أخذ القذافى زمام الحكم فى البلاد منذ عام ١٩٦٩ دون أن يشعر مرة واحدة بالحاجة إلى خلق حزب سياسى واحد، معلنًا قول ابن خلدون: إن القبلية تعد لعنة على دول المغرب. وأنه بما أن الأحزاب السياسية ما هى إلا نسخة حديثة من القبائل فنحن بغير حاجة إليها. يمكن التعرف على هذا الفكر وغيره بين صفحات الكتاب الأخضر، الذى لا يعدو فى معظمه مجرد مجموعة من العبارات المطنبة الرنانة، فى حين تأتى المواضع القليلة التى نصادف فيها أفكارًا أصلية لتفصح عن سذاجة المؤلف.

من الصعب سبر أغوار ما يحدث فى طرابلس. نجد أنفسنا نعلم بعض الأشياء القليلة مثل أن عائدات ليبيا من النفط تصل إلى ٣٦ بليون دولار أمريكى فى السنة، ويبلغ تعداد سكانها ستة ملايين نسمة. ومن الطبيعى ألا تجد جوعى هناك. تمتلئ الحوانيت بالطعام ولكن مستوى التعليم والخدمات الطبية متدنٍ. يسافر آلاف الليبيين إلى تونس المجاورة لتلقى العلاج. أجد التناقض بين هذا الوضع والوضع فى كوبا - تلك الجزيرة الفقيرة دومًا - دالاً. تقدم كلية طب الأمريكيتين فى هافانا التعليم والتدريب الطبى لمئات الطلاب من أمريكا الشمالية والجنوبية (وبخاصة الأمريكان من

أصول إفريقية وهسبانية). كما نلحظ ارتفاع مستوى الثقافة والتعليم هناك. لماذا لا نرى ذلك فى ليبيا إذا؟ فى ليبيا تنتج بيروقراطية الدولة مواطنين على شاكلتها، منعزلين ومتباعدين عن بعضهم البعض، فى حين تمارس تلك البيروقراطية أشكالاً من العنف فى تشكيلها للمواطنين الذين يأتى رد فعلهم فى صورة إظهار الخوف الممتزج بالتروّى وبعض المكر. لا ينبغى أن يكون الأمر كذلك، ولهذا تأتى التحركات الأخيرة تجاه الغرب كمحاولة للحاق بركب العولمة. يعتقد قلة من الناس فى ليبيا أن القذافى مسئول عن كارثة لوكيربى، ولكنه اعترف بارتكابها ووافق على دفع تعويضات طائلة حتى ينهى العقوبات على ليبيا ويغير موقفها السياسى. يتطلب تقبلنا للهيمنة الاستعمارية أن نفعل أشياء من هذا القبيل. ولكن هل يتطلب كذلك زعامة توريثية؟ يجرى حاليًا إعداد سيف الإسلام، أحد أبناء القذافى؛ ليكون خليفة أبيه فى الحكم. ولا نسمع هنا فى بريطانيا الكثير من النقد حيال هذا التوريث المزمع، بما أن الابن يدرس الدكتوراه فى كلية لندن للاقتصاد، وبصفته مغرمًا بالغرب النيوليبرالى. لم يعد القذافى رئيس 'دولة مارقة' إذًا، ولكن أصبح "سياسيًا عظيمًا" (كما قال جاك سترو) بل واستقبل بلير فى خيمته. يساعد ذلك فى خلق انطباع بأنه متحالف مع لندن وليس واشنطن. الوضع واضح: يريد سيف خصخصة كل شىء فى ليبيا وتحويلها إلى دولة صغيرة تابعة مثل دول الخليج.

من الجدير بالذكر أن المؤسسة الوحيدة التى تعمل بكفاءة فى ليبيا هى الجامعة الإسلامية الكوزموبوليتانية التى تقبل الطلاب الأجانب فقط. تقدم مؤسسة النداء الإسلامى (وهى مؤسسة إصلاحية مدعومة من الدولة تتولى إدارة الجامعة) تعليمًا مجانيًا فى علوم الإسلام كما تقدم التدريب للأئمة. رأيت أثناء غذاء دعانى إليه عميد الكلية طلابًا من كافة بقاع الأرض، يختلط فيهم الأفارقة بالصينيين– وكانت هناك شابة من ماينمار وبعض الفيتناميات والفلبينيات. وتضم الجامعة مكتبة كبيرة تحوى ثمانين ألف كتاب (فى مقابل عشرين ألفًا فقط فى المكتبة القومية). كما تتوافر معظم تلك الكتب فى صورة رقمية. يتعلم كل طالب مهنة ما، فالجامعة تنتج كذلك الكهربائى

والسباك والنجار تحسبًا لأن ينتج خط الإنتاج فى الجامعة أئمة يزيدون عن الحاجة. وعند خروجي من الجامعة أخذني مضيفي إلى مكتبة المبيعات. سألت عن أية كتب مترجمة عن الإنجليزية، فأتوا إليّ بثلاثة كتب: كوميديات شكسبير، وربيكا (Rebecca) لدافني دموربيه، والحديقة السرية (The Secret Garden) لفرانسيس هودجسون بانت.

كنت قد طلبت مقابلة الروائى أحمد إبراهيم الفقيه الذى كان موجودًا فى المدينة فى ذلك الوقت، الذى كان قد اكتسب شهرة كبيرة فى العالم العربى بعد نشر الثلاثية التى تحكى قصة حياته (سأهبك مدينة أخرى وهذه تخوم مملكتى ونفق تضيؤه امرأة واحدة (ومثل غيره من الكتّاب العرب الذين تأثروا بموجة القومية العارمة إبان الستينيات، فقد فترت حماسة الكاتب بعد الهزيمة فى حرب الأيام الستة، وهو أمر متوقع ومألوف بين كتاب هذا الجيل. فقد نزع العديد من المثقفين والكتاب العرب نحو الاغتراب عن مجتمعاتهم وعن الغرب فى آن واحد. واتجه قليل منهم للدين. يقول الفقيه فى بداية أولى رواياته: إن الزمن قد ولّى بينما لم يأت زمن آخر، ولن يأت. أخبرنى الفقيه أنه على وشك الانتهاء من عمل روائى فى عشرة أجزاء. "لقد أصبحت لتوى سفيرًا فى رومانيا. وكما تعرف ليس أمامك الكثير لتفعله هناك؛ ولذا سيكون لدى متسعًا من الوقت للانتهاء من هذا العمل".

يكتب القذافى بدوره قصصًا قصيرة. يقال: إن إحدى تلك القصص بعنوان: "انتحار رائد فضاء" قصة رائعة، ولكننى لم أجد من يلبى طلبى فى الحصول على نسخة منها. أما محاضرتى فقد كانت عن الوضع فى الشرق الأوسط، وكان الحاضرون عبارة عن طلبة وأساتذة جامعيين وبعض أعضاء البعثات الدبلوماسية. وكعادتى هاجمت كلاً من الغرب وفساد الأنظمة العربية، كما تناولت فظاعة ازدواج المعايير الذى يمارسه الغرب فى التعامل مع قضية المفاعل النووى الإيرانى. لم أكن أعرف أن السفير الإيرانى ضمن الحضور، ولكنى واثق من أننى لم أر أحدًا يغادر القاعة عندما وصفت الرئيس الإيرانى بالأبله المتشدد.

٢١ من فبراير/ شباط ٢٠٠٦

١٢

من كاراكاس إلى كوكابامبا

بدت لى ناطحات السحاب الستيناتية فى كاراكاس أقبح من المعتاد، كما لم أجد فندق جران ميليا جذابًا. فقد كان سقف البهو الكبير المزين بالرسومات الفنية التافهة يشبه مدرسة دبى فى العمارة (لماذا تنتج ثروات النفط تلك العمارة القبيحة؟). تمنيت وقتها لو أننى أسكن كعادتى فى الهيلتون المتداعى التعيس ذى الجو الخاص. كنت فى كاراكاس للتحدث فى مؤتمر عن شبكات وسائل الاتصال العولمية ولحضور اجتماع الهيئة الاستشارية لقناة تيليسور الفضائية الناطقة بالإسبانية والبرتغالية، التى اشترك فى تأسيسها كل من فنزويلا والأرجنتين وأورجواى وبوليفيا وكوبا والآن انضمت إليهم الإكوادور. كان الهدف من إنشاء القناة تقديم رؤية بديلة عن رؤية السى إن إن/البى بى سى، ولكنها لم تنجح نجاحًا كبيرًا؛ حيث لم يتجاوز تعداد مشاهديها الدائمين خمسة إلى ستة ملايين. وبينما تكرس القنوات الخاصة ساعات طويلة لتغطية نتائج انتخابات الكونجرس الأمريكى أو لواقعة قتل حدثت فى حرم إحدى الجامعات الأمريكية، نجد تيليسور تشير إلى تلك الأحداث فى عجالة، ثم تكرس معظم ساعات إرسالها؛ لتغطية حية من نيكاراجوا حيث تدور الانتخابات أو من الإكوادور حيث فازت الحكومة الجديدة فى استفتاء يتيح لها الإشراف على كتابة دستور جديد.

كنت قد آثرت فكرة تأسيس قناة فضائية تعادل ما تبثه شبكات القنوات التابعة لاتفاقية "إجماع واشنطون" لأول مرة أثناء اجتماع عام هنا فى عام ٢٠٠٣ . وقد تحمس الحاضرون سريعًا للفكرة، ولكنهم رفضوا الاسم الذى اقترحته - البوليفار-

رفضًا حاسمًا؛ إذ رأوه غير لائق لأنه سوف يقصى أكبر دول المنطقة التى لا تربطها ثمة صلة بالمحرر الشهير ولكن البرازيل أقصت نفسها أثناء تنفيذ المشروع. عندها سأل شافيز لولا: "لم لا تساند تيليسور؟" فأجاب، "لولا"، بوجه يكسوه الخجل: "لا أدرى". ولكن السبب واضح: لم يكن، "لولا"، يريد استعداء وسائل الإعلام فى البرازيل أو أن يغضب واشنطن. ولكن قناة تيليستور أخذت بالفعل فى جذب المشاهدين فى البرازيل.

كان مركز المؤتمرات مكتظًا بالحضور الذين جاءوا للاستماع إلى الكلمة التى سيلقيها شافيز. وبعد أن جلسنا فى مقاعدنا دخل شافيز مسرعًا وتبادل الأحاديث الخاطفة مع بعض الحضور. خاطبنى قائلاً: "لا بد أنك سعيد الآن لأن بلير راحل". فأشرت إلى أن سعادتى تتوقف إلى حد كبير على خليفته. فرد قائلاً وكأنه يتدرب على الإنجليزية: "تحيا الثورة". ثم جلسنا نستمع إلى خطابه الذى استمر مدة ثلاث ساعات، الذى كان ينقل على الهواء. تجعلنى مثل تلك المناسبات أتمنى لو أننى أحضرت معى سلة طعام. أتى الخطاب على نمط كل خطاباته السابقة؛ حيث تنقل من سرد بعض الحقائق (مثل أن ارتفاع عائدات النفط الذى نتج عن رفع حقوق التنقيب قد بلغ عدة بلايين دولار)، إلى الفلسفة الشخصية، إلى ذكريات الحياة، ثم إلى آخر محادثة جمعته بكاسترو، مصحوبة بتقدير جزافى لمجمل عدد الساعات التى قضاها الرجلان فى التحدث لبعضهما (أكثر من ألف ساعة)، إلى التعبير عن الفخر بأن حكومة فنزويلا تمول فيلم "دانى جلوفر" الذى يدور حول الثائر "توسان لوفيرتور" وانتفاضة العبيد فى هاييتى، إلى بشاعة الحال فى العراق المحتل، إلى هجوم حاد على البابا الذى قال إبان زيارته الأخيرة للبرازيل: إن السكان الأصليين لم يطلهم سوء المعاملة وأنهم اعتنقوا المسيحية طواعية.

وقد جاء الهجوم على البابا متبوعًا بأغنية مرتجلة، وهو ما يعنى غالبًا أن الخطاب على وشك الانتهاء. ولكن الخطاب لم ينته تلك المرة؛ إذ انتقل شافيز إلى تناول التاريخ (حوالى ٣٠ دقيقة)؛ حيث تحدث عن بوليفار وكيف خذله رجال يعملون لدى الطبقة

الأرستقراطية: "لم تحك لنا كتب التاريخ المدرسية عن وقائع الخيانة تلك". ثم تناول شافيز بعد ذلك موضوع الحفاظ على موارد كوكب الأرض، قبل أن ينتهى الخطاب بشعار مستعار من كوبا فى تاريخها الحرج: "الاشتراكية أو الموت". يا لها من رسالة مرعبة! وعندما أشرت فى حديثى لأحد مساعدى شافيز أن ذلك الشعار يحمل نغمة تهديد غير مرغوب فيها، شرح لى قائلاً: إن الرئيس قد دخل طور روزا لكسمبورج، وأنه كان يعنى "الاشتراكية أو الهمجية"، لم أقتنع بما قال.

بدا شافيز مثقلاً قليلاً مما جعلنى أتساءل لو كان الجمهور الذى يخاطبه ليس فى حقيقة الأمر سوى الجيش والمؤسسة العسكرية، ثم أخبرنا نائب الرئيس السابق "خوسيه فنسنت رانجل" فى اليوم التالى بوجود مؤامرة من جانب الولايات المتحدة وكولومبيا لإدخال قوات عسكرية غير نظامية من كولومبيا إلى فنزويلا، بما فيهم القناصة. وكان الهدف من تلك المحاولة كما ذكر لنا نائب الرئيس السابق خلق حالة طوارئ على مستوى الدولة: يتم اغتيال أعضاء الحكومة وقادة المعارضة فيتهم كل طرف الطرف الآخر. وقد أزيح النقاب فى الوقت ذاته عن مؤامرة متورط فيها ثلاثة من كبار الضباط فى الجيش لاغتيال شافيز نفسه. والآن يقبع اثنان ممن كانوا سينفذون الاغتيال فى السجن، بينما فر الثالث إلى ميامى فى الولايات المتحدة.

تعلم شافيز من دراسته العسكرية أنه لا ينبغى دفع العدو نحو حالة من اليأس التام؛ لأن ذلك يجعله أكثر شراسة، فجاءت سياسته معتمدة فكرة الإبقاء على مخارج للفرار. وليس شافيز ولا مؤيدوه من النوع الانتقامى، فى حين أن جوقة الإعلام الغربى التى تصور نظامه عل أنه نظام استبدادى تشوه الأمور تشويهًا واضحًا. كان صوت الجوقة أعلى ما يكون وأنا فى كاراكاس. أما السبب فقد كان فى هذه المرة قناة تليفزيونية خاصة تسمى أر سى تى فى كانت الحكومة قد رفضت تجديد رخصتها التى تعود إلى عشرين عامًا. كانت القناة مثل معظم وسائل الإعلام الفنزويلية متورطة فى انقلاب عام ٢٠٠٢ ضد حكومة شافيز (المنتخبة ديموقراطيًا)؛ حيث كانت تحشد الدعم

لجانب الانقلاب، كما زيفت مقاطع مصورة لتوحى للمشاهدين أن مؤيدى شافيز يقتلون الناس. كذلك لم تعرض القناة أية صور لعودة شافيز منتصراً بعد فشل الانقلاب. وبعد عام واحد وأثناء إضراب لعمال النفط خططت له المعارضة، بدأت القناة تحث المواطنين على إسقاط الحكومة. وبالطبع لم تكن القناة تقف وحدها، ولكن دعواتها المتلفزة شجعت على العنف.

وعندما سألنى مراسل صحيفة الجارديان ما إذا كنت أدعم قرار عدم تجديد رخصة القناة، أجبت بالإيجاب، مما جعله يصاب بالصدمة: "ولكن ذلك يجعل المعارضة دون قناتها التليفزيونية". سألته ما إذا كانت للمعارضة فى بريطانيا أو فى أى مكان آخر فى أوروبا أو أمريكا "قناتها التليفزيونية"؟ أى حكومة غربية يمكن أن تتحمل ذلك؟ لقد رفضت تاتشر تجديد امتياز قناة التيمز التليفزيونية، والتى كانت قد عرضت فيلماً وثائقياً واحداً ينتقد النظام. أما بلير فقد فصل جريج دايك جاعلاً من إذاعة وتليفزيون البى بى سى قناة محايدة. أما بوش فيتمتع برفاهية أن القنوات التليفزيونية فى الولايات المتحدة لا تنتقد النظام، فى حين تقوم فوكس نيوز بدور الدعاية الإعلامية له.

وقد حذرت فى كلمتى فى المؤتمر من التمادى فى تصوير قوة ونفوذ وسائل الإعلام. فشافيز على سبيل المثال فاز فى ستة انتخابات على الرغم من معارضة وسائل الإعلام شبه التامة له. كما فاز إيفو موراليس فى بوليفيا ورافايل كوريا فى الإكوادور على الرغم من المعارضة اللدودة لهما فى وسائل الإعلام. ولم يكن هذا الأمر قاصراً على أمريكا الجنوبية. فقد صوت الفرنسيون بلا على الدستور الأوروبى دون أن تدعمهم أية جريدة يومية أو محطة تليفزيونية.

ثم ذهبت إلى مؤتمر آخر بعد أربعة أيام - لأتحدث هذه المرة عن "الدفاع عن الإنسانية"- وهو ما أفعله كثيراً، فى كوكابامبا فى بوليفيا. كانت آخر زيارة لى لبوليفيا منذ أربعين عاماً عندما ذهبت ضمن فريق مكون من أربعة أشخاص (يضم بيرى أندرسن، وروبين بلاكبرن، ورالف شونمان) وكنا مرسلين من طرف برتراند راسل لحضور محاكمة ريجيس ديبراى فى مدينة كاميرى، التى لم تكن تبعد كثيراً عن الموقع

الذى كان "تشى جيفارا" يحارب فيه محاصراً من قبل الجيش البوليفى. كان ديبراى قد وقع قيد الأسر أثناء محاولته الخروج من أحد مخيمات العصابات المقاتلة والتوجه لمنزله. كما كان الكوبيون قد طلبوا مني تصوير أى ضابط جيش بوليفى فى المنطقة، وهو الأمر الذين أوقعني فى المتاعب عدة مرات. وفى إحدى المرات أوقفني ضابط فى الجيش وأشهر مسدسه طالبًا مني فيلم الكاميرا، فأعطيته فيلمًا لم يستخدم. ثم قال مهدداً: "سأطلق عليك النار لو أخذت صوراً أخرى لى". فلم أفعل. ثم أرسلت تلك الصور وصوراً أخرى (منها صورة لروبين بلاكبرن وهو يستحم فى تأنٍ) إلى هافانا حيث أعتقد أنها ما زالت قابعة فوق أحد الرفوف المتهالكة.

كانت كوكابامبا المدينة التى وقع عليها اختيار المجموعة الاستشارية العسكرية الأمريكية، التى كانت تشرف على عملية أسر جيفارا وقتله؛ لتكون مقر قيادتها. كما أنها المدينة التى هربت منها فى عام ١٩٦٧ بعد فترة وجيزة من إلقاء القبض على، واتهامى بأننى عضو فى إحدى العصابات المقاتلة الكوبية يدعى بومبو، الذى كان الحارس الشخصى "لتشى" وأحد هؤلاء الذين هربوا من المعسكر وعاد سالمًا إلى كوبا. وقد اختبأت هناك حتى تواتيني فرصة الحصول على تذكرة طائرة إلى مدينة لاباز، ثم إلى أوروبا عبر البرازيل. وبينما كنت أتبادل الحديث عن الذكريات مع "ريتشارد جوت" الذى كان يشغل منصب كبير مراسلى الجارديان فى أمريكا اللاتينية فى عام ١٩٦٧، خاطبنى صحفى من قناة تيليسور قائلاً: "يا الله! يشبه الأمر الاستماع إلى المحاربين الأسبان المخضرمين لدى عودتهم إلى إسبانيا!".

يمثل الهنود قطاعًا كبيراً من سكان بوليفيا: يصف ٦٢٪ أنفسهم كسكان أصليين، ويعيش ٣٥٪ من السكان على أقل من دولار واحد فى اليوم. ولبوليفيا ماض مضطرب: حروب، وانقلابات، وثورات، وعصابات مسلحة ثورية، وانتفاضات عديدة. وقد شهدت بوليفيا بين عامين ١٨٢٥ و١٩٨٢ ١٧٥ انقلابًا عسكريًا، وتعاقب عليها ٧٠ رئيسًا، استمر نصفهم فى مناصبهم لأقل من عام. وقد ساد التراجع الناتج عن السياسات النيوليبرالية فترة التسعينيات، قبل أن تتمخض الاحتجاجات المناهضة للحكومة عن "حروب المياه". كانت الحكومة تبيع الماء فى كوكابامبا شركة بيشتيل

للتشيد الذى كانت تقول للشعب إن تجميع مياه الأمطار عمل غير قانونى، ثم حدثت مصادمات مع الجيش، وقتل أحد المتظاهرين الشبان، وبعد ذلك انتصر المحتجون وعادت سيطرة الإدارة المحلية على المياه. تلك هى الظروف التى ساعدت موراليس وحزب الحركة الاشتراكية على الفوز فى انتخابات عام ٢٠٠٥ . لم يكن موراليس مجرد يسارى، فقد كان من أصل هندى ينتمى للسكان الأصليين، وجاء انتصاره فى الانتخابات لينهى نصف قرن من حكم الكريول المنحدرين من أصول استعمارية. أصاب فوز موراليس الأغنياء بغضب شديد، وسرعان ما بدأت حملة زعزعة الوضع التى تمركزت فى مدينة سانتا كروز معقل الكريول. وقد ذكر لنا رافايل بوينتا، الوزير السابق والقس اليسوعى: "إنهم قالوا: الفوضى الاقتصادية وشيكة الوقوع، وإن بوليفيا ستتحول إلى زمبابوى أخرى. واتهموا إيفو بإشعال حرب أهلية، كما تبادلوا على هواتفهم المحمولة صوراً مفبركة تصور رئيسهم المنتخب ينزف إثر إصابته بطلق فى الرأس وعليها تعليقات تقول "تحيا سانتا كروز" مكتوبة بالدم فوق جسده". وأوفت الحكومة بوعودها الانتخابية بأن قامت بتأميم موارد الطاقة وتولت التحكم فى إدارتها بنفسها. كان من المقرر إنفاق الزيادة فى الدخل القومى الناجمة عن ذلك فى مساعدة الأسر الفقيرة على إبقاء أولادهم فى المدارس. كانت الحكومة تهدف إلى تخفيض معدلات الفقر بنسبة ١٠٪، وهو هدف متواضع، ولكن رجال الأعمال فى سانتا كروزصرخوا محذرين: "شيوعية!" وحين تحسنت الظروف الاقتصادية، تحولت المعارضة إلى علاقة موراليس بشافيز، وامتلأت حوائط مدينة سانتا كروز بالملصقات التى تقول: "إيفو هو عاهرة شافيز". ويصعب على المتابع للجرائد هنا استطلاع أى الرجلين يكرهه الناس أكثر من الآخر.

تجولت أنا وريتشارد جوت فى أنحاء كوكابامبا. كان مقهى باريس لا يزال قائمًا بميدان ١٤ من سبتمبر، ويبدو أقل تهدمًا عما كان عليه. كما لا تزال سينيما روكسى التى شاهدت فيها فيلم القط باللو (Cat Ballou) بطولة لى مارفن وجين فوندا قائمة، ولكنها أضحت الآن كنيسة إنجيلية. أصر جوت أن نذهب لزيارة الكانشا وهو السوق القديم القريب من محطة السكك الحديدية الذى يذكرك بالبازارات العربية بحواريها

الضيقة والسلع التى تنقلها البرويلات. كانت التشكيلة الضخمة من البطاطس المتعددة الألوان فى هذا السوق من أجمل ما رأيت فى كافة أسواق العالم. لم يتغير الكثير منذ عام ١٩٦٧، ولو أن جودة المنتجات بدت أقل. اشتريت طبقين رخيصين من الصفيح منقوشين بأشكال الزهور لأكتشف فيما بعد أنهما من صنع الصين.

عند عودتى إلى الفندق داهمتنى صحفية إسبانية تعمل فى جريدة الموندو قائلة: "لقد أطلقتَ لقب "محور الأمل" على فنزويلا وبوليفيا وكوبا والإكوادور، فأين محور الشر فى هذه القارة؟" فأجبتها بأننى أتجنب لفظى الخير والشر؛ لأنهما يعكسان مفاهيم دينية، ولكننى أرى أن محور اليأس يتكون من البرازيل وشيلى والمكسيك. ردت الشاعرة النسوية شهرزاد فيشيوسو قائلة: "فضلاً، هلا أضفت جمهورية الدومينيكان؟ نحن منسيون دومًا." فأجبت طلبها. ثم سألتها عن سبب تسميتها بهذا الاسم، فأخبرتنى أن أباها المؤلف الموسيقى كان مفتونًا بكتاب ألف ليلة، ثم أضافت: "لقد كان حظى سعيداً، فأخى اسمه راينر ماريا ريلكا".

سافرت بالطائرة فى الصباح الباكر؛ حيث كان عامل نظافة هندى ذو ظهر منحنٍ ممسكًا بمقشتين – واحدة فى إحدى يديه – ينظف الشارع. وعندما كنت أجلس فى استراحة كبار الزوار فى مطار كاراكاس أنتظر طائرة أخرى أخذت أقلب أوراق دفتر الزائرين؛ حيث وجدت رسالتين تلخصان التناقضات الكثيرة التى أراها من حولى. كانت الأولى رسالة من آهن يونج جو، رئيس شركة سامسونج فى أمريكا الشمالية يقول فيها: "إن فنزويلا أحد الأسواق الرئيسية لمنتجات سامسونج. سوف نستمر فى الاستثمار هنا وفى المساهمة فى تطور هذا السوق". أما الرسالة الثانية فقد جاءت بعد عدة رسائل تالية وكانت تقول: "أعزائى الرئيس شافيز وفنزويلا، أشكركم على الحب وكرم الضيافة اللذين يتمتع بهما شعبكم. مع محبتى وتمنياتى بالسلام – سيندى شيهان، الولايات المتحدة الأمريكية".

يونيو / حزيران ٢٠٠٧

١٣

الأوهام الضائعة فى ديار بكر

لم يكد الفجر ينشق حتى وجدتنى أستقل سيارة أجرة متوجهًا إلى المطار حيث تقلنى الطائرة إلى ديار بكر، أكبر المدن الكردية فى شرق تركيا التى لا تبعد كثيراً عن الحدود مع العراق. كانت الطائرة مزدحمة بسبب وجود مجموعة ضخمة من الشباب الذين بدوا لى بشعورهم القصيرة مجموعة طلاب ثرثارين ينم حماسهم المشوب بالاضطراب بأنهم لم يغادروا بلادهم من قبل. كان أحدهم يجلس فى المقعد المجاور للنافذة والملاصق لمقعد المترجم المرافق لى، واتضح أنه ليس طالبًا بل مجنداً حديث التجنيد متوجه إلى الشرق لمزيد من التدريب ولتجربة حياة الثكنات العسكرية الطويلة، وربما أيضاً تجربة النزاع المسلح لأول مرة فى حياته. لم يكن يتعدى الثامنة عشر بأى حال من الأحوال، وكانت تلك المرة الأولى التى يستقل فيها الطائرة. وجدته يتشبث بالمقعد الذى أمامه ناظراً من النافذة بخوف أثناء إقلاع الطائرة. ثم هدأ قليلاً خلال الرحلة وأخذ يبدى إعجابه بمنظر الجبال والبحيرات من أعلى. ولكنه عاد يتشبث بالمقعد أثناء هبوط الطائرة. وقد استقبل كثيراً من أفراد الفرقة حليقى الرأس هبوطنا بضحك وصخب عاليين.

كان بعض صغار الجنود قد لقوا حتفهم فى مصادمات مع عصابات مسلحة تنتمى إلى حزب العمل الكردستانى. وكان من المعتاد فى الإعلام التركى أن تساق أمهات الجنود الأتراك الذين يلقون حتفهم فى المصادمات إلى محطات التليفزيون لينبئن العالم عن مدى فخرهن بالتضحية التى بذلها أبناؤهن. وكان من المعتاد فيما

قبل أن تقول الأمهات: إن لديهن أبناء آخرين فى قراهن ومدنهن على استعداد للدفاع عن أرض الآباء وفى شوق لتلك اللحظة. أما هذه المرة فقد وجهت الأمهات للحكومة نقداً علنياً جراء مقتل أبنائهن.

ديار بكر هى العاصمة الفعلية للجانب التركى من كردستان، وهى دولة قومية تمتد لحوالى ستمائة ميل باتجاة المنطقة الجبلية فى جنوب شرق تركيا ومناطق شمال سوريا والعراق وإيران. وتمثل كردستان التركية وطناً لما يزيد عن أربعة عشر مليون كردى يشكلون أغلبية سكان المنطقة، كما أن هناك حوالى أربعة ملايين كردى آخرين فى شمال العراق، وحوالى خمسة ملايين فى إيران، ونحو المليون فى سوريا. يمثل القطاع التركى القطاع الأكبر والأهم من الناحية الإستراتيجية بين هؤلاء، ولهذا فإنه يعد أساساً لأية دولة كردية، وهو ما يفسر المخاوف المرضية التى تنتاب الحكومة التركية إزاءه كما يفسر سوء معاملتها للمواطنين الأكراد الذين يعيشون فى ظروف أسوأ بكثير من الأكراد فى العراق وإيران.

أصدرت تركيا حظراً على اللغة والثقافة الكرديتين وقت تأسيس الجمهورية التركية الموحدة فى عام ١٩٢٣ ، ثم اشتدت السياسات القمعية خلال السبعينيات؛ حيث أعلنت الأحكام العرفية فى المنطقة فى عام ١٩٧٨، وتبع ذلك عقدان من التوقيف الجماعى العشوائى والقتل والترحيل القسرى للأكراد، مصاحباً بتدمير القرى التركية. ثم شرع حزب العمال الكردستانى الذى أسسه الطالب عبد الله أوجلان فى عام ١٩٧٨ فى شن هجوم للعصابات المسلحة فى عام ١٩٨٤، مطالباً بحق الأكراد فى تقرير المصير فى إطار (وهو ما أكده الحزب دوماً) دولة تركية ديمقراطية لا عسكرية. كان الأكراد يقصدون بكلمة "الديموقراطية" إلغاء القوانين المستخدمة فى التضييق على الأقليات بهدف سلبهم حقوقهم السياسية الأساسية. فمثلاً ينص دستور عام ١٩٨٢ على ضرورة حصول أى حزب على ١٠٪ من الأصوات فى الانتخابات العامة حتى يمكنه الحصول على مقاعد فى البرلمان – وهى ما تعد أعلى نسبة فى العالم. ولهذا نجد أنه ليس لدى القوميين الأكراد تمثيل فى البرلمان على الرغم من أنهم يحصلون عادة على أغلبية الأصوات فى مناطق شرق تركيا. وعندما شكل تيار يسار الوسط فى عام

١٩٩٤ حزبًا جديدًا كى يتمكن الأكراد من تخطى عائق نسبة الـ١٠٪ ألقى القبض على أفراد الحزب بتهمة التعاون مع حزب العمال الكردستانى وحكم عليهم بالسجن لخمسة عشر عامًا.

ويقدر عدد القوات التركية المنتشرة فى كردستان منذ تسعينيات القرن العشرين بحوالى ٢٠٠ ألف فرد. وقد شهد عاما ١٩٩٦ و١٩٩٨ معارك عنيفة أصيب وقتل فيها آلاف الأكراد. وعند سقوط أوجالان الذى كان قد فر إلى كينيا فى فبراير/شباط من عام ١٩٩٩- على الأرجح على يد وكالة المخابرات المركزية الأمريكية - وتم تسليمه لتركيا، كان حوالى ٣٠٠ ألف كردى قد قتلوا، وحرقت ودمرت حوالى ٣٠٠ قرية، الأمر الذى نجمت عنه هجرات جماعية كبيرة إلى ديار بكر. يصل تعداد المدينة الآن إلى أكثر من مليون نسمة. وقد وافق الاتحاد الأوروبى فى نهاية عام ١٩٩٩ على وضع تركيا فى فئة "العضو المحتمل"، وذلك بعد ضغط أمريكى مطول، مع الوعد باستئناف المفاوضات حول حصول تركيا على العضوية بشرط أن يتم على الأقل "تحسين" وضع الأكراد. وقد تسارعت وتيرة الإصلاحات بعد انتخاب حكومة رجب طيب أردوغان فى نوفمبر ٢٠٠٢ فقد أطلق سراح النواب الأكراد الذين كانوا قد زج بهم فى السجون منذ عشر سنوات وذلك فى عام ٢٠٠٤، كما أذاع تليفزيون الدولة لأول مرة برنامجًا باللغة الكردية، ثم بدأت أعمال الترميم فى القصر القديم فى مدينة ديار بكر، عملاً بسياسة الحفاظ على التراث الثقافى التى ينتهجها الاتحاد الأوروبى، حتى المساجين الأكراد لا يزالون يعذبون فى أقبيته.

اقترح مضيفى مايك كوزكون، مدير مركز الأناضول الثقافى، أن نقوم بزيارة لأسوار المدينة القديمة المبنية على شكل سمكة موسى. مررنا في طريقنا على شيهماس ديكن، المستشار الثقافى لعمدة المدينة المنتخب حديثًا والمؤيد لحزب العمال الكردستانى. أخذنا ديكن فى زيارة لمسجد كان فى السابق كاتدرائية وكان قبلها معبدًا وثنيًا يذبح فيه عبدة الشمس العذراوات قرابين على أرضية البلاط الحجرية. كان اليوم

أحد أيام الجُمَع من شهر رمضان وكان المسجد ممتلئًا؛ حيث احتل أغلبية المصلين المنتمين إلى المذهب السنى الحنفى حجرة الصلاة الكبيرة، بينما تجمع المصلون من أتباع المذهب الشافعى فى حجرة أصغر.

زرنا بعد ذلك ثلاث كنائس مسيحية خاوية؛ أولاها: كنيسة شالدين التى بنيت فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد، التى ترتفع قبتها الحجرية الأنيقة فوق أقواس خشبية متداخلة. أما ثانى الكنائس فقد كانت كنيسة آشورية أقدم من الكنيسة الأولى مبنية على شكل مربع، بنقوش آرامية محفورة على الخشب والحجر. ويعيش حارس الكنيسة فى حجرات ملاصقة للكنيسة، ويقوم بزراعة الخضراوات فى المكان الذى كان يشغله فى الماضى قصر الأسقف. رأيت دجاجات تمشى داخل الكنيسة، ويضعن بيضهن أسفل المذبح. أما الكنيسة الأرمينية فقد كانت الأحدث؛ حيث بنيت فى القرن السادس عشر، ولكنها دون سقف. كان تصميم الكنيسة مألوفًا أكثر من سابقيها، فبدت مثل كنيسة كاثوليكية رومانية؛ حيث أكد لنا القسيس أن الأرمن الذين كانوا يؤدون الصلوات هنا كانوا من الكاثوليك. وهنا شرع شيهماس فى التحدث إلى الحارس هامسًا. انتابنى الفضول، فتبرع شيهماس قائلاً: "ليس الأمر بالمهم، فمنذ أن أجريت جراحة الدعامة الثلاثية صرت لا يسمح لى سوى بالنبيذ الأحمر، وهناك كرم للعنب ملاصق للدير القابع فى الحديقة الخلفية. آخذ بعض الزجاجات من هذه الكنيسة أحيانًا. الخمر هنا ممتاز". جعلنى ما قال أشعر براحة غريبة.

مشينا حتى وصلنا إلى أسوار المدينة القديمة، التى كانت قد بنيت للمرة الأولى منذ ٢٠٠٠ عامًا باستخدام أحجار سوداء، ثم أخذ الغزاة اللاحقون يضيفون فوقها طبقات جديدة. كانت أسوار الشرفات المزودة بفتحات زخرفية صغيرة، والأبهاء ذات السقوف المقوسة متداعية، كما نهب السكان المحليون معظم الأحجار؛ ليرمموا بها بيوتهم. كنا من أحد المواقع فى سور المدينة نرى نهر دجلة ينساب فى مساره نحو الجنوب. أخبرنى شيهماس أن السلطات التركية قد حبسته فى أقبية القصر فى الماضى، ثم قال لى واعدًا: "عندما تأتى فى المرة القادمة ستكون أعمال الترميم قد انتهت فى هذا المبنى، وسوف نشرب الشاى هنا ونرقب بردى ينساب أمامنا". ثم مررنا

على منطقة واسعة تلاصق أسوار المدينة لنجد معرضًا للصور الفوتوغرافية لمدينة ديار بكر من عام ١٩١١ . كانت الصور تعرض مدينة قروسطية متكاملة، وكانت تركز على مبانى المدينة دون أن تعر السكان الذين يعيشون هناك متزاحمين الكثير من الانتباه. كانت الصور من أعمال جيرترود بيل التى ادعت بفخر فيما بعد أنها أسست العراق الحديثة بالنيابة عن الإمبراطورية البريطانية بأن "رسمت خطوطًا على الرمال". وبالطبع كانت تلك خطوط التقسيم التى مزقت أراضى القبائل الكردية التى يضرب تاريخها بعمق فى المنطقة، ممتدًا دون انقطاع لعصور ما قبل المسيحية.

أما أولى الوثائق المكتوبة فتأتينا من الفترة التالية للغزو العربى الإسلامى؛ حيث وضع المؤرخ العربى المسعودى قائمة بالقبائل الكردية الجبلية فى مؤلفه المكون من تسعة مجلدات والمعروف باسم مروج الذهب الذى كتبه فى القرن العاشر. وقد اعتنق الأكراد الإسلام فى القرنين السابع والثامن مثلما الحال لدى معظم سكان المنطقة، وانضموا إلى الجيوش الإسلامية. ولكنهم كانوا متمردين وشاركوا فى انتفاضات؛ مثل انتفاضة الخوارج فى القرن التاسع (كان الخوارج يرفضون سياسة التوريث؛ حيث رأوها بعيدة عن الإسلام، وطالبوا بانتخاب الخليفة، ولكن انتفاضتهم قمعت بعنف). وقد استوطن الأكراد الأراضى القريبة من الموصل وشاركوا فى ثورة العبيد الكبيرة التى قامت بها قبائل الزنج فى الأجزاء الجنوبية من بلاد الرافدين فى عام ٨٧٥ . وقد هزمت هذه الثورة بدورها - الأمر الذى تبعه انتشار الفرق الكردية فى المنطقة فى صورة مرتزقة. وقد جاء صلاح الدين من أسرة تنتمى إلى إحدى تلك الجماعات، التى سرعان ما انتزعت لها مهاراتها العسكرية موقع السلطة. وقد كان الأكراد يحاربون فى صف كل من الإمبراطورية العثمانية والدولة الصفوية فى إيران إبان اشتعال النزاعات بينهما خلال القرن السادس عشر. وقد جعلت الصراعات بين القبائل التركية أية إمكانية للاتحاد شبه مستحيلة.

كان المسلمون (الذين كان أكثرهم أكرادًا) إبان زيارة جرترود بيل لديار بكير فى عام ١٩١١ يمثلون ٤٠٪ من سكان المنطقة. وقد كانت الجماعات التى استوطنت ما يعرف الآن بشرق تركيا منذ حوالى ألف عام قبل الميلاد تتمتع بوجود كثيف، ومن

أمثالها الجماعات الأرمينية مثل الكلدانيين والآشوريين. ونجم عن تنامى استياء السلطة فى إسطنبول تجاه فكرة التنوع فى السكان ظهور موجة قومية دفاعية (نجم عنها فيما بعد مصادمات بين الأتراك والجماعات الأرمينية ومذابح ضيقة النطاق فى الشرق)، وذلك حتى قبل أن تستولى حركة تركيا الفتاة على السلطة من السلطان فى عام ١٩٠٩ وقد بدأت وقتها صورة الأرمن فى التشكل على أنهم عملاء لدول أجنبية تسعى لتفكيك الإمبراطورية العثمانية. وبينما لا يمكننا تجاهل أن كثيراً من أثرياء الأرمن (واليونانيين) كانوا سعداء باللجوء لكنف الغرب إبان السنوات الأخيرة للدولة العثمانية، فقد استمر الكثير من الأرمن ينعمون بحياة هادئة مع جيرانهم المسلمين فى شرق أناطوليا. كان هؤلاء يتكلمون التركية إلى جانب لغاتهم الأصلية، مثلما كان الحال مع الأكراد. وقد بدأ القوميون الثوريون من الأرمن فى الحديث عن دولة أرمينية مما أحدث انقسامًا سياسيًا متزايداً فى المجتمع، وحدا السلطان لتشكيل ميليشيا كردية لكبح جماح الأرمن، ثم حدث أن قرر وزير الداخلية محمد طلعت (الذى سيغتاله أحد القوميين الأرمن، فيما بعد) التخلص منهم نهائيًا. وقد قام الجنود غير النظاميين من الأكراد بتنفيذ مهمة التهجير القسرى والمذابح فى عام ١٩١٥ التى مات فيها حوالى المليون أرمنى.

أخبرتنى مليكة أن جدتها كانت أرمينية وأن العائلات الكردية قامت وقتها بإنقاذ حياة الكثيرين من الأرمن، كما قدمت المأوى للنساء والأطفال الذين كانوا قد اعتنقوا الإسلام؛ للنجاة بأرواحهم. وقد نشرت مؤخرًا المحامية والمؤرخة فتحية جيتين كتابًا عن جدتها التى اعترفت لفتحية فى أواخر عمرها أنها ليست مسلمة؛ بل مسيحية أرمينية. وقد أقيم الاحتفال بنشر الكتاب فى المركز الثقافى الذى تديره مليكة التى حكت لى عن هذا الحدث قائلة: "كان المكان يعج بنساء لم نرهم من قبل حتى بالقرب من المركز، وبعد انتهاء فتحية من الحديث كانت نساء كثيرات يرغبن فى الحديث معها عن جذورهن الأرمينية. كان أمراً مدهشاً". تقول جيتين فى كتابها: إن جدتها كانت فى طفولتها من "الناجيات من السيف"، وهى العبارة التى تطلق على الأشخاص الذين تم عتقهم من

القتل. "شعرت بدمائى تتجمد. كنت قد سمعت بهذا المصطلح من قبل، وقد كان مؤلمًا أن أسمعه يستخدم فى وصف أناس مثل جدتى، مما حوّل تفاؤلى الذى شكلته ذكرياتى عن خبز الشاى الذى كان الأكراد يقدمونه للاجئين الأرمن إلى تشاؤم واضح".

وقد تسبب الفكر السياسى المتمادى فى القومية فى نتائج كارثية حلّت بضحاياه ومروجيه على حد سواء. فقد كانت حركة تركيا الفتاة تهدف إلى طرد الأقليات غير المسلمة؛ بغية وضع أسس جديدة لدولة راسخة متحدة، وجاء تبادل السكان مع اليونان كخطوة فى هذا السبيل، ثم بدأ كمال أتاتورك فى تنفيذ الخطة على نطاق واسع بعد وصوله إلى السلطة فى عام ١٩٢٢، وذلك تحت شعار "دولة واحدة، مواطن واحد، لغة واحدة"، ثم تبنت السلطة الرسمية الحروف اللاتنينية بينما أقصيت العديد من الكلمات ذات الأصول العربية والفارسية، تمامًا مثلما أُقصى المواطنون غير المرغوب فيهم. ولو أخذنا فى الاعتبار أن السكان أصبحوا جميعهم من المسلمين نجد أن الأسس العلمانية لتلك الدولة كانت شديدة الوهن وتعتمد كلية على المؤسسة العسكرية التى كانت الضامن الوحيد لتنفيذ الخطة. وقد جاءت أول صفعة لهذا المشروع فى صورة الانتفاضة الكردية الأولى فى عام ١٩٢٥ . لم يكن بمقدور الدين وقتها، كما ليس بمقدوره الآن، أن يمحو الاختلافات. وقد استمر التمرد طوال شهور عديدة، وعندما أُخمد فى النهاية كانت أية آمال فى تأسيس استقلال كردى قد انهارت تمامًا، ثم بدأت سياسة طمس الثقافة واللغة الكردية فهاجر الكثيرون إلى إسطنبول وأزمير ومدن أخرى، ولكن القضية الكردية لم تمت.

كنت قد دعيت من قبل إلى إلقاء محاضرة فى ديار بكر عن القضية الكردية والحرب على العراق، حين تمت دعوتى منذ أربع سنوات أنا ونعوم تشومسكى، بينما كانت واشنطن تخطط للحرب، للحديث فى مؤتمر لإحدى النقابات العمالية المنتمية إلى القطاع العام فى إسطنبول. كان الكثير من الحاضرين وقتها من أصول كردية. وقتها قلت: إن الحرب سوف تنشب، وأن الأكراد العراقيين سوف يرحبون بالتعاون مع

الولايات المتحدة مثلما كانوا يفعلون منذ اندلاع حرب الخليج، كما أعربت عن أملى فى أن يقاوم الأكراد الأتراك الإغراء ذاته. وقد واجهنى بعد ذلك بعض الأكراد الغاضبين: كيف أتجرأ وأذكرهم فى الجملة نفسها مع أبناء عمومتهم العراقيين؟ ألم أكن أعلم أن حزب العمال الكردستانى قد وصف زعماء القبائل فى إقليم كردستان بالعراق بأنهم "قوميون بدائيون؟" بل إن أحدهم صرخ قائلاً: إن مسعود برزانى وجلال طالبانى (رئيس العراق الحالى) ما هما سوى "مرتزقة وبغايا" باعا نفسيهما لشاه إيران وإسرائيل وصدام حسين والخمينى على التوالى، وها هما الآن يبيعان نفسيهما للأمريكيين. كيف أجرؤ على مقارنة هؤلاء بحزب العمال الكردستانى؟ كنت فى عام ٢٠٠٢ على أتم استعداد للاعتذار عما قلت. وهأنذا الآن أندم على تقديم ذلك الاعتذار.

لم يكن حزب العمال الكردستانى يعبر عن النزعة المناهضة للحرب نفسها التى سادت البلاد فى عام ٢٠٠٣ التى دفعت مجلس النواب المنتخب حديثاً للتصويت على منع الولايات المتحدة من مهاجمة العراق عن طريق الأراضى التركية. ولكنه بينما كان الأكراد فى إسطنبول يدعمون الحرب دعماً يشوبه التردد والإحساس بالخزى، لم يكن الأكراد فى ديار بكير يظهرون هذا الضرب من التحفظ. كانت كل الأسئلة التى وجهت إلىّ بعد الانتهاء من إلقاء كلمتى تنطلق من منطلق القومية الكردية. كانت تلك الطريقة الوحيدة التى يرون بها الحرب. كانت التطورات التى استحدثت فى شمال العراق (أو جنوب كردستان كما يسمونها فى ديار بكر) قد أمدت الناس بأمل ضئيل وقناعة محدودة بأن الأمريكان سوف يصلحون ما فعلته جرترود بل الإنجليز ويمنحون الكرد دولتهم المستقلة. أوضحت قائلاً: إن الجيش وليس حزب العمال الكردستانى فى تركيا هو الحليف الأول لأمريكا. هنا تمتم أحد كبار السن متفقاً معى: "ما لا يفهمه أبناء وطنى أنه يمكن أن تكون دولة مستقلة وفى الوقت ذاته دولة أسيرة، وعلى الأخص فى الوقت الحاضر". ولكن معظم الحضور بدوا متحمسين لفكرة قيام دولة كردستان فى العراق كمحمية أمريكية - إسرائيلية. خاطبنى أحد الحضور قائلاً: "أعطنى سبباً واحداً، عدا فكرة المؤامرة الاستعمارية، يحتم على الأكراد الدفاع عن الحدود التى

كانت ولا تزال تمثل سجنًا لهم". كان السبب يبدو واضحًا لى: لأنهم يتحتم عليهم الحياة هناك على الرغم من أى شيء. أما إذا شرعوا فى قتل جيرانهم، فسوف يتعين عليهم مواجهة رغبة الجيران فى الانتقام. يضع إذًا الزعماء العراقيون الأكراد فى الشمال حياة مواطنيهم الأكراد فى بغداد فى دائرة الخطر جراء تعاونهم مع الولايات المتحدة. وهو ما يحدث نفسه فى تركيا؛ حيث يوجد ما يقارب المليونى كردى فى إسطنبول، منهم كثير من رجال الأعمال الأثرياء الذين اندمجوا فى النظام الاقتصادى رغم اختلاف العرق. وهؤلاء لا يمكن إغفالهم.

وبينما كنت أستقل الطائرة عائدًا إلى إسطنبول عرفت أن حزب العمال الكردستانى أعلن وقف إطلاق النار من جانب واحد. بالتأكيد تشعر الحكومة الإسلامية المعتدلة فى تركيا بارتياح محتجب إزاء هذا التطور. يفتح قرار حزب العمال الكردستانى الطريق أمام إجراء إصلاحات حقيقية والوصول إلى استقلال حقيقى. ولكن يبقى ذلك مشروطًا بموافقة الجيش التركى على العودة لثكناته. وفى تلك الأثناء نجد أن الحالة الاقتصادية فى المناطق الكردية قد وصلت إلى وضع مزرى؛ إذ لم يتوقف تدفق اللاجئين، بينما تتسارع وتيرة الاستقطاب الطبقى وتنعكس فى ظاهرة تنامى تيارات الإسلام السياسى. وقد تأسس حزب الله الكردى منذ عدة سنوات (حسب ما يقال بمساعدة المخابرات العسكرية التركية التى كانت تأمل فى أن يؤدى تأسيس الحزب إلى إضعاف حزب العمال الكردستانى)، وها هى الظروف الآن ملائمة لنموه. وقد تمثل أول ظهور كبير للحزب فى ديار بكر فى مظاهرة خرج فيها حوالى عشرة آلاف شخص منددين بالرسومات الدنماركية. وسوف يتنامى هذا الحراك لو لم تتغير الأمور.

نوفمبر/ تشرين ثان ٢٠٠٦

١٤

الجـزيرة

يسود توافق نادر الحدوث بين الشارع والنظام الحاكم فى القاهرة و"أبو ظبى"، العاصمتين العربيتين اللتين زرتهما هذا العام. كما يجرى هناك الإعداد لهجوم استباقى على صدام حسين بحجة أنه ربما يفكر فى المستقبل فى إطلاق صناعة الأسلحة النووية، وهو أمر يَعُدُّه سكان المنطقة دليلاً على ازدواجية المعايير فى الدول الاستعمارية. يعرف الناس هنا أن الدولة الوحيدة التى تملك أسلحة نووية وكيميائية هى إسرائيل. لم يشهد الرأى العام العربى مثل هذا التوافق منذ أعوام، بينما أدَّت قناة تليفزيونية فضائية تدعى الجزيرة دوراً محورياً فى دعم تلك الوحدة، وكذلك فى الوقوف كرمز لها؛ حيث حفزت الوعى الجمعى فى المنطقة بتقديمها للتحليلات الصارمة لكل ما هو إشكالى فى العالم العربى.

كانت الوحدة أحد الموضوعات المتواترة إبان فترة انتشار النزعة القومية فى التاريخ السياسى العربى. فى البداية كان هناك ناصر وحلمه فى تأسيس جمهورية عربية متحدة، ثم أتت الهزيمة فى الحرب، ثم التفجع الذى أصاب الشعراء العرب فى المنفى: نزار قبانى فى سوريا ومحمود درويش فى فلسطين ومظفر النواب فى العراق. وفى مصر غنت النجمة العملاقة أم كلثوم كلمات هؤلاء الشعراء(*)، ثم ساد الظلام. جاءت حرب الخليج فى عام ١٩٩١ لتسبغ جواً من الإحباط والتفكك فى العالم العربى.

(*) بينما تدل السجلات التاريخية على أن أم كلثوم قد غنت من كلمات نزار قبانى أغنيتىْ "أصبح عندى الآن بندقية" و"رسالة لجمال عبد الناصر"، لا ترد أية معلومة تفيد بأنها قد غنت من كلمات محمود درويش أو مظفر النواب. (المترجمة)

واستمر المعارضون العلمانيون فى التجمع فى مقاهيهم المفضلة فى دمشق وبغداد وبيروت والقاهرة، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون الحديث سوى بالهمس. بينما أضحت المساجد فى أماكن أخرى مراكزاً للمقاومة الدينية ضد النظام العالمى الجديد والشيطان الأعظم الذى يدعمه.

وأخذت شبكات التليفزيون التابعة للحكومات فى بث أكثر أنواع البروباجاندا بلاهة وبدائية؛ إذ كان من الممنوع تماماً انتقاد الحكومات، ثم جاءت الجزيرة فى عام ١٩٩٦ . وكما يقول محمد النواوى وعادل إسكندر فى كتابهما الجديد[٣٢] : تمثل الجزيرة قناة تليفزيونية تتحدى المحظورات والقيود. جعلت قناة الجزيرة المشاهدين يتركون القنوات الحكومية بسرعة مذهلة، كما أصبح مقدمو البرامج وقارئو النشرات فى القناة من المشاهير فى المنطقة العربية.

لم تشهد المنطقة مثل هذه الظاهرة منذ الستينيات من القرن العشرين عندما كانت الإذاعات القومية فى القاهرة وبغداد ودمشق تبث مناشداتها اليومية للمستمعين وتحثهم على إسقاط كل ملوك المنطقة، مما كاد ينجم عنه إسقاط ملك الأردن واهتزاز قوى فى سلطة الملكية السعودية. وقد ساهمت المعونات الغربية فى كلا البلدين فى سحق المعارضة الوطنية. أما الجزيرة فلا تتبنى مثل تلك الطموحات؛ حيث يعلم من يديرون القناة جيداً أن أمير قطر هو من يدعم القناة بالمال وبتوفير مقرها الرئيسى، وهو الرجل نفسه الذى سمح للولايات المتحدة بإقامة أول قاعدة عسكرية لها فى المنطقة؛ حيث انتهى مؤخراً من إنشاء مهبط بطول ١٣ ألف قدم يصلح لهبوط حاملات القذائف الثقيلة. وما من شك أن الهجوم الوشيك على العراق سوف يأتى من تلك القاعدة، بينما يندد المعلقون فى قناة الجزيرة بالعدوان الأمريكى.

ظهرت فكرة تأسيس قناة أخبار تليفزيونية عربية شبه مستقلة حينما تبناها صحفيون يعملون فى خدمة الأخبار العالمية بشبكة البى بى سى ودعمتها وزارة

(32) Mohammed El-Nawawy and Adel Iskandar, Al Jazeera: How the Free Arab News Network Scooped the World and Changed the Middle East, Cambridge< MA: Westview Press, 2002.

الخارجية. تلا ذلك توقيع اتفاق مع راديو وتليفزيون أوربت؛ لتقديم برنامج إخبارى باللغة العربية على قناة أوربت فى الشرق الأوسط. ولكن قناة أوربت كانت مملوكة لسعوديين وتبث من لندن، ولم يكن القائمون على تمويل القناة راغبين فى بث برامج إخبارية تنتقد المملكة السعودية، فانهار المشروع فى أبريل من عام ١٩٩٦ بعد أن بثت القناة تغطية لعملية إعدام علنى فى البلاد. استاعت البى بى سى من إنهاء الاتفاق وانزوت بعيداً، بينما بدأ الصحفيون العرب الذين كان مقرر عملهم فى القناة فى البحث عن عمل جديد. وقد كانوا محظوظين أن تزامن سعيهم مع تغيير الحاكم فى ذلك البلد الصغير المسمى قطر.

أزيح الأمير الحاكم والمعروف بميوله المحافظة فى عام ١٩٩٥ بواسطة ابنه حمد ابن خليفة آل ثان الذى وعد بتحديث الدولة الصغيرة، وهو ما بدأه بخطوة درامية تمثلت فى إلغاء وزارة الإعلام. وعندما علم الأمير بانهيار مشروع البى بى سى قدم للصحفيين مقراً فى الدوحة ومبلغ ١٤٠ مليون دولار من أجل إحياء المشروع. كان عدد السيارات التى امتلكها والد الشيخ حمد وجده مجتمعين يصل إلى ٤٥٢ سيارة، بما فيها السيارات التى صنعت خصوصاً لهما، وهو ما قد جعل المحطة التليفزيونية وقتها بالتأكيد تبدو منخفضة الثمن بالمقارنة بما كان ينفق الأب والجد، ولكنها منحت الإمارة وجوداً أكبر ومنزلة من أى وقت مضى. وقد شجعت ردود الفعل حمداً على الإقدام على قرارات أكثر تحرراً مثل السماح للنساء بالتصويت والترشح مع الرجال جنباً إلى جنب فى انتخابات المجالس المحلية فى عام ١٩٩٩ . كانت تلك اللفتة تمثل هجوماً غير مباشر على المملكة العربية السعودية، وقد فهمها المراقبون وقتها على أنها طلقة تحذيرية.

لم يكن أى من الصحفيين الذين عملوا فى القناة من القطريين؛ حيث درس فيصل القاسم أكثر مذيعى الجزيرة إشكالية وأحد أكثر الصحفيين تمتعاً بالاحترام فى العالم العربى، والمولود فى سوريا، الدراما فى جامعة هال وعمل مقدماً للبرامج فى الخدمة العربية لإذاعة البى بى سى لمدة عقد من الزمان. يقدم برنامج القاسم المسمى "الاتجاه

المعاكس" مناقشات ومناظرات سياسية تدار بقدر من الحدة قلما نجده فى الشبكات الإخبارية الأوروبية. وعندما قابلت القاسم فى "أبو ظبى" كان قد انتهى لتوه من إجراء مقابلة مع الصحيفة المحلية بينما كان يحاول الهروب من صحفيين آخرين وبعض المعجبين. سألته عما كانت الانتقادات الموجهة لبرنامجه فى طريقها للانحسار فأجاب قائلاً: "ما من نهاية لذلك. فالناس لا تريد أن تصدق أننى أختار الموضوعات والضيوف، وأننى لا أتعرض للتأثير أو الرقابة من أية سلطة، مما يجعلنى أتمتع بحرية أكبر مما كنت عليه فى البى بى سى".

كانت الحكومة القطرية عند بدء بث القناة تتلقى شكاوى من الحكومات العربية ضد القناة بمعدل شكوى فى اليوم، حتى وصل عدد الشكاوى خلال السنة الأولى للبث خمسمائة شكوى. وقد سحب القذافى سفيره من قطر بعد أن بثت القناة مقابلة مع أحد قادة المعارضة الليبيين، كما قدمت العراق شكوى حينما كشفت القناة عن المبالغ التى أنفقها صدام حسين على الاحتفالات بعيد ميلاده، بينما عبرت تونس عن غضبها إزاء اتهامها بانتهاكات لحقوق الإنسان، وشجبت الصحف الإيرانية "الإساءات" الموجهة لآية الله خومينى، كما قطعت الجزائر التيار الكهربائى عن بعض المناطق حتى لا يتابع المواطنون برنامجًا تليفزيونيًا يتهم الجيش هناك بالتورط فى عدة مذابح، واعترض عرفات على إجراء المحطة مقابلات مع قادة حماس، فى الوقت الذى أبدت حماس غضبها من ظهور ساسة وعسكريين إسرائيليين فى برنامج "الاتجاه المعاكس".

وقد أثارت الانتقادات التى وجهها بعض المعارضين على قناة الجزيرة غضب الحكومتين السعودية والمصرية؛ إذ دائمًا ما كانت التغطية الصحفية للدولتين طيبة للغاية فى الغرب بوصفهما من حلفائه. وقد تطلب الأمر أن يقتل مواطن غربى فى المملكة السعودية؛ لكى يركز الإعلام الغربى انتباهه لشئونها، ولكن الاهتمام والغضب سرعان ما خفتا مع الوقت. كان ذلك قبيل أحداث الحادى عشر من سبتمبر، بينما أنفقت السعودية على مدار العقد الماضى مئات الملايين من الجنيهات على

الإمبراطوريات الصحفية وموظفيها فى الغرب أو فى العالم العربى على حد سواء من أجل ضمان تقديمها بصورة جيدة. وقد وُصفت تغطيات الجزيرة لبعض الأحداث بالخيانة، ومارست الرياض والقاهرة ضغطًا هائلاً على قطر لتكميم المحطة التليفزيونية ولكن أمير قطر تجاهل تلك الاعتراضات، بينما نفت الحكومة هناك أن تكون القناة إحدى أدوات سياسة قطر الخارجية.

حظيت الجزيرة خلال الأعوام الأولى لبثها بترحيب كبير من واشنطن والقدس. فقد احتفى توماس فريدمان الصحفى بجريدة نيويورك تايمز بمولد المحطة التليفزيونية مكيلاً لها المديح؛ حيث قال: إنها تعلن قدوم فجر الحرية فى المنطقة العربية، بينما عبر إيهود ياعارى فى جريدة جيروزاليم ريبورت منذ عامين عن حماس مماثل: "على بعد عدة دقائق من ديوان الأمير، ومن مبنى صغير متواضع، تقوم إمارة قطر الصغيرة الآن بإنتاج سلعة شحيحة ومطلوبة فى العالم العربى: الحرية"، مضيفًا: "تضطلع إشارات بث القناة القوية بمهمة تغيير المنظومة الثقافية والسياسية فى الشرق الأوسط".

تسبب ما حدث فى سبتمبر الماضى فى توقف مفاجئ لتلك الموجة من المديح، وخاصة بعد أن قامت الجزيرة ببث مقابلة مع أسامة بن لادن ومساعده المصرى أيمن الظواهرى. فقد منعت التليفزيونات الغربية بث تلك المقابلات بحجة ملفقة بأنها قد تحتوى على تعليمات مشفرة بعمليات إرهابية قادمة. ولكن السبب الرئيس كان يكمن فى الخوف: إن تقوض ملامح ابن لادن الوديعة صورة الشرير الخالص التى تروجها عنه وسائل الإعلام. فقد قال لى أحد منتجى التليفزيون الألمان المخضرمين فى أكتوبر الماضى: إن ابنه ذا العشرة أعوام قال له بعد أن رأى ابن لادن على شاشات التليفزيون: "أبى، إنه يشبه يسوع".

وهنا وقعت قطر تحت ضغط كبير يطالبها بفعل شىء إزاء الجزيرة. فقد تقدمت مورين كوين سفيرة الولايات المتحدة لدى قطر بشكوى شديدة اللهجة لوزير الخارجية،

ولكنها لم تأت بنتيجة تذكر. وقد ذهب كولين باول فى مهمة لتخويف الأمير فى أكتوبر؛ حيث دافع الأخير مجدداً عن حرية الصحافة مؤكداً أنه لا ينبغى أن تتدخل الدولة فى ما وصفه بـ "عمليات تجارية خاصة". وقد استمع المسئولون فى الجزيرة بأدب لحديث المسئولين الأمريكيين لدى اجتماعهم معًا وأخبروهم بأن القناة سوف يسعدها إجراء مقابلة مع الرئيس الأمريكى أو مع من يرشحهم الرئيس، ثم أفسحت القناة مساحات شاسعة لكوندوليزا رايس وتونى بلير وكولين باول لعرض آرائهم، وهى مقابلات لم يكن لها تأثير يذكر على الجمهور العربى.

وعندما بدأت الغارات الجوية على أفغانستان، كانت الجزيرة الشبكة التليفزيونية الوحيدة التى تبث تقارير إخبارية من هناك. وهنا بدأ صعودها المرموق. كانت القنوات فى الغرب تبحث بدأب عن تغطياتها المصورة وتشتريها وتجرى لها بعض المونتاج بعناية، ثم تبثها مثلما حدث فى شبكة السى إن إن والبى بى سى وكافة شبكات التليفزيون الأوروبية الكبرى، ثم قصفت الطائرات المبنى الذى كانت تستخدمه القناة بمنزلة استوديو مؤقت لها فى كابول فى الوقت الذى كان أحد صحفيى البى بى سى قد بدأ يستخدمه لبث تقرير حى. وقد شاهدنا الصحفى يرتطم بالأرض ونحن جالسين أمام شاشات تليفزيوناتنا نشهد "القصف غير المقصود" المذاع على الهواء. وإنما تعرضت إحدى قنوات التليفزيون فى بلجراد لهجوم من قبل قوات الناتو فى عام ١٩٩٩، أقر وقتها كل من بلير وكلنتون بأن القصف كان متعمداً، مبررينه بأن القناة كانت تبث "معلومات خاطئة عن عمد". أما قطر، فيصعب تصنيفها عدواً، أما المدافعون عن التحالف يتعاملون مع الأمر بحرص أكبر عند تفسير القصف الذى حدث فى كابول. وقتها ادعوا أن المبنى كان مستهدفًا؛ بسبب "تقارير" أفادت أنه كان يؤوى مشتبهًا فيهم ينتمون للقاعدة، وأنهم لم يكونوا يعرفون أنه مقر لتليفزيون الجزيرة.

ولكن تغطية قناة الجزيرة كان لها التأثير الأعظم على الجبهة الثانية فى "الحرب على الإرهاب". فبعد أن دخلت المدرعات الإسرائيلية نابلس فى أوائل الشهر نفسه،

قامت القناة ببث قصة حول هذه الواقعة. وقد اقتطعت الوصف من منظمة إحدى المنظمات الفلسطينية لحقوق الإنسان:

تلقى خالد سيف، البالغ من العمر واحداً وأربعين عاماً (متزوج ولديه أربعة أطفال)، مكالمة على هاتفه المحمول فخرج إلى الشرفة للحصول على تغطية أقوى. وبمجرد خروجه للشرفة أطلقت القوات الإسرائيلية الرصاص على رأسه فأردته قتيلاً. وعند سماعه صوت الطلقات، خرج محمد فرعونية (متزوج ولديه ستة أطفال) بدوره إلى الشرفة، ففتحت القوات الإسرائيلية النار عليه بدورها؛ حيث أصيب بطلقات فى الصدر والبطن. وعندما حاول أخوه محمود فرعونية، إنقاذه، صوبت القوات الإسرائيلية رشاشاتها نحوه ومنعته من ذلك. وقد أخذ محمد ينزف حتى الوفاة فى حين أكد شهود العيان أن القوات الإسرائيلية قد تركت محمد فرعونية ينزف طوال تسعين دقيقة.

وتأتى التغطية اليومية التى تقدمها الجزيرة لمثل هذه الأحداث مختلفة تماماً عما نراه على شاشات التليفزيون فى أوروبا، ناهيك عن الولايات المتحدة. فقد أسست شبكة السى إن إن لشهرتها الصحفية خلال حرب الخليج من خلال ما كان يقدمه مراسلها بيتر أرنيت، الذى كان متمركزاً ببغداد، الذى أثارت تقاريره حول المصابين والقتلى بين المدنيين وقصف الأهداف غير العسكرية غضب الولايات المتحدة، مما جعل الحكومات الغربية بصفة عامة أكثر حرصاً فيما بعد على التحكم فى بث المعلومات فى أوقات الصراع، ودفعها لتحاول بجد منع أى جهة أخرى من تغطية الأحداث التى تحاول هى التكتم عليها.

وبعد فشل الولايات المتحدة فى تحجيم نفوذ الجزيرة، ها هى الآن تحاول محاكاة النجاح الذى حققته القناة. فمع ازدياد احتمالات نشوب الحرب فى العراق - تلك الحرب التى أدت إلى ما يبدو كأنه انقسام فى الغرب، والتى لا تحظى بدعم فى العالم العربى على الإطلاق - فهناك خطة لإطلاق قناة عربية ممولة من وكالة المعلومات الأمريكية، التى يمكن أن يضاف إليها خبرات السى إن إن وخدمة البى بى سى

العالمية. أما الإسرائيليون فقد أطلقوا بالفعل قناة مشابهة، ولكنها لم تحدث تأثيراً يذكر. أما الفكرة القائلة: إن العرب مغسولو العقول وأن كل ما يلزم هو أن يتلقوا جرعات منتظمة من بوش وبلير، فلا تنم سوى عن تجاهل تام لواقع المنطقة، ولكن المخطط قد توغل بالفعل.

سألت فيصل القاسم: "أى اسم سوف يطلقون على قناتهم؟ الإمبراطورية؟".

أجابنى قائلاً: "لا. فلقد اختاروا الاسم بالفعل. الحقيقة".

هذا هو المقابل المباشر لكلمة "برافدا" فى اللغة الروسية.

أغسطس/آب ٢٠٠٢

١٥

حادثة قتل فى العائلة

لو كانت الخيانة الجنسية تواجه دائمًا بالرصاص لكان الكثير منا الآن فى عداد الأموات. تخبرنا سيرة حياة جابريل جارثيا ماركيز كما كتبها جيرالد مارتن بأن روايته وقائع موت معلن (Chronicle of a Death Foretold) مستقاة من حادث مقتل كاتانو جينتايل صديق الروائى فى عام ١٩٥١ . فقد أغوى الصديق مارجريتا شيكا سالاس وأفقدها عذريتها ثم هجرها، ثم أخبر أحدهم زوجها يوم العرس بأنها ليست عذراء، فعادت العروس إلى بيت أهلها، ثم بحث إخوتها عن جينتايل وقاموا بتقطيع جسده إلى أجزاء، وقد ألقى ماركيز اللوم فى كل هذا على الدكتاتورية الاجتماعية - الأخلاقية التى كانت تمارسها الكنيسة الكاثوليكية.

ولكننا بالطبع نرى أن النساء هن اللواتى يُقتلن جراء انتهاك أعراف السلوك الجنسى، وقد سمعنا مؤخرًا عن عدة حوادث مماثلة فى بريطانيا؛ ففى مدينة سارى، لقيت باناز محمود الكردية الأصل والبالغة من العمر عشرين عامًا مصرعها جراء رفضها زيجة مرتبة، ورفض والدها علاقتها بصديقها الجديد. ومن ناحية أخرى شهدت العراق مؤخرًا سلسلة من حوادث القتل المماثلة؛ ففى الشهر الماضى ألقيت مادة حمضية على ثلاث نساء كن يتبادلن الحديث مع أحد أصدقائهن، هذا على الرغم من أن العراق كان يسجل فيما قبل أعلى نسبة بين الدول العربية فى دمج النساء فى كل مستويات المجتمع.

وهناك أيضًا باكستان؛ ففى عام ٢٠٠٥ دفع برفيز مشرف بتشريع يجعل من القتل من أجل الشرف جريمة عقوبتها الإعدام، ولكن الإحصاءات الرسمية تقر بأن

عام ٢٠٠٦ قد شهد ٢٦,١ حالة قتل من أجل الشرف، بينما شهد العام التالى نصف عدد تلك الحالات. ويرجح أن تكون الأعداد الحقيقية أعلى من ذلك؛ حيث لا يتم الإبلاغ عن الكثير من تلك الحالات. "تعد النساء ملكية رجال العائلة، بغض النظر عن الطبقة الاجتماعية أو الجماعة العرقية أو الدينية التى ينتمين إليها، ويحق لصاحب الممتلكات تقرير مصير ممتلكاته". هذا ما نقلته فى عام ١٩٩٩ طاهرة شاهد خان عضوة مركز شركات جاه التى تشن الحملات الداعية إلى حصول النساء على حقوق متساوية مع الرجال، كما ترى مفوضية حقوق الإنسان فى باكستان أن العنف الأسرى "يعتبر أمراً عادياً... حيث أوضحت عينة من المسح أن ٨٢٪ من النساء فى المناطق الريفية من إقليم البنجاب يخشين العنف الناجم عن استياء أزواجهن من أمور بسيطة. أما فى المناطق الحضرية الأكثر تقدماً فقد أقرت ٥٢٪ من النساء تعرضهن للضرب على أيدى أزواجهن".

فلنتخيل الموقف التالى: يرى الرجل فى المنام أن زوجته تخونه. يستيقظ ليجدها راقدة بجانبه فيقتلها فى خضم ثورته. حدث هذا بالفعل فى باكستان وأفلت القاتل من العقاب. لو كانت الأحلام تبرر القتل من أجل الشرف، فأين لأية امرأة أن تشعر بالأمان؟ ولأن الشرطة والقضاء يعتبران حوادث القتل داخل الأسرة شأناً خاصاً، نجد أن معظم الوقائع لا تجد طريقها إلى المحاكم حتى لو تم الإبلاغ عنها. يشيع القول: إن على المجتمع حماية قيمه المؤسَّسة. ولهذا ليس لدينا سوى الاعتماد على معلومات تجمعها مفوضية حقوق الإنسان والمحاميات الجسورات من أمثال هينا جيلانى وأسماء جيهانجير، وهما أختان تلقين حتى الآن عديداً من التهديدات بالقتل.

حدث فى عام ١٩٩٩ أن كانت هينا جيلانى فى مكتبها مع سامية ساروار، زوجة وأم لطفلين من إقليم بيشاور تسعى للطلاق من زوجها حين اقتحمت أم الزوجة الحجرة يتبعها رجلان مسلحان قد أطلقا النار على ابنتها فأردياها قتيلة. كانت سامية ساروار قد تزوجت من أحد أبناء عمومتها فى عام ١٩٨٩، ثم دأب الزوج على ضربها وركلها لمدة ستة أعوام، ولكنها قررت العودة إلى بيت والديها بعد المرة التى ألقى بها الزوج من

أعلى الدرج وهى حبلى بطفلهما الثانى. وحالما أخبرت الزوجة والديها برغبتها فى الطلاق هدد الوالدان بقتلها. وقد كان هؤلاء أناساً متعلمين وأثرياء.

ذاعت واقعة قتل أخرى خلال هذا العام؛ حيث لقيت تسليم سولانجى ابنة أحد تجار الماشية فى منطقة خاريبور فى إقليم السند مصرعها. كانت تسليم تريد الالتحاق بالجامعة لتصبح طبيبة مثل عمها، ولكن كان عليها أن تقبل بالزواج من أحد أبناء عمومتها من أجل تسوية نزاع على الممتلكات طال أمده داخل العائلة. وقد حاولت أمها، زاكارا بيبى، إثناءها عن تلك الزيجة ولكن تسليم أصرت. ذهب أبو زوجها زامير سولانجى إلى منزل والديها؛ ليستلمها مقسماً بالقرآن ألا ينالها مكروه فى كنفه. وبعد مرور شهر واحد على الزواج، وصلت الأم رسالة من ابنتها تقول: "سامحينى يا أمى. كنت على حق وكنت أنا المخطئة. أخشى أنهم سوف يقتلوننى". وقد قتلوها بالفعل فى السابع من مارس (آذار) وكانت حبلى فى شهرها الثامن؛ حيث اتهمها المقسم بالقرآن بالخيانة وبأن الطفل الذى كانت تحمله ليس لابنه. وبعد أن جاءها المخاض ولدت ابنها الذى سرعان ما ألقوا به للكلاب، الضالة. صرخت الفتاة المذعورة تطلب الرحمة لكنهم أطلقوا عليها الكلاب؛ ثم قتلوها بالرصاص. وعلى الأقل فقد حدث فى هذه الواقعة تحقيق أسفر عن توجيه تهمة القتل للزوج، وهو الآن قيد المحاكمة.

كما ذاعت هذا العام واقعة أخرى تم فيها وأد خمس سيدات من إقليم بالوشستان وذلك فى قرية بابا كوت التى تقع على بعد حوالى ٢٥ كيلو متراً من قيتا، عاصمة إقليم بالوشستان. كان ثلاث من هؤلاء النساء صغيرات السن أردن الزواج من رجال اخترنهم بأنفسهن، وكانت امرأتان أكبر سناً تساعداهن. وقد ألقى القبض على ثلاثة رجال من العائلة فى سياق هذا الحادث، فى حين ذكر قائد الشرطة المحلية فيما بعد أن أخا اثنتين من الفتيات قد اعترف بإطلاقه النار على ثلاث من النساء الخمس واشترك فى دفنهن على الرغم من أنهن لم يكن قد توفين بعد. هذا، ولم يتقرر موعد المحاكمة حتى الآن.

وقد دأب المتزمتون على اعتبار الحب أمراً يجلب العار على العائلات؛ إذ يجب أن يبقى قرار من تتزوج بمن فى أيدى كبار العائلة من الرجال المسيطرين، وهو غالبًا قرار يأتى مدفوعًا بأسباب تتعلق بأملاك العائلة. وقد أكثر الشاعر الأردى مير حسن فى القرن الثامن عشر من القول: إن من يقع فى الحب سوف يحترق بناره ويفنى. هذا بالضبط ما حدث فى مدينة واه فى إقليم البنجاب فى أكتوبر الماضى. يبلغ عدد السكان فى واه نحو نصف مليون نسمة وتتجمع فيها أكبر مجموعة من المصانع فى باكستان. ولكن المدينة كانت فيما قبل قرية ناعسة وكأنها تطفو فوق صفحة الماء. وقد فتنت النهيرات والبحيرات المحيطة بها الإمبراطور المغولى جاهانجير فتوقف هناك وهو فى طريقه عائداً لوطنه فى كشمير، ويقال: إنه صاح متعجبًا: "ياه" أو "واه" مما أعطى القرية اسمها. وقد كانت قبل ذلك تسمى جلالسار نسبة لأحد أسلافى الذى كان يدعى ساردار جلال خان وكان زعيمًا لقبيلة خطار منذ ما يقرب على الثمانمائة عام. وقد أراد خليفته إرضاء الإمبراطور فوافق على تغيير الاسم. ولا يمكننى تخيل أن ذلك التغيير قد جاء دون مقاومة (يقال: إن إحدى الفصائل كانت تعارض قدوم المغول بشدة)، ولكن جاء الفوز من نصيب هؤلاء الذين يخاطبون السلطة بلطف.

بنى جهانجير استراحة جميلة فى واه على شكل قبة تحيط بها المياه الجارية من كل جانب. وفى عام ١٦٣٩ أشرف ابنه شاه جهان على تخطيط وإقامة حدائق للزهور وأبهاء بالمدينة. وقد كنت معتاداً على لعب الغميضة مع أولاد عمومتى فى هذا المكان منذ نصف قرن من الزمان. كانت الأبهاء فى ذلك الوقت قد تهدمت، مما أسبغ عليها جواً أكثر سحراً فى الليل تحت ضوء القمر. وكانت إحدى بنات عمومتى تقسم بأنه من الممكن رؤية أشباح المغول فى ليالى الشتاء السديمة ولكن لم يصدقها أحد. كان حارس المكان رجلاً سليط اللسان على الرغم من أنه كان فى حديثه مع عماتى وأعمامى معتاداً على التحدث باحترام مبالغ فيه؛ لكى يخفى مكره وحدة طباعه. ولكننا لم ننخدع قط بما يفعل وكنا نهدده بفضح أمره لو فكر فى التضييق علينا.

والآن تتربص أشباح أخرى هناك؛ بنى ساردار غايرات هيات خان، أصغر أخوالى، بيتًا له على بعد ميل ونصف من القرية القديمة، تاركًا البيت الكبير الذى كنا نتشارك فيه جميعًا. وقد انتقلت عايشة، أم جدتى الكشميرية للإقامة معه هناك. كانت الجدة عايشة من أحسن الطاهيات فى العالم قبل أن تفقد بصرها تمامًا، ولهذا فقد كانت زياراتى لها دائمًا مفيدة. ذهبت لأودعها قبيل سفرى من باكستان لبريطانيا فقالت لى: "أشعر بشارب، هل هذا أنت؟" أجبتها بصوت حاولت أن أجعله أعمق: "لا، أنا غريب فى قريتكم وقد سمعت أن خبز الباكاركاني الذى تصنعينه لا مثيل له." (خبز الباكاركانى هو المقابل الكشميرى الهش للكرواسو). لم أزر خالى منذ أمد طويل، ولكننى أسمع أنه أصبح فى حالة من الهشاشة تشبه الباكاركانى.

فى آخر أسبوع من أكتوبر، قتلت زينب حفيدة خالى، التى لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة بعد، بعد أن أطلق أخواها إينام وحمزة أحمد الرصاص عليها. ويبدو أن زينب كانت تتخذ حبيبًا وأنها رفضت التوقف عن مقابلته على الرغم من التحذيرات المتكررة. كانت تتحدث معه على الهاتف فى منزل جدها عندما أطلق أخواها سبع رصاصات اخترقت جسدها. لا أدرى ما إذا كانت أمها روحى التى كانت أكبر بنات غايرات التى رأيتها آخر مرة وهى فى العاشرة من عمرها، كانت متورطة فى تلك المؤامرة. وسواء كانت متورطة أم لا، فما زلت أشعر بصدمة كبيرة لأن خالى قد سمح بدفن جثة الفتاة فى اليوم نفسه دون حتى مجرد الإبلاغ عن الحادث فى قسم الشرطة، ناهيك عن إجراء تشريح. كانت زينب تستحق على الأقل مثل هذا الإجراء. وقد قيل لى: إن غايرات أضحى رجلاً مسنًا وضعيفًا وأنه شعر بغضب شديد وأراد إبلاغ الشرطة ولكن ابنته وآخرين من أفراد الأسرة أقنعوه بالعدول عن ذلك؛ حيث كانوا جميعهم رافضين تقبل تبعات ما شهدوه بأعينهم. ربما لم يكن إيمانه بعدالة ورحمة الله قويًا كما كان يدعى. أيًا كان السبب فهو غير مقبول. يجب استخراج الجثة وإلقاء القبض على القتلة ومحاكمتهم كما ينص القانون.

ديسمبر/ كانون أول ٢٠٠٨

١٦

ملصق مثير فى لاهور

على الرغم من أن إسلام آباد عاصمة باكستان الرسمية، تتمركز السلطة الحالية فى لاهور عاصمة إقليم البنجاب. لا تفتأ تلك المدينة التى قضيت فيها أول عشرين عامًا من عمرى، والتى ما زلت أحبها، عن التغير، وهو غالبًا تغير للأسوأ. كان مركز التسوق القديم القابع فى طرف المدينة الجنوبى بالقرب من مدفع كيمز جان الشهير فى الماضى قبلة لكل أنواع البوهيميين. وكنت ترى خلال شهر رمضان شعراء وفنانين ومفكرين يساريين ومخرجين سينيمائيين يجلسون على طاولات المقهى يلقون اللعنات على الدكتاتور الذى فى السلطة أو يتناقشون حول مزايا الشعر المرسل وهم يغمسون قطع السمبوسك فى معجون الفلفل الحار والنعناع ويرشفون الشاى. كان هذا منذ أكثر من ثلاثين عامًا. وقد اختفى خلال تلك المدة الطويلة تمثال الملكة فيكتوريا الذى كان مقامًا أمام مقر البرلمان فى البنجاب. أرادت إحدى الأرواح الخلاقة استبدال التاريخ بالخيال، فإذا بمجسم ضخم للقرآن يقف متقلقلاً على القاعدة التى كانت تجلس عليها الملكة.

يعد مركز التسوق المتنزه الرئيسى فى لاهور؛ حيث يمثل حلقة الوصل بين الأحياء التى كان يقطنها الموظفون البريطانيون والمعسكرات فى الجزء الذى ازدهر مع الاستعمار فى المدينة مع البازارات والآثار التى تعود إلى عهد إمبراطورية مغول الهند. تختنق المدينة بالسيارات الخاصة وسيارات الأجرة التى تسير بسرعة خمسة أميال فى الساعة. وقد لاحظت أن صورة أسامة بن لادن أحد أكثر الملصقات انتشارًا على سيارات الأجرة والركشو. يكاد "أكثر الإرهابيين ملاحقة" من قبل وزارة الخارجية

الأمريكية أن يصبح بطلاً فى باكستان. وعلى عكس ما قد يتصوره الأغراب، لا تنحصر جماهيرية ابن لادن بين العوام فى المدينة. فهناك طلاب من الطبقة الوسطى يبحثون فى الدين عن حلول متطرفة، وهذا ليس مقصوراً على لاهور. يمكن اعتبار لاهور، دون عن أى مدينة باكستانية أخرى، أكثر المدن قدرة على التعبير عما يحدث فى البلد ككل، ذلك أنه منذ انفصال بنجلاديش عن باكستان فإن الأخيرة تعتبر فى الحقيقة إقليم البنجاب الأكبر. أما أقاليم السند وبالوشستان والمناطق الحدودية فهى قليلة الكثافة السكانية وتتبع النظام القبلى إلى حد كبير.

جاءت آخر الأحداث المثيرة فى لاهور متمثلة فى افتتاح متجر بايس وهو متجر كبير (يمتلكه عمران خان ضمن آخرين) فى منطقة جولبرج التى كانت من قبل منطقة سكنية واسعة، وأضحت الآن مرتعًا لمقرات الشركات الصغيرة والكبيرة. وقد جذب مدخل المتجر عدداً من الزائرين أكبر ممن جذبتهم البضائع المعروضة. فقدم إليه من القرى المجاورة فلاحون ذوو شوارب مدهونة بزيت الخردل يصطحبون عائلات كاملة وملئوا بهو المتجر، بينما يتصارخ الأطفال والكبار فى بهجة وهم يصعدون ويهبطون على الأدراج المتحركة. وكان من الممكن أن يعد المشهد مشهداً من باريس عند بداية القرن، وليس من لاهور فى حقبة العولمة، لولا الضوضاء الآتية من مكبرات الصوت فى المساجد المجاورة التى تبدو كأنها تتبارى فى إجبار الناس على التوقف عن العمل أو الحديث وسد آذانهم.

تقع أحد مفاخر لاهور المعمارية الحديثة فى موقع قريب من المتجر، مختبئة فى حارة صغيرة: معهد دراسات المرأة، وهو كلية للدراسات العليا تقيم فيها طالبات من جنوب آسيا. وقد أثارت فكرة وجود مثل هذا المركز حفيظة ذوى اللحى، ولكن ذلك لم يضعف عزيمة مديرة المعهد نجحات 'أرنوبة' خان. تساءلت فى نفسى عمن يكون المصمم المعمارى الذى صمم المبنى بين أكبر المصممين فى البلد.

أجابتنى "أرنوبة" وصوتها الأجش ينم عن الفخر قائلة: "ليس واحد منهم؛ لأننا قررنا أن نوكل المهمة لامرأة تدعى فوزية قرشى تعمل محاضرة فى العمارة فى كلية الفنون الوطنية. كان هذا المبنى أول عمل كبير يوكل إليها".

استغلت قرشى قطعة صغيرة من الأرض لتبنى عليها بنيانًا من ثلاثة طوابق يحقق أكفأ استفادة من الضوء والمساحة. كان الهدف الرئيس من إقامة المبنى - أو الأمر الذى يمنحه طابعه الخاص - يكمن فى خلق إحساس بالترابط الاجتماعى. يحقق المبنى تزاوجًا حصيفًا بين الحداثة والتراث الإسلامى، بساحته الرئيسة وشرفاته وغرف الدراسة التى يغمرها الضوء الطبيعى طوال النهار.

ولكن كيف لمعهد لدراسات المرأة أن يصمد وسط ثقافة لا تزال النساء فيها تقتل فى السند وبالوخستان لجلبهن "العار" لعائلاتهن؟ لا تمتد سلطة الدولة فى باكستان لتلك المناطق؛ ولذلك فالمرأة التى ترفض الزواج من رجل اختاره أبوها أو تلك التى تقيم علاقة خارج إطار الزواج يتم التخلص منها دون مراجعة. يعرف الجميع هوية القتلة ولكن تبقى الشرطة بعيدة عما يحدث. هنا يعد الناس التحقيق فى وقائع القتل أحد اختصاصات العائلة وكبار القرية. وقد ظلت المحاميات النسويات وناشطات حقوق الإنسان على مر العقود يحاولن تغيير الأوضاع وقد حققن بعض النجاحات. كانت ذلك أحد الأمور التى تعاملت معها الحكومة السابقة بكثير من التنوير. ولكن اليد الرقيقة التى وقعت مرسومًا بإقامة تسهيلات أكثر للنساء رخصت كذلك بتسليح الطالبان والهجوم على كابول. أما الحكومة الحالية فتحاول الدفع بقوانين دينية تجعل من النساء مواطنات من الدرجة الثانية، وقد بدأ التابعون لها يشجبون وجود المعهد الذى يعدونه بؤرة للإلحاد والشيوعية. وقد كان من المتوقع استخدام التهمة المعتادة فى مثل تلك الحالات وهى السحاقا، ولكن الكلمة كما لاحظت لا وجود لها فى اللغتين الأردية والبنجابية، كما لا توجد محاذير تمنع استخدام عبارات مزركشة لتوصيف المثلية الجنسية لدى الرجال، أو لوصف نكاح المحارم أو العنف الوحشى.

كان الهدوء الذى يطفو على السطح هدوءًا خادعًا فى المرة الأخيرة التى زرت فيها باكستان، فبينما كنت أتناول الغذاء مع أمى فى أحد مطاعمها المفضلة فى إسلام آباد جاء شخص مرح ذو شارب ضخم من الطاولة المجاورة ليحيينا. كانت زوجته، بينظير بوتو، فى زيارة رسمية فى الخارج وكان السيناتور آصف زرادى، وزير الاستثمار، مسئولاً عن الترفيه عن الأطفال فى غيابها، لذا فقد اصطحبهم للغداء. تبادلنا التحية وسألته عن سير الأمور فى البلاد، فأجابنى بابتسامة مقتضبة ولكن ساحرة: "على ما يرام. كل شىء بخير". لم يكن وقتها يعرف ما يكفى.

كان التحضير جاريًا لانقلاب سلمى خلف الأبواب المغلقة فى إسلام آباد. وكانت بينظير على وشك التعرض لخيانة جمة. فقد كان فاروق ليغارى، الرجل الذى اختارته بعناية ليكون رئيسًا للبلاد، يجهز لحل حكومتها بعد مشاورات سرية مع الجيش وقيادات المعارضة. وقد قابلت أحد معارفى القدامى الذى أصبح مسئولاً كبيرًا وكان من مؤيدى بينظير على العشاء خلال الأسبوع نفسه فوجدته محبطًا تمامًا. قال لى: إن الرئيس قد طلب عقد لقاء استثنائى مع رئيسة الوزراء، وذلك فى محاولة لحل الأزمة. جاءت بينظير إلى الاجتماع كعادتها بصحبة زوجها مما أغضب ليغارى؛ لأن موضوع جشع زوجها المهول كان من ضمن الموضوعات التى أراد مناقشتها معها. وعلى الرغم من ذلك فقد تمالك الرئيس هدوءه محاولاً إقناع الزوجين أن الأمر يتعدى رغبة خصومهم السياسيين فى التغيير؛ إذ بلغ مدى الفساد وما يتبعه من تهالك إدارى حد الفضيحة القومية، وأنه أصبح واقعًا تحت ضغط الجيش وآخرين للتحرك ضد الحكومة. وقد طلب الرجل وقتها أن تساعده بينظير لكى يتمكن من الوقوف فى وجههم، حاثًا إياها على تقويم سلوك زوجها وعدد من الوزراء المنفلتين. هنا رد زرادى على الرئيس بعناده المعهود حيال الدفاع عن مصالحه المادية مذكرًا إياه أنه ما من أحد يقدر على الادعاء بالنزاهة الكاملة فى باكستان. كان التهديد واضحًا: إذا فكرت أن تمسنا، فسوف نفضح أمرك.

شعر لاغارى أن منصبه قد تعرض للإهانة وبدأ يرتعد من الغضب مقترحًا أن يترك وزير الاستثمار الغرفة. أشارت بينظير بالموافقة فخرج زردارى. وهنا توسل إليها لاغارى مجددًا لكبح جماح زوجها. ابتسمت بينظير وأعطت رئيسها محاضرة عن الولاء ومدى حرصها عليه. أخبرته أن هؤلاء الذين يشكون يغارون من نجاح زوجها فى عالم الأعمال. ما هم إلا أناس معتادو الشكوى أو ممن انحسر عنهم النجاح أو أوغاد يكرهون أن يتجاهلهم الآخرون. ولكنها لم تقدم أية تنازلات.

يعد لاغارى رجلاً صادقًا ومستقيمًا بالمعايير الباكستانية. وقد اختارته بينظير لمجرد أنها كانت تعتقد أنه ليس لديه طموح فى تحقيق سلطة وأنه سوف يفعل ما تأمره. وكانت ترد على من يعيب عليها الاختيار قائلة: "قد لا يكون ذكيًا ولكن ضميره حى". وقد أخبرنى ليغارى فى مطلع العام ذاته أن هذا الاجتماع، الذى جاء ختامًا لاجتماعات كثيرة، جاء فاصلاً، إذ لم يعد باستطاعته بعده تحمل تصرفاتها المنفلتة، وأنها لو استمرت فى الحكم فلسوف يتدخل الجيش للمرة الرابعة فى تاريخ البلاد ولن يكون تدخله فى صالح الديمقراطية. قرر الرئيس رغمًا عنه التوسل إلى التعديل الإنجليزى فى القانون الذى كان الدكتاتور السابق الجنرال ضياء الحق قد أهداه للتشريع، وهو سلطة الرئيس فى حل حكومة منتخبة، وتقرر إجراء انتخابات جديدة خلال تسعين يومًا.

كانت التهمة الرئيسة الموجهة لبينظير وزردارى هى الفساد؛ حيث قيل: إن الزوجين قد استخدما مركز رئيسة الوزراء فى تحقيق ثروة كبيرة تقدر بحوالى بليون دولار وقاما بتحويل أموالهما للخارج. وسرعان ما ألقى القبض على زردارى بعد سقوط حكومة بينظير وما زال محجوزًا فى أحد سجون كراتشى يواجه عقوبة السجن؛ حيث وجهت إليه عدة تهم يحاول محامو الحكومة حتى الآن فى إيجاد أدلة عليها حتى وإن كان يحاكم أمام محكمة باكستانية تتردى فيها معايير الأدلة بدرجة كبيرة. وما زال النظام يبحث عن شاهد يعتمد عليه؛ لأن معظم أصدقاء زردارى وشركائه فى

أعماله قد تمسكوا بولائهم له، بل فضّل أحدهم الانتحار، وكان يشغل منصب رئيس مجلس إدارة شركة الحديد والصلب الباكستانية، على أن يشهد ضد رئيسه السابق. ويؤكد بعض مؤيدى بينظير المقربين - وهم موجودون بالفعل - أن زوجها قد أساء إلى مركزها السياسى، وأنه محتال ومدّعٍ ومبدد للثروة ومنفلت بل ما هو أسوأ من ذلك. وقد حاولت بينظير منذ عدة أسابيع الدفاع عنه فى كلمة ألقتها فى اجتماع ضم بعض الأصدقاء فى إسلام آباد قائلة: إن الناس دأبوا على إساءة فهمه، ولكن الحضور بدءوا فى التعبير عن رفضهم لما تقول حتى قبل أن تكمل جملتها، صائحين: "لا! لا!" مما جعلها تتوقف قليلاً ثم تقول بحسرة: "إننى أتعجب عن السبب الذى يجعلنى أواجه رد الفعل ذاته فى كل مرة أتحدث عنه".

لا أعتقد أن زردارى كان السبب الوحيد فى انخفاض شعبية بينظير؛ إذ لم يفعل حزب الشعب سوى القليل للفقراء الذين كانوا يشكلون القطاع الأكبر من ناخبيه. وفى الوقت نفسه كان الكثير من الوزراء الذين عينتهم، سواء على مستوى الدولة أو الأقاليم مشغولين بتعبئة جيوبهم. فمثلاً لم تنخفض أعداد حالات وفيات الأطفال طوال فترة حكمها؛ بل بقيت دون تغيير يذكر. وقد أحاطت بينظير نفسها بجماعات الأصدقاء والمتملقين فانعزلت عن القطاعات التى انتخبتها وفقدت اتصالها بالواقع. وقد منى حزب الشعب بهزيمة ساحقة فى الانتخابات العامة التى تلت عزلها من منصبها. قد يكون معظم الناخبين الباكستانيين أميين ولكن ما من شك أن وعيهم السياسى كبير؛ لذا فقد رفض مؤيدو بينظير التصويت لها بعد أن أصابتهم خيبة الأمل واللامبالاة ولفّهم الحذر. ولكنهم كذلك لم يقبلوا التصويت للعدو. فاز التحالف الإسلامى بأغلبية ساحقة (لهم الآن أكثر من ثلثى مقاعد البرلمان)، ولكن عملية التصويت شهدت امتناع ٧٠٪ ممن لهم حق التصويت عن الذهاب للجان.

لاهور هى مسقط رأس عائلة شريف التى تحكم باكستان منذ عام ١٩٤٧ . كانوا يعملون حدادين فى إقليم البنجاب الشرقى (الهند حاليًا)؛ حيث لجئوا إلى أراضى

الدولة الإسلامية المؤسسة حديثًا بحثًا عن الأمان، وكانوا يعملون بجد فازدهرت مسابكهم. ولم يكونوا مهتمين بالسياسة. وقد نصح أحدهم ذو الفقار على بوتو والد بينظير أن يؤمم صناعتهم، فكان قرارًا غير موفق من الناحية الاقتصادية ولكنه أرضى مؤيدى حزبه كما شتت انتباه الناس عن سياسات بوتو المتعثرة فى مجال الإصلاح الزراعى. وكان كبار أصحاب الأراضى بالطبع متحمسين لتشجيع أية خطوات لتأميم الصناعات الكبيرة والصغيرة حتى لو كانت غير مدروسة. هنا أصبح محمد شريف، كبير عائلة شريف ألد أعداء بوتو. وقد أيدت عائلة شريف صعود الجنرال ضياء الحق للسلطة في يوليو/تموز ١٩٧٧ تأييدًا كبيرًا. وعندما أمر ضياء الحق بإعدام بوتو بعد محاكمة تلفيقية صلت عائلة شريف ابتهالاً إلى الله لاستجابته لدعواتها.

وهكذا كان للعداوة بين بينظير ابنة بوتو ونواز ابن محمد تاريخ طويل. أصبح نواز شريف تلميذ ضياء الحق الذى حثه على دخول معترك السياسة من البوابة القذرة لمؤسسة المخابرات، أقوى مؤسسات الدولة. وها هو اليوم يشغل منصب رئيس وزراء باكستان المنتخب، ويشغل أخوه شهبز شريف منصب وزير شئون البنجاب، أما أبوهم العزيز أباجى فيسلى نفسه فى مرحلة الخرف التى وصل إليها بالإشراف على تعيين الأصدقاء القدامى وكسفراء لباكستان، بل يختار رئيس الدولة. فالرئيس الحالى - ذلك الملتحى التافه المسمى رفيق طرار- هو أحد خدام أباجى. أما الخطر الوحيد الذى يشكله طرار فهو تعاطفه مع الطائفة الإسلامية المتشددة - أهل الحديث - التى تمتلك جناحًا مسلحًا.

ويعد شهباز أكثر حنكة سياسية من أخيه، وليس سرًا أن الولايات المتحدة ترغب فى أن يستبدل الأخوان مكانيهما فيصبح شاهباز رئيسًا للوزراء ويعود نواز لعمله السابق فى لاهور. وقد رتبت الولايات المتحدة لشاهباز زيارة لواشنطون لمقابلة ساندى برجر فى البيت الأبيض. وقد يكون التبديل بين الأخوين منطقيًا ولكن العملية تستلزم استرضاء أباجى.

لم يتغير الكثير منذ أن فاز الأخوان شريف فى الانتخابات الأخيرة. يستشرى الفساد من أعلى المسئولين حتى أصغرهم بدرجة تصدم الاقتصاديين التابعين للبنك الدولى وصندوق النقد الدولى الذين يزورون البلد. ويتعجب المنظرون المحليون هنا من تربع نيجيريا على قائمة أكثر دول العالم فساداً قائلين لأنفسهم: "لم نستطع التميز حتى فى هذا الأمر. لماذا لم نعط رشوة للهيئة التى كانت تعد الإحصاءات؟" فى حين لا تزال النخبة، وفى مقدمتها الساسة، تنهب ثروات البلاد. حصلت عصابة بينظير على دورها وجاء الآن الدور على الأخوان شريف. لا يدفع سوى ١٪ من السكان ضريبة الدخل بينما يستمر الساسة، والكثير منهم ملاك أراضى، فى رفضهم لفكرة فرض ضريبة زراعية. وفى الوقت نفسه أرغمت الحكومات المتعاقبة البنوك الوطنية على منح القروض للساسة وملاك الأراضى ورجال الأعمال وحالت دون استعادة تلك القروض. يصل معدل القروض البنكية المتعثرة السداد إلى ٢٠٠ بليون روبية (الجنيه الإسترلينى يعادل ٨٥ روبية) - وهو ما يعادل ٧٠٪ من إجمالى الدخل القومى. وسوف تدخل باكستان الألفية الجديدة بديون خارجية تبلغ ٧٠ بليون دولار، أى أعلى من إجمالى الإنتاج المحلى بـ ٥٠ بليون دولار.

وعندما كنت هناك، طلبت الحكومة من الجيش تولى مسئولية هيئة تطوير الماء والطاقة، وضمان دفع فواتير الكهرباء بانتظام، فبدأ الجنود فى المرور على المنازل لقراءة العدادات؛ ليكتشفوا الطرق المبتكرة التى يستخدمها المواطنون لتقليل سرعة العدادات أو لسرقة الكهرباء من المصدر الرئيس مباشرة بأن يتخطوا الأسلاك التابعة للهيئة. ومن اللافت أن معظم من يفعلون ذلك من المواطنين ميسورى الحال، منهم واحدة من ملاك الأراضى الأثرياء وتعمل كذلك وزيرة فى حكومة شريف، وهى لا تزال حتى الآن تدعى براءتها من تلك التهمة على الرغم من الأدلة الثابتة. كما أنه لم يُطلب منها أن تستقيل حتى الآن. وتعتبر هذه أحد أهم منجزات الجيش فى باكستان، إذ لو كان هناك من يعتقد أن مثل تلك التدخلات العسكرية بإمكانها محاربة الفساد والاحتيال فلسوف يرحبون كذلك بإشراف الجيش على وزارة الدخل القومى ضمن

وزارات أخرى. ولكن تخبرنا تجارب الماضى أن الضباط والجنود سرعان ما يميلون للفساد. يقال: إن نواز شريف استطاع بإيعاز من أباجى، تحييد الجيش بأن قدم لقادة الفيالق رشاوى عبارة عن أجولة من الأموال تحتوى على عشرة ملايين روبية لكل منهم. وقد علق أحد معارفى متهكمًا بأنه يجب تسمية هؤلاء "قادة العشرة ملايين" بدلا من "قادة الفيالق".

وفى تلك الأثناء يستمر سريان العفن فى أركان الدولة. فالدولة التى لم تقدم على مدى تاريخها تعليمًا مجانيًا أو رعاية صحية مجانية لن تقدر على إبقاء دعمها للقمح والأرز والسكر، ولا أن تحمى الأبرياء من القتل العشوائى. فمنذ حوالى عقد من الزمان تشهد كراتشى أكبر مدن باكستان حربًا أهلية حقيقية؛ حيث يشن من يتحدثون الأردية من أبناء اللاجئين الذين رحلوا إلى الوطن الجديد من الهند فى عام ١٩٤٧ الحرب على السكان الأصليين من أهل السند وعلى الحكومة فى آن واحد، فى مواجهات مسلحة قتل فيها عشرات الآلاف من كافة الأطراف. يضطر الناس فى مثل هذه الظروف إلى مواجهة فكرة أنهم يديرون حياتهم وحدهم دون مساندة النظام، وهو ما أدى إلى ارتفاع معدلات الانتحار وبخاصة بين الفقراء الذين يدفعهم عجزهم عن إطعام أطفالهم إلى الجنون. ففى شهر يناير/كانون الثانى ذهب أحد عمال النقل فى حيدر آباد الذى لم يكن قد حصل على راتبه لمدة عامين إلى نادى الصحفيين وسكب البنزين على جسده ثم أشعل النار فى نفسه، مخلفًا خطابًا يقول فيه:

نفذ صبرى. قمنا أنا وزملائى بالاحتجاج لمدة طويلة بسبب عدم حصولنا على مرتباتنا. زوجتى وأمى فى حالة مرضية خطيرة ولا أملك المال اللازم لعلاجهما. عائلتى تموت جوعًا وأنا كرهت المشاحنات. ليس لى حق الحياة. أثق أن النيران المشتعلة فى جسدى ستصل إلى بيوت الأثرياء يومًا ما.

وقد تسبب استخدام النظام المتداعى لخطاب دينى بهدف خدمة أغراضه، ناهيك عن تعاونه مع التوصيات النيوليبرالية الاقتصادية الجامحة التى توصى بها اللجان المركزية فى كل من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى، فى إفساح المجال لظهور

الإسلام السياسى. فقد صوت الناخبون فى انتخابات عامة متعاقبة ضد الأحزاب الدينية المتشددة (يعطى الناخبون فى باكستان أصواتًا أقل بكثير للمتطرفين دينيًا من التى يعطيها الناخبون فى إسرائيل). وحتى الآن تستمد التيارات الإسلامية قوتها من تبنى النظام لها أكثر من الدعم الشعبى الذى تلقاه. ويعتبر ارتفاع نجم الجماعات الدينية أحد تداعيات فترة حكم الجنرال ضياء الحق، الذى كان يحصل على الدعم السياسى والعسكرى والمالى من الولايات المتحدة وبريطانيا خلال الإحدى عشرة سنة التى قضاها فى حكمه الدكتاتورى. كان الغرب فى حاجة إلى ضياء الحق ليخوض الحرب ضد ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى فى أفغانستان. لم يكن أى شىء آخر يهمهم. فقد غضت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية الطرف مثلاً عن تجارة الهيروين المستخدمة فى دعم المجاهدين فارتفع عدد مدمنى الهيروين المسجلين فى باكستان من ١٣٠ فى عام ١٩٧٧ إلى ٣٠٠٠٠٠ فى عام ١٩٨٨ .

وقد تأسست فى الوقت ذاته شبكة كبيرة من المدارس الدينية الداخلية فى كافة أنحاء البلاد. وكانت معظم تلك المدارس فى البداية ممولة من قبل مساعدات أجنبية تتبع مصادر إسلامية متنوعة. ولأن الإقامة فى المدارس كانت مجانية لم يكن أطفال اللاجئين الأفغان الوحيدين الذين يقبلون عليها، بل كانت الكثير من أسر الفلاحين الفقيرة تتبرع بأحد أبنائها للمدرسة؛ حيث يقلل ذلك من عدد الأفواه المطلوب إطعامها داخل الأسرة، وفى الوقت نفسه يضمن تعليم الصبى. كانوا يرون أنه قد يتمكن من الحصول على وظيفة فى المدينة، أو فى أحد دول الخليج إن حالفه الحظ.

ولم تكن تلك المدارس تهتم بالتعليم فى صورته المدنية، بل كانت تقدم تعليمًا دينيًا. فإلى جانب تحفيظ القرآن (عن ظهر قلب) كانت المدارس تعلم الطلاب ألا يشككوا فى أى شىء. كانت الحقيقة الدينية هى الحقيقة الوحيدة وكان السلوك القويم هو الذى يستقى من القرآن والحديث. أما الفضيلة فتتجسد فى الطاعة دون تفكير. فالذى يتمرد على الإمام كمن يتمرد على الله. كان للمدرسة وظيفة وحيدة: كانت دار الحضانة التى

تنشئ متطرفين. فقد كان كتاب تعليم مبادئ القراءة مثلاً يقول: إن حرف الـ(ج) يعنى الجهاد، والـ (ت) تعنى توب (أى مدفع) والكاف تعنى كراشينكوف والخاء خون أى (دم). وقد كان التلاميذ الأكبر سناً يتعلمون استخدام الأسلحة اليدوية المتطورة وصناعة القنابل وزرعها، فى حين كان العاملون فى وكالة الاستخبارات يقومون بتدريب الطلاب والإشراف عليهم ويتابعون تعليم الطلاب النابغين (أو الطالبان) الذين كانوا يرسلون إلى مراكز تدريب متخصصة فى معسكرات سرية للجيش حتى يتدربوا بطريقه تمكنهم من شن الحرب المقدسة على الكفار فى أفغانستان.

وقد تنامى نفوذ حزب الجماعة الإسلامية، أقدم الأحزاب الإسلامية فى باكستان، أثناء فترة حكم ضياء الحق. وكان زعماؤه يعتقدون أن بإمكانهم إدارة تلك المدارس. كان الحزب يفتخر دوماً بقدراته التنظيمية المبنية على نموذج لينين للخلايا الصغيرة، وكان يرفض توسيع رقعة عضويته، رغم أن ذلك قد يرجع كذلك إلى أن الناس كانوا بدورهم يرفضون الانضمام إليه. وحين بدأ تأسيس المدارس، رأى زعماء الحزب أنه قد آن الأوان لدورهم المنتظر. فقد كانوا يرون أن الطلاب يمثلون كوادر حزبية مستقبلية. ولكن سرعان ما خاب أملهم. فلأن الدولارات كانت موجودة بكثرة بفضل الحرب فقد ظهرت فصائل إسلامية متعددة وأخذت فى التنافس فيما بينها على النفوذ فى المدارس وعلى تقسيم الغنائم. وهنا أصبحت وكالة الاستخبارات الحكم فى النزاعات بين الفصائل الدينية وكانت تفضل بعض الجماعات على الأخرى.

استنفذت الحرب فى أفغانستان طاقة الجماعات الدينية المتنافسة. فبعد انتهاء الحرب الباردة رفض النظام فى باكستان أية حكومة ائتلافية. وكانت حكومة بينظير بوتو هى التى أطلقت عنان جماعة طالبان التى كانت تدعمها وحدات الكوماندوز فى الجيش الباكستانى فى محاولة لإسقاط كابول فى قبضتها. وقد دعمت الولايات المتحدة ذلك القرار خشية ازدياد النفوذ الإيرانى فى المنطقة. ثم أزهرت البذور الخطرة التى غرست فى ٢٥٠٠ مدرسة وأنتجت ٢٢٥ ألف متشدد على استعداد للقتل أو الموت فى

سبيل دينهم لو أن زعماءهم الدينيين طلبوا ذلك منهم. وقد ذكر الجنرال نصر الله بابار وزير داخلية باكستان لبعض أصدقائه أنه يرى الحل الوحيد للقضاء على خطر الطالبان فى باكستان هو منح المتطرفين دولة منفصلة وهو ما قرر أن يفعله بالفعل. وقد كانت تلك الفكرة تبدو مجرد خرقاء فى وقتها، ولكن الآن وفى ضوء ما حدث خلال العامين الماضيين فى المدارس فيجب أن يحاكم الرجل بوصفه مجرم حرب.

وعند انتهاء الحرب الباردة كانت الجماعات الإسلامية المسلحة قد أدت الدور المرسوم لها وكالعادة لم تعد الولايات المتحدة تشعر بالحاجة إلى إمدادها بالدعم المالى أو بالسلاح. وسرعان ما تحولت تلك الجماعات إلى معاداة أمريكا وبدأت تحلم بالقصاص منها منتهجة سبيل العنف. وقد شعر الزعماء السياسيون والعسكريون فى باكستان بدورهم بالامتهان جراء تجاهل واشنطن لهم، على الرغم من أنهم كانوا على الولاء لأمريكا دون انقطاع منذ عام ١٩٥١ . قال لى أحد قادة الجيش المتقاعدين: "كانت باكستان الواقى الذكرى الذى تحتاجه أمريكا لدخول أفغانستان. أدينا الدور المرسوم لنا وإذا بهم يعتقدون أن بإمكانهم ببساطة غمرنا فى المرحاض".

كان الجيش الباكستانى- أحد أبناء البنتاجون المدللين فى آسيا- يكره فكرة أن يرى بلده تتوارى إلى منزلة مشابهة لمنزلة الكويت. كان هذ هو المعنى الذى حملته الغضبة النووية فى العام الماضى: عادت باكستان إلى قائمة الدول المصنفة فى تصنيف (ب) فى وزارة الخارجية الأمريكية. وقد حاول وزير الخارجية سارتاج عزيز تهدئة الرأى العام فى أوروبا يوم التاسع والعشرين من نوفمبر/تشرين الثانى: "لا أرى أى احتمال لحدوث حرب نووية غير مقصودة بين باكستان والهند. فلدى باكستان نظام تحكم وإدارة على درجة عالية من الكفاءة". كان هذا محض هراء، ولكن حتى ولو كان حقيقيًا، فلنتصور ما الذى كان سيحدث لو أن الجيش الباكستانى وقع فى قبضة طالبان. يعلم كل الزعماء السياسيون فى باكستان مدى الخطر الكامن فى ذلك. ويحاول نواز شريف استباق خطر الإسلام السياسى بأن يسرق بعض ملابسه، ولكن مثل هذا التخطيط مصيره الفشل.

تكمن سخرية الموقف الحالى فى أن الدين فى البنجاب كان دومًا أمرًا خال من التعقيد؛ إذ كان يغلب عليه فى المناطق الريفية التراث الصوفى القديم بجنوحه نحو اتصال الذات بالخالق وكرهه لرجال الدين. وكان الجنرال ضياء الحق قد ألغى الاحتفالات بموالد الأولياء الصوفيين التى كانت تعج بالمشاركين وبغنائهم ورقصهم وشربهم الخمر وتدخين القنّب وانفلاتهم الجنسى كدأبهم على مدى قرون طويلة، وذلك بعد فرضه الأحكام العرفية فى البلاد. وقد حلت محل تلك الاحتفالات أنواع من الطقوس الدينية المتطرفة التى لا تنتمى لإقليم البنجاب ولكن تقرها واشنطن وتدعمها دولارات البترول السعودية ويرعاها ضياء الحق بنفسه عن كثب.

يمثل السنة ٩٠٪ من مسلمى باكستان، أما الباقون فأغلبهم شيعة. ينقسم السنة إلى مدرستين فكريتين رئيستين؛ حيث يمثل تيار الديبوندية التيار التقليدى المحافظ، بينما يؤمن البريلوية بالإسلام المتعدد الأوجه الذى تشكله الظروف المحلية. وقد جاءت النزاعات بين التيارين لسنوات عديدة قاصرة على المجالات الأدبية أو كانت تأخذ شكل المناظرات العامة. انتهى ذلك الآن؛ حيث أصبح كل فصيل يدعى تمثيل الإسلام. أما النزاعات فلم تعد تسوى بالنقاش، ولكن بالرشاشات والمذابح. وتريد بعض الفصائل الديبوندية إعلان تكفير الفكر الشيعى والقضاء على الشيعة كلية. وتدور الحرب بين القبائل المختلفة منذ ثلاثة أعوام حيث هاجمت جماعة جنود الخلفاء الراشدين (Sibah-e-Sahaba)[*] السنية مساجد الشيعة فى قلب لاهور وقتلت المؤمنين وهم يصلون. وقد جاء رد الشيعة مماثلاً؛ حيث شكلوا جماعة صباة محمد (جنود محمد) وحصلوا على الدعم من إيران ثم شرعوا فى الانتقام الشرس. وقد قتل عدة مئات - أغلبهم من الشيعة - فى هذه المذابح التى ارتكبها المسلمون فى حق بعضهم البعض.

(*) لم أتأكد من مصدر الترجمة التى أتى بها المؤلف بين قوسين؛ إذ تشير ترجمة اسم الجماعة من اللغة الأردية إلى الصحابة وليس الخلفاء الراشدين. (المترجمة)

وفى يناير/كانون الثانى من هذا العام احتل أحد فصائل طالبان المسلحة عدة قرى فى منطقة الهانجو على حدود باكستان الشمالية الغربية، وأعلن أن المنطقة تخضع "للشريعة الإسلامية"؛ حيث سرعان ما شرعوا فى عملية منظمة لتكسير أجهزة التلفاز وأطباق وهوائيات الإرسال فى قرية زرداري. وقد تبع ذلك إحراق ٢٠٠٠ شريط كاسيت وفيديو "إباحية" فى ميدان القرية الصغير المسمى لوكى. هناك شيء مضحك فى تلك العداوة لأجهزة التلفاز- يذكرنى الأمر بجماعة سيتويشونال سبيكتاكل فى الستينيات- ولكن الفكاهة ليست من صفات طالبان. فقد صرح حسين جلالى، زعيم الحركة بعد إحراق أجهزة التلفاز قائلاً: "سوف تقطع أكف اللصوص وأقدامهم وسوف يقدم كل المجرمين للعدالة وفق الشريعة الإسلامية".

يهدف جلالى لمد التجربة الأفغانية إلى باكستان. وقد سألنى أحد مؤيدى الأخوان شريف وهو يرفع كفيه بيأس قائلاً: "ماذا نفعل؟ جميع هؤلاء الأوغاد مسلحون!" رددت مشيراً إلى أن بعض الأوغاد مسلح من قبل الحكومة؛ لبث الفوضى فى كشمير المجاورة وأن جيشنا المنتفخ غروراً مسلح هو الآخر. لماذا لم يُطلب من الجيش نزع سلاح تلك الجماعات؟ هنا انتهت المحادثة. ليس سراً أن التطرف الدينى قد تسرب إلى كافة صفوف الجيش. ومما يميز التطرف الجديد عن الجماعات الدينية التقليدية أن الأول يريد الاستيلاء على السلطة وأنهم يحتاجون إلى الجيش فى ذلك.

كانت وكالة الاستخبارات هى التى صنعت جماعة "أهل الحديث" أحد أكثر الجماعات خطورة. ترغب الجماعة فى تكرار النموذج السعودى فى أفغانستان، لكن دون النظام الملكى، ولديها أنصار ومساجد فى كل مكان، بما فيها بريطانيا والولايات المتحدة اللتان ترغبان فى توفير الكوادر والأموال اللذين يتطلبهما الجهاد على مستوى العالم أجمع. وتتكون تلك الجماعة من أكثر فصائل السنة تزمتًا، كما أنها لا تحظى بتأييد جماهير غفيرة. ولكنها تحظى بتأييد رفيق طرار، كما يشرّف بعض الوزراء اجتماعاتها بالحضور. ويقع مكتبها الفرعى فى رقم ٥ شارع تشامبرلين فى لاهور.

كنت أريد الذهاب لإجراء مقابلات معهم، ولكننى غيرت رأيى بعد أن وقع نظرى على ثلاثين حارساً مدججين بالسلاح يقفون حول المبنى. لم يكن للجناح العسكرى فى هذه الجماعة، والمسمى جند المدينة (Lashkar-e-Tayyaba)(*) أن يخرج علينا الآن لولا تبنى الجيش لها. يضم الجناح ٥٠ ألف عضو وهو المشارك الرئيس فى الجهاد من أجل "تحرير" كشمير التابعة للهند. يقوم الجيش بتدريب "الجنود" فى ثمانية معسكرات خاصة فى أزاد فى المنطقة التى تسيطر عليها باكستان من كشمير وتمدها السعودية والحكومة الباكستانية بالمال. وتجند الحركة المراهقين من أبناء الأسر الفقيرة لخوض الحرب المقدسة؛ حيث فقدت عدة مئات منهم فى كشمير. تدفع الحكومة ٥٠ ألف روبية (٦٠٠ جنيه إسترلينى تقريبا) على كل جثة يتم استعادتها من ميدان المعركة: تذهب ١٥ ألفًا إلى أسرة "الشهيد" أما الباقى فيستخدم فى تمويل المنظمة.

فى العام الماضى أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية حركة الأنصار- التى كانت الولايات المتحدة تمولها وتدعمها - حركة إرهابية. وسرعان ما غيرت الحركة اسمها إلى حركة المجاهدين. كان مقاتلو الحركة من أشد الطالبانيين ولاءً، وقد نقلت معسكرات تدريبها من البنجاب إلى أفغانستان. يقود تلك الحركة أسامة بن لادن، الذى لا يزال على صلات قوية بوكالة الاستخبارات الباكستانية، فى حين يهدد مؤيديه الحكومة بنشوب حرب أهلية فى باكستان فور حدوث أية محاولة لاختطافه أو حظر منظمته. ويفتخر مؤيدو ابن لادن أن الجيش لا يمكن أن ينقلب عليهم، نظراً إلى وجود عدد كبير من مؤيديهم بين صفوفه.

ترغب كلتا المجموعتين فى الاستحواذ على باكستان، ولكن ليس فى صورة حكم مباشر؛ إذ تحلم كل منهما بإقامة فيدرالية إسلامية تخضع للعقد الطالبانى وتمتد من

(*) يبدو لى هنا أن المؤلف يقدم ترجمة غير دقيقة لاسم الجماعة؛ حيث لا تأتى كلمة "المدينة" التى يبدو أن المقصود بها المدينة المنورة كمرادف لأى من الكلمات التى تشكل الاسم، الذى يترجم إلى "الجند الطيبة". وقد يكون المؤلف قد تأثر بأن المدينة المنورة يطلق عليها أحيانًا اسم "طيبة". (المترجمة)

لاهور إلى سمرقند، فى حين تتجنب "جمهورية الكفرة الإيرانية". وتحظى تلك الرسالة، على الرغم من كل ما تنطوى عليه من تشتت وعوار، بقبول لدى هؤلاء الذين يتوقون إلى بعض النظام فى حياتهم. فإذا وعد المتشددون بإطعامهم وتعليم أولادهم (الذكور)، فسوف يكونون على أتم استعداد للتخلى عن مباهج السى إن إن وخدمة أخبار البى بى سى العالمية.

أما البديل لإقامة فيدرالية أمريكية فيتمثل فى رأب الصدع مع الهند. حظيت الزيارة الأخيرة التى قام بها رئيس وزراء الهند آتال فاجبايى للاهور بالترحيب من قبل رجال الأعمال والصحافة التى غالبًا ما تبدى النقد تجاه الهند. ويشيع القول حاليًا عن التحضير لتسوية نهائية عبارة عن خطة على نهج الاتحاد الأوروبى تشمل الهند وباكستان وبنجلاديش وسيبنظيررى لانكا، وتتضمن فتح الحدود ومعاهدة لإنهاء الحرب بين الهند وباكستان. يعد هذا الحل بالقطع أعقل الحلول المقترحة، ولكنه سيحتم نزع السلاح عن الجند الطيبة والجماعات الأخرى. وقد طالب رئيس وزراء الهند بتلك الخطوة كإعلان لحسن النوايا، فجاء رد الجماعة الغاضب: "فلتنتزع سلاحنا لو استطعت. ولو فعلت ذلك فسوف ننفذ ما كنا نخطط للقيام به بعد عامين من الآن. الأمر متروك لك". تلك الرغبة فى إشعال مواجهة مباشرة، بغض النظر عن عواقبها، هى التى تميز تلك الموجة الجديدة من التطرف الإسلامى فى باكستان. ولحسن الطالع، ما زال هؤلاء يشكلون أقلية فى الدولة، لكن قد يغير ذلك لو أن الأمور الأخرى بقيت دون تغيير.

أبريل/ نيسان ١٩٩٩

١٧

من يرغب فى لعب الجولى داندا؟

كانت مباريات الكريكيت التى ترعرعت على متابعتها فى الأربعينيات والخمسينيات فى شبه القارة الهندية تستمر لمدة خمسة أيام. كان اللاعبون يرتدون الأطقم الصوفية الخفيفة الناصعة البياض أو العاجية وكانت الكرة حمراء داكنة، وكان المتفرجون حسنى المظهر وهادئين. لم يكن الأمر يختلف فى جزر الهند الغربية: كانت لعبة الكريكيت الإنجليزية هى النموذج فى كل مكان، وكان أبطالنا وقتها هم اللاعبون الإنجليز من قاذفى الكرة وضاربى الكرة بالمضرب. كان هناك لاعبون أستراليون عظماء، ولكننا كنا نمزح قائلين: إنهم إنجليز تبعدهم مسافة مضاعفة عن كونهم إنجليز: فهم بعيدون عن السجن فى إنجلترا كما أنهم بعيدون عن إنجلترا نفسها.

كنت دومًا أحقد على الأطفال الذين يلعبون الكريكيت فى الشوارع طوال اليوم أثناء فصل الشتاء الهادئ الممتد من نوفمبر حتى مارس دون أن يشغلوا بالهم بأى شىء. وفى ذات سنة وأثناء سفر والدىّ للخارج تغيبت من المدرسة لمدة أسبوع كى ألعب مع فرق الشوارع. كان شعورًا رائعًا على الرغم من أننى كنت أعرف أننى لا أجيد اللعبة وأن السبب الوحيد فى أن سمحوا لى باللعب معهم، كان أن كانت لدى كرة كريكيت جديدة، وهو ما كان يعد وقتها - وحتى الآن - ترفًا نادرًا.

وحينما لم يكن الأولاد فى الشوارع يلعبون الكريكيت كانوا يلعبون لعبة تسمى جولى داندا يستخدمون فيها أفرع الأشجار أو قطع الخشب التى يلقيها أصحاب المحال إلى الشارع. الجولى عبارة عن وتد خشبى صغير ذى طرفين مدببين، وحين

تضعه فى وضع أفقى على الأرض يكون الطرفان مرفوعين قليلاً عن مستوى الأرض. أما الداندا فهى عصا متوسطة الحجم تضرب بها أحد طرفى الوتد فيقفز فى الهواء. يطير الوتد فى الهواء وأثناء وقوعه على الأرض وعندما يصل إلى مستوى الكتفين عليك بضربه بالعصا ضربة شديدة لتطيح به إلى أبعد ما يمكن. ليس الأمر بالسهولة التى قد يبدو عليها، فاختيار التوقيت المناسب والتناغم بين العين واليدين أمور أساسية تجعلك فى حاجة إلى الكثير من التمرين لتصبح خبيراً فى اللعبة. يتحول اللاعبون الموهوبون فى لعبة الجولى داندا بسهولة للعب الكريكيت حين يصلون الرابعة عشر أو الخامسة عشر.

كان هؤلاء الموهوبون يبرزون فى المبارايات التى تقام بين فرق الشوارع التى كانت غالبًا ما تقام على قطعة متربة من الأرض وبإيجار معين لوقت معين على الرغم من أن الفرق كانت غالبًا تطرد من الملعب قبل انتهاء موعد تأجيرها له. كان يمكن لكثير من لاعبى الكريكيت فى الشوارع أن يلمعوا فى مجالهم، ولكن شبه القارة الذى حصل لتوه على الاستقلال كان لا يزال يشهد جوًا استعماريًا يسيطر على الكريكيت كما يسيطر على نادى الضباط والنوادى الرياضية؛ حيث كان الموظفون يتجمعون كل مساء ليحتسوا السكوتش ويتبادلوا النميمة السياسية، مثلما كان البريطانيون يفعلون بالضبط.

وقد ازدادت شعبية الكريكيت خلال العقود التى تلت الاستقلال، ولكن بقيت طبيعته دون تغيير. لم يكن من السهل تغيير العادات القديمة؛ ولذلك فقد بقيت تلك الرياضة فى أعلى مستويات ممارستها رياضة مهذبة خاصة بالطبقات الوسطى والعليا التى كانت ولا تزال على احترامها واتباعها للنمط الإنجليزى. أما الناس العاديون فلم يكن لهم سوى الشوارع؛ ليلعبوا فيها متصايحين بتعليقات بذيئة بالتزامن مع إقامة المبارايات التجريبية بين الدول. كانت استعراضات الفرق عسكرية تقام خلال استراحة الغداء أثناء المبارايات التجريبية الأولى فى باكستان. وكان الصحفيون الإنجليز

يسعدون برؤية رجال من البنجاب والبشتون ذوى سيقان مشعرة يرتدون التنورات القصيرة ويعزفون موسيقى القرب فى الوقت الذى كنا لا نجد الأمر غريبًا. وحتى الآن يذكرنى صوت موسيقى القرب بمباريات الكريكيت الأولى التى كنت أتابعها من الرواق الفيكتورى فى حدائق لورانس الغناء (تسمى الآن حدائق الجنة)؛ حيث كان الدكتور جهانجير خان، أبو ماجد خان (وعم عمران خان)، بوجهه المتقضب يفتتح جولات اللعب، كما أذكره حين تعرض مقصود الذى كان أفضل ضاربى الكرة فى فريقنا للطرد من المباريات التجريبية بين الهند وباكستان فى الخمسينيات بعد أن كان على وشك الاختراق الذى سيكمل اختراقاته فى هذه المباراة إلى المائة. كما أتذكر الحنين الذى أصابنى عندما وصل الفريق الهندى لاهور، الأمر الذى شكل لجيل والدىّ تصحيحًا صغيرًا ولو كان وقتيًا لموجة التطهير العرقى التى تلت التقسيم. وقد قوبل الفريق الهندى بحفاوة وود مذهلين من قبل الجمهور فى ذلك الوقت.

وكان حكام المباريات التجريبية حتى وقت قريب يختارون من الدولة التى تستضيف المباراة وكان دورهم فى تحديد نتيجة المباراة محوريًا. وفى إحدى المرات فى بيشاور خلال الخمسينيات كان الحكم الباكستانى المتحزب إدريس بيج يرفع إصبعه فى كل مرة يطلب فيها كابتن الفريق آى إيتش كاردار تطبيق قاعدة "الساق قبل العصا". هنا قرر الفريق الإنجليزى الزائر الذى كان قد أفرط فى الشراب أن يعاقب الحَكم على طريقة تلاميذ المدارس الحكومية، فأمسكوا به، ثم قيدوه، وألقوا به فى المسبح. كانت الفرق الزائرة من جزر الهند الغربية وشبه القارة الهندية تتهم الحكام البريطانيين بالتحيز المشوب بالعنصرية. وفى مرة من المرات كنت أحاول شرح قوانين لعبة الكريكيت لأحد الشيوعيين الصينيين الذى كان فيما قبل عضوًا فى جيش الحرس الأحمر، ثم أصيب بالإحباط، وفر إلى هونج كونج؛ حيث اكتشف اكتشافًا أذهله، وهو أن بعض الصينيين هناك بما فيهم مناصرى حركة الديمقراطية العتاد يمارسون اللعبة. جلس الرجل مصغيًا لى باهتمام وسألنى بعض الأسئلة، ثم انخرط فى صمت عميق. اعتقدت أنه شعر بالملل، ولكننى عرفت أننى كنت مخطئًا فى حدسى حينما سألنى: "هل

لك أن تفسر لى شيئًا؟ من يختار الحكم؟" كان قد استشف بسهولة أن الحكم المنحاز قادر على تحويل مجرى المباراة. وقد أقر المسئولون عن لعبة الكريكيت فيما بعد مبدأ اختيار حكام محايدين فى المباريات التجريبية بفضل مجهودات عمران خان وعلى الرغم من اعتراضات الإنجليز.

إن تاريخ الكريكيت هو تاريخ تفوق المستعمرات السابقة على المستعمر. يقول سى إل آر جيمز: إن الكريكيت استعارة تعبر عن فكرة الإمبراطورية: كانت إحدى وسائل القضاء على المستعمر تكمن فى التفوق عليه فى رياضته المفضلة. وكان هذا ما ساعد على انطلاق الكريكيت فى أستراليا وجزر الهند الشرقية وشبه القارة الهندية وازدياد رقعة المشاركين فيه. وقد شعر الإنجليز بالإساءة جراء صعود نجم الأسترالى دون برادمان فى الثلاثينيات. ثم جاء الدور فى الستينيات على قاذفى الكرة السريعين فى جزر الهند الغربية الذين كانوا شديدى السرعة والشراسة وقادرين على قذف الكرات القوية السريعة المتتالية التى لا تصد. كان الاستعماريون العتاد يتساءلون هامسين لبعضهم البعض فى البهو الكبير فى ملعب اللورد عن وجود جين معين لدى السود يمكنهم من قذف الكرة بهذه السرعة؟ كان فرسان الكريكيت البيض يشعرون أن عليهم فعل شىء، فاستصدر قانونًا للعبة يقضى بحظر قذف كرتين خلال ست رميات. لو أننا كنا فى هذا الزمن لما كان لهم أن يفلتوا بمثل هذا التعديل.

تغير شكل الكريكيت فى العالم. وشكلت شبه القارة الهندية القوة المتنامية فيه، حيث تستحوذ الرياضة على قلوب الناس فى الهند وباكستان وسرى لانكا. كانت الطبقات الدنيا التى تقطن المدن الكبيرة تشعر بكثير من الثقة بالنفس إبان حكم إنديرا غاندى، وقد أثر هذا التغيير على الكريكيت الذى نزع عنه السمت الاستعمارى وأضحى أكثر ديموقراطية وبدأ يتلون بالصبغة القومية. وخلال الثمانينيات كان الكريكيت فى سرى لانكا يمثل ترويحًا للنفس لكل من التاميل والسنهاليز الذين كانوا يتناحرون فى حرب أهلية. لم يمض وقت قليل حتى غزا ضاربو الكرة السيريلانكيون المتميزون العالم.

وقد بدأ التغير يطرأ على الشكل الاجتماعى لفريق الكريكيت الباكستانى بعد الإطاحة بالدكتاتورية العسكرية فى عام ١٩٦٩ . ومما أسرع بوتيرة التغير أن أمسك عمران خان بزمام أمور الرياضة واستخدم وضعه الاجتماعى فى محاربة البيروقراطية والانحياز للمقربين. فقد شجع اللاعبين الشباب الموهوبين الذين لم يكونوا أصحاب ثروة أو على صلة بالمسئولين الكبار فى مجال الرياضة فبزغ نجم لاعبين؛ مثل وسيم أكرم ووقار يونس وإنزمام الحق. واليوم يرى الطفل الصغير الذى يقطن شارعًا متربًا أولادًا أكبر قليلاً فى السن منه يتحولون إلى نجوم لامعة. انتهت أيام الجولى داندا فأصبح الأطفال يلعبون الكريكيت بكرة تنس قديمة ملفوفة فى شريط لاصق أحمر. تقفز كرة الشريط الأحمر بشكل غير متوقع، فى حين يساعد نزوعها نحو تغيير اتجاهها حال لمسها الأرض فى تطوير ردود فعل اللاعبين وتشجيع أساليب جديدة فى اللعب. كما ترغم كرة الشريط اللاصق قاذفى الكرة على تطوير أساليب استخدامهم للرسغ؛ لأن كرة التنس ليس لها حواف تمكنها من القفز بشكل طبيعى. وقد ترعرع كثيرون على لعب الكريكيت بكرة الشريط اللاصق؛ مثل إعجاز أحمد وسليم مالك ويوسف يوحانا وشاهد أفريدى ووسيم أكرم وسليم مالك.

قاد اللاعبون الذين كانوا يمارسون لعب الكريكيت فى الشوارع فريق باكستان القومى للنصر فى كأس العالم فى عام ١٩٩٢ وهى البطولة التى تعد الأهم فى مجال رياضة الكريكيت، مثلها مثل كأس العالم؛ حيث تغطى على البطولات السنوية التى كان الأستراليون يلحقون فيها الهزائم الساحقة بالإنجليز. كما تمثل البطولة الانتقال من مباريات الكريكيت التى تدوم خمسة أيام إلى مباريات اليوم الواحد. كانت مباريات الأيام الخمس تتميز بأنك يمكن أن ترى فيها فريقًا كبيرًا يلقى هزيمة على يد فريق متواضع، ولكن لديه مدرب يخطط كما يخطط لاعب النرد. هنا لا يثق أحد فى الفوز ويعتبر الطرفان التعادل إنجازًا مرضيًا ومشرفًا. وفى بدايتها كانت مباريات الكريكيت لليوم الواحد والتى يكون فيها عدد جولات الرميات الست محدودًا تعد استعراضًا جانبيًا تافهًا، أو إزعاجًا يجب تحمله لجذبه عدد أكبر من الجماهير ومن أموال رعاة

الحدث. لم تكن أمى تتفق مع هذا الرأى. كانت دومًا لا تصبر على متابعة مباريات الأيام الخمس، وكانت ترى أن مباريات اليوم الواحد تستهلك وقتًا أقل وتبث قدرًا أكبر من المتعة والتسلية. وكان التقليديون يرفضون هذا التغير فى البداية، ولكنهم هم الآخرون قد انجرفوا نحو الإعجاب بالطاقة العظيمة التى تحملها المباراة ذات الخمسين جولة.

يروى روبرت ويندر فى كتابه جحيم على الجلد المدبوغ (Hell for Leather) قصة رحلة إلى الهند وباكستان وسرى لانكا فى عام ١٩٩٦ عندما كانت الدول الثلاث تستضيف بطولة كأس العالم. هناك اكتشف ويندر شبه القارة المغرمة بالكريكيت. ولم يكن الاختلاف بينها وبين إنجلترا يصعب على التوضيح. تتحول لغة الكاتب السلسة التى يتحدث بها عن الكريكيت فى جنوب آسيا إلى لغة ساخرة عندما يكتب عن فريقه هو. أما المدير الفنى الإنجليزى راى إلينجورث فيأتى كما نتوقعه وضيعًا فى بحثه الدائم عن ما يبرر به سلوك فريقه الفظ سواء فى الملعب أو خارجه. كما أنه غير قادر على تقدير عبقرية السريلانكيين حق قدرها. يتساءل ويندر لماذا أنجبت إنجلترا "كل هؤلاء الأوباش سيئى الطباع الذين يلعبون كثيرًا ويشتكون كثيرًا. يعلم الله أننا لدينا الأموال والأرض واللاعبين وكل شىء. ولكن يبدو أن كل تلك الدول الأخرى كان لديها طاقة وحماس أكبر. هذا ظلم. كوسة.. كوسة!".

لم تبلُ إنجلترا بلاءً حسنًا فى مباريات كأس العالم الذى أقامته فى الشهر الماضى، كما فشلت جزر الهند الغربية فى التأهل لدور نصف النهائى. كان فريقهم عتيقًا ويعتمد اعتمادًا زائدًا على الثلاثى أمبروز ووالش ولارا. كيف كان سى إل آر جيمز سيفسر هذا الإخفاق لو كان على قيد الحياة؟ هل تواجه رياضة الكريكيت فى جزر الهند الغربية الانحسار بعد أن فقد الشباب اهتمامهم ببريطانيا فى العصر الحالى؟ يبدو أنهم يشعرون بالانجذاب ناحية الولايات المتحدة ويحلمون أن يكونوا بين نجوم البيسبول وكرة السلة.

جيمز: ما قصة تلك الجزر الصغيرة فى البحر الكاريبى التى ينمو فيها لاعبو الكريكيت وكأنهم ثمر الأشجار؟ يتساقطون مثل فاكهة ناضجة ويمنحوننا لذة جميلة. نحن ننتج أبدع ضاربى وقاذفى الكرات دون مجهود يذكر. طالما فكرت فى ذلك الأمر. بم تفسرين ذلك يا فيفيان؟

ريتشاردز (مبتسماً): أأ.. أ.. نعم. أعنى. أنت على حق.

تابعت مباريات كأس العالم لهذا العام منتظراً أن أرى انتصار باكستان فى عام ١٩٩٢ يتكرر. كان نجم المسابقة شاب باكستانى من الشوارع اسمه شهيب أخطر لديه القدرة على قذف الكرة بسرعة ٩٦ ميل فى الساعة. كانت اكتشفته مجموعة من المارة الذين نبهوا فيما بعد رامز راجا، وهو ضارب للكرة كان يلعب فى الفريق الوطنى (وعضو فى صفوة لاعبى الكريكيت فى كلية آيتشيسون مثل عمران خان). ذهب راجا ليتفقد شهيب أثناء اللعب فأصابه الذهول والإعجاب وقدمه بتوصية كبيرة إلى ماجد خان ولجنة الاختيار الذين أعطوا شهيب فرصته.

كان متوسط أعمار الفريق الباكستانى صغيراً على الرغم من أن قائد الفريق كان اللاعب المخضرم وسيم أكرم، وكان الفريق يلعب بطريقة تنم عن نقص الخبرة والتشتت والفظاظة، ولكن اللعب كان شيقًا وكان المشجعون فى مباراة الفريق مع زيمبابوى متحمسين، يشجعون بخليط من الحماس والنقد. لماذا ترك إعجاز أحمد لاعب الفريق الآخر يخترق بهذا الغباء؟ قذف أحد المشجعين رأس إعجاز بعلبة عصير وهو يخرج من الملعب تعبيراً عن الغضب. وهنا بدأت أسمع عدة نظريات ممن حولى كلها تنطوى على ضرب من المؤامرة. وعندما قلت: إن الأمر قد لا يتجاوز أن إعجاز ارتكب خطأً، رد علىّ من حولى مداعبين أننى ساذج ولا أعرف أى شىء عن الكريكيت الباكستانى. ولكن باكستان هزمت زيمبابوى وهو ما كان يعنى خروج الهند من كأس العالم. وهنا غنى المشجعون بحماس: "الهند عائدة إلى دارها".

ولكن عندما هزمت الهند باكستان فى ستاد أولد ترافورد فيما قبل، أحاط المشجعون بمدرب الفريق ملوحين لأفراد الفريق بأوراق مالية فى إشارة اتهام بأنهم

خسروا عن عمد. لم أكن مقتنعًا بتلك الفكرة، ولكننى بدأت أتساءل بعدما خسر الفريق أمام بنجلاديش. كان المشجعون على يقين بحدوث تلاعب. إذًا فقد كان الأمر برمته متعلق بالأموال: الأموال القذرة القادمة من نقابات الرهانات فى بومباى وكراتشى ودبى، ثم قيل لى: إن رجال الأعمال البنغاليين هم الذين اشتروا الانتصار الذى حققه فريق بنجلاديش، لكى يحفزوا فريقهم بأى ثمن. وقد جاءت الاحتفالات فى دكا أسطورية حيث امتزج التاريخ والرياضة ورفعت لافتة كبيرة مكتوب عليها: "ثانى هزيمة لباكستان: ١٩٧١ و١٩٩٩".

من الصعب أن ترشو فريقًا كاملاً، ولهذا فغالبًا ما تُرسل تعليمات مفصلة للاعب واحد فقط، بأن عليه مثلاً الإخفاق فى ثلاث رميات فى الجولة الثالثة، أو أن يخرج بعد تسجيله ست عشرة جولة، أو أى أمر مشابه يتفق عليه مسبقًا. أما رشوة عدد من اللاعبين فتعرف باسم "المراهنة الممتدة"، وغالبًا ما ينتج عنها قتل روح الفريق المعنوية تمامًا. تعانى بعض عائلات هؤلاء اللاعبين من الفقر الشديد لدرجة أنهم لا يستطيعون شراء وجبة طعام واحدة فى اليوم. ماذا يفعلون لو قدمت لهم نقابات المراهنات عرضًا بـ٣٠ ألف روبية (حوالى نصف مليون جنيه إسترلينى) مقابل تضييع بعض الرميات فى مباراة معينة؟ ولو جاء هذا العرض عن طريق لاعب أقدم فى الفريق فقد يقضى على مستقبلهم لو أنهم رفضوا الانصياع. القرار إذًا سهل.

ينظر حاليًا القاضى مالك محمد قيوم منفردًا قضية فى محكمة لاهور العليا لتحديد ما إذا كان بعض أعضاء الفريق الوطنى فاسدين. وقد تشكلت المحكمة فى العام الماضى بناء على طلب من مجلس الكريكيت الباكستانى ورئيسه ماجد خان. أجرت هيئة المحكمة تحقيقات مكثفة وحصلت على شهادات من لاعبين مثل رشيد لطيف حارس الفريق السابق. كان لطيف قد اشتعل غضبه من حجم الفساد الذى شهده حتى إنه كان يسجل بعض المحادثات بين بعض اللاعبين الكبار. وقد تأخر قرار المحكمة بضغط من الحكومة فيما يبدو، كما أعلن القاضى مالك أنه لا يرغب فى

الإضرار بالفريق حتى ينتهى كأس العالم. كانت الدلائل تشير بقوة إلى أنه سيتم الصفح عن كل شيء لو أن باكستان فازت بالكأس.

لكن الفريق لم يفز. جاءت المباراة النهائية ضد أستراليا مباراة بائسة من طرف واحد. وانهار الفريق الباكستانى بعد أن قرر قراراً أرعن بأخذ موقع ضرب الكرة. لم يقدر ضاربو الكرة البارزين فى الخطوط الأمامية على مجابهة الهجوم الأسترالى، كما انهار خط الوسط. كان شان وارن يبدو غير مستعد، ولكن ضاربى الكرة الباكستانى لم يبذلوا المجهود المطلوب. كما فشل قاذفو الكرة المحبطين فى إنقاذ الموقف بعد إدراكهم أنهم قد خسروا المباراة فى كافة الأحوال. قال وسيم أكرم: إنهم الفريق الأضعف وأنه لم يعد بوسعهم فعل شيء. أعتقد أنه كان صادقًا فى هذا الموقف ولكن كثير من الباكستانيين لا يتفقون معى فى ذلك. وبعد إعلان الهزيمة خرجت الجماهير الغاضبة إلى الشوارع فى المدن الكبيرة (لم تكن المصادمات التى حدثت توًا مع الهند بسبب كشمير قد شهدت مثل تلك الجموع). ولأن الجماهير لم تكن قادرة على تقبل فكرة هزيمة الفريق الوطنى الباكستانى فقد افترضوا أسوأ الافتراضات. لم تكن أستراليا الفائز الحقيقى بالنسبة إليهم بل نقابات المراهنات.

وفى منتصف التسعينيات بزغ نجاح وسيم أكرم، مما حدا بأخيه أن يصبح وكيلاً للمراهنات. وقد قابل الناس فى باكستان هذا القرار الذى اتخذه الرجل بتغيير وظيفته بعد بلوغه منتصف العمر بالتهكم. وبعد انتهاء كأس العالم، تعرض بيت وسيم فى لاهور للقذف بالحجارة كما طالب البعض بمحاكمته أمام محكمة عسكرية. وقد تجمع بعض المشجعين أمام منزل اللاعب إنزمام الأنيق فى مدينة ملتان وهم يغنون بينما يحطمون زجاج النوافذ: "سوف نعلقك من رقبتك عندما تعود أيها الوغد". وقد أجّل الفريق موعد مغادرته لندن لعدة أيام أملاً فى أن تتخذ إجراءات أفضل لتأمينهم لدى العودة. وعندما هبطت طائرتهم فى كراتشى أخيراً كان فى انتظارهم ألف من رجال الشرطة المسلحين لحمايتهم من غضبة عدة آلاف مشجع وقفوا يغنون: "فلتعلقوا وسيم

من رقبته!" سمحت السلطات لأخى إنزمام بانتظاره فى قاعة كبار الزوار، وبعد خروجهما من المطار فوجئا بالنار مشتعلة فى سيارتهما الجديدة. حينها أصدرت والدة وسيم بيانًا قالت فيه: إن ابنها يستحق العقاب لو ثبت ضلوعه فى أى جريمة، ولكنها طالبت بعدم تعليقه من رقبته. وفى عام ١٩٩٦ عندما خسرت باكستان أمام الهند فى بانجالور قيل: إن وسيم أكرم قد غاب عن المباراة ولكن ليس بسبب المرض ولكن بتعليمات من نقابات المراهنات. هنا اختطف المشجعون أباه واحتجزوه كرهينة لعدة أيام. وقد يكون هذا هو السبب الذى جعل أمه هذه المرة تشن ضربة استباقية.

عادت هيئة المحكمة للانعقاد هذه الأيام، بينما صرح رئيس الوزراء نواز شريف - الذى لا يتورع بدوره عن التدليس- أن التحقيقات فى الادعاءات بحق الفريق سوف تجرى من قبل لجنة المصداقية المستأنسة التابعة له (وهى هيئة أعلن تشكيلها لمجابهة الفساد، بينما هى فى الحقيقة تهدف إلى تصفية الحسابات مع الخصوم السياسيين وترهيب أباطرة الصحافة فى باكستان). ويبقى من غير المتوقع أن تدين التحقيقات وسيم وتحكم عليه بالسجن. وقد تحدث أفراد المخابرات الذين كانوا مكلفين بمراقبة أعضاء الفريق فى كأس العالم عن زيارات لنوادى القمار والحانات فى المساء. ولو كان الفريق فاز على أستراليا لكان سيسمح للاعبين بالجنس والمقامرة وشرب الويسكى وتعاطى كل أنواع المخدرات التى يرغبون فيها، ولكان الباكستانيون الذين يشعرون أن لاعبى الكريكيت ينتمون إليهم، بعكس ما يشعرون تجاه الساسة، سيقدرونهم ويثمنونهم، ولكان اللاعبون سيغسلون كل ذنوبهم فى الزيارة الإجبارية لمكة فى طريق عودتهم لديارهم.

يوليو/ تموز ١٩٩٩

١٨

الكريكيت والمال

جاء قرار البى بى سى بالتوقف عن إذاعة مباريات الكريكيت فى نهاية الثمانينيات نتاجًا لخليط من جشع مؤسسة الكريكيت والأولويات الرياضية الملتبسة لدى المذيعين، بالإضافة لما يظنه بعضهم من ضغوط من جانب مارجريت تاتشر التى كانت عازمة على مساندة روبرت مردوخ فى تشييد إمبراطوريته التليفزيونية. وخلال عدة سنوات اختفى البث المباشر لمباريات الكريكيت من القنوات الأرضية، مما دفع العديد من متابعى هذه الرياضة الشغوفين، ومنهم أنا، للاعتراف بالهزيمة وتوقيع وثيقة الاستسلام لقناة سكاى لنبدأ فى تحويل أموالنا لجيب مردوخ. ومن المستحيل الآن مشاهدة مباريات الكريكيت على الهواء دون الاشتراك فى قناة سكاى، كما أن موسم الكريكيت قد أصبح ممتدًا طوال العام، فلم تعد هناك مواعيد للبداية والنهاية تتسبب فى تعطيل حياة الإنسان. فلو أنك أردت مشاهدة مباريات بين فريقين من جنوب آسيا فعليك دفع اشتراك إضافى لقناتى زى التليفزيونية (الهندية) وآرى (الباكستانية). وفى العام الماضى تأسس اتحاد الكريكيت الهندى، والذى صحب تأسيسه احتفالات باذخة، فاضطر مشجعى الكريكيت المتعصبين لدفع اشتراكات لقناة سيتانا الرياضية. وها هى متابعة مباريات الكركيكت تضحى الآن أكثر تكلفة من الحصول على رخصة بث البى بى سى.

ولكن يبدو كل ذلك تافهًا بالمقارنة بالتغيرات الكبيرة التى حدثت منذ بداية القرن. فقد تسيد المشهد الدولى فى تلك اللعبة منذ انتهاء فترة الاستعمار حتى وقت قريب

نادى ماريلبون بالاشتراك مع الصبية المتوحشين من أستراليا إلى جانب جنوب أفريقيا (لمدة أقصر). أما البريطانيون فقد كان لهم السبق ولم يستطع أحد منافستهم. هل يضم فريق جزر الهند الغربية العديد من قاذفى الكرة الذين يتمتعون بالسرعة والذين لا يمكن ملاحقتهم؟ إذًا فلنغير قواعد اللعبة ونحدد عدد التسديدات السريعة بتسديدة واحدة فى كل جولة. هل يقدر قاذفو الكرة الباكستانيين على رد الكرات السريعة؟ إذًا فهم يخادعون بالتأكيد، فلنسلط الكاميرات عليهم ونراقب كل حركاتهم. استمر الأمر على هذا المنوال بمساعدة عدد من الحكام الذين كان من الصعب أن يتخلوا عن انحيازاتهم القديمة. كان مارك ماركساى قاسيًا، ولكنه صدق حين كتب فى كتابه إلا إنجلترا (Anyone but England) (1994) قائلاً: "ترجع جذور نفاق الإنجليز إلى فترات مبكرة من تاريخ لعبة الكريكيت، وهو أحد الأمور التى تضفى الصبغة الإنجليزية على الكريكيت الإنجليزى - كيف يكذب الكريكيت على نفسه عن نفسه".

وفى عام ١٩٥٦ قام فريق ماريلبون الأسترالى بزيارة لباكستان ولم يكن يقدم عرضًا جيدًا ولكن الحكم الباكستانى إدريس بيج أكرمهم بسلسلة من قرارات "الساق قبل العصا" ضد قاذف الكرة الباكستانى المتألق. وعندما عاد أفراد الفريق الإنجليزى إلى فندقهم بعد المباراة، كما جاء فى تقرير مجلة التايم، احتسى اللاعبون الخمر؛ لينسوا أحزانهم، ثم قرروا أن ينالوا من الحكم بيج. وعندما عثروا عليه فى بهو الفندق دعوه إلى "حفل صغير خاص" فى فندقهم. ولما رفض بيج اصطحبه اللاعبون رغمًا عنه - كما ذكر بيج فيما بعد - متسببين فى نقل أحد مفاصل ذراعة أثناء المحاولة. وقد حكى بيج لاحقًا أن اللاعبين بعدما أخذوه إلى الفندق غمروه فى الماء ثم أجبروه على تجرع الويسكى. ولم ينقذ بيج من قبضة مضيفيه سوى وصول أنباء عما يتعرض له إلى بعض لاعبى أحد فرق الكريكيت الباكستانية الذين اقتحموا الحفل لإنقاذه. (أخبرنا أحد أعمامنا الذى حكّم كثيرًا من المبارايات رفيعة المستوى الذى كان على معرفة بسلوك بيج عن قرب بأن "تحكيم بيج فى المباراة كان مشينًا. كان كلما طلب كاردار قائد فريق باكستان احتساب خطأ، رفع بيج إصبعه رافضًا").

ظهر بيج فى اليوم التالى ويده معلقة إلى رقبته برباط. أما نادى ماريلبون فلم يهتم بالواقعة ناعتاً إياها "محض مزحة." ولكن الطلاب الباكستانيين خرجوا إلى الشوارع هاتفين: "ارحلوا يا لاعبى ماريلبون! يحيا إدريس بيج!" وأثناء المباراة أخضعت الشرطة المشاهدين للتفتيش بحثاً عن أسلحة، كما راقبوا اللاعبين الإنجليز مراقبة لصيقة، وهو ما أدرَّ مديح الصحافة البريطانية. تصور حدوث مثل تلك الواقعة لحكم إنجليزى على يد لاعبين باكستانيين! وفى الثمانينيات وبعد مرور عدة أعوام أعلن سونيل جافاسكار أحد أعظم ضاربى الكرة فى الهند أنه ليس مهتماً باللعب فى ملعب لورد الشهير بإنجلترا وأنه لا يرغب فى الحصول على عضوية نادى ماريلبون، قوبلت تلك التعليقات بالصدمة الشديدة فى بلده. (أما أنا فشعرت بالسعادة).

تأسس نادى ماريلبون فى عام ١٩٠٩ ليكون المنظم للعبة الكريكيت الملكية فى المستعمرات؛ حيث سمح لجنوب أفريقيا باللعب فى مستوى المباريات التجريبية وبدأت تنافس الاحتكار اللإنجليزى - الأسترالى. كان النادى يصل لقراراته بالتوافق - حيث تجرى مناقشة الأمور، ثم ينفذ رئيسه الإنجليزى ما يعن له. وفى عام ١٩٦٤ أصبح نادى ماريليبون منظماً للعبة الكريكيت عالمياً، ولكن مديره ظل حتى عام ١٩٨٩ يشغل موقع الرئيس.

ثم تغير توازن القوى مع حلول التسعينيات حيث كانت جنوب أفريقيا فى هذا الوقت تحتكر ٦٠٪ من عائدات الكريكيت. يصل تعداد الهند إلى بليون نسمة والكريكيت هو رياضتها القومية. وقد قرر اتحاد مراقبة لعبة الكريكيت فى الهند، بعد ضجره من التعامل مع غطرسة الإنجليز وتكبرهم، أن الوقت قد حان للتخلص من تحكم إنجلترا. كان الهنود قد اكتسبوا مع الوقت من المستعمر السابق ما يكفيهم من الخبرات وأصبحوا على استعداد لإعلان الاستقلال. وقد عبر مايك أثيرتون فى صحيفة صانداى تليجراف عن ردة الفعل القلقة فى نادى لورد الإنجليزى عندما كتب قائلاً:

> **إن الهند هى وحش الكريكيت المرعب ويهاب الكل نباحها وعقرها. وقد صعدت للقمة فى عام ١٩٨٣ بعد حصولها غير**

المتوقع على كأس العالم وتغلبها على فريق جزر الهند الغربية القوى... كان هذا بمنزلة تغييرا كاسحا فى توازن القوى، ولكن إنجلترا احتاجت... وقتًا طويلاً لتدرك ما حدث... كما وجد مالكولم سبيد رئيس مجلس إدارة نادى ماريليبون نفسه فى موقف مشابه لموقف كوفى عنان والأمم المتحدة فى السنوات الأخيرة - يتعرض لبلطجة قوة عظمى أضحت مبادئ القانون الدولى والمسئولية الجمعية بلا معنى عندها.

وبعد انتهاء اجتماع وصفه أحد مسئولى لعبة الكريكيت الأستراليين بأنه "اجتماع بغيض لمجلس إدارة نادى ماريليبون" فكرت أستراليا وإنجلترا فى القيام بانقلاب مضاد. كانت كلاهما مستاءتين من أن جنوب أفريقيا قد انشقت وانحازت إلى الهند. أما جراهام هاليبش وهو أحد أعضاء مجلس إدارة مجلس الكريكيت الأسترالى فقد كشف عن القلق البالغ من أن "الهند وباكستان وسرى لانكا بصدد تشكيل تحالف قوى، بدعم من جنوب أفريقيا وزيمبابوى، بإمكانه الاستحواذ على لعبة الكريكيت على المستوى العالمى". ويصف الرجل فى كتابه الصادر فى عام ٢٠٠٣ بعنوان: واقعة طرد (Run Out) أنه كُلف "بمهمة حيوية وهى وضع خطة... سرية وحساسة للغاية لدرجة أن كان لها اسم حركى- مشروع الثلج". كانت الخطة تتمثل فى إحداث انشقاق داخل نادى ماريليبون بطريقة تجعل أستراليا وإنجلترا ونيوزيلاندا وجزر الهند الغربية تلعب المباريات فيما بينها ودون مشاركة فرق أخرى. وكان هاليبش واثقًا أن تلك "الخطة الضرورية سوف تمكننا من تلبية طلبات قنواتنا التليفزيونية ورعاتنا وجماهيرنا".

ولكن حدث أن انتصرت خطط أفضل؛ حيث قدمت جنوب آسيا بعض التنازلات الشكلية (مثل تدوير رئاسة الاتحاد) ومن ثم لم يحدث التقسيم المخطط له. أما وظيفة نادى ماريليبون فتبدو اليوم واضحة للغاية؛ حيث يضطلع بوضع هياكل وقواعد لعبة الكريكيت ويصدر قرارات ملزمة للأعضاء. تذكرت مشروع الثلج أثناء مشاهدتى لأعضاء مجلس الكريكيت فى إنجلترا وويلز الموقرين، يتقدمهم رئيس مجلس الإدارة جيل كلاكس، محاطًا بكبار لاعبى إنجلترا السابقين (الذين أضحوا موظفين فى قناة

سكاى) وهم يصطفون لتحية مروحية السير آلان ستانفورد عند هبوطها على أرض نادى لورد فى عام ٢٠٠٧ ، وقد أقيمت مراسم استقبال ملكية للملياردير المولود فى تكساس والمقيم فى جزر الكاريبى (كما كنا نسمع عنه قبل أن نعرف أن معظم ثروته محض خيال). لم يكن مزاج ذلك الرجل ذى الخيال الجامح القادم من مدينة سانت جون فى جزر الأنتيجوا ليسمح له بالمجاملات فنجده يصف مباريات الكريكيت التجريبية بالـ "مملة". وأضاف أنه يرى المستقبل فى النسخة القصيرة من اللعبة والمسماة "توينتى٢٠" بعد أن تطعم بالفتيات المستقدمات من أوكرانيا وأماكن أخرى واللاتى كان يرى ضرورة تواجدهن لبث الحماس فى الفعاليات.

فى لعبة توينتى٢٠ يلعب كل فريق هجمة واحدة فقط بحد أقصى عشرين جولة وبهذا تنتهى المباراة فى غضون ساعتين ونصف. وعندما رأى بعضهم داخل مؤسسة الكريكيت الإنجليزية أن مباريات الدورى الهندى قد حققت نجاحًا كبيرًا جعل حقوق بثها عالميًا تعود على قناة بى بى سى بحوالى مليار دولار خلال السنوات العشر القادمة، شعروا بالأهمية القصوى لخلق بعض المنافسة، ولهذا جاءت التوينتى٢٠ صنيعة إنجليزية. كانت الخطة بسيطة: تأسيس بطولة ممتازة للتوينتى٢٠ تنافس دورى اتحاد الكريكيت الهندى الذى يضم تقريبًا كل نجوم الكريكيت غير الإنجليز فى عدة مدن فى الهند ويحظى بشعبية كبيرة. وكانت الخطة تتضمن أن يشرف على المسابقة الجديدة اتحاد الكريكيت فى إنجلترا وويلز وتمول بملايين ستانفورد.

وسرعان ما وقّع النجم الإنجليزى كيفين بيترسون عقدًا؛ ليكون سفيرًا لستانفورد، وبدا لنا سعيدًا فى صوره الصحفية التى واكبت الحدث. (الآن يقول النجم للصحافة: إنه كان دومًا متشككًا وكان يرى أن ستانفورد شخص "حقير"). ثم جرى التنظيم لمباراة استعراضية بين إنجلترا وجزر الهند الغربية فى النادى الخاص المملوك لستانفورد فى جزيرة أنتيجوا فى نوفمبر الماضى. وقد صدر وعد بمنح كل لاعب فى الفريق الفائز مبلغ مليون دولار. وكما كان متوقعًا، فقد فاز فريق جزر الهند الغربية (الذى كان يلعب بوصفه فريق نجوم ستانفورد)، فى حين وافق خمسة من اللاعبين على

ترك الأموال لدى ستانفورد لكى يستثمرها لهم. كانوا حمقى، ولكن ليسوا بحمق حكومة أنتيجوا التى تملك صلات قوية مع مشروعات ستانفورد، أو بحمق طبقة الحكام فى فينزويلا الذين استخدموا بنك ستانفورد فى كاراكاس لغسيل أموالهم.

لم يقطع اتحاد الكريكيت فى إنجلترا وويلز كل صلاته بستانفورد سوى حين اتهمت لجنة السندات والصرافة الأمريكية ستانفورد بالنصب والاحتيال "الواسع والمستمر". والآن يرقد الغريم المسمى توينتى٢٠ الذى كان من المزمع إطلاقه كمنافس لدورى الكريكيت الهندى متداعيًا. كان مشروع الثلج مجرد ردة فعل طفولية لضياع هيمنة مؤسسة الكريكيت، ثم جاءت النكسة الأخيرة نتاج الطمع الأخرق. ويمكن القول: إنه من الظلم التركيز على دور اتحاد الكريكيت فى إنجلترا وويلز وحده؛ حيث كانت تاتشر ومن تمثل بها من جناح حزب العمل الجديد هم الآخرون ينتهجون السياسات الموازية. لماذا إذًا نعتبر وضع اتحاد الكريكيت فى إنجلترا وويلز مختلفًا؟ صحيح أن الاتهامات المتعددة التى وجهت لممارسات ستانفورد المالية لا تزال تتداول لعدة سنوات، وأنه فى عام ٢٠٠٧ تم تغريم مجموعة شركاته مبلغ ٢٠ ألف دولار لمخالفتها القانون الذى يلزم بإعلان وضعها المالى، ولكن ليس ثمة من اهتم بالأمر. لم يكن أى من ذلك غريبًا فى عالم رأس المال الرهيب الذى كشفت عنه الأزمة الراهنة.

تغير الكثير فى مجال لعبة الكريكيت مثلما تغير العالم من حولها، ولكن أقل ما تغير كان الغش المتمثل فى فضائح المراهنات وفضائح اللاعبين الكبار؛ مثل هانسى كرونجى ومحمد أزهرالدين ووسيم أكرم وغيرهم. فقد قتل أحد سماسرة المراهنات واسمه حنيف كادبرى فى جنوب أفريقيا التى هرب إليها بعد إدلائه بشهادة أمام لجنة تحقيقات القاضى قيوم فى قضية بيع أحد المباريات فى باكستان. أفشى الرجل كثيرًا من الأسرار عن عالم سماسرة المراهنات وعن تعاون العاملين فى حقل الكريكيت معهم. لم يأت بعض الذى قاله الرجل جديدًا، فقد قرأنا عن أمثلة كثيرة لذلك فى كتاب جون ميجور الرائع أكثر من مجرد لعبة (More Than a Game) الذى يسرد تاريخ اللعبة. كان

التلاعب فى نتائج المباريات نظير مبالغ كبيرة يحدث فى بريطانيا فى القرن التاسع عشر وفى الوقت الذى كان الكريكيت بصورته التى نعرفها اليوم لا يزال فى حيز الاختراع.

ماذا تغير إذًا فى واقع اللعبة؟ وصف باحث علم الاجتماع الفرنسى جون مارى بروم كل أشكال الرياضات بأنها "سجن للزمن المحسوب بدقة". ولو أننا تبنينا هذا المنظور فسوف تصبح مباراة الكريكيت التجريبية معادلاً للحكم بالسجن مدى الحياة. ولكن بعض المباريات التجريبية تفوق أشكال لعبة الكريكيت الأخرى الحماس والتشويق، حتى ولو انتهت بالتعادل - وهو احتمال غير موجود فى المباريات الأقصر زمنًا؛ حيث يتحتم الخروج بنتيجة. ومن النفاق بالطبع أن ندعى أن الأمور كانت أفضل فى الماضى، ولكن يمكننا القطع بما يلى: قد نجد المتعة فى متابعة مباراة كريكيت اليوم الواحد ولكن التوينتى٢٠ تمثل البديل الذى يقدمه الكريكيت لضربات الترجيح من نقطة الجزاء من حيث إن النتيجة تعتمد على الحظ بدرجة كبيرة. ويأتى الدافع الترويجى الأكبر للعبة الكريكيت عالميًا دافعًا تجاريًا، ولا يحاول الكثيرون إخفاء تلك الحقيقة. فها نحن نرى جامعى الثروات ومنظمى برامج التليفزيون هم الذين ينظمون فعالياته. ويشهد الوقت الحاضر تزايدًا مضطردًا فى المباريات الليلية التى تقام تحت الأضواء الكاشفة التى يضمن توقيت لعبها جذب أكبر عدد من المشاهدين.

وهناك المعلقون الذين يتبارون بينهم حول من لديه القدرة على التسفيه بالآخرين، متنافسين فى ذلك مع الراقصات المرتديات التنورات القصيرة اللاتى يُجلبن لرقص الكانكان عند تسجيل ضربة أو هدف. يأتى جعل نفسك أضحوكة أثناء مباريات التوينتى٢٠ جزءًا من مسار اللعبة. كدت أنسى أن أضيف أن بعض اللاعبين يحملون ميكروفونات تجعلهم قادرين على إجراء المقابلات الصحفية أثناء المباراة. هنا تتضح الرسالة: "نحن لا نأخذ الأمر بجدية، وأنت أيضًا لا ينبغى أن تأخذه بجدية. الأمر لا يتجاوز أننا نريد تطعيم اللعبة ببعض المتعة ونجذب الشباب أكثر لها"- على الرغم من أن ذلك لم يشكل مشكلة فى جنوب آسيا أو فى أستراليا من قبل. هناك بالطبع أموال كثيرة متداخلة فى هذا الأمر. يعانى معظم لاعبى الكريكيت من انخفاض مرتباتهم،

وأنا عن نفسى أشجع فكرة زيادة رواتبهم لأسباب من ضمنها أن ذلك سوف يضعف نفوذ مافيا المراهنات على نجوم اللعبة الذى يكاد يدمر اللعبة تماماً. كان أحد الأسباب التى جعلت الجمهور فى بعض أنحاء العالم يحجم عن حضور المباريات التجريبية هى الشكوك القوية التى تساورهم بأن نتيجة المباراة مقررة مسبقًا.

تعكس لعبة الكريكيت فى أفضل صورها نفس سمات رقصة البالية المعدة والمنفذة بفن وإتقان. فنحن نستمتع بفن قاذفى الكرة العظماء من أمثال عبد القادر وشان وارن وموتيا موراليثاران وآنيل كومبل وهم يوجهون ضرباتهم المتتالية لنفس ضارب الكرة لمدة تتجاوز الساعة وهم ينوعون ضرباتهم كل مرة حتى يوقعوا بالضحية. وقد يصبح الأمر مملاً ومتوقعًا، ولكن النسخة المختصرة من اللعبة قد تكون بدورها مملة ومتوقعة، حتى مع كل الزينة الصناعية التى تنطوى عليه.

شعرت بالقلق الشديد حين كان سيرك اتحاد الكريكيت الهندى فى بداياته ورأيت نجوم السينما ورجال الأعمال فى الهند يتسابقون فى شراء حقوق بثه. كان كل ما يحيط بالأمر مزعجًا: الدعاية الصاخبة والتعليق الحماسى الصادر من المعنيين بالأمر الذين يتقاضون رواتب ضخمة واللقطات المقززة التى لا تنتهى التى كان يطالعنا فيها رئيس اتحاد الكريكيت الهندى لاليت مودى ينظر إلينا متأنقًا كإله هندى لا يضع مساحيق التجميل. ولكن المباريات كانت مشوقة وجذبتنى لها. وسوف يكون الموسم الجديد الذى يبدأ بعد خمسة أسابيع مختلفًا. لن نرى لاعبين باكستانيين؛ لأن الهند أوقفت جولاتها فى باكستان بعد جريمة مومباى الرهيبة. أما قائد فريق أستراليا ريكى بونتن فسوف يبقى فى بلده؛ لينال بعض الراحة ويجهز للمباريات التجريبية بين إنجلترا وأستراليا المحدد لها نهاية الصيف. أما اللاعبان الإنجليزيان اللذان اشتراهما اتحاد الكريكيت الهندى فى مزادات العبيد بمبلغ يتجاوز مليون جنيه إسترلينى لكل منهما فهما هو أحدهما أندرو فلينتوف يرقد مصابًا وقد لا يتمكن من اللعب فى المباريات المتبقية أمام جزر الهند الغربية، ولكنه لا يستطيع التغيب عن مباريات اتحاد

الكريكيت الهندى. أما بيترسن فقد أعلن الغضب مثل الأطفال بعد خسارته الأموال التى كان سيحصل عليها من ستانفورد؛ لذا فسوف يذهب إلى الهند ويأخذ المليون. ولو كان بيترسن لا يزال كابتن فريق إنجلترا لكان أحرى به أن يتبع خطوات بونتنج، ولكن جاء قرار اتحاد الكريكيت فى إنجلترا وويلز ليلزمه بالمشاركة.

هل ستترك الأزمة الاقتصادية آثارًا طويلة المدى على اللعبة؟ بلا شك. كان ستانفورد وأصدقاؤه الإنجليز متهورين، ولكنهم لم يكونوا وحدهم. وها هم منافسوهم فى الهند يواجهون الآن مشاكلهم الخاصة. جاء فريق راجاستان رويالز بقائده شان وارن وبلعبه المحترف الرائع فى العام الماضى ليتوج بطلاً لدورى الكريكيت الهندى، ولكنهم لا يزالون يبحثون عن راعٍ لهذا العام بعد تراجع شركة التأمين العملاقة باجاج أليانز عن تبنيهم. وتواجه الفرق الأخرى صعوبات مماثلة. فعلى الرغم من إبرام اتفاقات مثل تلك التى أبرمت مع مجموعة سونى العالمية للرياضة لمدة عشر سنوات، تواجه شركة سونى مصاعب كبيرة فى بيع الإعلانات المصاحبة للبطولة. كما أنهت شركت بيج تى فى وبيبسى عقديهما مع اتحاد الكريكيت الهندى. ويقال: إنه مع حلول نهاية هذا العام قد تنسحب كذلك كتيبة السينما الهندية ومعهم رعاتهم.

وفى تلك الأثناء قررت الحكومة الصينية أن تعلم الصغار فى الصين لعبة الكريكيت؛ تحسبًا لأى وقت تصبح فيه لعبة الكريكيت لعبة أوليمبية، فتعاقدت مع لاعبين سابقين فى جنوب آسيا وعلى الأخص باكستان ليقوموا بالتدريب هناك. ولو ازدهرت لعبة الكريكيت فى الصين فسوف يجد اتحاد الكريكيت الدولى نفسه مضطرًا مجددًا لنقل مقره إلى شنغهاى ولسوف تصبح مبارايات الكريكيت التجريبية السنوية فى الهند والصين أكبر حدث للكريكيت فى رزنامه الأحداث الرياضية فى عام ٢٠٣٠ . من يدرى؟ فقد يخصص نادى لورد الإنجليزى ممرًا للمروحيات الصينية فى ساحته.

فبراير/ شباط ٢٠٠٩

١٩

بعد لاهور

سوف تصير لعبة الكريكيت فى باكستان ضحية مباشرة للهجوم الإرهابى الذى وقع على فريق الكريكيت السريلانكى فى لاهور فى مارس/آذار من عام ٢٠٠٩ . ويرى بعض المتفائلين أن مذبحة ميونخ فى عام ١٩٧٢ لم تقوض الألعاب الأوليمبية، ولكننى أشك فى أنه بالإمكان الآن جذب فريق مثل زيمبابوى للعب على ملعب القذافى فى لاهور. من يلوم هؤلاء؟ يعيش يونس خان، كابتن فريق باكستان، الذى حقق ثلاثمائة اختراق فى المباراة التجريبية فى كراتشى قبل وقوع الجريمة النكراء بعدة أيام، فى حالة حداد. يقول خان: "كنت وأنا طفلاً"

> **أحب مشاهدة عمران خان وجافد ميانداد ووسيم أكرم يلعبون أمام الفرق الأجنبية العظمى. كان هؤلاء اللاعبون السبب الذى جعلنى ألعب الكريكيت. ولكن ماذا لو توقف الناس عن القدوم لباكستان؟ كيف للصغار أن يتعرفوا على تلك الرياضة؟ ماذا سيفعلون؟ من السهل توقع أن يصدر اتحاد الكريكيت الدولى وممثليه فى باكستان قرارًا بسحب اللعبة من باكستان، ولكن ذلك سيؤثر سلبيًا على المستقبل فى بلادى.**

يشارك الكثيرون ممن يقل مستواهم فى التعليم فى الرأى نفسه. فالكريكيت لعبة شعبية فى الأحياء الفقيرة. والآن لن يكون فى استطاعة باكستان أن تلعب ضد فرق أجنبية سوى خارج أرضها؛ بل وحتى المباريات التى من المفترض أن تقام على أرض

الفريق سوف تقام فى دول أخرى. هناك الكثير من الفقراء الذين يعيشون بلا كهرباء، ناهيك عن أجهزة التلفاز. هؤلاء سوف يحرمون من الكريكيت.

من فعل ذلك ولماذا؟ تبقى العديد من الأسئلة (مثل تلك المحيطة بمقتل بينظير بوتو) دون إجابة. من أطلق عنان تلك الوحوش، والأهم من ذلك هل كانت أى من الأجهزة الاستخباراتية على علم بتلك المخططات؟ يعمل حوالى ربع مليون شخص لدى وكالات جمع المعلومات الاستخباراتية فى باكستان، سواء منها المدنى أو العسكرى. وقد استطاع أفراد هذه الوكالات التغلغل داخل الكثير من الجماعات المسلحة التى تعمل فى باكستان، إن لم يكن كلها. وبما أن تلك الجماعات هى فى المقام الأول صنيعة وكالات الاستخبارات فإنه من المدهش أن نتصور أن كل الصلات قد انقطعت الآن، كما يدعى البعض. فبلا شك تبقى الجماعات المسلحة، الآن ولاحقاً، من أقوى الأسهم السامة فى جعبة الدولة.

تنفى جماعة الجند الطيبة، أكبر تلك الجماعات، مسئوليتها عن الحادث بالطبع. وقد وعد قائدها الذى يقبع الآن قيد الإقامة الجبرية فى مومباى بالتعاون فى تعقب الجناة. هناك من يقول: إن الهجوم شن من قبل إحدى الجماعات المنفصلة عن الجماعة الأم التى غضبت جراء وقوع قادتها ومقاتليها قيد التحقيقات وفقًا لأهواء الهند. بينما يؤكد بعضهم أن الهند هى التى نفذت الهجمة؛ انتقامًا لما حدث فى مومباى. وتشير محطات التلفاز الباكستانية (وهى فى الغالب قنوات جيدة) جميعها بأصابع الاتهام إلى الهند غاضة الطرف عن أمر قد يكون موجعًا لدرجة تحدو بها لإنكاره. فقد جاء ما قاله قمران خان مقدم أحد برامج الأحداث الجارية على قناة جيو تى فى واضحًا: "لسنا بحاجة إلى التخمين. فهوية الإرهابيين واضحة. كما أنه من الواضح تمامًا من أين أتوا. يجب ألا تبقى باكستان الآن دون تحرك، ولكن عليها إبراز الأمر فى المحافل الدولية مثلما أبرزت الهند حادث مومباى". فى الوقت نفسه أجرى طلال حسين مقدم أحد برامج التوك شو المنافس لخان مقابلة على قناة أجاج مع وزير فى وزارة صغيرة

أعلن بكل تهور أنه ما من دليل على ضلوع الهند فى الهجوم. وهنا سأل حسين الوزير "لماذا تتبنى هذا الرأى الضعيف؟ ألدينا عدو أكبر من الهند؟".

لن تعود الأمور إلى طبيعتها لو لم يتغير الوضع فى باكستان ذاتها. وما من حلول سهلة فى هذا الشأن- هناك فقط المشكلات. أولاً: تعانى المؤسسة العسكرية من التمزق الرهيب الذى يجعل أى تصعيد على جبهة الحرب فى أفغانستان دافعًا لزيادة هذا التمزق، وهو أمر يعلمه مستشارو أوباما جيدًا. وقد عمت الصدمة والغضب فى البلاد فى الشهر الماضى عندما أصدرت السيناتورة ديان فاينشتاين تصريحًا متعجلاً بأن هجمات الطائرات دون طيار على القرى الباكستانية أو "مخابئ الإرهابيين" قرب الحدود الباكستانية كانت تنطلق من قاعدة أمريكية داخل باكستان. ولم يفلح النفى الفاتر الذى صدر من الحكومة التى يترأسها شخص يعتبر فى ذاته طائرة دون طيار فى إقناع أحد. وفى خلال أيام كانت الصور الموجودة على موقع جوجل إيرث للقواعد العسكرية فى باكستان منتشرة على شبكة المعلومات. لم تعقب ذلك أية محاولة أخرى للنفى.

أصبح لبعض موظفى وكالة الاستخبارات التابعة لوزارة الدفاع الأمريكية الحق فى دخول منشئات باكستان النووية فى أعقاب أحداث الحادى عشر من سبتمبر. وقد طمأنت الولايات المتحدة إسرائيل مرارًا بأنها قد ثبتت أنظمة الأمان النووى المزودة بتكنولوجيا المفتاح المزدوج فى نظام الإطلاق والتحكم فى إسلام آباد الذى يجعل من المستحيل على أى زعيم مارق استخدامها دون الحصول على شفرة التفويض من قبل زعيم باكستانى مدنى (فليرحمنا الله). ويدعى بعضهم فى باكستان أن الولايات المتحدة قد أدرجت فى نظام الأمان مفتاح إغلاق تام يمكنه تجميد النظام بأكمله مثل "توقف سيارة مسروقة عبر التحكم عن بعد". ولكن تلك الخطوات لم تحقق رضا الإسرائيليين التام، الذين يطالبون واشنطون بالضغط على باكستان لتسليم أسلحتها النووية، وهو ما قد يكون من الأسهل تحقيقه لو أن إسرائيل والهند فعلتا ذلك.

ثانيًا: فإن الحكومة المدنية فى إسلام آباد كارثة حقيقية. وعندما كنت فى إسلام آباد منذ عدة أسابيع حصلت على معلومات مفصلة - من جهات لا ترغب فى إفشاء هويتها - على وقائع قذرة تتعلق بصفقات متورط فيها القصر الرئاسى. ولو صح ما قيل لى فإن ذلك ينم عن أن زاردارى وحاشيته قد عادوا إلى العمل وأنهم يربحون أموالاً طائلة ويهربونها للخارج. وفى الوقت نفسه نرى التطرف الدينى ينتشر فى مناطق الشمال الغربى، بينما تتحكم المافيا المدنية فى كراتشى أكبر المدن التى يغيب عنها القانون والنظام غيبة تامة. وقد حل زاردارى البرلمان المحلى فى البنجاب الأسبوع الماضى وأطاح بالأخوين شريف، خصميه السياسيين، اللذين يحشدان مؤيديهما الآن فى الشوارع معرضين نفسيهما للتوقيف. ولو تصاعد الأمر إلى حدوث مصادمات مع الشرطة والجماعات المسلحة الموالية للنظام فقد يضطر الجيش إلى التدخل. يحاول زاردارى فى هذه الفترة إعادة تأهيل السادة الذين طالتهم الهزيمة والعار. ولكن ماذا عن رعاتهم السابقين؟ عاد الجنرال مشرف لتوه من جولة ناجحة فى الولايات المتحدة، كما أنه حصل فى جولته على وظيفة كبيرة لا تنطوى على أى عمل لكى يتمكن مثل تونى بلير، من إملاء مذكراته على كاتب مستتر وبذلك يعجل بظهورها فى كتاب. ولكن الجنرال الذى يدرك أنه قد أضحى أكثر شهرة من زاردارى يخطط الآن لمشاركته السلطة. هناك أقاويل عن احتمال وقوع انقلاب عسكرى يتخذ واجهة مدنية، ثم صياغة دستور جديد يؤسس لسلطة الرئيس. وقد ينجم عن الفوضى فى الداخل تغيرات مؤسسية تهدف فى النهاية إلى بقاء الأمور كما هى.

تكمن المشكلة الثالثة فى الولايات المتحدة التى تشهد الآن مغبة فشلها فى تفعيل إستراتيجية مناسبة لخروجها من أفغانستان. وقد ألقى ريتشار هولبروك فى الخامس والعشرين من فبراير (شباط) كلمة أمام مؤسسة بروكينجز جاء عنوانها دالاً على التفاؤل: "باكستان: حلم مؤجل أم حلم ممنوع؟" أما ستيفن كوهين وهو أحد الباحثين الخبراء فى مجال المؤسسة العسكرية الباكستانية ومن كبار الباحثين فى المعهد فى المؤسسة نفسها فقد رسم صورة قاتمة للوضع فى باكستان قال فيها: إن الدولة تنهار

بوتيرة متسارعة وإن الولايات المتحدة قد تفقد سيطرتها عليها. وهنا تدخل هولبروك معلقًا بأنه لو كان تحليل كوهين دقيقًا ستكون السياسة التى وضعتها الإدارة الحالية غير موفقة، كما وعد بحضور المناقشة التى تلى الكلمة ولكنه غاب عنها. ولأن تلك الأحداث وقعت فى واشنطن، لم نجد هناك من يعبأ بأمر لعبة الكريكيت.

مارس/آذار ٢٠٠٩

٢٠

الإمبراطورية الجديدة ومموالوها

قبل عام بالتمام من اصطدام الطائرة المختطفة بمبنى البنتاجون، كان تشالمرز جونسون يحاول لفت انتباه الأمريكيين إلى الأخطار المحدقة بهم. وجونسون أستاذ جامعي أمريكي مرموق، وأحد أكبر مؤيدى الولايات المتحدة فى حربها فى كوريا وفيتنام، كما أنه قد شغل منصب كبير المحللين فى وكالة الاستخبارات المركزية لفترة واحدة لم تجدد. انتقد جونسون سياسات بلاده التوسعية فى فترة ما بعد الحرب الباردة نقدًا لاذعًا؛ حيث تنبأ قائلاً: "إن النتيجة العكسية فى لغة الاستخبارات تعنى أن دولة ما تحصد ما غرسته من بذور، حتى ولو لم تكن على وعى أو فهم تام بتلك البذور التى غرستها. فالولايات المتحدة سوف تضحى فى القريب المحط الرئيس لكل أنواع النتائج العكسية التى يسهل توقعها، وذلك بفضل طبيعتها الثرية ونفوذها الكبير فى العالم".

وبينما استند جونسون فى تحذيره من مخاطر الإغراق فى البحث عن الهيمنة الاقتصادية والعسكرية التوسعية إلى ماضيه الشخصى بوصفه من مثقفى الدولة ويشغل منصبًا فى قلب مؤسستها، فقد وجد من كانوا ينتقدون النزعة التوسعية فى الماضى أنفسهم محاصرين بأنقاض ١١ من سبتمبر، فتحول الكثيرون منهم الآن إلى أشد مؤيديها ولاءً. ولا أشير هنا إلى الكتاب المؤيدين للحرب والذين يعمون مجال الصحافة الليبرالية على ساحلى المحيط الأطلسى الشرقى والغربى، من أمثال سلمان

رشدى ومارتن آميس وأصدقائهما. فهؤلاء قد يغيروا مواقفهم مرة أخرى. جاء قبول رشدى للظهور على غلاف مجلة فرنسية ملفعًا بالعلم الأمريكى مجرد مشهد وقتى مخيف، بينما قد يتضح لاحقًا أن حبه للإمبراطورية التوسعية الذى ظهر مؤخرًا ما هو سوى أمر قصير الأجل مثل اعتناقه الإسلام.

ولكن ما يهمنى هنا هو جماعة أخرى: هؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا منخرطين فى نشاطات اليسار فى وقت ما. كانت رحلة بعضهم فى صفوف اليسار قصيرة وسرعان ما انتقلوا من تيارات العمل السياسى المهمشة تلك إلى الغرف الخلفية لوزارة الخارجية الأمريكية. يتميز هؤلاء بثقة شديدة بالنفس، مثلهم فى ذلك مثل كثير من المتحولين. وها هم الآن يستخدمون مهاراتهم فى الجدال التى طوروها خلال انخراطهم فى صفوف اليسار، ولكن هذه المرة ضد أصدقائهم القدامى. هذا هو ما جعل منهم حمقى تستفيد منهم الإمبراطورية - تستخدمهم ثم تستغنى عنهم. وما من شك أن بعضهم يأمل فى التقدم واحتلال المكان الذى أصبح فارغًا بعد تشالمرز جونسون، ولكن علينا تحذيرهم: فالمنتظرون فى الصف كثيرون جداً.

أما البعض الآخر فيحلمون أن يصبحوا البديل الصومالى أو الباكستانى أو العراقى أو الإيرانى للدمية الأفغانية المسماة حامد قرظاى. وهؤلاء الآخرون قد يصابوا بخيبة أمل فى النهاية، فلن يوضع فى مناصب السلطة سوى العملاء الذين اجتازوا اختبارات صعبة. أما معظم الماركسيين أو الماويين السابقين فلم يحصلوا على القبول قط. ولو أنهم أرادوا اجتياز الاختبار ونيل القبول، لكان عليهم إعادة كتابة ماضيهم بأكمله والاعتراف بخطئهم فى مساندة أعداء الإمبراطورية - فى كوبا وفيتنام وأنجولا وأفغانستان أو فى شرق المنطقة العربية؛ أى إن عليهم بتعبير آخر اجتياز اختبار ديفيد هاروفيتز. مر هاروفيتز وهو ابن الشيوعية وصاحب كتاب عن قصة حياة آيزاك دويتشه بتجربة تعد من أغرب تجارب التخلص من الماضى فى مرحلة ما بعد السبعينيات فى أمريكا. وها نحن الآن نراه خطيبًا لليمين يعبر عن استيائه من الليبراليين بوصفهم جسرًا يقود إلى الشر الأكبر المتمثل فى اليسار.

وبالمقارنة بهاروفيتز يبدو لنا بعض التروتسكيين السابقين من أمثال كريستوفر هيتشينز وكانان ماكيا وكأنهم أشخاص تافهين. لن يجتاز هؤلاء اختبار هاروفيتز. ولكن لو أن هجومًا جويًا وقع على بغداد مرة أخرى وأنذر باجتياح أرضى، ترى كيف تكون ردة فعل الفرسان الثلاثة؟ أعلن ماكيا، الذى وصف ذات مرة بأنه أكبر المفكرين العارضين فيما يتعلق بالشأن العراقى قائلاً: "أرسى يوم ١١ من سبتمبر قواعد جديدة تمامًا... فلو كنت تعمل فى مجال الإرهاب فسوف تبدأ فى التفكير فى مشاريع كبرى تتطلب حلفاء. ولو أنك احتجت حلفاء فى مجال الإرهاب فسوف يتعين عليك التوجه إلى العراق".

فى وقت ما تصبح قدرة ماكاى على نسج التأكيدات فوق بعضها البعض معتمداً على مجرد خيالاته ومفتقراً للتدليل الإجرائى أو إلى معايير الصدق أمرًا عبثيًا تمامًا. لم تستطع أية وكالة استخبارات أمريكية إثبات أية صلة للعراق بأحداث ١١ من سبتمبر. ولهذا، كان يتحتم التحول إلى قضايا أخرى من أجل تبرير شن الحرب عليها؛ مثل امتلاكها "أسلحة خطيرة" وهو هراء لم يصدقه حتى أعداء صدام القدامى فى العالم العربى.

أما هيتشين فقد جاءت ردة فعله تجاه الهجمات على نيويورك وواشنطن تتميز بالعمق فى البداية، حيث أصر على أهمية "تأجيل اللحظة التحليلية إلى أجل غير مسمى"، ولكنه رغم ذلك لم يتورع عن الربط بين الضربات وسياسات الولايات المتحدة فى الماضى، كما أنه وجه اللوم إلى جورج دابليو بوش لخلطه بين عمل إرهابى وإعلان الحرب، ولكنه سرعان ما أخذ يهاجم الذين وجهوا انتقادات مماثلة، وإن تكن أكثر حدة، لبوش، وبدأ فى اتهام "اليسار المعتدل"، متمثلاً فى نعوم تشومسكى وهارولد بينتر وجور فيدال وسوزان سونتاج وإدوارد سعيد وآخرين، "بالفاشية". وقد ظهر هيتشين فى مقابلاته المتلفزة مؤخرًا مثل أحد المثرثرين، وليس العقل الناقد الذى قوض هالات التقديس التى كانت منسوجة حول هنرى كيسينجر وبيل كلينتون والأم تريزا.

يشترك داعمو الإمبراطورية الجديدة فى الاعتقاد الضمنى بأن قوة الولايات المتحدة العسكرية والاقتصادية تمثل على الرغم من بعض أخطائها المشروع التحررى الوحيد الذى يحتم علينا مساندتها فى وجه كل من يعادونها. وهناك القليلون الذين يفضلون أن يقوم كلينتون بدور القيصر بدلاً من بوش، ولكنهم فى الوقت ذاته يعرفون أن رأيهم هذا غير واقعى. فهم فى أنفسهم يعلمون أن الإمبراطورية تعلو على زعمائها.

ما يغفله هؤلاء هو أن الإمبراطوريات تسعى دائمًا لتحقيق مصالحها، فقد استغلت الإمبراطورية البريطانية الحملة المناهضة للرق بمهارة لخدمة أغراضها فى استعمار أفريقيا، تماماً مثلما تستخدم واشنطن التقارير التى تقدمها المنظمات غير الحكومية وآخرون من حسنى النوايا عن الوضع الإنسانى فى العراق لشن حروبها الجديدة اليوم. استخدمت الإمبراطورية الأمريكية الحادى عشر من سبتمبر لإعادة رسم خريطة العالم، وها هم الأوروبيون من مدعى الاستقامة قد بدءوا إثارة ضيق تشينى ورمسفيلد. يضحكون فى واشنطن لدى سماعهم رجال السياسة الأوروبيين يتحدثون عن ضرورة تجديد دماء الأمم المتحدة. هناك وجود عسكرى أمريكى فى مائة من تلك الدول. فهل أصبحتَ الأمم المتحدة اليوم المرادف للولايات المتحدة؟

أدت السياسات الاقتصادية النيوليبرالية المفروضة من قبل شيوخ صندوق النقد الدولى بالكثير من الدول فى كل قارات العالم إلى الفقر المدقع، ودفعت بمواطنيهم إلى شفا اليأس، فى حين اختفت الديمقراطية الاشتراكية التى بدت خياراً جذاباً إبان فترة الحرب الباردة. وقد أضرت قلة حيلة البرلمانات الديمقراطية وقلة حيلة أعضائها من رجال السياسة بفكرة الديمقراطية ككل. ومن المؤكد أن باستطاعة الرأسمالية القائمة على المصالح الوجود والاستمرار دون الديمقراطية.

فى الوقت الذى بدأت أجزاء كثيرة من العالم فى رفض فكرة أن تتولى الولايات المتحدة "تحريرها"، نرى العديد من الليبراليين قد ضربهم الوهن والصمت. كان أحد

أهم ملامح الولايات المتحدة ولا يزال يتمثل فى طبقات المعارضة التى نمت تحت السطح. فقد منى الجنرالات فى البنتاجون فى السبعينيات بهزيمة أعظم من هزيمة ١١ من سبتمبر عندما تظاهر عشرات الآلاف من الجنود الملتحقين بالخدمة العسكرية والمتقاعدين أمام مبنى البنتاجون مرتدين زيهم العسكرى ومتقلدين نياشينهم معلنين عن أملهم فى انتصار الفيتناميين. أما مساندو الإمبراطورية الجديدة، الذين يعملون الآن على وأد هذه التقاليد، فيصنعون بأنفسهم الظروف التى سوف تنجم حتمًا عن نتائج عكسية أكثر وأكثر.

كاونتر بانش

مارس/آذار ٢٠٠٢

٢١

التهاجن وكذبة أبريل/نيسان

تتحول أية محاولة تقديم قراءة نقدية لفكرة كذبة أبريل/نيسان بالضرورة إلى محاولة إشكالية؛ حيث تعكس الثغرات المتمثلة فى تلك الظاهرة الأزمة والتناقض اللذين يواجهان الثقافة البريطانية، فلو أننا حاولنا تناول الفكرة من منظور عام لواجهتنا مشكلات حقيقية تتعلق بالتناقض بين التحليل والمعلومات التحليلية. هل يمكن اعتبار هوس الإنجليز السوقى المرتبط بفكرة كذبة أبريل ضرباً من ضروب السقطات ضمن أزمة معرفية أكبر؟ أو كما وصف سيباستيانى تيمبانارو عالم فقه اللغة الماركسى العظيم الراحل فى سياق نقده العبقرى لعلم النفس المرضى عند فرويد: لماذا نتعامل مع الوسيط ونترك النص الأصلى؟ هذا سؤال جيد لا يمكن إنكار وجاهته، وهو يكشف فى الوقت ذاته عن الاختلاف الواضح الحاد بين كانط وهيجل الذى كان ماركس فى أبريل من عام ١٨٤٣ يحاول فهمه...

تبقى جذور فكرة أبريل غير واضحة. هل يا ترى تأتى مشتقة من كلمة aperire والتى تعنى "فَتَحَ"، أم من Aphrilis والتى تشتق بدورها من أفروديت، الاسم الإغريقى لفينوس التى تشتق منها كذلك كلمة aperire؟ على المرء العودة لأيام الصبا والشباب الزاخرة بالكنوز ليجد الإجابة، وهو أمر يتعين فيه الاستعانة بالذاكرة البروستية. دعونا إذاً نبحث عن احتمال آخر. قد يكون أبريل الرد الذى اختارته الإمبراطورية الرومانية على أوستارا، الإلهة الساكسونية الوثنية التى أضفت على عيد الفصح وهجاً خاصاً. هيجل أم كانط؟ فينوس أم أوستارا؟ لم يعد من الضرورى أن نحصر أنفسنا داخل تلك

البنية ما بعد الحداثية. نعلم الآن أن أبريلوكوس كان يوم القضيب الذكرى فى بيزنطة: يمكننا مراجعة الإشارات التى تحيل إلى تلك الرياضة والقضبان الذكرية المعاد صياغتها فى متحف القضيب الذكرى فى ريكيافيك، وهو أحد معالم أيسلاندا الرئيسة، الذى يصبح من الأساسى بعد زيارته أن ينغمس الزوار سواء كانوا مثليين أو غير مثليين بعد زيارته فى الجليد الذى يسميه الناس هناك باسم "أمطار أبريل".

كان هناك تقليد سائد فى مصر أثناء العصور الوسطى بتخصيص يوم ينتخب فيه عامة الناس سلطانًا لهم، ثم بعد ذلك يذهب هذا السلطان إلى قصر السلطان الحقيقى راكبًا حمارًا ويخبره بآرائه فى موضوعات عدة. كان هذا الحدث بدوره يحدث فى شهر أبريل وكانت له شعبية كبيرة. وقد كان الأحمق الذى يؤدى دور السلطان يمنح مكافأة خاصة بأن يلعب مع الحمار لليلة واحدة. وقد انتقلت تلك الرغبة تجاه الحمير التى تأتى نتيجة مباشرة للفصل بين الجنسين إلى بلاد فارس فيما بعد. أما فى القرن العشرين من الحقبة المسيحية فقد عنف آية الله الخومينى الراحل أتباعه من المؤمنين بالجمهورية الإسلامية تعنيفًا شديدًا بعدما صدمته أثناء تجواله فى المناطق الريفية فى إيران ظاهرة الحمير الضالة. تصوروا جوقة من الحمير تغنى فى دار الأوبرا الملكية: "نرجوك أن تبكى علينا يا آية الله".

[المقالة السابقة مأخوذة من نص أطول قدمته فى البداية لمجلة نيو ليفت ريفيو فى أبريل ١٩٧٧، ولكن رفضه محرر المجلة الذى يدعى السيد روبن بلاكبرن على أساس مخالفته للذوق العام. ومرة أخرى رفضت مجلة لى تومز موديرن التى تصدر فى باريس نشر المقالة، كما رفضت مجلة كورسبوخ فى برلين وريناشيتا الإيطالية. ويأتى نشرها أخيرًا فى مجلة درويريدج (فى الأول من أبريل لعام ٢٠٠٦) ليدل على بزوغ عصر الحرية أخيرًا].

٢٢

السينما فى العالم الإسلامى

من الصعب تعريف أو تصنيف السينما الإسلامية لأن ذلك سوف يستلزم إيجاد تصنيفات أخرى مثل سينما مسيحية أو يهودية أو بوذية. فلغة السينما كانت ولا تزال لغة عالمية، ولكن الفروق جاءت فى التفسيرات المختلفة. كان للرقباء فى مجتمعات مختلفة أولويات متباينة: ففى هوليود فى الخمسينيات لم يكن مسموحًا لزوجين أن يتشاركا فراشًا واحدًا وكان يتعين أن يكونا مرتدين ملابسهما، وفى جنوب آسيا كان مقص الرقيب يحذف القبلات من الأفلام الغربية. ولكن لم يبق ظهور الأفلام التجارية والفنية محصوراً على الغرب لمدة طويلة.

قدم الأخوان لوميير أول عرض للصور المتحركة فى باريس فى عام ١٨٩٦ . وفى العام التالى أقيم عرض خاص فى قصر يالديز فى إسطنبول، وكان المشاهدون عبارة عن السلطان أو الخليفة العثمانى- الزعيم الفعلى والروحى للإسلام السنى- إلى جانب عدد محدود ومختار بعناية من رجال البلاط. وقد سمح للجمهور العادى فى إسطنبول فى عام ١٨٩٨ بمشاهدة عرض سينمائى وذلك فى الحانة الواقعة فى ميدان جالاتاسراى، ثم انتشرت قاعات العرض السينمائى فى العقد التالى انتشاراً واسعًا ووفد إليها المشاهدون فى مدينتى إسطنبول وسميرنا لمشاهدة كل ما يعرض هناك، ثم بدأت موجة القمع الثقافى التى تلت الحرب العالمية الأولى مباشرة؛ حيث اعتبرت سلطات الاحتلال البريطانية أفلام أحمد فهيم محرضة سياسيًا ومنعت عرضها فى عام ١٩١٩ .

ثم وجدت صناعة السينما الوليدة مساندة قوية بعد مولد دولة تركيا الذى أعقب انهيار الإمبراطورية العثمانية متمثلة فى شخص لطيفة أوساكليجيل زوجة كمال أتاتورك ذات الاتجاهات النسوية (استمر الزواج لمدة عامين من ١٩٢٣-١٩٢٥). وكانت القاهرة دائمًا تتبع خطوات إسطنبول، بينما لم تكن بومباى بعيدة تمامًا. انتشر النجوم المسلمون انتشارًا كبيرًا فى السينما الهندية على الرغم من أنهم كانوا يغيرون أسماءهم من أجل إرضاء الغالبية الهندوسية (مثلما كان يفعل الممثلون اليهود فى هوليوود) فتغير اسم يوسف خان إلى ديليب كومار، وكانت مينا كومارى من قبل تدعى محجبين، بينما جاءت الأفغانية ممتاز بيجوم لتقدم نفسها للجمهور باسم مادوبالا. أما الممثل الكوميدى الشهير بدرالدين قازى فقد كان الوحيد الذى تحدى هذا التقليد وفى لفتة ساخرة من السادة القائمين على السينما اتخذ اسم جونى ووكر ذلك الاسم المسيحى المرتبط بالمشروب الروحى الاستعمارى المفضل لدى الكثيرين.

وعندما خلقت باكستان من ضلع الهند فى عام ١٩٤٧ توقع بعضهم أن يفر بعض نجوم السينما الهندية المسلمين للدولة الجديدة لتطوير صناعة السينما فى لاهور. ولكن ذلك لم يحدث. فى الوقت ذاته قررت الحكومة الباكستانية العمل على تطوير السينما الباكستانية بأن منعت دخول الأفلام من الهند. وقد جاءت النتيجة كارثية؛ حيث قضت النزعة التجارية فى باكستان على الإبداع. وبما أنه لم يكن فى استطاعة الجمهور فى باكستان مشاهدة الأفلام الهندية فقد أخذ المنتجون هناك ينتحلون الأفلام الهندية دون حياء، بينما لم يكن فى مقدور السينما فى باكستان إنتاج أعمال فى مستوى أعمال ستياجيت راى أو مرينال سين، ثم شهدت الخمسينيات والستينيات حكمًا عسكريًا أغلق منافذ البلد بغرض إبعادها عن التيارات "المحرضة"، مما جعل النفوذ الأقوى هناك لسينما هوليوود.

وبعد عقد من الزمان أصبحت فى باكستان حكومة مدنية (لا عسكرية ولا دينية) منتخبة مما شجع النساء على الدراسة والبحث عن عمل، بينما بقيت السينما مغطاة

بحجاب كثيف. لم يكن للأمر علاقة بالإسلام لأن القواعد نفسها كانت سارية فى الهند المجاورة؛ حيث كانت مشاهد القبلات تحذف، وكان مسموحًا أن تعلو الصدور وتهبط ولكن على أن تكون دومًا مغطاة، حتى فى اللقطات التى تصور على الشواطئ؛ حيث كنا نرى الممثلات يسبحن مرتديات كامل ملابسهن، ثم قرر أصحاب دور العرض فى باكستان تلوين العروض بقليل من التشويق فأدخلوا فى البرامج عروض "التوتا" أى التعرى. كان الطوافون يتجولون أمام السينمات فى لاهور هامسين فى آذان المارة أن فيلم منتصف الليل سوف يتخلله "عرض تَعَرٍّ مدته دقيقة". كانت عروض منتصف الليل تعج بالمشاهدين من الرجال؛ حيث تُعرض فى منتصف الفيلم الممل دقيقة أو دقيقتان من عرض إباحى خاطف بعده تضحى السينما خاوية.

كان هذا منذ زمن طويل. ولا تزال الأفلام الباكستانية سيئة للغاية؛ حيث وصلت أدنى مستوياتها مع فيلم العصابات المسلحة العالمية (International Guerrillas) فى عام ١٩٩٠ الذى كان يمجد الجهاديين المسلحين ويحط من قدر سلمان رشدى- وهو ما يمكن اعتباره نظير أفلام هوليود الهابطة التى تصور المسلمين كإرهابيين. تدور "قصة" الفيلم حول اقتحام عصابة من الإسلاميين الباكستانيين المقر الذى يختبئ فيه سلمان رشدى؛ حيث تبدأ المعارك التى يقتل فيها رشدى الشرير بفضل التدخل الإلهى. فشل الفيلم جماهيريًا بينما كانت شعبية أسطوانات الأفلام الإباحية فى اضطراد بعد أن أصبحت فى متناول الكثيرين؛ نظرًا إلى نشاط مروجيها فى تحريك تجارتها السرية وبخاصة فى معاقل الإسلاميين فى بيشاور وقيتا. ويجب ألا نندهش إذا عرفنا أن عددًا ليس بقليل من المجاهدين ذوى الذقون الذين يقضون نهارهم فى رسم الحجاب فوق رؤوس الممثلات فى إعلانات الشوارع يقضون أمسياتهم فى مشاهدة الأفلام الإباحية.

يختلف الأمر فى إندونيسيا، أكبر البلاد الإسلامية تعدادًا للسكان، التى سمحت فيها الرقابة فى العام الماضى بعرض فيلم الجمعية .(Arisan) يدور الفيلم حول الصراع الذى يمر به أحد المهندسين المعماريين حتى يستجمع الشجاعة للاعتراف بمثليته

الجنسية. هناك سمحت الرقابة بفيلم يتناول المثلية الجنسية لدى الرجال ويصور أحد مشاهدة قبلة بين رجلين دون أن يجلب ذلك غضبة رجال الدين. وبالمثل نجد فيلم ملاك عن اليمين (Angel on the Right) للمخرج دجامشيد عثمانوف فى طاجيكستان يتناول الإحباط الجنسى والاجتماعى (متمثلاً فى الخيانة الجنسية والسكر والفساد) دون أية مشكلات. يعكس الإخراج فى هذا الفيلم التأثير القوى لأسلوب المدرسة السينمائية السوفيتية.

أما فى إيران الخاضعة للحكم الدينى فقد ظهرت أهم الأفلام فى العصر الحالى؛ حيث لم يحدث أن هيمن صناع أفلام من بلد واحد على سوق السينما منذ انحسار موجة السينما الجديدة فى فرنسا. تضطر الظروف صناع الأفلام فى إيران (مثلما كان الحال مع نظرائهم فى الكتلة الشرقية إبان الستينيات) للاستناد إلى الرمزية والقصص الموازية. وقد أنتج السينمائيون الإيرانيون زمرة متنوعة من الأفلام الجيدة. وهو ما يمكن عزوه إلى التراث الفكرى الغنى فى هذا البلد الذى يتجاوز عالم الشاه المبتذل كما يتجاوز التشدد ضيق الأفق. تتصف روايات صادق هدايت وبخاصة رائعته البومة العمياء (The Blind Owl) بتأثير كافكا؛ حيث يأتى أبطال رواياته أشخاصًا مركبين وحيدين يتخبطون فى بحور الكرب وهم يسيرون فى مسارات بعيدة عن دوائر الحكم. أما أحمد شاملو بن فيتميز شعره بنغمة أكثر تفاؤلاً؛ ولكنه فى الوقت ذاته شعر يفصح عن المعارضة الصلدة. وقد أثر كثير من هؤلاء الكتاب على صناع السينما فى إيران - قبل انتصار الخومينى وبعده .

تخرج عباس قياروستامى الذى يعد أبا الموجة الجديدة فى إيران فى كلية الفنون الجميلة فى جامعة طهران التى تدرج السينما مع الرسم والنحت كأحد الفنون. تأتى المناظر الطبيعية والعمارة فى الأفلام بأهمية الممثلين نفسها. ويكشف لك الفيلم عن شىء جديد فى كل مرة تشاهده، بينما تأتى النهاية دومًا غامضة وتتيح عدة تفسيرات. يدور فيلم طعم الكرز (Taste of Cherry) المنتج فى عام ١٩٩٧ حول رجل يحاول

الانتحار ولكن الفيلم يتناول الموضوع بصورة هادئة ومحايدة. وعندما اعترضت الرقابة على الفيلم رد قياروستامى بأن الفيلم فى الحقيقة يتناول الخيارات المتعددة التى نواجهها فى حياتنا اليومية، وأن الانتحار ليس لب الفيلم. على أية حال، لم تكن تلك قراءتى للفيلم.

وتتباين اللغة السينمائية وكثافة التصوير عند المخرجين الإيرانيين كما يتراوح تأثير السينما العالمية عليهم الذى يمتد من روسيلليني إلى فيلليني إلى كوروساوا إلى هو جاو سين. ولكن أعمالهم تنم عن روح الدعم والتكاتف بين بعضهم البعض؛ إذ نجد حتى عائلة مخمالباف الكبيرة تعتبر نفسها جزءاً من جماعة أكبر، فهم يشاهدون أعمال بعضهم البعض ويعلقون عليها، كما يتبادلون تقديم الدعم فى مجالى الفن والسياسة.

ويعكس فيلم الذهب القرمزى (Crimson Gold) لجعفر بناهى تلك النزعة. كان باناهى فى طريقه لزيارة معرض للصور الفوتوغرافية للمخرج قياروستامى حينما سمع عن حادث قتل مزدوج وقع فى أحد متاجر الحلى الراقية فى طهران. وقد حدا به الضيق لدى سماع القصة بأن يتراجع عن زيارة المعرض. ولكنه قام هو وقياروستامى فيما بعد بالبحث فى القصة التى كانت وراء الحادث. لماذا أطلق جندى سابق فى حرب العراق وإيران، - الذى أضحى فى أعقاب الحرب عاملاً للتوصيل فى مطعم للبيتسا- النار على صاحب محل الحلى، ثم أطلق النار على نفسه؟ وافق قياروستامى على كتابة السيناريو لباناهى. وجاءت النتيجة فى صورة إحدى روائع الواقعية الجديدة؛ حيث يقدم الفيلم قراءة لقصاصات من الواقع الخام المعاش فى إيران فى ضوء البنية الطبقية المعاصرة هناك.

يمكن اعتبار جعفر بناهى من نواح كثيرة أشجع مخرجى إيران. جاء فيلمه الدائرة (The Circle) ليقدم القهر الذى تتعرض له النساء بحساسية كبيرة، كما نجد الشرطة الدينية تعود فى فيلمه الذهب القرمزى فتتهيأ للانقضاض على النساء غير المتزوجات أثناء مغادرتهن حفلاً مختلطاً؛ حيث يصورهن الفيلم من خلال النافذة

فى صور ظلية يتراقصن يستمتعن بالليلة. أدى هذا التدخل من جانب رجال الدين فى العلاقات الاجتماعية بين الجنسين فى حياتهم اليومية إلى الاغتراب الكامل بينهم وبين الشباب من الجنسين. ولكن الفيلم ينبؤنا كذلك أن الهوة بين الفقراء والأغنياء التى تتعمق كل يوم تقبع وراء كل ما يحدث.

عرض فيلم مارمالوك الحرباء (The Lizard) للمخرج كمال تبريزى فى بريطانيا وهو فيلم يسخر من الملالى يهرب فيه أحد المجرمين (المعروف باسم "الحرباء") من مشفى السجن متخفيًا فى صورة مُلاّ ثم يستقل القطار متوجهًا إلى بلدة حدودية حيث ينتظر الناس قدوم المُلاّ الجديد. ولأن الحرباء كان مغرمًا بمشاهدة التلفاز فقد كان من السهل عليه تقليد أسلوب الملالى، ولكنه يصبح مُلاّ ذا طابع إنسانى واضح، يشجع الناس على الشك والتساؤل ويقوم بتحليل أفلام تارانتينو تحليلات تدهش وتسعد جمهور المخرج. وقد أفلت الفيلم من مقص الرقيب وجذب أعدادًا كبيرة من المشاهدين فى طول البلاد وعرضها. ولكن المؤسسة الثقافية انتابها الذعر عندما بدأ الناس فى مخاطبة الملالى جهرًا باسم "الحرباء"؟ وسرعان ما تم سحب الفيلم.

قامت تلك المدرسة السينمائية النقدية الإيرانية المستقلة لتواجه الزيف والجنون المنتشرين فى المجتمع، وأنتجت أفلامًا لا تضاهيها أفلام الغرب المعاصر. وماذا عن الدين؟ نرى للدين أشكالاً متعددة الحضور فى تلك الأفلام، ولكنه أبدًا لا يأتى مركزيًا ولا فى صورته المؤسسية.

الجارديان

أبريل/ نيسان ٢٠٠٥

الجزء الثالث

فى وداع الراحلين

٢٣

ليوبولد تريبير في مديح ثائر رحل عنا

سمعنا في يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٨٢ بوفاة رجل بولندي في القدس عن عمر يناهز السابعة والسبعين عامًا. كان الرجل يدعى ليوبولد تريبير. قد لا يكون هذا الرجل المسن معروفًا للكثيرين، وربما يتذكره بعض الشيوعيين المسنين في الهند. تكونت شعبية ليوبولد بإدارته لأدق شبكة للتجسس لصالح المخابرات العسكرية في الاتحاد السوفيتي إبان الحرب العالمية الثانية، حتى إنه زرع عنصرًا تابعًا في أكبر دوائر النظام النازي. وقد منح الجستابو هذا العنصر وصف "الأوركسترا الحمراء" بينما أشار إلى الذئب العجوز ذاته بوصف "الدليل". وقد ساعدت المعلومات التي قدمها تريبير في إلحاق هزائم ثقيلة بالنازيين، كما أن الشبكة التي كان يديرها هي التي حذرت القيادة العليا في الاتحاد السوفيتي من الهجوم على ستالينجراد مما أتاح الفرصة أمام الجيش الأحمر للاستعداد للحصار.

ولد ليوبولد تريبير في بلدة نوى تارج الصغيرة في بولندا في عام ١٩٠٤ ، وقد شهد وهو في العام العاشر من عمره إلقاء القبض على "جاسوس روسي". كان هذا "الجاسوس" ذا "لحية صغيرة حمراء، وكان يرتدي قبعة كبيرة تغطي جبهته". وبعد هذا الحادث صار البقال اليهودي الذي كان يبيع السلع بالأجل "للجاسوس" وزوجته محط سخرية البلدة الصغيرة؛ حتى تسلم الرجل في عام ١٩١٨ خطابًا يقول: "أرجو أن تتقبل اعتذاري لاضطراري إلى ترك البلدة في عام ١٩١٤ قبل أن أدفع لك مستحقاتك؛

وذلك لظروف خارجة عن إرادتى. أرسل لك النقود فى هذا الخطاب. فلاديمير إليش لينين". كانت تلك أولى ذكريات تريبير السياسية. انضم تريبير إلى جماعة يهودية يسارية متأثرة بالفكر الماركسى وبالثورة الروسية، وشارك فى عام ١٩٢٣ فى الإضراب العام فى كراكو فوضعه مديروه فى قائمتهم السوداء، ثم رحل إلى فلسطين فشهد الأوضاع التى كان يعيش فيها العرب وتفهم ظروفهم والقمع الذى كانوا يعانون منه مما حدا به إلى التحول تجاه اليسار.

انضم تريبير فى عام ١٩٢٥ إلى الحزب الشيوعى الفلسطينى، وأصبح ممثله فى حيفا، ثم تم إيفاده إلى موسكو لمتابعة دراسته فكان يحضر المحاضرات التى يلقيها زينزفييف وراديك وبوخارين. كان بوخارين أكثر المحاضرين شعبية، وقد نقل تريبير لاحقًا عن هذا الرجل الذى وقع فيما بعد ضحية لستالين قوله: "كل مرة يصفق فيها الطلاب أقترب أكثر من موتى". كان تريبير مثل الكثيرين من أبناء جيله يؤمن بفكرة الثورة العالمية، وقد أضحى "جاسوسًا" من أجل تحقيق هذا الهدف مثله فى ذلك مثل الكثيرين من الشيوعيين البولنديين. وليس من المستغرب أن أكثر ثلاثة جواسيس للاتحاد السوفيتى نفوذًا ودهاء إبان الثلاثينيات كانوا من الشيوعيين الثائرين ذوى الثقافة العميقة، فقد كان تريبير وإينياس رايس بولنديين بينما كان ريتشارد زورجا ألمانيًا.

كان إينياس رايس قادرًا على سبر غور ستالين، وقد ارتكب خطأً قاتلاً عندما أرسل خطابًا لستالين يعلنه بذلك، رادًا أوسمته ومعلنًا قناعته بأن تروتسكى كان على حق. لم يكلف ستالين نفسه عناء الرد على ذلك الخطاب، ولكنه ببساطة أمر بتصفية رايس الذى لقى مصرعه بعد إطلاق النار عليه فى سويسرا[٢٣]، وكان زورجا متمركزًا فى طوكيو، ومنها أرسل معلومات تتضمن الموعد المحدد لغزو ألمانيا للاتحاد السوفيتى.

---

(٢٣) تقدم روايتى الخوف من المرايا (Fear of Mirrors) سردًا متخيلاً لقصة حياة إينياس رايس وموته.

لم يلق هذا التقرير الاهتمام الكافى. وكان زورجا مستميتًا لجعل ستالين يصدقه فعرض نفسه لمخاطر كبيرة لكى يرسل بأدلة أكثر (كان له عميل فى سفارة النازى فى طوكيو)، ولكن أمره اكتشف. وقد عرض اليابانيون تبادل زورجا فى مقابل بعض عملائهم لدى الاتحاد السوفيتى ولكن ستالين رفض.

أما تريبير فقد اخترقت شبكته أخيرًا بعد هجوم كبير من قبل الجستابو؛ حيث ألقى القبض على "الدليل" الذى نجح على إثر ذلك فى الهروب بخطة مذهلة. وقد حكم عليه ستالين بالسجن إبان عودته إلى الاتحاد السوفيتى. وهناك اكتشف أن مديره السابق، الجنرال بيرزين، قد شوهت سمعته، ثم أعدم بعد اتهامه "باعتناق التروتسكية". هنا يتكشف لتريبير للمرة الأولى قبح نظام ستالين. وفى السجن تعرض تريبير لإهانات معادية للساميين من قبل سجانيه كما تعرض لأسوأ أنواع التعذيب النفسى والذهنى.

تم الإفراج عن تريبير فى عام ١٩٥٤ وهو أمر أسعد عائلته التى كانت تحسبه فى عداد الأموات، ثم منح تريبير الإذن بالعودة إلى وطنه بولندا فى عام ١٩٥٧ وهناك انضم ثانية لصفوف الحزب الشيوعى وشارك فى أحداث الربيع البولندى الذى اندلعت أحداثه بعد مظاهرات بوزنان فى عام ١٩٥٦ ، ثم أصابت تريبير صدمة كبيرة حين أدرك أن الكاثوليكية والنزعة القومية فى بولندا تعيدان إنتاج معاداة السامية. ولأنه كان قد تعرض لتجربة الجستابو من قبل، فقد راعه استمرار تلك الأفكار حتى بعد تجربة الجيتو فى وارسو. وسرعان ما اكتشفت الصحافة البولندية ونظيرتها فى شرق أوروبا على وجه العموم الدور البطولى الذى لعبته شبكة التجسس التى أطلق عليها الجستابو اسم "الأوركيسترا الحمراء" ولكن كان تريبير وحده هو الذى لاحظ الرياء الذى انطوت عليه فكرة الاحتفاء بنجاحاته السابقة والصمت التام تجاه موجة المعاداة للسامية فى الوقت الحاضر.

وفى أعقاب حرب الأيام الست فى عام ١٩٦٧ نظم الزعيم القومى الجنرال موزكار سلسلة من المظاهرات المعادية للصهيونية تحت شعار "أعيدوا اليهود عديمى النفع

لديان" التى انضم إليها كل من يعتنق الفكر المناهض للسامية. وقد أزعج الرجل أن يحدث ذلك فى دولة تصف نفسها بالاشتراكية، وكتب فى مذكراته بعد عدة سنين قائلاً: "لقد اعتنقت الشيوعية لأننى يهوديًا. وقد شهدت بعينى مدى استغلال الرأسمالية عندما اقتربت من العمال فى دومبروفا فوجدت فى الفكر الماركسى الإجابة الشافية عن القضية عن اليهودية التى كانت تشغلنى منذ طفولتى. ورأيى أن المجتمع الاشتراكى هو وحده القادر على القضاء على العنصرية والمعاداة للسامية".

وبعد مرور نصف القرن على إدراكه تلك الحقيقة اكتشف تريبير أن بولندا الخاضعة لحكم ستالين كانت بعيدة كل البعد عن الاشتراكية. وقد وضع تريبير قيد الإقامة الجبرية بعد اشتراكه فى إحدى المظاهرات، كما منع من مغادرة بولندا. وقد نجحت حملة قادتها الجماعات المناهضة للفاشية فى الغرب فى الضغط من أجل إطلاق سراحه. ومن هنا هاجر تريبير إلى إسرائيل ولكنه رفض التنكر لماضيه. كان يرغب فى الموت فى سلام لا غير. ويختتم تريبير سيرته الذاتية المؤثرة والمشوقة (المباراة العظيمة ١٩٧٧ (The Great Game) بالفقرات التالية، التى ينبغى أن توضع على قبره).

أطلق علينا هذا القرن وحشين، الفاشية والستالينية، وقد خسف تلك الكارثة بحلمنا المثالى... يمنعنا فشلنا من إسداء النصح، ولكن من الممكن أن نبقى على الأمل؛ لأن التاريخ خياله واسع، وأعرف أنه لن يعيد نفسه.

لست نادمًا على ما التزمت به فى شبابى... سألنى شاب فى لقاء مفتوح فى عام ١٩٧٣ فى الدنمارك: "ألا ترى أنك ضحيت بحياتك دون جدوى؟" فأجبته: "لا".

لا، بشرط واحد: أن يفهم الناس الدرس من حياتى كشيوعى وثائر ولا يسلموا أنفسهم لحزب يؤله نفسه أو يؤله بعضهم. أعرف أن الشباب سينجحون فيما فشلنا فيه وأن الاشتراكية سوف تنتصر، وأنها حينئذ لن تأتى متلونة بلون الدبابات الروسية التى اجتاحت براج.

١٩٨٢

٢٤

جـى ديبور أنـا أشـرب، إذًا أنـا...

فى أكتوبر من عام ١٩١٧، وبعد نجاح الثورة الروسية، سادت مدينة بيتروجراد نزعـة سرياليـة. وكـان لينين قـبل ذلك باثنى عشـر عـامًا قـد وصف الثـورات بأنهـا "مهرجانات المقهورين والمستنزفين". والآن فقد قرر المستنزفون أن يثبتوا أن لينين كان على حق، فقد تدفق الجنود والعمال عبر شوارع المدينة محررين متاجر الخمور الشهيرة ومحتلين الحانات.

وقد احتفل هؤلاء بانتصار الثورة بتجرع كميات كبيرة من الشراب، وهم فى إنكار تام لوجود أية سلطة عليهم. لم يكن يهزمهم سوى النوم. وقد أحدث ذلك السلوك التلقائى تأثيرًا كبيرًا فى المدينة بأكملها؛ حيث لم تستطع كتيبة بريوبرازنسكى التى كانت تحرس قصر القيصر الشتوى أن تقاوم الملذات التى يعج بها قبو القيصر، فانتهى الأمر بالجنود كافة أن يصبحوا سكارى. وعندما أرسلت القيادة البلشفية فرقة بافولوفسكى إلى المدينة لإعادة النظام إليها لم يستطع الجنود بدورهم مقاومة إغراء تذوق النبيذ الجيد المتاح أمامهم. وهنا أوفدت القيادة العليا بعضًا من زعماء الثورة بعد أن كادت تفقد الأمل فى إمكانية استعادة النظام فى البلدة، ولكن هؤلاء بدورهم وقعوا تحت تأثير الغواية.

وأخيرًا أصدرت فرقة فنلندية يقودها نقابيون أناركيون تعليماتها بتفجير أقبية النبيذ وإطلاق النار على اللصوص، هنا فقط بدأت موجة السكْر فى الانحسار معلنة انتهاء الاحتفالات المخمورة، وفى الوقت ذاته معلنة خطأ الاعتقاد القائل: إن الطبقة البرجوازية تمتلك الذوق الرفيع. ولو أن عجلة التاريخ تقدمت للأمام وحدثت تلك

الأحداث فى أوائل الستينيات لكان الفنانون الطليعيون الذين كانوا يصارعون الملل البرجوازى فى القرن العشرين- وهم عبارة عن بقايا السرياليين وأعضاء فى جماعة المثقفين العالميين وجماعات الموضعيين العالميين الثانية والثالثة - تلك الشخصيات التى تطل علينا فى كتاب آندرو هاسى عن جى ديبور- أول المنحازين للجنود البلشفيين محبى الخمر، وليس للفنلديين الأناركيين من هواة الكآبة(٣٤) كان ديبور الأب الروحى لجماعة الموضعيين العالميين التى تعد آخر حركة طليعية سياسية-ثقافية فى القرن العشرين.

وكما يكشف لنا كتاب لعبة الحرب (The Game of War)، كان أحد ما يميز جماعات الطليعيين فى باريس خلال الخمسينيات والستينيات يتمثل فى عشقهم للشراب. كان السرياليون قد جربوا الأفيون والحشيش. أما الموضعيون الأصليون فقد كانوا يلتقطون الصور الفوتوغرافية لبعضهم البعض وهم يتجرعون كميات هائلة من الشراب. وقد قدم ديبور ذاته تبريراً أدبياً ونظرياً لتلك الظاهرة. فقد كان يحب ترديد عبارة ثيربانتيس القائلة: إنه "تحت أى رداء فقير بال، هناك غالباً سكير جيد". كما قام ديبور بتشويه ملصق تابع للحكومة الفرنسية يقول: "الكحوليات تقتل ببطء". وهى حادثة يمكن اعتبارها نموذجاً مبكراً لفكرة التخلى عن السياق (أو إعادة خلق السياق). ثم كتب على الملصق: "لا يهمنا هذا الهراء، فلدينا متسع من الوقت". والأهم من ذلك أن شرب كميات كبيرة من الكحوليات كان أمراً أساسياً فى عملية فك قيود الذات تمهيداً لجعل وجودك وجوداً ذا معنى.

وقد كان الموضعيون يخرجون إلى الضفة اليسرى لنهر السين بعد أن يشربوا حتى الثمالة مثلما تفعل أية جماعة صغيرة من المثقفين الثوريين ليروا المدينة كما لم يروها وهم فى كامل وعيهم. وكانت تلك الجولات النفسية - الجغرافية، كما كانوا يسمونها، تتطلب وقوداً من الخمر. وقد كان ماركس وإنجلز يفعلان الشىء نفسه منذ

(34) Andrew Hussey, The Game of War: The Life and death of Guy Debord: London: Cape, 2001.

حوالى قرن من الزمان فى لندن؛ حيث كانا يعرجان إلى الحانة وهما فى طريق عودتهما من مكتبة المتحف البريطانى سالكين طريق توتنهام المفضى إلى هافيرستوك هيلز، دون الحاجة إلى مثل هذا التنظير.

ولد جى ديبور فى عام ١٩٣١ بعد أن كان أبوه قد انتقل من منطقة ليموزان إلى باريس وهو يدرس الصيدلة، وكانت أمه الجميلة تنحدر من مهاجرين قدموا من نابولى ليصنعوا حياة الرفاهية لأنفسهم فى الحى العشرين بباريس. كان ديبور فى الثالثة من عمره عندما مات أبوه، وكانت أمه وقتها فى الثالثة والعشرين، وكانت بالطبع ترغب فى إعادة بناء حياتها أكثر مما ترغب فى قضاء الباقى من عمرها كأرملة. وهنا تطوعت أمها لتتولى الإشراف على المنزل ورعاية جى، الذى كانت تعشقه وتدلله، الأمر الذى خلق لديه الاعتقاد بأنه شخص متميز.

وعندما بلغ ديبور الثامنة من عمره انتقلت العائلة من باريس إلى نيس فى الوقت الذى كانت فرنسا فيه على وشك الوقوع قيد احتلال الرايخ الثالث، ثم انتقلت العائلة فى عام ١٩٤٢ من مدينة نيس إلى مدينة بو؛ حيث التحق ديبور بالمدرسة الثانوية، وكانت المدرسة نفسها التى كان يدرس فيها الشاعر إيزدور دوكاس فى ستينيات القرن التاسع عشر، وهو الأمر الذى كان له تأثير كبير على ديبور. تنامى اهتمام جى بالشعر بعد ذلك عدة سنوات عند اكتشافه أن دوكاس كان الشاعر المفضل لدى السرياليين. وقد تسبب تعرض الصبى لعدوانية عدد من أزواج أمه المتتالين فى جعله يعتمد على نفسه عاطفيا وفكريا فى مرحلة مبكرة، كما ساعده تأثره بسيرة الشاعر دوكاس وتطور فنه فى فرنسا المحتلة فى أن يصبح معادياً للسلطة، وهو أمر ازداد مع الوقت ولم يتغير حتى وفاته فى عام ١٩٩٤ .

يقدم لنا هاسى وصفاً مهما للبيئة الاجتماعية والثقافية التى عاش فيها ديبور مطعماً ببعض المقاطع التى تصف بعض الشخصيات، بالإضافة إلى سلسلة من المشاهد المسلية التى تعج بالعشيقات والرفاق والفنانين الزملاء والأصدقاء

السابقين والرفاق السابقين والأعداء الجدد والقدامى والناشرين الجدد والقدامى. يبدو وكأن هاسى قد أجرى مقابلات مع كل من تعامل مع ديبور ممن يزالون على قيد الحياة، ثم قدم لنا ذلك كله ملضومًا بلغة نثرية سائغة وغضة. يمثل كتاب لعبة الحرب إضافة حقيقية ومفيدة للكتابات الكثيرة التى ظهرت مؤخراً تتناول مشروع الموضعيين والنظريات التى قدمها قائدهم الأكبر جى ديبور.

عاش جى ديبور حياته حتى الثمالة، وهو أمر ينطبق على فلسفته السياسية، كما ساهم فى تشكيل من أتوا بعده، وهم فى الغالب بضعة مثقفين ثوريين يزدرون الثقافة بقدر ما يزدرون كل الأشكال التنظيمية. ولو أن أحدهم حاد عن الخط المتفق عليه فقد كان العقاب يأتى فى صورة الطرد المهين والوضع فى مصاف الأعداء. وكما يذكر هاسى، كانت تلك الحياة لا تخلو من التناقضات. ربما كان ديبور يمقت سارتر ولكن ليس بوسعنا وصف فلسفته سوى بأنها نسخة متشددة فى يساريتها وشديدة الاحتفاء بالنزعة الفردية من وجودية سارتر. كان ديبور مولعًا بالسريالية فى مطلع حياته وبخاصة أعمال لوتريامو (اسم الشهرة الذى اتخذه دوكاس) وجورج باتاى.

كان البيان الذى أصدره أندريه بريتو والسرياليون فى عام ١٩٢٥ الذى جاء مناهضًا للحرب التوسعية فى المغرب قد أحدث انقلابًا فى الحياة السياسية، بينما كان بريتو نفسه يحاول صياغة سياسة ضد - ستالينية لليسار من خلال عقد تحالف فضفاض مع تروتسكى المقيم فى المنفى. وقد كتب بريتو فى مانيفستو السريالية الثانى (١٩٣٠) عن "الشباب النقى الذى يرفض الإذعان،" فى مدارس الليسيه وورش العمل والمعاهد والثكنات والشوارع. كان يوجه المانيفستو الذى أصدره لهؤلاء بغية "الدفاع عن السريالية مقابل الاتهامات الموجهة إليها بأنها لا تعدو ترفًا فكريًا ليس أى ترف فكرى آخر". وفى عام ١٩٦٠، وقبل وفاته بوقت قصير، دعا بريتو إلى مقاومة الحرب فى الجزائر وهو ما لم يكن كافيًا للبوهيميين الاغترابيين من ساكنى الضفة اليسرى لنهر السين. كان هؤلاء يرغبون فيما هو أكثر من الكلمات. وهنا قرر الشاعر الرومانى

إيزيدور إيسو وعدد قليل ممن تبعه أن يطلقوا على أنفسهم صفة "الأدبيين - على غرار اليساريين" وأن يمارسوا ضربًا من ضروب السريالية الثورية؛ بغية إيقاظ الشباب الفرنسي من سباته.

كان الأدبيون يعتبرون أنفسهم يمثلون استمرارًا للماضي السريالي وقطيعة معه في الوقت ذاته. كانت فرنسا إبان الخمسينيات تمر بمرحلة مريرة وخانقة ومخيفة، لكن الأدبيين استشرفوا مستقبلاً مشرقاً وإن كان مموهاً. جاء أول أفعال التمرد العلنية التي قام بها الأدبيون عبارة عن مقاطعة قداس عيد الفصح في كاتدرائية نوتر دام في عام ١٩٥٠؛ حيث ارتدى ميشيل مورر زي الرهبان الدومينيكان واعتلى المذبح وقرأ الخطبة التي كتبها الشاعر الأدبي سيرجي بيرنا. وكانت الخطبة تصف "الكنيسة الكاثوليكية بأنها الجرح الملوث الذي يسيل من جسد الغرب المتآكل". وهنا أسرع الحراس إلى المذبح بسيوف مشهرة ولكن ليس قبل أن يعلن مورر "موت الإله." ولأن السرياليين قد ولدوا من رحم الكره الشديد للكاثوليكية فقد كان عمل مثل هذا في زمرة أحلامهم، وهو ما حققه لهم الأدبيون. أما الفضيحة فقد جاءت صادمة في فرنسا كما كان لها أصداء فضائحية في كل مكان.

وعندما قابل ديبور الأدبيين أثناء مهرجان كان للسينما في عام ١٩٥١ كانت أحداث كاتدرائية نوتردام لا تزال حية في ذاكرته. وقد اشترك مع تلك الجماعة في تعطيل فعاليات المهرجان الذي كان ينطوي على عرض فيلم رسالة الوحل والأبدية (Treatise on Slime and Eternity) للشاعر إيسو الذي جاء عبارة عن "تجميع صوتي من الشعر الذي تغلب علية الأصوات الحلقية الحادة، إلى جانب أصوات عشوائية صاخبة أخرى". وقد اجتهد جان كوكتو الذي أصابه الفيلم بمزيج من الدهشة والضيق من أجل استحداث جائزة تسمى جائزة الطليعة التي منحها لإيسو. ولهذا فقد اعتبر الأدبيون هذا الفعل بمنزلة "الانتصار".

بعد ذلك بوقت قليل انتقل ديبور إلى باريس؛ حيث شارك في حفلات الأدبيين الصاخبة، ثم اكتشف خلال عدة أشهر أن معلمه إيسو شخص نرجسي عنيد. وهنا

أسس ديبور بالتعاون مع الفنان السريالى جيل وولمان جناحًا سريًا صغيراً (الأدبيون العالميون) وشرع الاثنان فى التخطيط لعمل استفزازى جديد يهدف إلى صدمة اليسار على عكس ما حدث فى كاتدرائية نوتردام. وقد سنحت الفرصة عند زيارة شارلى شابلن، الذى كان يتعرض وقتها للمضايقات على يد المكارثيين لأوروبا لعرض فيلمه أضواء الشهرة. (Limelight) وقتها أعد اليسار الفرنسى الذى كان يقوده الشيوعيون احتفالاً كبيراً لشارلى فى باريس. وهنا قررت مجموعة ديبور تعطيل الحدث، فقامت بتوزيع منشور يصف شابلن بأنه "حشرة فاشية" لا تعدو أفلامه كونها "ابتزاز عاطفى". وأن مشاهد أفلامه المعسولة تثبط همة الطبقة العاملة وتثنيها عن التمرد، وأن عصا شابلن الشهيرة المصنوعة من الروطان ما هى إلا "عصا الشرطى الليلى". لم تأت تلك المحاولة بنتيجة تذكر، ولكنها حققت الغرض منها وهو الإفصاح العلنى عن الانفصال عن إيسو؛ أى أن ما حدث كان التفافًا حول العدو.

تشكلت مجموعة الموضعيين العالميين من ثمانية أشخاص عقب انعقاد مؤتمرها فى قرية صغيرة على مدينة ليجوريان الساحلية فى صيف عام ١٩٥٧ . وانضم لديبورد الفنان الدنماركى أسجير يورن ممثلاً "المعمل التجريبى". أما "الجنة الجغرافية - النفسية بلندن" فقد مثلها العضو الوحيد فيها رالف رامنى. وبعد عدة أشهر أصبح للمجموعة أعضاء فى كافة الدول الأوروبية الكبرى وفى الجزائر وكان معظمهم من الرسامين، ثم صدرت إحدى المجلات التى تشرح اهتمامات المنظمة الجديدة التى كان من ضمن أهمها، "اللحظة الموضعية" وهى عبارة عن لحظة يتم التخطيط لها بدقة وحرص لتمثل التفاعل بين الأحداث والبيئة العمرانية. وبازدياد انخراط ديبور سياسيًا ظهرت خلافات كانت متوقعة تبعتها وقائع طرد حتمية؛ حيث انفصل الفنانون يقودهم أخو يورن الصغير وأسسوا جماعة الموضعيين العالميين الثانية؛ ولم تكن العلاقات بين المجموعتين ودية.

عندما شرع ديبور فى كتابة مجتمع المشاهد الصاخبة (La Societe du spectacle) فى عام ١٩٦٧ كان ديبور قد حصن وضعه تمامًا؛ حيث تم التخلص من كل المنافسين وأصبح بمقدوره الاسترخاء وإمعان التفكير. وقد جاء الكتاب المكتوب

بحرفة وعناية يحمل تنظيراً حول الرأسمالية الراسخة، ولم يكن الـ"المشهد الصاخب" يشير إلى وسائل الإعلام بل إلى الجوقة المتكاملة التى تضم العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية فى ظل الرأسمالية، ذلك العالم الذى يتحقق فيه إخضاع الذوات المغتربة عن طريق الأكاذيب. وقد جاء الكتاب لينم عن تأثير سانجوست وهيجيل وماركس ولوكاش وبريتو، وجماعة "الاشتراكية أو الهمجية" والخمر. ويتخذ الكتاب شكل الأقوال المأثورة المركزة والكاشفة التى تتناول أحوال العالم، أو (كما وصفها أنسيلم جاب فى السيرة الفكرية الجريئة التى كتبها عن ديبور فى عام ١٩٩٣) "استكمالاً لأعمال ماركس وهيجل بشكل من الأشكال، و... هنا تكمن أهميتها."بالإضافة لذلك فقد جاء كتاب مجتمع المشاهد الصاخبة فى مجمله تقريبًا عبارة عن اقتباسات من كتابات المعلمين الأوائل ممزوجة بخلاصات تحريضية، وهو ما يجعله تحفة تمثل فى ذاتها فكرة التخلى عن السياق.

أما هؤلاء الذين قللوا من شأن ديبور بأن صنفوه كعلم من أعلام ما بعد الحداثة فهم بالتأكيد لا يعلمون شيئًا عن مؤلفاته. كان الموضعيون من الجماعات الأجرأ والأطرف بين كافة المجموعات الفكرية الانفصالية الثورية التى برزت فى أجواء ١٩٦٨ المضطربة. وكان الصحفيون ينقلون الشعارات التى كان الوضعيون يكتبونها على حوائط مدينة باريس (مثل "السلع التجارية أفيون الشعوب"، و"هناك شاطئ تحت أحجار الشارع"، وأعتبر رغباتى واقعًا؛ لأننى أؤمن بواقعية رغباتى"، و"ما المجتمع سوى وردة بلاستيكية"، وغيرها) بحماس شديد إلى باقى أجزاء العالم: حيث كانت تقضُّ مضاجع الطبقات البرجوازية والنخبة اليسارية فى آن واحد.

وقد كان ديبور يؤمن بفكرة النظام القائم على مجالس العمال، وذلك نتيجة عدائه لفكرة الحزب الطليعى فى الفكر اللينينى- التروتسكى. وقد نشر ديبور كتابه بعنوان: "تعليقات على مجتمع المشاهد الصاخبة"(Comments on the Society of Spectacle) بعد عشرين عامًا جاء أسلوبه فيه متميزًا بنفس الصلابة والسلاسة. وقد شعر ديبور أن

عليه تسجيل هزيمته عندما أتت المشاهد الصاخبة لتهيمن على الجميع: "إن الميزة الثمينة التى حصلت عليها المشاهد الصاخبة كنتيجة لعمليات مثل تجريم التاريخ وإقصاء الماضى القريب وجعلنا جميعًا ننسى روح التاريخ فى المجتمع، تكمن فى المقام الأول فى قدرتها على طمس مسئوليتها، ومحو مسارات غزوها للعالم فى الماضى القريب". وفى عام ١٩٧٢ قام ديبور بحلّ جماعة الوضعيين العالميين. لم يكن ديبور يحب المعجبين وكان يخشى أن يحول الكثيرون منهم الوضعيين إلى أيديولوجية استهلاكية يعتنقها كبار الموظفين الذين يستمتعون بتعبئة نبيذهم بأنفسهم قبيل "هبوطهم فى كاتماندو". انتحر ديبور الذى كانت الخمر قد أهلكت جسده فى عام ١٩٩٤ . ولو أنه كان حيًا اليوم لكان رأى كاتماندو فى سياق جديد. أحيانًا أجدنى أتساءل عما لو كان بإمكاننا اعتبار أن ولى العهد الأمير ديبيندرا وهو يمحو الملكية فى نيبال عن ظهر الأرض مرتديًا زى الكوماندوز، خالقًا بذلك "لحظة موضعية"، قد قرأ نصًا واحدًا من نصوص الموضعيين أثناء دراسته فى كلية إيتون.

أغسطس/آب ٢٠٠١

٢٥

ذكريات عن ديريك جارمان

حدث ذلك منذ عشر سنين تقريبا. كنت أقوم بإنتاج أفلام روائية وتسجيلية لحساب شركة باندونج برودكشنز وكانت القناة الرابعة لا تزال تهتم بالأفكار. ولم يكن كل المحررين المسؤلين عن التعاقد قد تحولوا بعد إلى هؤلاء الانتهازيين الجشعين الفضوليين الذين نعرفهم الآن. وقتها اقترحت على جوين بريتشارد الذى كان مسئولاً عن قسم التعليم وقتها (ويشغل الآن منصب رئيس القسم المتحدث بلغة ويلز فى فرع البى بى سى فى مدينة كاردف) أن نقوم بإنتاج سلسلة من أربعة أفلام تدور حول الفلسفة؛ هى عبارة عن ملاحم محدودة تتناول حياة وفكر سقراط وسبينوزا ولوك وفيتينجشتاين. وقد وافق الرجل وقتها على السيناريوهات الأربع فى التو، ولكنه حذرنى من انخفاض ميزانية القسم لديه وأننى ليس بإمكانى تجاوز مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه إسترلينى للفيلم الواحد.

وعندما انتهت كتابة السيناريوهات الأربع وحصلت على الموافقة، كنا قد انتهينا بالفعل من تصوير سبينوزا (Spinoza) الذى قام بالدور الرئيسى فيه هنرى جودمان، ثم انتقل جوين من منصبه وخلفته كارين براون التى كانت كذلك متحمسة للموضوع، ولكنها كانت لسبب ما غير متحمسة لسقراط، ولهذا فقد سقط الفيلسوف الإغريقى الهرم من حساباتنا. ثم سألت براون عمن سيقوم بإخراج "فيتينجشتاين"، وكنت ما زلت أفكر فى اسم مناسب. كان كريس سبينسر قد أبدع فى إخراج سبينوزا، ولكنه تبنى المذهب الواقعى الطبيعى. وكنت أرى أنه من الواجب أن يخرج فيلم "فيتينجشتاين" فى صورة مختلفة وتجنح قليلاً نحو السريالية.

خطر لى وقتها أن أهاتف ديريك جيرمان فى مدينة دانجنيس الساحلية. لم أكن قد التقيته من قبل ولكنى أعجبت كثيراً عن بعد باثنين من أفلامه: كارافاجو (Caravaggio) وإدوارد الثانى (Edward II) خرجت بعد محادثتى الهاتفية معه فى الصباح لأشترى نسخة من مذكراته التى نشرت بعنوان: الطبيعة الحديثة (Modern Nature) من إحدى المكتبات المجاورة، ثم قضيت بقية اليوم أقرأها حتى انتهيت من جزء كبير منها، ثم أكملتها فى اليوم التالى. وقد أدهشنى أننى استمتعت جد استمتاع بقراءتها، فقد كان الرجل أكبر بكثير من مجرد مخرج أو قديس مثلىّ.

أذكر اليوم الذى هاتفته فيه؛ لأن جيرمان دوّن الحدث فى مفكرة يومياته. كان يوم ١٩ من مايو/أيار ١٩٩٢ . وقد فاجأنى حماسه للأمر؛ إذ أخبرنى وقتها أنه كان يرغب دومًا فى إخراج فيلم يدور حول فيتينجشتاين، ولكنه لم يتجاوز التفكير فى العنوان- "لودفيج المخبول"، ثم أرسلت إليه لاحقًا بالسيناريو الذى كتبه تيرى إيجلتون، الذى كان بالتأكيد مختلفاً عن فكرته "لودفيج المخبول".

قرأ ديريك السيناريو وهاتفنى فى اليوم التالى قائلاً: إنه أعجب به، وإنه يريد البدء فى الفيلم. وفى الأسبوع التالى ذهبت بالسيارة إلى دنجينيس وبحثت عن منطقة بروسبكت كوتاج المجاورة لساحل البحر حتى عثرت عليها. كانت حديقة المنزل عبارة عن عمل فنى رائع، كما كان يصفها كل من زار المكان، ولكن جاء استمتاعى بالمكان مشوبًا بمعرفتى بأننا نقبع بجوار مفاعل نووى عملاق، وقد كانت تلك اللحظة التى صدمت فيها بمعرفة حقيقة مرضه.

لا أتصور أحدًا آخر من معارفى يختار طوعًا الإقامة بجوار مفاعل نووى. لم يعد الأمر مهمًا بالنسبة إلى ديريك الذى كان يعلم أن مرض الإيدز سوف يفتك به إن عاجلاً أو آجلاً. كان يستمتع بالمخاطرة. ابتسم ابتسامة مقتضبة وهو يخبرنى باستمتاعه بالسباحة فى بحر يخلو شاطئه من البشر. "فى الصيف أركض كثيراً من الكوخ للبحر

مباشرة وأنا عارٍ تماماً. المياه هنا مشبعة بالنشاط الإشعاعى، فقد أجرى عليها بعض الأصدقاء الاختبارات باستخدام مقياس جايجار. أحياناً أرى كشافات المفاعل الخارجية تضىء فيضىء معها المكان بأكمله. أجد الأمر مشوقاً، أتعرف ما أعنى؟"
نعم، كنت أعرف ما يعنى.

أمضينا معظم اليوم نتناقش حول فيتينجشتاين. كان يعرف ما يريد بالضبط. لم يكن يود إنتاج فيلم تاريخى على غرار أفلام كيرشانت - أيفورى. أو تلك الأفلام المحملة بالحنين إلى الماضى. ببساطة لم يكن لدينا المال الكافى لإنتاج فيلم يتجاوز الحديث عن أفكار فيتينجشتاين حول علم الجمال. كان علينا إنتاج فيلم متقشف، يليق بفلسفة الرجل. قررنا إذاً أن يقف فيتينجشتاين أمام ستائر سوداء ليتلو قصة حياته مباشرة للكاميرات، وأن تأتى "الصورة انعكاساً للعمل - أى ألا تكون هناك ديكورات محيطة تقاسم العمل اهتمام المشاهد" كما ذكر ديريك فى مذكراته التى نشرت بعنوان: الابتسام بحركة كاميرا بطيئة. (Smiling in Slow Motion) كان ديريك واثقاً من أنه سيحقق ما يريد. سألنى عن أفلامه التى شاهدتها وعن أيها أعجبنى، وعندما أجبته ضحك. وبعد لحظة صمت اعترفت له بأن فيلم سيباستيان (Sebastiane) ويا للأسف لم يمنعنى من النوم أثناء مشاهدته. كان الفيلم يشبه الليمونادة الحلوة، بينما جاء كارافاجو وأدوارد الثانى بمنزلة مشروبات أقوى.

سألته: "لماذا أخرجت سيباستيان؟".

جاءنى الرد سريعاً.

"كان لدىّ سبب حقيقى واحد؛ أن أقدم فيلماً به مشهد لانتصاب قضيبى على الشاشة".

ثم ناقشنا بعض التفاصيل حول إنتاج فيتينجشتاين فكانت تلك المرة الوحيدة التى أشار فيها إلى مرضه خلال الأمسية.

"يستحسن أن تضع فى ميزانيتك حسبان مخرج آخر. هذا ما سوف تصر عليه شركة التأمين. إليك اسمه: كن باتلر. هو الذى صور أجمل مشهدين فى ريتشارد الثانى عندما اضطررت إلى دخول المشفى".

كان ديريك يبدو بصحة جيدة وكان من الصعب أن أتصوره فى المشفى. وعندما كنت على وشك الانصراف اقترحت عليه أن يجعل فيتينجشتاين فيلمًا صادمًا لجمهوره.

"ماذا تعنى؟ ماذا تعنى؟".

"ألا يتضمن أية مشاهد يظهر فيها أرداف أو قضبان. دع المشاهدين يمرون بمرحلة انسحاب الأعراض".

رد ضاحكًا: "اتفقنا. سوف أغير من أسلوبى".

وهكذا انحصرت مشاهد الجنس فى فيتينجشتاين فى قبلة بريئة تبادلها فيتينجشتاين وعشيقه يوهانى. أما الآن فلو أراد المسئولون المولعون بتصنيف الأفلام التى تذيعها قنواتهم التليفزيونية تنفيذ فكرة الفيلم لأصروا على الحد الأقصى من مشاهد الأرداف والقضبان.

تحدثنا هاتفيًا عدة مرات خلال الأيام التى تلت تلك الزيارة، ذهبت بعدها إلى دنجينيس بالقطار هذه المرة. هناك ذهبنا، كما كتب ديريك فى مذكراته، لتناول الغداء فى حانة فى ليد وتحدثنا فى أمور كثيرة. لم يكن مؤمنًا بوجود إله أو بحياة بعد الموت، وكان مستعدًا لمواجهة العمى والموت. لم يكن يخاف الأمر. قال لى وقتها جملة بقيت معى منذ ذلك الوقت: "لا يمكن أن تكون فنانًا إذا لم تكن ترغب فى شيء، ولا تأمل فى شيء، ولا تخاف من شيء".

كان يكره الملكية ويهاجم نظام التكريم المعمول به فى بريطانيا بضراوة. كان مستاءً من يان ماكلين؛ لأنه قبِل أن يمنح وسام فارس وقبِل خول مقر رئيس الوزراء. وقد سعدت عندما قرأت هذه السطور من مذكراته. كان هذا هو صوته الذى أتذكره بجلاء:

لقد قبلت فيفيان ويستوود- تلك العاهرة التافهة - وسام الإمبراطورية البريطانية. ها هى الأيام البلهاء تبتسم لنا فنرى أصدقاءنا المتسكعين يتسلمون أوسمة الخيانة، ويجلسون فى صالوناتهم الفارغة؛ لكى يحطموا الإبداع داخلهم - مثل دودة الخشب فى خزانة ملابسى، التى سوف أرشها غداً بالمبيد الحشرى. كم أود أن أصنع صاعقًا للحشرات بحجم إنسان أحرق به تلك المرأة التى تشبه عتة الملابس وأمثالها.

كنت قد قرأت إشارة فى كتاب الطبيعة الحديثة عن رحلة قام بها لباكستان فسألته عنها.

عرفت منه حينها أن أباه كان ضابطًا كبيرًا فى السلاح الجوى فى الهند، وأنه انتدب للمشاركة فى تأسيس السلاح الجوى الباكستانى بعد الاستقلال فى عام ١٩٤٧ وكان ديريك فى الخمسينيات يقضى جزءًا من إجازاته الصيفية على سفوح تلال الهيمالايا فى شمال باكستان. كان السلاح الجوى يدير منتجعًا خاصًا فى مدينة كالاباغ على بعد ميلين فقط من منطقة ناتياجالى التى كانت أسرتى تقضى صيفها فيها كل عام؛ بغية الهروب من الجو الحار فى السهول.

كانت تلك فترة ناعسة من حياتى؛ حيث كنت أنا وأصدقائى فى سن المراهقة نذهب إلى تسلق الجبال أو نسير مسافة عشرين ميلاً أو نلعب التنس وملاحقة الفتيات، فى محاولات يائسة لجرهن لما نريد. كانت الجبال ترتع فى حرية لم تكن قد طالتها بعد أيدى التضييقات الحضرية. وقد أعجب كلانا بفكرة أن أحد شباب عائلة جارمان كان يقطن قريبًا. لم يكن ديريك وقتها قد اكتشف ميوله الجنسية، وقد انفجر ضاحكًا عندما أخبرته أن المثلية الجنسية كانت تعلن بوضوح فى ذلك الجزء من باكستان، وأن أهل المنطقة الأكثر تعجرفًا كانوا يربطونها بالقادة العسكريين والجنود الإغريق الذين مكثوا فى المنطقة بعد غزو الإسكندر الأكبر لها.

قلت له: "لو أنك كنت قد أبديت أية علامة على رغباتك، لكنت وجدت صفًا من الرجال بانتظارك أمام محل إقامتك".

وعندما بدأنا العمل فى الفيلم انتقل ديريك ومعه كين باتلر إلى مكاتب شركة باندونج فى كينتيش تاون. كنا ندخل التعديلات على السيناريو ونجرى اختبارات للممثلين الذين كان معظمهم ممن عملوا مع ديريك من قبل. كان ديريك يحمل ماعزًا خاصة تجاه تيلدا سوينتون، وكان يقول متحسرًا: "لو أنها كانت صبيًا!" كانت أيام العمل فى الفيلم مليئة بالسعادة. لم يكن لدينا الكثير من المال، حتى بعد أن قدم لنا معهد السينما البريطانى بعض المساعدة. كان ديريك يتعجب غاضبًا: "لقد منحوا فلانًا مليون جنيه! مليونًا لتمويل الهراء الذى يقدمه. أما نحن فلا نستطيع الحصول على بضعة مئات الآلاف من الجنيهات". ثم طلب منى الاتصال بمنتج يابانى كان دائمًا "على استعداد للتبرع بخمسين ألفًا أو ما شابه ذلك". لم يخذلنا تاكاشى، ولكن ذلك لم يكن كافيًا لإنتاج فيلم يمكن عرضه فى دور السينما. وقد كان بعض العاملين يعملون لدى ديريك دون أجر حتى يخرج الفيلم للنور، بما فيهم ساندى باول التى قامت بتصميم رائع للملابس.

كنا منبهرين أثناء التصوير الفعلى ونحن نتابع طاقة ديريك تخبو. كان يشحذ كل ما لديه من إمكانيات ويعمل لمدة ١٢ ساعة يوميًا لمدة أسبوعين. لم نكن بحاجة إلى كين باتلر، ولكن وجوده كان يبهجنا ويحفزنا. وخلال تلك الفترة قام عارف، مصور شركة باندونج المقيم، بتصوير جارمان أثناء أدائه العمل. ولدينا الآن خمس عشرة ساعة تصوير، شاهدت بعضًا منها للمرة الأولى بقصد إنعاش ذاكرتى ووجدت الأمر كما كنت أتذكره. كان حماسه للحياة يفوق كل شىء.

وقد بقينا على اتصال بعد الانتهاء من الفيلم. وعندما ذهبت لمشاهدة عرض خاص لفيلم الأزرق (Blue) وجدتنى أضحك فى سرى وأنا أرقب جوع المشاهير يتهامسون لبعضهم البعض فى دهشة. لم يكونوا مصدقين أن الفيلم عبارة عن شاشة زرقاء وصوت المعلق، ثم التقينا بعدها على الغداء فى مطعم صينى متواضع فى شارع ليزل بسوهو؛ حيث تحدث معى عن الفيلم الذى كان يود إخراجه متأثرًا بلوحة طوافة

قنديل البحر (The Raft of the Medusa) للفنان الفرنسى جيريكو، يدور حول فكرة الموت ويأتى فيه الأشخاص المحملين على الطوافة من ضحايا مرض الإيدز. كان يريدنى أن أتعاقد مع البى بى سى بشأن الفيلم، فهاتفت بدورى جورج فيبر الذى وافق على الفور، ثم شرعت فى كتابة السيناريو. كنا وقتها نلتقى ونتحدث. كان كتاباً جديداً يحكى سيرة جاى إدجار هووفر قد ظهر كاشفاً عن أنه كان مثلياً وكان معتاداً التشبه بالنساء دون أن يعلن عن ذلك أثناء حياته. وقتها ضحكنا بهستيريا، وقلت له: إننا يمكن أن ندخل تعديلاً جوهرياً على خطتنا لفيلم طوافة بأن نجعل سيارة ليموزين محاطة بعملاء مكتب التحقيقات الأمريكى تدخل الأستوديو، ويخرج منها هوفر مرتدياً معطفاً أحمر، ويأمر رجال شرطته بالقبض على المخرج. ظننت أن تلك الفكرة سوف تساهم فى تخفيف حدة الجدية المحيطة بالفيلم.

وبعد عدة أشهر وصلنى خطاب من مهرجان سانت بيتيرسبرج للسينما يعبر فيها المنظمون عن رغبتهم فى عرض فيلم فيتينجشتاين، كما يدعوننى وديريك لتقديم الفيلم. كتبت لهم بأن ديريك قد توفى، وأننى لا أرغب فى السفر بمفردى.

يونيو/ حزيران ٢٠٠٠

٢٦

عبد الرحمن منيف

كان عبد الرحمن منيف الذى توفي فى المنفى فى دمشق بعد صراع طويل مع المرض واحدًا من أفضل الروائيين العرب فى القرن العشرين. فقد نجح هو ونجيب محفوظ فى تشكيل أفق الأدب العربى بأن جعلا الرواية مركزًا لتناول الهموم الثقافية والسياسية مثلما كان الوضع فى أوروبا خلال القرن التاسع عشر.

ولد منيف فى عمّان فى عام ١٩٣٣ لأب سعودى يعمل بالتجارة وأم أردنية، وقضى السنين العشر الأولى من حياته هناك، وعلى الرغم من الهزيمة التى لحقت بالإمبراطورية العثمانية فإنه قد كانت المدينة لا تزال مسيطرة على الوضع الجغرافى فى المنطقة، وكانت الحدود رخوة تمكن الأسر والتجارة العربية من التحرك بسهولة من القدس إلى القاهرة إلى بغداد ودمشق وما ورائها. وقد كانت تلك المناطق (باستثناء دمشق وبيروت) واقعة تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية. كانت الحدود قد رسمت فى الرمال، ولكن لم تكن هناك أسلاك شائكة أو شرطة لتحرسها. وقد التحق منيف بالمدرسة الابتدائية فى عمان والمدرسة الثانوية فى بغداد ثم الجامعة فى القاهرة. وكتب ذكرياته فيما بعد عن مدينة عمان التى عرفها فى طفولته فى كتاب رائع نشر فى لندن فى عام ١٩٩٦ تحت عنوان سيرة مدينة: عمّان فى الأربعينيات؛ وصف فيه الحياة المدرسية خلال فترة منتصف الأربعينيات. يذكر منيف أن الطلاب كانوا يخطئون فى أسماء بعض المدن العربية ولكنهم كانوا جميعًا يعرفون أسماء المدن الفلسطينية، فلو أن المعلم سأل عمن يمكنه تسمية خمس مدن فلسطينية لوجد الجميع يرفعون أيديهم

رغبة في الإجابة: القدس، ويافا، وحيفا، واللد، والرملة، وعكا، والصفد، ورام الله، والخليل... كانت فلسطين أكثر من مجرد أرض وشعب؛ كانت عبارة عن كوكبة من المعانى والرموز والإيحاءات فى عقل كل عربى، تراكمت وأورثت من جيل إلى جيل.

وقد استمرت أسماء البلدات القديمة فى فلسطين تتردد داخل رأس منيف نفسه. لم يكن قط لينسى اللاجئين الفلسطينيين والكرب الذى كانوا يعيشونه، والذى كان يعلمه جيداً وهو فى سنين مراهقته الأولى. وقد وصف منيف إريل شارون منذ عدة أشهر بأنه أكبر شيء بغيض كريه فى شرق المنطقة العربية.

كان منيف خلال فترة المراهقة يقضى الإجازات الصيفية فى شبه الجزيرة العربية مع أسرته السعودية. وهناك كان يسمع حكايات لا تنتهى كما كان يتحدث مع البدو وتجار النفط والأمراء الأثرياء الجدد، الذين كانوا فى ما بعد يتحولون إلى موضوعات شتى فى قصصه. وقد أصيب منيف بالإحباط مثل باقى جيله جراء كارثة ١٩٤٨ فأضحى قوميًا عربيًا عتيدًا. وكان لصعود عبد الناصر فى مصر والموجة الثورية التى اجتاحت العالم العربى نتيجة لذلك تأثير واضح على منيف، فاعتنق الاتجاه المدنى الاشتراكى المناضل. وفى عام ١٩٦٣ سحبت السلطات السعودية الجنسية من منيف جراء انتقاداته للأسرة الحاكمة هناك، ففر منها إلى بغداد حيث حصل على عمل باحث اقتصادى فى مجال الصناعات البترولية مما جعله يدرك أهمية الذهب الأسود المخزون تحت الرمال فى الصحراء العربية ومنطقة بلاد الرافدين. وقد وظف منيف معرفته بالبترول وصناعاته توظيفًا رائعًا فى رواياته.

بدأ منيف كتابته القصصية فى أواخر السبعينيات بعد أن استقال من اللجنة العليا لحزب البعث فى بغداد، وانتقل للإقامة فى دمشق. هنا انتهت حياته السياسية وأصبح عقله مشغولاً تمامًا بكتابة الرواية. كتب منيف خمس عشرة رواية، ولكن جاءت مدن الملح لتصنع مكانته فى الأدب العربى، تلك الخماسية التى تتناول تحول شبه الجزيرة العربية من ذلك الوطن البدوى العتيق إلى كليبتوقراطية استبدادية قبلية هجينة

تسبح فوق بحر من البترول. تتناول خماسية منيف الدهشة والخوف والقلق والتوتر الذى ساد السعودية بعد اكتشاف البترول، ويأتى تصويره لحكام البلد دون الكثير من المواربة مما أعجب القراء فى الشارع العربى؛ بل حتى فى بعض القصور الحاكمة.

وهكذا أضحى الكاتبان اللذان يبدأ اسمهما بحرف الـ"م": محفوظ ومنيف أساطين الأدب العربى. وقد حصل محفوظ على جائزة نوبل نظير أعماله، التى كانت تصور الحياة العائلية فى القاهرة منذ مطلع القرن العشرين حتى صعود عبد الناصر، بأسلوب يشبه أسلوب الكاتب الفرنسى بلزاك.

كان كثير من النقاد العرب (ولكن ليس منيف نفسه) يرون أن منيفًا كان الأحق بالجائزة، ولكن جاءت سخريته الحادة والسريالية من العائلة المالكة وحاشيتهم وأباطرة البترول لتجعل منه طريد الثقافة الرسمية. كانت كتب منيف ممنوعة فى السعودية وبلدان الخليج الأخرى، ولكنها كانت واسعة الانتشار ولها جمهور كبير من القراء حتى من داخل الأسر الحاكمة فى شبه الجزيرة العربية. كان منيف ماهرًا فى صبغ الشخصيات بالصبغة الفكرية والشعبية.

قام بيتير ثورو بترجمة ثلاث من الروايات فى خماسية مدن الملح إلى الإنجليزية – مدن الملح، والأخدود وتقاسيم الليل والنهار – ونشرتها دار نوبف للنشر فى نيويورك. ولكن الروايات لم ترق للنقاد الأمريكيين؛ حيث عبر جون أبدايك عن انتقاده للروايات؛ لأنها لم تكن تشبه الروايات التى اعتاد قراءتها. ضحك منيف عندما أخبرته بذلك مشيرًا بيده إشارة تعبر عن اليأس المصطنع. لم تحتفِ المؤسسة الرسمية بمنيف على الرغم من شعبيته الكبيرة بين القراء العرب العاديين وبين النقاد الأدبيين (كان الراحل إدوارد سعيد أحد كبار معجبيه). وكان منيف فخورًا بذلك.

لم أقابل منيفًا سوى مرة واحدة فى منتصف التسعينيات عندما قدم إلى لندن فى زيارة نادرة لإجراء مقابلة تليفزيونية معه فى فيلم تسجيلى كنت أقوم بإنتاجه للقنا الرابعة. سألته لماذا اختار ذلك العنوان "مدن الملح" لرائعته الأدبية. وقد جاء جزء من رده على النحو التالى:

"مدن الملح" تعنى المدن التى لا تمنحك وجوداً مستداماً، فعندما يأتى الماء تذيب موجاته الأولى الملح وتحول تلك المدن الفارهة إلى تراب. فأنت تعرف كم من المدن اختفت فى العصور القديمة، ومن السهل التنبؤ بسقوط المدن اللا - إنسانية التى لن تحيا دون أسس الحياة الضرورية. انظر إلينا الآن وانظر كيف يرانا الغرب. كاد القرن العشرون أن ينقضى ولكن الغرب ينظر إلينا فلا يرى سوى النفط ودولارات النفط. لا تزال السعودية تحيا دون دستور ويعيش الناس فيها محرومين من حقوقهم الأساسية، بينما تعامل النساء كمواطنات من الدرجة الثالثة. ينتج هذا الوضع نوعًا يائسًا من المواطَنة، لا تمتزج بأى شعور بالكرامة أو الانتماء...

لم يندهش منيف من أن معظم الذين ارتكبوا هجمات ١١ من سبتمبر كانوا من المواطنين السعوديين، فقد أمضى الرجل أربعة عقود سابقة يحذرنا من مثل تلك الوقائع، وقد كان آخر ما صدر عن منيف كتابًا يضم عدة مقالات عن العراق. كان يحتقر صدام حسين ويرى أهمية تأسيس ديمقراطية اشتراكية فى كافة أنحاء العالم العربى، ولكن الحرب والاحتلال الذى تلاها استفزته. أخبرنى ابنه ياسر الذى التقيته فى الولايات المتحدة منذ عدة أشهر أن إعادة استعمار العراق أشعل راديكالية أبيه القديمة، وهو ما يظهر فى مقالاته الأخيرة، كما اضطره الوضعَ الجديد إلى تنحية كتابة الرواية وجعل قلمه سلاحًا مشهرًا فى وجه الحكام المستبدين المحليين وتجار الحرب العالميين فى آن واحد.

ولكننا سنفتقد منيف بوصفه روائيًا أكثر من أى شيء آخر. كان قاصًا متفردًا أثرى الثقافة فى أرجاء العالم العربى، كما كان مفكرًا قويًا ومستقل العقل رفض الانحناء أمام أى أمير أو جنرال، وقد أثرت أعماله على جيل من الكتاب الشباب، سواء كانوا رجالاً أم نساءً فى الغرب والمشرق العربى على حد سواء. وإنى على ثقة أننا سنرى أمثال منيف فى المستقبل.

يناير/ كانون الثانى ٢٠٠٤

٢٧

براموديا أنانتا توير

جاءت وفاة الكاتب براموديا أنانتا توير لتمثل خسارة فادحة للأدب العالمى، فقد كان كاتبًا روائيًا مبدعًا لا يكل البحث عن زمن لم يأت. كان فى بعض الأحيان يظن أنه لمح المستقبل من بعيد فتتضخم الواقعة وتنعكس فى رواياته، ولم يحاول توير قط إخفاء ولعه بالسياسة الراديكالية.

كتب توير فى قصته القصيرة "تلك التى استسلمت" (She Who Gave Up) التى نشرت ضمن مجموعته القصصية بعنوان: قصص من بلورا(Tjerita dari Blora) فى عام ١٩٥٢:

> **وفى تلك الأوقات أيضًا يهدر الحماس السياسى مثل موجة هائجة. كان كل إنسان يشعر أنه أو أنها لا يمكن أن يحيا دون الارتباط بالسياسة، دون أن يتداول ويناقش المسائل السياسية. وفى الحقيقة كان يبدو أن الناس على استعداد للعيش حتى دون تناول الأرز. حتى المدرسين فى المدارس الذين كانوا دومًا يعيشون "على الحياد" أصابهم هدير السياسة - فحاولوا قدر استطاعتهم بث النزعات السياسية التى ارتبطوا بها فى تلامذتهم. كان كل إنسان يحاول ضم أعضاء جدد لحزبه واتضح أن المدارس ساحات خصبة لمثل هذا النضال. السياسة! السياسة! لا يختلف الأمر كثيرًا عن الأرز تحت الاحتلال اليابانى.**

كانت إندونيسيا وهى أكبر الدول الإسلامية فى العالم تضم فى يوم من الأيام أكبر حزب شيوعى خارج الكتلة الشيوعية فى العالم. وفى عام ١٩٦٥ استولى الجيش على الحكم فى البلاد وحولها إلى حمامات دم؛ حيث ارتكب مذابح راح فيها على الأقل مليون شخص، معظمهم من الشيوعيين أو ممن كانوا يتعاطفون معهم. وفى مدينة بالى تعاون قادة الجيش الموالون للغرب مع ميليشيات الإسلاميين الذين ساعدوهم على الإجهاز على من تبقى. وبعد عشرين سنة كتب بريبيت روشيجات كارتاويداجا أحد الكتاب من الجيل الأصغر مقالاً يصف مشاهد الجحيم وقتها:

> **كان فى الغالب من الصعب الجزم بكون الجثث آدمية. جثث مقطوعة الرءوس. بطون مفتوحة. ورائحة لا يمكن تخيلها. وكانت الجثث تربط بعصى من البامبو أو توضع على الخازوق حتى لا تغوص فى قاع الماء، ثم دخلت عملية رحيل الجثث من منطقة قديرى متجهة جنوبًا نحو نهر البرانتاس عصرها الذهبى بأن كانت الجثث تربط مع بعضها البعض وتحمَّل على طوّاف نهرى يرفرف عليه علم الحزب الشيوعى الإندونيسى مزهوًا ... وبمجرد أن بدأت عملية التخلص من العناصر الشيوعية لم يعد الزبائن يأتون إلى المدينة بحثًا عن المتعة الجنسية. السبب كان أن معظم الزبائن – والغانيات – كانوا مرعوبين؛ لأن عددًا كبيرًا من الأعضاء التناسلية لرجال ينتمون للحزب الشيوعى كانت تعلق أمام بيوت الدعارة – مثل أصابع الموز المعلقة لدى باعة الفاكهة.**

ولد توير فى مدينة بلورا الواقعة بمنطقة وسط جافا فى عام ١٩٢٥، وكان أشهر روائيى إندونيسيا، ولكنه كان ينشر معظم رواياته فى الولايات المتحدة. لم يطله القتل؛ حيث لم يجرؤ الجنرالات على إعدامه؛ أملاً منهم فى أن تؤدى به الظروف التى تم التحفظ عليه فيها بالمهمة.

تم القبض على توير بعد وقوع انقلاب عسكرى فى جاكارتا فى عام ١٩٦٥ ثم أرسل إلى جزيرة بورو وهى عبارة عن معسكر عمل قسرى إستوائى يموت الناس فيه جراء الإرهاق الشديد أو الأشغال الشاقة أو الجوع. لم يمت توير، وحكى لنا فيما بعد عن مجابهته للعنف والمرض والجنون الذى كان يتسلل إلى عقله كل ليلة طوال ثلاثة آلاف ليلة وليلة - حوالى ثمانى سنوات - بأن كان يقص الحكايات على زملائه فى السجن. كانت القصص تحافظ على بقاء الأمل داخله وداخلهم. وبينما كان السجناء يستمعون إلى القصص كانوا ينسون لبرهة أين كانوا أو من وضعهم فى السجن.

قضى توير اثنى عشر عامًا فى جزيرة بورو. لم تكن تلك أول تجاربه فى السجن، وهو ما حدا به للمقارنة بين أحوال السجن فى ذلك الوقت وإبان فترة الاحتلال. لم يكن يساوره الشك أن الظروف كانت أسوأ نوعيًا مما كانت عليه منذ حوالى عشرين عامًا عندما كان محبوسًا فى معسكر للأشغال الشاقة فى بوكيتدورى خلال الفترة من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٩ وقد انخرط منذ تلك الفترة فى العمل الثورى ضد الاستعمار الهولندى فى المرحلة التى تلت الحرب العالمية الثانية.

لم يحرمه الاستعمار الهولندى من الكتابة- كما فعل لاحقًا النظام الوطنى الذى كان ينتهج أساليب المستعمر نفسه - فكتب روايته الأولى فى عام ١٩٥٠ التى ترجم عنوانها إلى الهارب (The Fugitive) ونشرت فى عام ١٩٧٥ ومرة أخرى فى عام ١٩٩٠ وهو لا يزال فى سجن الاستعمار. تتكون الرواية من ١٧٠ صفحة وتفوق فى تركيبها ومحتواها روايات ألبير كامو التى كان بعض النقاد الغربيين يقارنونه به.

وفى رواية أخرى ظهرت فى عام ١٩٩٥ وترجمت إلى الإنجليزية تحت عنوان: مناجاة الأخرس لنفسه (Mute's Soliloquy) فى عام ١٩٩٩ يقدم توير سردًا موجعًا لحياته فى السجن؛ حيث يصف فى نثره الموجز والذى يتحكم فيه جيدًا، القسوة المؤسسية التى اتسم بها نظام سوهارتو الجديد. تذكره سفينة نقل البضائع التى انتقل فيها هو وثمانمائة آخرين إلى جزيرة بورو بالعمال على سفينة الكابتن بونتيكو وبالصينيين المختطفين المحمولين على سفينة ميشينير المتجهة إلى هاواى... كما تذكره

بالطبع بالأربعة ملايين إفريقى المحملين على سفن بريطانية وإنجليزية تقلهم عبر المحيط الأطلنطى.

كان شعور المسئولين الهولنديين بالقلق والتهديد إبان فترة الاستعمار وإدراكهم اهتمام أهل جافا بالنظافة جعلهم يقومون بإلقاء الفضلات الآدمية على سكان المنطقة بغرض إهانتهم. أما سفينة السجن التابعة للنظام الجديد فقد تفوقت فى هذا المجال؛ حيث جاء مكان احتجاز السجناء ملاصقًا للمراحيض، وكان الموقعان يختلطان ببعضهما البعض وقت هبوب العواصف. كان المسئولون يسيئون معاملة السجناء ويقومون بتجويعهم بشكل منهجى حتى لا يبقى منهم سوى الأصلح. يقدم لنا توير فى الرواية إحدى قوائم الطعام البائسة التى كانت تقدم للمساجين:

> **تصور غذاءً مكونًا من فئران المجارى والعشب المتعفن النامى على شجر البابايا وفروع شجر الموز والديدان الموضوعة على أسياخ من جذوع النخل. حتى جاى بى وهو واحد من أكثر المساجين تعليمًا وجد نفسه مضطرًا إلى أكل السحالى، ولكنه كان معتادًا على كسر إصبع قدم السحلية قبل أن يأكلها. كان جاى بى قد أصبح خبيرًا فى مراقبة السحالى. كان يقطع إصبع قدم السحلية ثم يعتصر المخلوق التعيس بين إبهامه وسبابته، قاذفًا بها فى حلقه ومبتلعًا إياها بالكامل. كان استمرار إرادة الرجل فى الدفاع عن نفسه فى وجه الجوع بمنزلة معجزة فى حد ذاته.**

كان النظام طوال هذا الوقت يرسل برجال الدين والصحفيين ذوى الاتجاهات الإسلامية فى مهمات للتفتيش فى عقول المساجين وحثهم على الإيمان:

> **ليس لدى شك أن هذا العام، مثل الأعوام السابقة، سوف نواجه أنا وزملائى محاضرة يلقيها أحد رجال الدولة المتدينين يأتون به خصوصًا من العالم الحر ليحدثنا عن أهمية الصيام والتحكم فى الجوع والرغبات. تصوروا المفارقة الكامنة هنا!**

وبعد قضائه خمسة عشر عامًا فى سجون بلاده، ساعدت الحملة التى نظمتها منظمة العفو الدولية وجماعات أخرى فى الغرب فى إطلاق سراح توير فى عام ١٩٧٩، ولكنه جاء مشروطًا بوضعه قيد الإقامة الجبرية فى جاكرتا؛ حيث كان عليه المرور من وقت لآخر لإثبات وجوده فى قسم الشرطة، ولكنه كان حرًا فى التصرف فى وقته وكان قادرًا على معاودة الكتابة.

استطاع توير أن يطور القصص الرمزية التى كان يقصها على زملائه فى السجن فى الأوقات التى كانوا يصابون فيها باليأس؛ لتصبح رباعية روائية بارزة بعنوان: قصة منكا (Minke's Story) أو رباعية بورو .(Buru Quartet) نشرت أولى الروايات (التى ترجمت فى عام ١٩٨٢ إلى الإنجليزية) فى عام ١٩٨٠ تحت عنوان هذه الأرض التى يعيش عليها البشر (This Earth of Mankind) وأضحت من أكثر الروايات مبيعًا خلال عشرة أشهر. أما روايته الثانية التى ظهرت فى عام ١٩٨٠ وترجمت إلى الإنجليزية فى عام ١٩٨٤ تحت عنوان: ابن كل الأمم (A Child of All Nations) فقد أضحت هى الأخرى من أكثر الروايات مبيعًا. وهكذا رحب الآلاف من الإندونيسيين بابن بلدهم "برام" الكاتب المنشق ذى الصيت الشائع لدى عودته إلى الحياة الأدبية.

ظهرت ترجمة الروايتين التاليتين تحت عنوانى: وقع الأقدام (Footsteps) فى عام ١٩٩٠ ، وبيت من الزجاج (House of Glass) فى عام ١٩٩٢ . وتدور أحداث الروايتين – اللتان تأتيان واقعيان فى بعض جوانبهما وتاريخية فى بعضهما الآخر – أثناء فترة الاستعمار. وقد استمد الكاتب القصة من وحى أبى الصحافة القومية الإندونيسية، الكاتب الأسطورى تيرو آدى سوريا. جاء العمل على قدر من العمق والرحابة وكان ذا تأثير مزلزل على معظم القراء الإندونيسيين الذين اضطرتهم الظروف السياسية إلى وأد أفكارهم بأيديهم. كان توير يكتب عن الماضى، ولكن كان لمعظم ما يقوله صدى فى الحاضر. هل كان سوهارتو والنظام الجديد امتدادًا للحكم الاستعمارى؟ منعت كتب توير من التداول فى عام ١٩٨١ اضطر الناشرون إلى غلق دور النشر، كما أودع أحدهم السجن لمدة ثلاثة أشهر.

لو كان برامويديا أنانتا توير منشقًا سوفيتيًا لكان حصل على جائزة نوبل. ولكن تبقى مكانته إحدى العلامات الأدبية البارزة قائمة، كما أنه (بخلاف كثير من معاصريه فى أمريكا اللاتينية) بقى طوال حياته دون الرجوع فى مبادئه.

مثلما لا يمكننا فصل السياسة عن الحياة، لا يمكننا فصل الحياة عن السياسة. ولا يشكل هؤلاء الذين يعدون أنفسهم لا سياسيين أى استثناء هنا، لأنهم قد تم دمجهم بالفعل فى الثقافة السياسية السائدة- كل ما هناك أنهم لم يعودوا يدركون هذا الأمر.

مايو/ أيار ٢٠٠٦

٢٨

إدوارد سعيد

أفكر في إدوارد

أتذكر إدوارد كثيراً، ليس فقط عندما أطالع الاتفاقات المخزية التى تبرمها منظمة التحرير الفلسطينية مع إسرائيل ومن يدعمها فى الولايات المتحدة. أفتقد اندفاع إدوارد وحاسة الصواب التى تجعله يجفل. لم يكن إدوارد ليوافق على اتفاق بإقامة المناطق الفلسطينية المهيضة التى ترغب منظمة التحرير الفلسطينية فى قبولها. كان سيقدم طروحًا أخلاقية مدمرة لهؤلاء الذين يتفانون فى الدفاع عن مثل تلك الخطط ومعهم آخرون من المفكرين المهاجرين الذين يرون أن إقامة دولة علمانية فى فلسطين تعنى غض الطرف عن الحظر الأمريكى - الأوروبى المشترك المفروض على حماس، الذين يتوقون إلى توفيق الأوضاع مع العدو بأى شرط من الشروط بعد أن أنهكتهم سنوات النضال والشيكات المصرفية المثقلة التى كانت تمنحها لهم بعض المنظمات غير الحكومية الفاسدة. كان إدوارد سعيد فى كتاباته الأخيرة يدعم فكرة الدولة الواحدة فى إسرائيل - فلسطين، والتخلص من فساد منظمة التحرير وإفلاسها. ربما لم يكن إدوارد يتفق مع كل حرف ورد فى كتاب ميارسهايمر وفالت الحاكم لوبى إسرائيل (The Israel Lobby)؛ ولكنه كان سيحتفى بظهور الكتاب أيما احتفاء لكسره أحد المحاذير المقدسة. نفتقد صوت إدوارد كثيراً فى هذه السنين الغبراء.

ما من شك فى أن إدوارد سعيد كان عدوًا لدودًا للمشروع الصهيونى ولسياسات الولايات المتحدة الاستعمارية، ولكنه لم يكن خصمًا فارغ العقل لكل ما هو أمريكى.

كان يحب نيويورك. كانت موطنه، وكان يعرفها جيداً ولم يكن ذلك بالأمر التافه. كان كثيراً ما يتحدث عن تلك المدينة بشغف وروح مرحة. كان زملاء إدوارد فى جامعة كولومبيا يسمون حجرة مكتبه الواسعة "الضفة الغربية"، وكان إدوارد يحب تلك المزحة. كان أثناء زياراته لبريطانيا أو فرنسا يشعر بمزيج من الحماس (مثلاً تجاه تاريخ فرنسا الفكرى) والغربة. كان إدوارد سائحًا شغوفًا كما يصف إدوارد جيبون ذلك النوع من الأشخاص الذين لديهم "فضيلة تكاد تكون رذيلة، ومزاج مرن بمقدوره الاندماج داخل كل أشكال المجتمع الممتد بين الكوخ والقصر الملكى. كما كانت لديه روح فياضة مترقرقة تستمتع وتُمْتع مع كل صحبة وكل موقف". كان إدوارد على اتصال دائم مع الأفكار المعاصرة، ولكنه بعكس معجبيه، لم يكن يحاول تعويض فجوة ما بأن يشيد قبواً خاوياً فوقها يجعلها مقصورة داخله فى حجم أكبر من حجمها الحقيقى. ولم يكن فى الوقت ذاته يرى أن القرن العشرين أخطأ فى تحميل العقل والتفكير والمنحى الفكرى والشخصية تلك الأهمية الكبيرة. فكم من الأخطاء ارتكبها "فريقنا". ارتكبت الحضارة الغربية جرائم فى الكونغو ومارست التطهير العرقى أثناء الحرب العالمية الثانية، وهو الأمر الذى جعل الرأى العام الغربى لا يبالى الآن بمعاناة الفلسطينيين بعد أن أنهكه الندم - الذى جاء متأخراً - على المذابح الجماعية التى ارتكبها. كان يشعر أحيانًا بالحزن وبأنه يحتاج إلى الأمان أكثر من المعتاد، وكان وقتها يحتاج لمن يؤكد له أهمية ما يفعل. كان إدوارد سوف يسعد كثيراً لو أنه رأى الاحتفاء به بعد موته.

أجد أفضل الطرق لتكريم ذكراه أن نحتفظ باستقلالنا الخالص عن الاستبداد بكل أشكاله، سواء كان يرتدى زى الديمقراطية أو يُكره الناس على الخضوع مستخدمًا عصا مشير عسكرى.

ديسمبر/ كانون أول ٢٠٠٧

أتذكر إدوارد سعيد

كان إدوارد سعيد صديقًا ورفيقًا قديمًا. جاء أول لقاء بيننا فى عام ١٩٧٢ حين كنا نحضر ندوة فى نيويورك. وحتى فى تلك الأيام المضطربة، كانت أناقته الكاملة أحد الملامح التى ميزته عن الآخرين منا: كان كل ما يرتديه مختارًا بعناية، حتى الجورب. وأجد من الصعب بمكان أن أتصوره على صورة أخرى. أصر إدوارد أثناء حضورنا مؤتمر عقد على شرفه فى بيروت فى عام ١٩٩٧ أن يصطحبنى ومعنا إلياس خورى للسباحة. وعندما خرج علينا بزى السباحة سألته عن السبب الذى جعله يحمل منشفة لا تتماشى ألوانها مع باقى الزى. أجابنى بعفوية: "فلنفعل ما يفعل أهل البلد"، ولكنه جاء مرتديًا ملابس لا تشوبها شائبة أثناء قراءته لجزء من مسودة سيرته الذاتية التى ظهرت لاحقًا بعنوان: خارج المكان. (Out of Place) وقد بقى إدوارد على أناقته حتى النهاية حتى أثناء معركته مع اللوكيميا.

كنت قد اعتدت على فكرة مرضه خلال السنوات الإحدى عشرة الماضية - فترات طويلة يقضيها فى المشفى، واستعداده للخضوع لمحاولات العلاج بأدوية جديدة، ورفضه تقبل الهزيمة - حتى إننى بدأت أظنه لا ينهزم. وفى العام الماضى وبمحض الصدفة قابلت طبيب إدوارد سعيد فى نيويورك. وعندما سألته عن سر انتصار إدوارد على المرض حتى الآن أجابنى قائلاً: إنه ما من تفسير طبى لذلك. كانت عزيمة المقاتل التى لا تقهر ورغبته فى الحياة هى ما أبقاه على قيد الحياة طوال تلك المدة. كان سعيد يسافر فى كل مكان، وكان دائمًا يلقى محاضرات عن فلسطين، ولكنه كان يبرز دومًا قدرة الثقافات الثلاث، التى كان يؤمن بأوجه التشابه الكثيرة بينهم، على الامتزاج والتعايش. كان المرض الشرس يلتهمه من الداخل، ولكن لم يكن بمقدور الجمهور الذى يأتى ليسمعه أن يرى ما يحدث. أما نحن الذين كنا نعرف فقد كنا نفضل نسيان الأمر؛ لذا فعندما أودى السرطان اللعين بحياته فى النهاية، كانت صدمتنا هائلة.

يأتى خلاف سعيد مع المؤسسات السياسية والثقافية فى الغرب وفى المجال الرسمى فى العالم العربى من أهم علامات مشوار حياته. فقد غيرت حرب الأيام السبعة فى عام ١٩٦٧ حياته؛ حيث لم يكن ملتزمًا سياسيًا قبلها. كان أبوه فلسطينيًا مسيحيًا هاجر إلى الولايات المتحدة فى عام ١٩١١ وهو فى سن السادسة عشرة حتى يتجنب تجنيده من قبل الإمبراطورية العثمانية للاشتراك فى الحرب فى بلغاريا. وعندما حصل على الجنسية الأمريكية وجد نفسه يخدم فى الجيش الأمريكى فى فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية بدلاً من ذلك، ثم عاد إلى القدس فى عام ١٩٣٥ لم يكن سعيد يحاول التظاهر بالانتماء لجموع اللاجئين الفلسطينيين الفقراء المعوزين كما يتهمه بعضهم. انتقلت الأسرة إلى القاهرة؛ حيث أقام وديع سعيد مشروعًا لبيع الأدوات المكتبية وأدخل إدوارد مدرسة إنجليزية رفيعة المستوى. أمضى إدوارد فترة المراهقة وحيداً يهيمن عليه الأب الفيكتورى الذى كان يرى أن الصبى يحتاج للتقويم المستمر وأن عليه أن يمضى يومه بعد العودة من المدرسة دون رفاق. هنا بدأ ولع الصبى بقراءة روايات – ديفو، وسكوت، وكيبلينج، وديكينز، ومان. كان اسمه إدوارد تيمنًا بأمير ويلز، وعلى الرغم من حب أبيه للملكية فقد أرسله فى عام ١٩٥١ إلى الولايات المتحدة لإكمال تعليمه وليس إلى بريطانيا. كتب سعيد لاحقًا عن كرهه لمدرسته الداخلية فى نيو إنجلاند "بتشددها ونفاقها". كانت المدرسة تمثل له "الصدمة والتشتت". وكان سعيد حتى تلك اللحظة يعتقد أنه يعرف تمامًا من هو، "بعثراته الأخلاقية والجسدية" وكل شىء. ولكن كان عليه فى الولايات المتحدة أن يعيد صياغة ذاته "ليصبح شيئًا يتطلبه النظام هناك".

وعلى الرغم من كل تحفظاته فقد تفوق سعيد فى أجواء الجامعات المتميزة فى أمريكا، فالتحق فى البداية برينستون ثم بهارفارد؛ حيث كان له الحظ فى أن يدرس الأدب المقارن فى المدرسة الألمانية الفيلولوجية كما يذكر لاحقًا. بدأ سعيد التدريس فى جامعة كولمبيا فى عام ١٩٦٣، وأصدر كتابه الأول عن جوزيف كونراد بعد ثلاثة أعوام. وعندما أجريت معه مقابلة تليفزيونية للقناة الرابعة فى نيويورك فى عام ١٩٩٤ سألته عن تلك الفترة المبكرة من حياته التى قضاها فى كولمبيا بين عامى ١٩٦٣ و١٩٦٧، التى كان يمكن تسميتها "مرحلة دوريان جراى"، أجابنى قائلاً:

ط ع: إذًا كان أحدكما هو أستاذ الأدب المقارن الذى يقوم بعمله ويلقى المحاضرات ويعمل مع تريلينج والآخرين، وفى الوقت ذاته كانت هناك شخصية ثانية تتشكل داخلك فى الوقت ذاته – ولكنك أبقيت الاثنتين منفصلتين؟

إ س: كان لزامًا علىّ أن أفعل ذلك. لم يكن هناك مكان آخر لتواجد الشخصية الأخرى. كنت قد أنهيت علاقتى بمصر، ولم يعد لفلسطين وجود. وكانت أسرتى موزعة بين مصر ولبنان وكنت أجدنى أجنبيًا فى كلا المكانين. لم أكن مهتمًا بتجارة العائلة ولهذا انتهى بى الحال هنا. لم أكن حتى عام ١٩٦٧ أعتبر نفسى سوى شخص يؤدى عملاً ما. وقد اكتسبت بعض الأشياء خلال مسيرتى. كنت مشغولاً بفكرة أن الكثير ممن كنت أعتبرهم أبطالاً ثقافيين؛ مثل إدمند ويلسون وإسايا برلين وراينهولد نيبور كانوا صهيونيين متشددين. لم يكونوا فقط مساندين لإسرائيل؛ بل كانوا يقولون أفظع الأشياء عن العرب فى كتاباتهم. لم يكن فى استطاعتى ألاّ أن ألحظ ذلك. ولو نظرنا للاعتبارات السياسية

فلم يكن لى مكان أذهب إليه. كنت فى نيويورك عند اندلاع حرب ١٩٦٧ وأصابتنى الأنباء بانهيار تام. انتهى العالم الذى كنت أعرفه وأفهمه فى تلك اللحظة. كنت قد أمضيت سنين فى الولايات المتحدة، ولكننى لم أبدأ فى التعرف على عرب آخرين سوى فى تلك الفترة. وبحلول عام ١٩٧٠ وجدتنى منغمسًا تمامًا فى السياسة(٣٥).

جاءت بعض أعماله نتاجًا لتلك القطيعة التى يصفها هنا. وأشير هنا بشكل خاص إلى كتابه البدايات (1975) (Beginnings) الذى يقدم تناولاً ملحميًا لمشكلات تطرحها فكرة "نقطة الانطلاق"، مستخدمًا جمعية دياليكتية من أفكار آورباخ وفيكو وفرويد، مصحوبة بقراءات جديدة للرواية الحداثية، كما تظهر كذلك فى كتابه الاستشراق. (Orientalism) صدر الاستشراق فى عام ١٩٧٨ وكان سعيد وقتها عضواً فى المجلس الوطنى الفلسطينى فنجده يمزج بين الحماس والجدل لدى الناشط السياسى والشغف الشديد لدى الناقد الثقافى. ولا يحاول الكتاب توخى التوازن مثله فى ذلك مثل سائر الكتب الجدالية العظيمة. قلت له ذات مرة: إن مشكلة الكثيرين من جوب آسيا مع المدرسة الاستشراقية البريطانية المبكرة لم تكن تكمن فى أيديولوجيتها الاستعمارية، ولكن على العكس فى حرصها على توخى اللياقة الذى يظهر على سبيل المثال فى انبهار هذه المدرسة بالنصوص السانكريستية التى كانت تعكف على ترجمتها. هنا ضحك سعيد مؤكدًا أن الكتاب فى الأساس محاولة لمجابهة افتراضات الغرب التأسيسية فيما يتعلق بعرب الشرق. أدى "الخطاب" المنتج عن الشرق - كان لفوكو وياللأسف تأثير كبير على سعيد - الذى تمت صياغته فى فرنسا وبريطانيا خلال

(٣٥) هذا الاقتباس والاقتباسات التى تليه مأخوذة من فيلم أنتجته شركة باندونج بعنوان: محادثة مع إدوارد سعيد. (A Conversation with Edward Said) تم تسجيل البرنامج فى شقة إدوارد فى حى ريفارسايد درايف، وكان يومًا شديد الرطوبة جعله يخلع سترته ورباط عنقه بعد أن دارت الكاميرات- الأمر الذى بعث الكثير من المرح والغبطة فى أرجاء المنزل.

القرنين اللذين تليا غزو نابليون لمصر، دورًا محوريًا مزدوجًا: كأداة من أدوات الحكم وأداة لفرض هوية ثقافية أوروبية على المنطقة بتمييز تلك الهوية عن العالم العربى[(٣٦)]. ولهذا فقد كان سعيد مهتمًا على وجه الخصوص بعمليات إضفاء الطابع الخيالى الجاذب على الشرق الأوسط وحضارته، وتصويره بطريقة سوقية مشوهة. يصوغ الاستعمار أحكامًا مسبقة، ثم يقدمها فى صورة حقائق عامة، مما يمثل كذبة كبيرة مستقاة من ملاحظات مجتزئة ونفعية كانت تستخدم فى خدمة مشروع الهيمنة الغربى.

أسس كتاب الاستشراق لتيار أكاديمى قوى. وبينما كان سعيد يشعر بالتأكيد بالفخر جراء نجاح كتابه، كان كذلك يدرك أن الكتاب أسىء استخدامه، بل كان يعلن كثيرًا عن عدم مسئوليته عن الجيل المتوحش من الأفكار التى استولدها الكتاب. "كيف لأحد أن يتهمنى بخيانة "رجال بيض متوفين"؟ الكل يعرف حبى لكونراد". ثم يشرع فى سرد قائمة بأسماء نقاد ما بعد الحداثة مهاجمًا كل بدوره على إعلائهم فكرة الهوية وعدائهم تجاه السرد. طلبت منه ذات مرة أن يكتب كل هذا فرد على قائلاً: "لم لا تكتبه أنت؟" أما ما قاله أمام الكاميرا فكان أكثر تحفظًا:

ط ع: جعلتك حرب ١٩٦٧ أكثر راديكالية، ودفعتك فى اتجاه أن تصبح مناضلاً فلسطينيًا؟

إ س: بل عربيًا، قبل أن أكون فلسطينيًا.

ط ع: وماذا عن الاستشراق، هل أتى نتيجة هذا الالتزام الجديد؟

إ س: قرأت ما كان يكتب عن الشرق الأوسط بشكل منهجى فلم أجده ينطبق على تجربتى. ومع مطلع السبعينيات بدأت أدرك

---

(٣٦) وهكذا فقد ذكر لورد كرومر المندوب السامى البريطانى فى مصر طيلة ربع قرن من الزمان فى الفترة التى تلت ١٨٨١ أن: "الأوروبى مجادل دقيق، يخلو عرضه للحقائق من أى التباس. هو منطقى بالبديهة... أما عقل الشرقى فمثله مثل شوارعه الأخاذة، ينقصه الكثير من التوازن... وعادة ما نجده ينهار تحت ضغط أى عملية تحقيق بسيطة". .Orientalism, London: Penguin Classics, 2003, p

أن التشوية وإساءة النقل كانا متعمدين، وكانا جزءًا من منظومة فكرية أوسع تشكل مشروع الغرب فى التعامل مع العالم العربى. هنا تأكدت لى فكرة أن دراسة الأدب هى فى الأساس مهمة تاريخية، وليست مجرد مهمة جمالية. ما زلت أؤمن بدور الجانب الجمالى، ولكنى أرى خطأ فكرة "مملكة الأدب للأدب". يجب أن تنطلق أية عملية تحليل تاريخى جادة من فكرة أن الثقافة مشتبكة مع السياسة اشتباكًا لا فكاك منه. كنت مهتما بالأدب المعيارى الرسمى فى الغرب وبدأت قراءته ليس بوصفه الروائع التى يجب علينا تقديسها ولكن كأعمال ينبغى لنا لو أردنا فهمها وتقديرها أن نتناول كذلك محتواها التاريخى. ولكننى أرى كذلك أنه ليس بالإمكان فعل ذلك دون أن تكون معجبًا بتلك الأعمال، أو دون أن تكون للأعمال قيمة معينة لديك.

صدر كتاب الثقافة والاستعمار (Culture and Imperialism) فى عام ١٩٩٣، وكان يمثل امتدادًا للطرح الذى قدمه سعيد فى الاستشراق بتقديم وصف لنمط يتخطى أوروبا والشرق الأوسط للعلاقات بين الغرب الاستعمارى وأراضيه البعيدة. كتب سعيد الكتاب فى فترة سياسية مختلفة، فخرج ليواجه هجومًا أكثر شراسة مما تعرض له الاستشراق. كان هناك السجال الشهير مع إيرنيست جيلنر على صفحات ملحق التايمز الأدبى - وهو سجال لم يصل إلى حد الحرب واحتجاز الأسرى - كان جيلنر يرى فيه أنه كان يتعين على سعيد "أن يظهر على الأقل بعض العرفان" لدور الاستعمار كأداة لتحقيق الحداثة. وعندما حاول جيلنر فيما بعد تحقيق شكل من أشكال المصالحة لم يكن سعيد على استعداد للتسامح؛ لكى تكون الكراهية ذات تأثير، يجب أن تكون خالصة. كما تدين تدان، هكذا كان دأبه.

وها هو سعيد يرى الآن أن الحوار حول قضايا الثقافة قد انحسر أمام الأحداث التى تجرى فى فلسطين. وعندما سألته عما إذا كان عام ١٩١٧ يعنى أى شيء له، أجابنى دون تردد: "نعم، وعد بلفور". لكتابات سعيد عن فلسطين مذاق يختلف تماماً عن كل ما كتب، كتابات تتميز بالبساطة المشبعة بالحماس والتقديس. كانت تلك قضيته. ففى كتابيه نهاية عملية السلام (The End of the Peace Process) ولوم الضحية (Blaming the Victim) وعدة كتب أخرى، كما فى مقالاته فى صحف ومجلات الأهرام ونيوليفت ريفيو ولندن ريفيو أوف بووكس نجد الشعلة التى توهجت فى عام ١٩٦٧ لا تخبو ساعد إدوارد جيلاً كاملاً على فهم تاريخ فلسطين الحقيقى وكان هذا الموقع الذى شغله، بوصفه مؤرخًا حقيقيًا لشعبه ولأرضه المحتلة، السبب فى الاحترام والإعجاب الذين نالهما فى كافة أرجاء العالم. وقع الفلسطينيون بصورة غير مباشرة ضحايا لعملية الإبادة العرقية التى حدثت فى أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية، ولكننا لا نجد الكثير من القادة السياسيين فى الغرب يهتمون بذلك. كانت كتابات سعيد توخز ضمير الغرب الجمعى، ولم يكن الناس هناك يحبونه بناءً على لذلك.

ضد أوسلو

كان اثنان من أصدقاء سعيد اللذين كان يطلب مشورتهما دومًا - إبراهيم أبولغد وإقبال أحمد - قد توفيا بفارق أعوام قليلة عن بعضهما البعض (فى عامى ١٩٩٩ و٢٠٠١)، وكان إدوارد يفتقدهما بشدة. ومع ذلك لم يزده غيابهما سوى العزم على استكمال هجومه الأدبى ضد العدو. وعلى الرغم من أن سعيد كان قد قضى أربع عشرة سنة عضواً فى المجلس الوطنى الفلسطينى وساعد فى تنقيح خطاب عرفات الذى ألقاه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى عام ١٩٨٤، فإنه قد بدأ سعيد يعبر عن انتقاده غياب الرؤية الإستراتيجية التى تتميز به معظم القيادات الفلسطينية. وفى أعقاب ما أسماه "عرض الأزياء السوقى" الذى تضمن المصافحة الشهيرة بين عرفات ورابين فى حديقة البيت الأبيض، كتب سعيد واصفًا اتفاق أوسلو - الذى

فرضته الولايات المتحدة وإسرائيل على الجانب المهزوم عقب انتهاء حرب الخليج فى عام ١٩٩١- بأنه "أداة لتحقيق الاستسلام، وكأنه المقابل الفلسطينى لمعاهدة فرساى"؛ إذ لا يمنح سوى مناطق مهيضة مقابل سلسلة من التنازلات التاريخية. وفى الوقت ذاته لم يكن من سبب يدعو إسرائيل للتخلى عما تريد ما دام أن واشنطن تمدها بالأسلحة والتمويل[٣٧]. (وقد جاء رد نبيل شعث مساعد عرفات على سعيد يشبه ترديداً لبعض ما قاله الرجعيون ممن انتقدوا كتاب الاستشراق قائلاً: "عليه الاكتفاء بممارسة النقد الأدبى. فعرفات لن يتنازل ليناقش شكسبير على أية حال"). وقد أثبت التاريخ صحة تحليل سعيد الذى كتب فى إحدى المقالات التى نشرتها مجلة نيو ليفت ريفيو وصحيفة الأهرام فى عام ٢٠٠١ موجهًا هجومًا حادًا على القيادة الفلسطينية برئاسة عرفات، ومعلنًا رفضه لاتفاق أوسلو وناعتًا إياه بأنه مجرد إعادة تغليف للاحتلال: "يمنح الاتفاق ١٨٪ من الأراضى التى احتلت فى عام ١٩٦٧ لإدارة عرفات الفاسدة التى كانت منوطة فى الأساس بمراقبة الشعب وفرض الضرائب عليه بالنيابة عن إسرائيل":

> **يستحق الفلسطينيون ما هو أفضل من ذلك. وعلينا القول بوضوح: إنه ما من أمل مع وجود عرفات ورهطه فى موقع القيادة... يحتاج الفلسطينيون زعماء من الشعب يقفون فى صف الشعب، زعماء ممن يقودون المقاومة على الأرض، وليس الموظفون البدناء الذين يدخنون السيجار مشغولين برعاية صفقاتهم التجارية وتجديد بطاقات مرورهم التى لا تمنح سوى للشخصيات الكبرى، هؤلاء الذين فقدوا كل صفات التهذيب والمصداقية... نحتاج إلى قيادة موحدة قادرة على التفكير والتخطيط واتخاذ القرارات بدلاً من اللهاث وراء البابا أو جورج بوش فيما يقتل الإسرائيليون الشعب دون محاسبة... إن**

(37) London Review of Books, 21 October 1993.

الصراع من أجل التحرر من الاحتلال الإسرائيلى هو الهدف الذى يقف خلفه الآن كل فلسطينى حكيم[٣٨].

هل يمكن أن تقدم حماس بعض البدائل؟ أجابنى سعيد قائلاً: "إنها حركة احتجاج ضد الاحتلال":

فى رأيى أن ما يرونه حول فكرة الدولة الإسلامية ما هو إلا تصور غير مكتمل، لا يمكن أن يقنع أحداً ممن يعيشون هناك. لا أحد يأخذ هذا الجانب من مشروعهم بجدية. وعندما تسألهم كما فعلت أنا حينما كنت فى الضفة الغربية وفى أماكن أخرى: ما ملامح سياساتكم الاقتصادية؟ ماذا تخططون فيما يتعلق بمحطات الطاقة، أو الإسكان؟" يجيبونك: "نحن نفكر فى هذا". ليس هناك برنامج اجتماعى يمكن أن تصنفه على أنه "إسلامى". انظر إلى حماس بوصفها نتاجاً للظروف الراهنة، تأخذ الإسلام كذريعة للاحتجاج على الوضع الراكد الحالى وعلى بلاهة الحزب الحاكم وإفلاسه. إن السلطة الفلسطينية قد أصابها عطب كبير وتفتقد المصداقية – مجرد دولة تخدم أهداف الولايات المتحدة مثل السعودية ومصر.

وقد كان سعيد يرى "الأمل فى نشوب ما يشبه حرباً أهلية فلسطينية الذى يلمع فى أعين المؤسسة العسكرية الإسرائيلية" يقف خلف مطالب إسرائيل المستمرة للسلطة بقمع حماس ومنظمة الجهاد الإسلامى. وعلى الرغم من ذلك فإنه قد كان بمقدور سعيد حتى الأشهر الأخيرة فى حياته الاحتفاء بعناد الفلسطينيين ورفضهم القبول بأنهم

(٣٨) "شعب بحاجة إلى قيادة" A People in Need of Leadership", New Left Review 2: 11, September-October 2001.

"شعب مهزوم" كما وصفهم رئيس أران سلاح الطيران الإسرائيلى، وكان يستشعر فى المبادرة الوطنية الفلسطينية بقيادة مصطفى برغوتى إمكانيات جديدة لصياغة سياسة فلسطينية مختلفة: "لا يتبنى هؤلاء الاقتراح الجاهز والمستهلك بإقامة دولة على ٤٠٪ من التراب مع إسقاط قضية اللاجئين وبقاء القدس تحت سيطرة إسرائيل، ولكنهم يتحدثون عن منطقة ذات سيادة متحررة من الاحتلال العسكرى تتشكل جراء حراك جمعى يضم على قدر الإمكان العرب واليهود"(٣٩).

فقد الوطن الفلسطينى بموت إدوارد سعيد واحدًا من أبلغ الأصوات التى تحدثت عنه فى شمال الكرة الأرضية، وهو الجزء من العالم الذى يستمر فيه تجاهل الفلسطينيين، هؤلاء الذين يعتبرهم المسئولون الإسرائيليون أدنى من البشر، ويعتبرهم المسئولون الأمريكيون إرهابيين، وتعتبرهم الأنظمة العربية الفاسدة مصدرًا مستمرًا للإحراج. شن سعيد فى كتاباته الأخيرة هجومًا حادًا على الحرب على العراق وعلى مسانديها. كان يدعم الحرية فى وجه العنف والكذب، وكان يعلم أن الاحتلال المزدوج لفلسطين والعراق سوف يجعل فكرة السلام تبتعد أكثر. إدوارد سعيد صوت لا يعوّض ولكن التراث الذى خلفه سوف تستمر. سوف يعيش إدوارد سعيد حيوات أخرى عديدة بعد موته.

نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٣

(39) London Review of Books, 19 June 2003.

٢٩

ف. ج كيرنان

كان فيكتور كيرنان أستاذ التاريخ الحديث المتقاعد فى جامعة إدنبره الذى توفى فى السابع عشر من فبراير/شباط مؤرخًا غزيرًا واسع المعرفة، وكانت رقعة اهتماماته الواسعة تشمل قارات العالم أجمع. كان كيرنان يقسم ولعه بالتساوى بين التاريخ والسياسة الراديكالية واللغات الكلاسيكية والأدب العالمى. وقد بدأ اهتمامه باللغات منذ أن كان طفلاً يعيش مع أبويه فى مانشستر. كان أبوه يعمل مترجمًا للغتين الإسبانية والبرتغالية لدى شركة مانشستر للشحن؛ ولذا فقد اكتسب فيكتور الصغير هاتين اللغتين حتى قبل حصوله على منحة دراسية للالتحاق بمدرسة مانشستر الثانوية التى تعلم فيها اللغتين اللاتينية واليونانية القديمة. كان هوراس شاعره المفضل، وقد ألف كتابًا فى وقت متأخر من حياته عن الشاعر الذى أحبه فى فترة صباه. التحق فيكتور بكلية ترينيتى فى جامعة كمبريدج؛ حيث درس التاريخ واستوعب النزعة المادية للفاشية التى كانت سائدة فى هذا الوقت، ثم التحق، مثل الكثيرين، بالحزب الشيوعى البريطانى.

وبعكس الكثيرين من زملائه المرموقين ضمن جماعة المؤرخين داخل الحزب الشيوعى التى تأسست فى عام ١٩٤٦ (مثل إيريك هوبسباوم وكريستوفر هيل ورودنى هيلتون وإدوارد ثومبسون) جاءت معظم كتابات كيرنان تتناول بلدانًا وثقافات تبعد كثيرًا عن بريطانيا وأوروبا. ويمكننا التعرف سريعًا على الرجل من الفقرات التى افتتح بها مقالاً يدور حول المَلكية نشر فى مجلة نيو لفت ريفيو فى عام ١٩٨٩:

فى عام ١٠١١ تهاوى عرش عتيد فى الصين، كما ألقت الهند بالأمراء ونواب الإمبراطور فى سلة المهملات بمجرد أن حققت استقلالها فى عام ١٩٤٧ . وها هو أسد يهوذا يتوقف أخيرًا عن الزئير فى إثيوبيا. لا يزال النظام الملكى قائمًا فى مناطق نائية فى آسيا، ولكننا نراه أكثر وضوحًا فى اليابان وبريطانيا. تسود فى آسيا تقاليد توريث القداسة من جيل إلى جيل بل وتضمن دخولاً معقولة لعائلات الرجال ذوى القداسة. ويمكننا ملاحظة أن للملكية التوارثية فى أوروبا ملامح دينية مماثلة. نلمح فى الحالتين اعتقادًا خفيًا بوجود قوى حيوية تصل الأجيال ببعضها فى سلسلة لا نهائية، وأن مشاعر جد بدائية يمكن أن تتوارى خلف الملابس المتحضرة.

وقد ساعدت الأفكار المستمدة من السحر القديم ملوك أوروبا "المستبدين" فى إقناع دافعى الضرائب بأن مصلحة دولة بأكملها، بل ووجودها ذاته، متعلق بحاكمها المرسل من لدن الله. كان الأباطرة المغول يطلون على رعيتهم كل يوم من شرفات قصورهم، حتى يروهم ويطمئنوا أن كل شىء على ما يرام. وكان أمراء قبائل الراجبوت فى الهند يخرجون يوميًا فى مواطنهم ويسيرون وسط عواصم دولهم الصغيرة؛ لتحقيق الغرض نفسه. وقد اختفت أية علاقة عملية بين التاج وإحساس الشعب بالاطمئنان منذ ذلك الوقت. ولكن يبقى وجود العائلة المالكة فى بريطانيا يقنع الناس من دون وعيى أن الأمور سوف تكون على ما يرام... قد تكون هناك جذور عتيقة لما نعيشه اليوم، ولكننا نجد على الناحية الأخرى أن التحف القديمة تكون غالبًا مزيفة. واليوم نجد الشعور نحو الملكية فى بريطانيا يتجلى فى صورة سلعة مصطنعة.

كان كيرنان يعرف الهند معرفة وثيقة، فقد عاش هناك من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٤٦ يدعم اتصالاته وينظم حلقات دراسية بالتعاون مع شيوعيين من هناك، ويدرس فى كلية آيتشيسون (التى كانت تسمى كلية تشيفز) وهى مؤسسة تأسست لتعليم الهنود من طبقة النبلاء على النمط الذى اقترحه اللورد ماكولى. لم تصل إلينا قط أنباء عن كيف تعامل الطلاب (البائسون ذوى العقول المتحجرة) مع فيكتور ولكننا نعرف أن واحداً أو اثنين من النابهين بينهم اعتنق الأفكار التقدمية فيما بعد. ومن اللطيف أن نعتبره مسئولاً عن ذلك التحول؛ إذ لا يمكننى تخيل أن هناك شخصاً آخر أحدث هذا التغير. وقد علمته تجربته فى الهند الكثير عن الاستعمار، مما جعله يعكف على دراسة جذور الإمبراطورية الأمريكية وتطورها واستعمار الإسبان لأمريكا الجنوبية إلى جانب إمبراطوريات أوروبية أخرى، فى سلسلة من الكتب الأكاديمية المكتوبة بإحكام.

كان كيرنان فى ذلك الوقت يتحدث الفارسية والأردية بطلاقة كما كان قد قابل فى شبابه العلامة محمد إقبال وفايز أحمد فايز، وهما اثنان من أعظم الشعراء الذين أنجبهم شمال الهند. وقد قام كيرنان بترجمة أعمالهما إلى الإنجليزية، وهو ما ساعد كثيراً فى توسيع قاعدة قرائهما فى وقت كانت اللغات الاستعمارية هى السائدة. ولم يلتفت الكثيرون إلى دراسات كيرنان عن شكسبير، ولكن تلك التحليلات لو وضعت ضمن مناهج الدراسة لساعدت كثيراً فى معادلة عملية التحنيط الأدبى التى يتعرض لها شكسبير فى الأوساط الأدبية الرسمية.

تزوج كيرنان بالراقصة والناشطة شانتا غاندى فى عام ١٩٣٨ فى بومباى لكنهما انفصلا قبل مغادرته الهند فى عام ١٩٤٦ . ثم تزوج هيثير ماسى بعد حوالى أربعين عاماً. وقد اعترف لى عندما قابلته بعدها أنها أعادت تجديد فكره، وهو ما عكسته كتاباته. كان كيرنان طوال حياته معتنقاً عنيداً لأفكار

مــاركس، ولكن دون تصلب أو عناد. لم يكن ينجـذب لأحــدث الصـيـحـات الفكرية وكـان يزدرى مـوجـة مـا بعـد الحداثة التى عصفت بالفكر الأكاديمى خلال الثمانينيات والتسعينيات التى نبذت التاريخ واحتضنت التفاهات. وفى عام ١٩٩٠ كتب كيرنان مقالة بعنوان: "الرأسمالية الحديثة ورعاتها" (Capitalism and Its Shepherds) نشرت فى مجلة نيو ليفت ريفيو شن فيها هجومًا حادًا على الأفكار السائدة المزهوة بانتـصـارات الرأسـمـاليـة والمتغنية بفضائلها:

طالما كان رأس مال التاجر ورأس مال المرابى حاضرين فى كل مكان، لكنهما لم يغيرا العالم تغييرًا قطعيًا. كان رأس المال الصناعى هو الذى أدى إلى التغيير الثورى كما كان الطريق المؤدى إلى تطور التقنية العلمية التى غيرت وجه الزراعة والصناعة والمجتمع والاقتصاد على حد سواء. كانت إرهاصات الرأسمالية الصناعية تظهر هنا وهناك قبيل قدوم القرن التاسع عشر، ولكنها ومن الواضح قد نُبذت مثل نبتة غريبة؛ لأنها كانت تبدو غير مألوفة بشكل لا يمكنها من الاستمرار والانتشار. كانت تلك الإرهاصات - مثل مسخ غريب فى مسار الإنسانية - تحولا مفاجئًا، وكان تعزيزها يحتاج إلى قوى من خارج الحياة الاقتصادية؛ حيث كان توليد روح المغامرة الاستثمارية وتعزيزها يتطلب ظروفًا شديدة الاستثنائية والتعقيد. بينما كانت هناك دائمًا وسائل أيسر بكثير لكسب الأموال من الاستثمار الصناعى طويل الأجل والتحدى المتمثل فى إدارة المصانع. كان جاى بى

مورجان يفضل الجلوس فى أحد الصالونات الخلفية فى بورصة وول ستريت يدخن السيجار ويلعب لعبة سوليتير بينما تتدفق عليه الأموال. أما الإنجليز، الذين كانوا أول من اكتشف المسار الصناعى، فسرعان ما هجروه مهرعين إلى صالونات مماثلة فى المدينة، أو منقبين عن طرق جانبية أو مختصرة أو ثروات استعمارية.

لم يكن كيرنان سيندهش من الأزمة الحالية ألبتة. أكاد أسمعه يقولها: ليس ثمة مستقبل أمام رأس المال الخيالى.

فبراير/ شباط ٢٠٠٩

المؤلف فى سطور:

طارق على

ناقد وكاتب صحفى وروائى وكاتب سيناريو بريطانى من أصل باكستانى. ولد فى مدينة لاهور فى عام ١٩٤٣ .

يشتهر باتجاهاته اليسارية الماركسية وبمواقفه السياسية المعارضة للحروب التوسعية التى تشنها الإمبراطوريات الجديدة مثل الولايات المتحدة، كحرب فيتنام وحرب الخليج. كما يشتهر بمعاداته للنظام الملكى فى بريطانيا وفى بقاع أخرى من العالم. ويُعرف أيضا كذلك بمعاداته اللدودة للسياسات الرأسمالية التى تنتهجها القوى السياسية العالمية العظمى، ويرى أن الرأسمالية والدكتاتورية وجهان لعملة واحدة.

يكتب بانتظام لمجلات ودوريات شهيرة مثل نيو لفت ريفيو (التى يرأس تحريرها) ولندن ريفيو أوف بوكس وجارديان وكاونتر بانش، كما يعمل مع إذاعة وتليفزيون بى بى سى.

له عدة مؤلفات فى السياسة والثقافة والنقد الأدبى؛ منها: باكستان: حكم عسكرى، أم إرادة الشعب (Pakistan: Military Rule or People's Power) (1970)، وتروتسكى للمبتدئين (Trotsky for Beginners) (1980)، والغفران (Redemption) (1990)، وسادة العالم: حملات الناتو فى البلقان (Masters of the Universe: NATO's Balkan Crusades) (2000)، وبوش فى بابل (Bush in Babylon)(2003)، والاغتيال: من قتل إنديرا غ؟ (Assassination: Who Killed Indira G?) (2008)، وأعراض أوباما: الاستسلام فى الداخل والحرب فى الخارج The Obama Syndrome: Surrender at Home, War Abroad)(2010). كما كتب عدة أعمال روائية؛ منها: خماسية الإسلام (Islam Quintet) (1992-2010). ، وثلاثية سقوط الشيوعية كما شارك كذلك فى إنتاج وكتابة سيناريوهات بعض الأفلام الروائية والوثائقية؛ منها: الفهد والأسد (The Leopard and the Fox) (1985)، وجنوب الحدود (South of the Borders) (2009).

المترجمة فى سطور:

رندة أبو بكر

أستاذة الأدب الإنجليزى والمقارن فى كلية الآداب - جامعة القاهرة، ومؤسسة ومنسقة ملتقى دراسات الثقافة الدارجة بالقاهرة.

لها عدة مؤلفات أكاديمية منشورة فى مجالات الأدب الإنجليزى والمقارن، والشعر الإنجليزى الحديث، والأدب الأفريقى، ودراسات الترجمة والدراسات الثقافية؛ منها: صراع الأصوات فى شعر دينيس بروتس ومحمود درويش (٢٠٠٤)، (The Conflict of Voices in the Poetry of Dennis Brutus and Mahnud Darwish)، والسجين السياسى كبطل نقيض: دراسة فى شعر السجن عند ولى سوينكا وأحمد فؤاد نجم (٢٠٠٩) The Political Prisoner as Antihero: The Prison Poetry of Wole Soyinka and Ahamed Fuad Nigm)، و"دور وسائل الاتصال الجديدة فى ثورة يناير ٢٠١١ فى مصر: الصورة كأداة للتغيير" The Role of the Image in the Egyptian Revolution of 2011: Visuality as an Agent of Change").

لها كذلك عدة ترجمات منشورة؛ منها الشعر الإفريقى المعاصر: مختارات ودراسات. (ترجمة) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ونادى البهجة والحظ (ترجمة لرواية إيمى تان (2006) (The Joy Luck Club)، والنسوية والدراسات الدينية (مقالات مختارة). مؤسسة المرأة والذاكرة بالقاهرة (٢٠١٠).

عملت محاضرة فى جامعات: الحرة ببرلين، وكراكوف ببولندا.

التصحيح اللغوى: نعـيـمـة عـاشـور

الإشـراف الفنـى: حـسـن كـامـل